النظم الفني في القرآن

تأليف

عبد المتعال الصعيدي

الأستاذ بكلية اللغة العربية من كليات الجامع الأزهر

ملتزم الطبع والنشر

مكتبة الآداب ومطبعتها بالجماميز ت ٩١٨٦٧١

المطبعة النموذجية

٦ سكة الشابوري بالحلمية الجديدة ت ٩١٩٣٧٧

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى جعل القرآن معجزة النبى صلى الله عليه وسلم ، فأظهر من بلاغته ما أعجز فحول البلغاء ، ومن حسن نظمه ما حار فيه عقول الأذكياء ، وخفى سره فلم يدركه إلا من استنار قلبه ،وصَفَتْ بصيرته .

وبعد — فإن القرآن نزل مُفرَّقاً فى ثلاث وعشرين سنة ، ولم يجىء ترتيبه الذى نقرؤه على ترتيب نزوله فى تلك المدة ، لأن الآية قد تكون تِلْوَ الآية وبين نزولهما عدة شهور أو سنين ، وقد كان هذا سبباً فى صعوبة إدراك ما بين آياته من اتصال ، وما فى نظمه من ارتباط ، حتى زعم بعض علماء أوربا مثل دوزى وكارليل أن هذا عيب يؤخذ على القرآن ، لأنه جاء فى ترتيبه مخالفاً للكتب الوضعية ، فليس له مقدمة مثلها ، ولا مباحث مرتبة ذات مقاصد محدودة فى فصول معدودة كمباحثها ، وإنما هو آيات مجتمعة ذات مقاصد مختلفة ، آية وعظ تتلوها آية جهاد تتبعها آية فقه بعدها قصة رسول ، إلى غير هذا مما لا يجرى على قاعدة الكتابة المألوفة ، ولا يوافق نظام التأليف المعروف .

وقد أجاب الأستاذ محمد فريد وجدى عن هذا فى مقدمة تفسيره بأنه لا شىء فى عدم مراعاة القرآن قاعدة الكتابة البشرية ، لأنه لو كان على مثال الكتب الوضعية فى الترتيب والتبويب لكان كتابا وضعياً لاسماويا . فالترتيب يقتصر سلطانه على الكلام البشرى ، ويَجِلُّ عنه كلام الله كما يجل البحر عن أن يحدّ بما تحدُّ به الجداول .

ولا يخفى أن هذا جواب خطابى لا يقنع طلاب اليقين ، وهو فى الحقيقة تسليم للاعتراض لا جواب عنه ، والحق أن القرآن لم يخل من الترتيب الذى ذكر الأستاذ أنه يَجِلُّ عنه ، لأنه نزل مُفرَّقاً فى المدة السابقة ، ثم رُتِّب على هذا الشكل الذى

نقرؤه ، وله فاتحة كمقدمة الكتب ، وهى سورة الفاتحة المذكورة فى أوله ، وله سُوَرٌ كأبواب الكتب ، ولو لم يكن ترتيب القرآن على خلاف أزمنة نزوله لأجل وضع الآية بجانب ما يناسبها من الآيات ، لكان العدول عن ترتيبه على أزمنة نزوله إلى هذا الترتيب خالياً عن الحكمة ، وهذا محال على الله تعالى .

وإنه لَجِدٌّ خطير أن نسلم لأولئك الزاعمين أن القرآن لا ترتيب فيه ، ولا اتصال بين آياته ، ولا ارتباط بين أجزائه ، لأنهم يطعنون به على القرآن أنه سيء الترتيب ، مُفَكَّكُ الأجزاء ، مُشتَّتُ المعانى والأغراض ، ولا يقنعهم أن نقول إن الترتيب يحسن فى كلام البشر ولا يحسن فى كلام الله تعالى ، لأن الترتيب مطلوب فى كل كلام بليغ ، وحسنه فى كل كلام من البداهة بمكان .

ولقد عُنِيَ المتقدمون بتقسيم السور القرآنية إلى أرباع وأجزاء متساوية تقريباً فى عدد الآيات ، تسهيلا للتلاوة والحفظ ، ولم يُعْنَوْا بجمع الآيات الواردة فى غرض واحد تحت اسم يجمعها ، وتندرج به فى السورة كما تندرج الفصول فى أبواب الكتاب ، ولو أنهم عُنُوا بهذا لأظهروا السور القرآنية أمام الناس متصلة الأجزاء ، واضحة الأغراض ، ولم يكن لدوزى وغيره أن يرميها بأنها مفككة الأجزاء ، غير محكمة النظم ، ولا واضحة الأغراض .

ولم يوجد من المفسرين من يعنى بهذا الأمر على الوجه اللائق به ، وغاية ما يفعله بعضهم أن يُعْنَى بإظهار المناسبة بين آية وآية ، فلا يأتى فى ذلك بالغرض المطلوب ، ولا ينظر فى كل سورة نظرة عامة يعرف بها الغرض المقصود منها ، ثم يقسمها إلى أقسام يدخل كل قسم منها تحت ذلك الغرض العام ، ولا يخرج عنه إلى أغراض أخرى لا تدخل فيه .

ولهذا وضعت كتابى (النظم الفنى فى القرآن) فى هذا الموضوع الخطير ، ليقوم بهذه الخدمة العظمى للقرآن الكريم ، مستعينا فى ذلك بهداية الله وتوفيقه ، ومستمدا من عونه وإرشاده .

تاريخ علم ارتباط الآيات

علم ارتباط الآيات علم عظيم من علوم القرآن، قال فيه القاضى أبو بكر ابن العربى [1] فى كتاب ـ سراج المريدين: ارتباط آى القرآن بعضها ببعض حتى تكون كالكلمة الواحدة، متسعة المعانى، منتظمة المبانى، علم عظيم لم يتعرض له إلا عالم واحد عمل فيه سورة البقرة، ثم فتح الله لنا فيه، فلما لم نجد له حملة، ورأينا الخلق بأوصاف البطلة، ختمنا عليه، وجعلناه بيننا وبين الله ورددناه إليه

وأول من تكلم فى هذا العلم ببغداد الشيخ أبو بكر النَّيْسابُورِىّ، وكان غزير العلم فى الشريعة والأدب، وكان يقول على الكرسى إذا قرىء عليه: لم جعلت هذه الآية إلى جنب هذه الآية؟ ولم جعلت هذه السورة إلى جنب هذه السورة؟ وكان يُزْرى على علماء بغداد لعدم علمهم بالمناسبة

وقد أفرده بالتأليف أبو جعفر أحمد بن الزُّبَيْر شيخ أبى حيَّان وكتابه فيه يسمى ـ البرهان فى ترتيب سور القرآن ـ وقد اقتصر فيه على ذكر المناسبات بين السور

ثم ألف فيه برهان الدين البِقاعِى [2] كتابه ـ نظم الدرر فى تناسب الآى والسور ـ وهو أشهر كتاب فى هذا العلم، وقد ذكر القاعدة التى جرى عليها فى ذلك فقال: قال شيخنا أبو الفضل محمد بن محمد المشدّالى المغربى: الأمر الكلى المفيد لعرفان مناسبات الآيات فى جميع القرآن هو أنك تنظر الغرض الذى سيقت له السورة، وتنظر مايحتاج إليه ذلك الغرض من المقدمات، وتنظر إلى مراتب تلك المقدمات فى القرب والبعد من المطلوب، وتنظر عند انجرار الكلام فى المقدمات إلى ماتستتبعه من استشراف نفس السامع إلى الأحكام واللوازم التابعة له التى تقتضى البلاغة شفاء الغليل بدفع عناء الاستشراف إلى الوقوف عليها، فهذا

---

(١) هو محمد بن عبد الله توفى سنة ٥٤٣ هـ

(٢) هو إبراهيم بن عمر توفى سنة ٨٨٥ هـ

هو الأمر الكلى المُهَيْمِنُ على حكم الربط بين جميع أجزاء القرآن ، فإذا فعلته تبين لك إن شاء الله تعالى وجه النظم مفصلا بين كل آية فى كل سورة

وقد أنكر بعض العلماء هذا العلم إنكارا شديدا ، ومنهم عز الدين بن عبد السلام (١) فقد قال فى كتابه الذى ألفه فى مجاز القرآن : إن من محاسن الكلام أن يرتبط بعضه ببعض ، ولكن يشترط ذلك إذا وقع الكلام فى أمر متحد أوله بآخره ، فإن وقع على أسباب مختلفة لم يقع فيه ارتباط ، ومن ربط ذلك فهو متكلف بما لا يقدر عليه إلا بربط ركيك يصان عن مثله حَسَنُ الحديث فضلا عن أحسنه، فإن القرآن نزل فى نَيِّفٍ وعشرين سنة فى أحكام مختلفة ، شرعت لأسباب مختلفة ، وما كان كذلك لا يتأتى ربط بعضه ببعض

وقد أجاب عن ذلك ولىّ الدين الملوى فقال : قدوهم من لا يطلب لِلآى الكريمة مناسبة ، لأنها على حسب الوقائع المتفرقة ، وفصل الخطاب أنها على حسب الوقائع تنزيلا ، وعلى حسب الحكمة ترتيبا

ترتيب الايات والسور

ترتيب الآيات فى سورها واقع بتوفيق النبى صلى الله عليه وسلم وأمره ، ولا خلاف فى هذا بين المسلمين ، فقد كان يُلَقِّنُ أصحابه ويعلمهم ما نزل عليه من القرآن على الترتيب الذى هو عليه الآن فى مصاحفنا ، وذلك بتوقيف جبْرِيلَ إياه على ذلك ، لأنه كان يبين له عند نزول كل آية أنها تكتب عقب آية كذا فى سورة كذا ، وما فعله الصحابة فى عهد أبى بكر وعثمان رضى الله عنهما كان فى جمعه فى موضع واحد لا فى ترتيبه ، لأنه كان قبل جمعهم لهُ مفرَّقاً فى العُسُبِ واللِّخافِ والرِّقاع وصدور الرجال ، وأحيانا فى الحرير وقطع الأديم والأكتاف (٢)

---

(١) هو عبد العزيز بن عبد السلام المتوفى سنة ٦٦٠ هـ

(٢) العسب جمع عسيب وهو جريدة من النخل مستقيمة دقيقة يكشط خوصها ، واللخاف جمع لخفة وهى حجارة بيض رقاق ، والأكتاف جمع كتف وهو عظم عريض خلف المنكب

وقد وردت نصوص كثيرة صريحة فى أن ترتيب الآيات كان بتوقيف من النبى صلى الله عليه وسلم ، ومن ذلك ما روى عن ابن عباس أنه قال : قلت لعثمان ما حملكم على أن عمدتم إلى الأنفال وهى من المَثَانِى [١] وإلى براءة وهى من المئين ، فقرنتم بينهما ولم تكتبوا بينهما سطر ـ بسم الله الرحمن الرحيم ـ ووضعتموهما فى السبع الطوال ؟ فقال عثمان : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم تنزل عليه السورة ذات العدد ، فكان إذا نزل عليه الشىء دعا بعض من كان يكتب ، فيقول ـ ضعوا هؤلاء الآيات فى السورة التى يذكر فيها كذا وكذا ـ وكانت الأنفال من أوائل ما نزل بالمدينة، وكانت براءة من آخر القرآن نزولا ، وكانت قصتها شبيهة بقصتها ، فظننت أنها منها، فقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يبين لنا أنها منها، فمن أجل ذلك قرنت بينهما، ولم أكتب بينهما سطر ـ بسم الله الرحمن الرحيم ـ ووضعتها فى السبع الطوال

وقد يشكل على ذلك ما روى عن الزُّبيْرِ بن العوَّام أن الحارث ابن خُزَيْمَةَ أتى بهاتين الآيتين من آخر سورة براءة (لقد جاءكم رسول ـ إلى آخر السورة) فقال : أشهد أنى سمعتهما من رسول الله صلى الله عليه وسلم ووعيتهما. فقال عمر: وأنا أشهد لقد سمعتهما ، ثم قال: لو كانت ثلاث آيات لجعلتها سورة على حدَةٍ ، فانظروا آخر سورة من القرآن فألحقوها فى آخرها . فظاهر هذا أنهم كانوا يؤلفون آيات السور باجتهادهم ، والجواب أن هذا يعارضه ما روى عن أُبَىِّ بن كعب أنهم جمعوا القرآن ، فلما انتهوا إلى الآية التى فى سورة براءة (ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم بأنهم قوم لا يفقهون) ظنوا أن هذا آخر ما أُنْزِلَ ، فقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أقرأنى بعد هذا آيتين (لقد جاءكم رسول ـ إلى آخر السورة) وهذا إلى سائر الأخبار التى تدل على أنهم لم يفعلوا شيئا من ذلك إلا بتوقيف .

وأما ترتيب السور فذهب بعض العلماء إلى أنه بتوقيف ، وذهب جمهور العلماء إلى أنه كان باجتهاد الصحابة، وقيل إن بعضه كان بتوقيف وبعضه كان باجتهاد وقد استدل على أنه كان اجتهاديا باختلاف مصاحف السلف فى ترتيب السور ، فمنهم من

(١) المثانى ما ولى المئين لأنها تتنها أى كانت بعدها فهى لها ثوان والمئون لها أوائل .

رتبها على النزول وهو على رضى الله عنه ، ومنهم من رتبها على غير ذلك مما سيأتى .

وعدد سور القرآن أربع عشرة ومائة سورة بإجماع من يعتد به , وقيل ثلاث عشرة ومائة ، بجعل الأنفال وبراءة سورة واحدة ، ويرده تسمية النبى صلى الله عليه وسلم كلا منهما ، وإنما لم تكن التسمية فى أول براءة لأن جبْريلَ لم ينزل بها فيها ؛ وقد روى عن ابن عباس أنه قال : سألت على أبى طالب لِمَ لمْ تكتب فى براءة — بسم الله الرحمن الرحيم ؟ فقال : لأنها أمان وبراءة نزلت بالسيف . وذلك هو عدد السور فى مصحف عثمان رضى الله عنه .

وعدد السور فى مصحف عبد الله بن مسعود رضى الله عنه اثنتا عشرة ومائة سورة ، لأنه لم يكتب المعوذتين ، وفى مصحف أُبَىّ بن كعب رضى الله عنه ست عشرة ومائة سورة ، لأنه كتب فى آخره سورتى الحفد والخلع ، وكان يقنت بهما فى صلاته ويكتبهما فى مصحفه ، وهما دعاء القنوت المعروف ، والصواب أن مصحف أبَىّ كان خمس عشرة ومائة سورة ، لأن سورة الفيل وسورة قريش فيه سورة واحدة ، وقد نقل الفخر الرازى (١) فى تفسيره عن طاووس (٢) وغيره من المفسرين أن سورة الضحى وسورة الشرح سورة واحدة .

(١) هو محمد بن عمر المعروف بابن الخطيب المتوفى سنة ٦٠٦ هـ

(٢) هو أبو عبد الرحمان طاووس بن كيسان المتوفى سنة ١٠٦ هـ

ترتيب مصحف عثمان

العدد	السور المكية	السور المدنية	تاريخ النزول
١	الفاتحة		نزلت بعد المدثر
٢		البقرة . إلا آية ١٨١ فنزلت بمنى فى حجة الوداع	بعد المطففين وهى أول سورة نزلت بالمدينة
٣		آل عمران	بعد الأنفال
٤		النساء	« الممتحنة
٥		المائدة . إلا آية ٣ فنزلت بعرفات فى حجة الوداع	« الفتح
٦	الأنعام. إلا الآيات ٢٠، ٢٣، ٩١، ٩٣، ١١٤، ١٤١، ١٥١، ١٥٢، ١٥٣ فمدنية		« الحجر
٧	الأعراف . إلا الآيات ١٦٣ — ١٧٠ فمدنية		« ص
٨		الأنفال . إلا الآيات ٣٠ إلى ٣٦ فمكية	« البقرة
٩		التوبة . إلا الآيتين الأخيرتين فمكيتان	« المائدة
١٠	يونس . إلا الآيات ٤٠، ٩٤، ٩٥، ٩٦ فمدنية		« الإسراء
١١	هود . إلا الآيات ١٢ ، ١٧، ١١٤ فمدنية		« يونس

تابع ترتيب مصحف عثمان

العدد	السور المكية	السور المدنية	تاريخ النزول
١٢	يوسف . إلا الآيات ١ ، ٢ ، ٣ ، ٧ فمدنية		بعد هود
١٣		الرعد	« محمد
١٤	إبراهيم إلا آيتى ٢٨ ، ٢٩ فمدنيتان		« نوح
١٥	الحجر . إلا آية ٨٧ فمدنية		« يوسف
١٦	النحل . إلا الثلاث الأخيرة		« الكهف
١٧	الإسراء . إلا الآيات ٢٦ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٥٧ والآيات ٧٣ - ٨٠ فمدنية		« القصص
١٨	الكهف . إلا آية ٢٨ والآيات ٨٣ - ١٠١ فمدنية		« الغاشية
١٩	مريم . إلا آيتى ٥٨ ، ٧١ فمدنيتان		« فاطر
٢٠	طه . إلا آيتى ١٣٠ ، ١٣١ فمدنيتان		« مريم
٢١	الأنبياء		« إبراهيم
٢٢		الحج . إلا الآيات ٥٢ - ٥٥ فبين مكة والمدينة	« النور
٢٣	المؤمنون		« الأنبياء
٢٤		النور	« الحشر
٢٥	الفرقان . إلا الآيات ٦٨ ، ٦٩ ، ٧٠ فمدنية		« يس

تابع ترتيب مصحف عثمان

العدد	السور المكية	السور المدنية	تاريخ النزول
٢٦	الشعراء إلا الآية ١٩٧ والآية ٢٢٤ إلى آخر السورة فمدنية		بعد الواقعة
٢٧	النمل		« الشعراء
٢٨	القصص إلا الآيات ٥٢ -٥٥ فمدنية وآية ٨٥ فبالجحفة أثناء الهجرة		« النمل
٢٩	العنكبوت إلا الآيات ١ - ١١ فمدنية		« الروم
٣٠	الروم إلا آية ١٧ فمدنية		« الانشقاق
٣١	لقمان إلا الآيات ٢٧، ٢٨، ٢٩ فمدنية		« الصافات
٣٢	السجدة إلا الآيات ١٦ - ٢٠ فمدنية		« المؤمنون
٣٣		الأحزاب	« آل عمران
٣٤	سبأ إلا آية ٦ فمدنية		« لقمان
٣٥	فاطر		« الفرقان
٣٦	يس إلا آية ٤٥ فمدنية		« الجن
٣٧	الصافات		« الأنعام
٣٨	ص		« القمر
٣٩	الزمر إلا الآيات ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٤ فمدنية		« سبأ

تابع ترتيب مصحف عثمان

العدد	السور المكية	السور المدنية	تاريخ النزول
٤٠	غافر إلا آيتى ٥٦ ، ٥٧ فمدنيتان		بعد الزمر
٤١	فصلت		« غافر
٤٢	الشورى إلا الآيات ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٧ فمدنية		« فصلت
٤٣	الزخرف إلا الآية ٥٤ فمدنية		« الشورى
٤٤	الدخان		« الزخرف
٤٥	الجاثية إلا الآية ١٤ فمدنية		« الدخان
٤٦	الأحقاف إلا الآيات ١٠ ، ١٥ ، ٣٥ فمدنية		« الجاثية
٤٧		محمد إلا الآية ١٣ فنزلت فى الطريق أثناء الهجرة	« الحديد
٤٨		الفتح نزلت فى الطريق عند الانصراف من الحديبيّة	« الجمعة
٤٩		الحجرات	« المجادلة
٥٠	ق . إلا الآية ٣٨ فمدنية		« المرسلات
٥١	الذاريات		« الأحقاف
٥٢	الطور		« السجدة
٥٣	النجم . إلا الآية ٣٢ فمدنية		« الإخلاص
٥٤	القمر . إلا الآيات ٤٤ و ٤٥ و ٤٦ فمدينة		« الطارق

تابع ترتيب مصحف عثمان

العدد	السور المكية	السور المدنية	تاريخ النزول
٥٥		الرحمان	» الرعد
٥٦	الواقعة إلا آيتي ٨١، ٨٢ فمدنيتان.		» طه
٥٧		الحديد	» الزلزلة
٥٨		المجادلة	» المنافقون
٥٩		الحشر	» البينة
٦٠		الممتحنة	» الأحزاب
٦١		الصف	» التغابن
٦٢		الجمعة	» الصف
٦٣		المنافقون	» الحج
٦٤		التغابن	» التحريم
٦٥		الطلاق	» الإنسان
٦٦		التحريم	» الحجرات
٦٧	الملك		» الطور
٦٨	القلم . إلا الآيات ١٧ ـ ٣٣ والآيات ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٠ فمدنية.		» العلق
٦٩	الحاقة		» الملك
٧٠	المعارج		» الحاقة
٧١	نوح		» النحل
٧٢	الجن		» الأعراف
٧٣	المزمل . إلا الآيات ١٠ و ١١ و ٢٠ فمدنية.		» القلم

تابع ترتيب مصحف عثمان

العدد	السور المكية	السور المدنية	تاريخ النزول
٧٤	المدثر		بعد المزمل
٧٥	القيامة		« القارعة
٧٦		الإنسان	« الرحمان
٧٧	المرسلات إلا الآية ٤٨ فمدنية		« الهمزة
٧٨	النبأ		« المعارج
٧٩	النازعات		« النبأ
٨٠	عبس		« النجم
٨١	التكوير		« المسد
٨٢	الانفطار		« النازعات
٨٣	المطففين . وهي آخر سورة نزلت بمكة.		« العنكبوت
٨٤	الانشقاق		« الانفطار
٨٥	البروج		« الشمس
٨٦	الطارق		« البلد
٨٧	الأعلى		« التكوير
٨٨	الغاشية		« الذاريات
٨٩	الفجر		« الليل
٩٠	البلد		« ق
٩١	الشمس		« القدر
٩٢	الليل		« الأعلى
٩٣	الضحى		« الفجر
٩٤	الشرح		« الضحى

تابع ترتيب مصحف عثمان

العدد	السور المكية	السور المدنية	تاريخ النزول
٩٥	التين		بعد البروج
٩٦	العَلق وهى أول مانزل من القرآن		
٩٧	القَدَر		« عبس
٩٨		البيِّنة	« الطلاق
٩٩		الزلزلة	« النساء
١٠٠	العاديات		« العصر
١٠١	القارعة		« قريش
١٠٢	التكاثر		« الكوثر
١٠٣	العصر		« الشرح
١٠٤	الهُمَزَة		« القيامة
١٠٥	الفيل		« الكافرون
١٠٦	قريش		« التين
١٠٧	الماعون . الثلاث الآيات الأول والبقية مدنية		« التكاثر
١٠٨	الكوثر		« العاديات
١٠٩	الكافرون		« الماعون
١١٠		النصر نزلت بمنى فى حجة الوداع	آخر ما نزل من السور
١١١	المَسَد		بعد الفاتحة
١١٢	الإخلاص		« الناس
١١٣	الفَلَق		« الفيل
١١٤	الناس		« الفلق

وتسمى السور السبع بعد الفاتحة السبع الطول ، وأولها البقرة وآخرها التوبة ، وتسمى السور التي تليها المئين ، وهي التي تزيد على مائة أو تقاربها ، وتسمى السور التي تليها المثاني ، سُمِّيت بذلك لأنها ثَنَتْها فهي لها ثَوانٍ والمئون لها أوائل ، وتسمى السور التي تليها المفصَّل ، وهي قصار السور ، سُمِّيت بذلك لكثرة الفصول التي بين السور بالبسملة ، وقد اختلف في أولها على اثنى عشر قولا ، فقيل إنها من أول سورة الحُجُرات ، إلى غير هذا من الأقوال .

والظاهر أن مصحف عثمان راعى في ترتيبه ذلك التقسيم ، وآثره على مراعاة تاريخ النزول ، فلم يأت على ترتيبه كما أتى بعض المصاحف الآتية .

ترتيب مصحف أبي بن كعب

وهذا ترتيب مصحف أُبيّ بن كعب على ماجاء في كتاب الفهرست لابن النديم وكتاب الإتقان للسيوطي[١] وبينهما خلاف في ترتيبه ، وفيها تحريف في أسماء بعض السور ونقص في عددها ولاسيَّما كتاب الفهرست :

(١) الفاتحة (٢) البقرة (٣) النساء (٤) آل عمران (٥) الأنعام (٦) الأعراف ( ) المائدة (٨) يونس (٩) الأنفال (١٠) التوبة (١١) هود (١٢) مريم (١٣) الشعراء (١٤) الحج (١٥) يوسف (١٦) الكهف (١٧) النحل (١٨) الأحزاب (١٩) بنى إسرائيل وهى الإسراء (٢٠) الزُّمر (٢١) طه (٢٢) الأنبياء (٢٣) النور (٢٤) المؤمنون (٢٥) سبأ (٢٦) العنكبوت (٢٧) المؤمن وهى غافر (٢٨) الرعد (٢٩) القَصَص (٣٠) طس سليمان وهى النمل (٣١) الصافَّات (٣٢) ص داود (٣٣) يس (٣٤) الحِجْر (٣٥) حمعسق وهى الشورى (٣٦) الروم (٣٧) الزُّخرف (٣٨) الحديد (٣٩) إبراهيم (٤٠) الملائكة وهى فاطر (٤١) الفتح (٤٢) القتال وهى محمد (٤٣) الظهار وهى المجادلة (٤٤) تبارك الملك (٤٥) الفرقان (٤٦) السجدة

---

(١) ابن النديم هو محمد بن إسحاق المتوفى سنة ٣٨٥ هـ ، والسيوطي هو عبد الرحمن بن أبي بكر المتوفى سنة ٩١١ هـ .

(٤٧) نوح (٤٨) الأحقاف (٤٩) ق (٥٠) الرحمان (٥١) الواقعة (٥٢) الجن (٥٣) النجم (٥٤) سأل سائل وهى المعارج (٥٥) المزمل (٥٦) المدثر (٥٧) اقتربت وهى القمر (٥٨) حم فُصِّلت (٥٩) الدخان (٦٠) لقمان (٦١) حم الجاثية (٦٢) الطور (٦٣) الذاريات (٦٤) ن (٦٥) الحاقّة (٦٦) الحشر (٦٧) الممتحنة (٦٨) المرسلات (٦٩) عمّ يتساءلون وهى النبأ (٧٠) الإنسان (٧١) لا أقسم بيوم القيامة وهى القيامة (٧٢) إذا الشمس كُوِّرت وهى التكوير (٧٣) يأيها النبي إذا طلقتم النساء وهى الطلاق (٧٤) النازعات (٧٥) عبس (٧٦) المطفّفين (٧٧) إذا السماء انشقت وهى الانشقاق (٧٨) التين (٧٩) إقرأ باسم ربك وهى العَلَق (٨٠) الحُجُرات (٨١) المنافقون (٨٢) الجمعة (٨٣) يأيها النبي لم تحرم وهى التحريم (٨٤) الفجر (٨٥) لا أقسم بهذا البلد وهى البلد (٨٦) الليل (٨٧) إذا السماء انفطرت وهى الانفطار (٨٨) والشمس وضحاها وهى الشمس (٨٩) البروج (٩٠) والسماء والطارق وهى الطارق (٩١) سبح اسم ربك وهى الأعلى (٩٢) الغاشية (٩٣) الصف (٩٤) التغابن (٩٥) أهل الكتاب وهى البيِّنة (٩٦) الضحى (٩٧) ألمْ نشرحْ وهى الشرح (٩٨) القارعة (٩٩) التكاثر (١٠٠) العصر (١٠١) الخلع (١٠٢) الحفد (١٠٣) ويل لكل هُمَزَة وهى الهمزة (١٠٤) إذا زلزلت وهى الزلزلة (١٠٥) العاديات (١٠٦) الفيل (١٠٧) لإيلاف قريش وهى قريش (١٠٨) أرأيت وهى الماعون (١٠٩) إنا أعطيناك وهى الكوثر (١١٠) القَدْر (١١١) الكافرون (١١٢) إذا جاء نصر الله وهى النصر (١١٣) تبّت وهى المسد (١١٤) الصمد وهى الإخلاص (١١٥) الفلق (١١٦) الناس .

وقد زاد على مصحف عثمان سورتى الخلع والحفد وهما قنوت المالكية فى صلاة الصبح ، وقنوت الحنفية فى صلاة الوتر ، وقنوت المالكية « أللهم إنا نستعينك ونستغفرك ، ونتوب إليك ونؤمن بك ، ونتوكل عليك ، ونثنى عليك الخير كله ، نشكرك ولا نكفرك ، نخنع لك ونخلع ، ونترك من يكفرك ، أللهم إياك نعبد ،

ولك نصلي ونسجد، وإليك نسعى ونحفد، نرجو رحمتك، ونخاف عذابك، إن عذابك بالكفار ملحق.

وقنوت الحنفية «اللهم إنا نستعينك ونستهديك، ونستغفرك ونتوب إليك، ونؤمن بك ونتوكل عليك، ونثني عليك الخير كله، نشكرك ولا نكفرك، ونخلع ونترك من يفجرك، اللهم إياك نعبد، ولك نصلي ونسجد، وإليك نسعى ونحفد، نرجو رحمتك، ونخشى عذابك، إن عذابك الجِدَّ بالكفار ملحق.

ولا شك أن هذا يكاد يكون قنوتاً واحداً، فكان حقه أن يعد سورة واحدة لا سورتين، وإنما عده بعضهم قرآناً لما أخرجه البيهقي عن عمر بن الخطاب أنه قنت بعد الركوع فقال «بسم الله الرحمن الرحيم، اللهم إنا نستعينك ونستغفرك إلخ» وفيه بعض مخالفة للصورتين السابقتين»، وقد قال فيه ابن جريج: حكمة البسملة أنهما سورتان في مصحف بعض الصحابة، ويمكن أن يرد عليه بأن البسملة مطلوبة في كل أمر ذي بال ولو لم يكن قرآناً، على أن هذا ليس في شيء من أسلوب القرآن، ويمكن أن يكون مكتوباً في مصحف أبي بن كعب على أنه قنوت لا قرآن، لأنه يتلى في الصلاة كما يتلى القرآن، فألحق بهذا المصحف ليحفظ كما يحفظ، ولعله كان في آخره فأدرجه بعض الناس في وسطه، ويمكن أيضاً أن يكون قد اشتبه أمره على أبي بن كعب، وقد مات في خلافة عمر على الأرجح، فكان موته قبل اجتماع الناس على مصحف عثمان بعد خلافة عمر، ولو أنه بقي إلى هذا الزمن لزال اشتباهه في ذلك، ورضي من مصحف عثمان ما رضيه جمهور المسلمين بعده.

ترتيب مصحف ابن مسعود

وهذا ترتيب مصحف عبد الله بن مسعود على ما جاء في كتاب الإتقان والفهرست:

الطوال: (١) البقرة (٢) النساء (٣) آل عمران (٤) الأعراف (٥) الأنعام (٦) المائدة (٧) يونس.

المثون : (٨) التوبة (٩) النحل (١٠) هود (١١) يوسف (١٢) الكهف (١٣) بنى إسرائيل (١٤) الأنبياء (١٥) طه (١٦) المؤمنون (١٧) الشعراء (١٨) الصافات

المثانى : (١٩) الأحزاب (٢٠) الحج (٢١) القصص (٢٢) طس النمل (٢٣) النور (٢٤) الأنفال (٢٥) مريم (٢٦) العنكبوت (٢٧) الروم (٢٨) يس (٢٩) الفرقان (٣٠) الحجر (٣١) الرعد (٣٢) سبأ (٣٣) الملائكة (٣٤) إبراهيم (٣٥) ص (٣٦) محمد (٣٧) لقمان (٣٨) الزمر .

الحواميم : (٣٩) حم المؤمن (٤٠) الزخرف (٤١) السجدة وهى فصلت (٤٢) حمعسق (٤٣) الأحقاف (٤٤) الجاثية (٤٥) الدخان .

الممتحنات : (٤٦) الفتح (٤٧) الحشر (٤٨) الحديد (٤٩) تنزيل السجدة (٥٠) ق (٥١) الطلاق (٥٢) القلم (٥٣) الحجرات (٥٤) الملك (٥٥) التغابن (٥٦) المنافقون (٥٧) الجمعة (٥٨) الصف (٥٩) الجن (٦٠) نوح (٦١) المجادلة (٦٢) الممتحنة (٦٣) التحريم .

المفصل : (٦٤) الرحمان (٦٥) النجم (٦٦) الطور (٦٧) الذاريات (٦٨) القمر (٦٩) الحاقة (٧٠) الواقعة (٧١) النازعات (٧٢) المعارج (٧٣) المدثر (٧٤) المزمل (٧٥) المطففين (٧٦) عبس (٧٧) الإنسان (٧٨) المرسلات (٧٩) القيامة (٨٠) النبأ (٨١) التكوير (٨٢) الانفطار (٨٣) الغاشية (٨٤) الأعلى (٨٥) الليل (٨٦) الفجر (٨٧) البروج (٨٨) الانشقاق (٨٩) العلق (٩٠) البلد (٩١) الضحى (٩٢) الطارق (٩٣) العاديات (٩٤) الماعون (٩٥) القارعة (٩٦) البينة (٩٧) الشمس (٩٨) التين (٩٩) الهمزة (١٠٠) الفيل (١٠١) قريش (١٠٢) التكاثر (١٠٣) القدر (١٠٤) الزلزلة (١٠٥) العصر (١٠٦) النصر (١٠٧) الكوثر (١٠٨) الكافرون (١٠٩) المسد (١١٠) الإخلاص (١١١) الشرح

فليس فيه الفاتحة ولا المعوذتان ، وقد ذكر ابن النديم أنه رأى عدة مصاحف ذكر نساخها أنها مصحف ابن مسعود . وليس فيها مصحفان متفقان ، وأنه رأى

مصحفا قد كتب منذ نحو مائتى سنة فيه فاتحة الكتاب .

ترتيب مصحف على

وهذا ترتيب مصحف على بن أبى طالب رضى الله عنه على ماجاء فى تاريخ اليعقوبى [١] وقد رتبه على سبعة أجزاء :

جزء البقرة : (١) البقرة (٢) يوسف (٣) العنكبوت (٤) الروم (٥) لقمان (٦) حم السجدة (٧) الذاريات (٨) الإنسان (٩) السجدة (١٠) النازعات (١١) التكوير (١٢) الانفطار (١٣) الانشقاق (١٤) الأعلى (١٥) البينة .

جزء آل عمران : (١٦) آل عمران (١٧) هود (١٨) الحج (١٩) الحجر (٢٠) الأحزاب (٢١) الدخان (٢٢) الرحمان (٢٣) الحاقة (٢٤) المعارج (٢٥) عبس (٢٦) الشمس (٢٧) القدر (٢٨) الزلزلة (٢٩) الهمزة (٣٠) الفيل (٣١) قريش .

جزء النساء : (٣٢) النساء (٣٣) النحل (٣٤) المؤمنون (٣٥) يس (٣٦) الشورى (٣٧) الواقعة (٣٨) الملك (٣٩) المدثر (٤٠) الماعون (٤١) المسد (٤٢) الإخلاص (٤٣) العصر (٤٤) القارعة (٤٥) البروج (٤٦) التين (٤٧) النمل .

جزء المائدة : (٤٨) المائدة (٤٩) يونس (٥٠) مريم (٥١) الشعراء (٥٢) الزخرف (٥٣) الحجرات (٥٤) ق (٥٥) القمر (٥٦) الممتحنة (٥٧) الطارق (٥٨) البلد (٥٩) الشرح (٦٠) العاديات (٦١) الكوثر (٦٢) الكافرون .

جزء الأنعام : (٦٣) الأنعام (٦٤) الإسراء (٦٥) الأنبياء (٦٦) الفرقان (٦٧) موسى (٦٨) فرعون (٦٩) حم المؤمن (٧٠) المجادلة (٧١) الحشر (٧٢) الجمعة

(١) هو أحمد بن أبى يعقوب توفى بعد سنة ٢٧٨ هـ

(٧٣) المنافقون (٧٤) ن (٧٥) نوح (٧٦) الجن (٧٧) المرسلات (٧٨) الضحى (٧٩) التكاثر .

جزء الأعراف : (٨٠) الأعراف (٨١) إبراهيم (٨٢) الكهف (٨٣) النور (٨٤) ص (٨٥) الزمر (٨٦) الشريعة (٨٧) البلد (٨٨) الحديد (٨٩) المزمل (٩٠) القيامة (٩١) النبأ (٩٢) الغاشية (٩٣) الفجر (٩٤) الليل (٩٥) النصر .

جزء الأنفال : (٩٦) الأنفال (٩٧) التوبة (٩٨) طه (٩٩) فاطر (١٠٠) الصافات (١٠١) الأحقاف (١٠٢) الفتح (١٠٣) الطور (١٠٤) النجم (١٠٥) الصف (١٠٦) التغابن (١٠٧) الطلاق (١٠٨) المطففين (١٠٩) الفلق (١١٠) الناس .

وقد سقط من هذا الترتيب أربع سور وهى : الفاتحة والرعد وسبأ والعلق ، وهو من خطأ الناسخ والخلط فى تسمية السور ، لأنه جاء فيه اسم سورة موسى واسم سورة فرعون فى جزء الأنعام ، ولعل سورة موسى هى القصص ، وسورة فرعون هى التحريم ، وجاء فيه اسم حم المؤمن على أنهما سورتان ، واسم ألم تنزيل السجدة على أنهما سورتان ، وكل منهما سورة واحدة ، وقد جاء فيه أيضا اسم سورة الشريعة ولعلها الجاثية ، والمعروف أن عليا رضى الله عنه جمع مصحفه على تاريخ النزول[١] وهذا يخالف جمعه على هذه الأجزاء ، فالحق أن هذا الترتيب ليس لعلى ، وإنما ترتيب على هو ترتيب ابن عباس الآتى .

ترتيب مصحف ابن عباس

وهذا ترتيب مصحف عبد الله بن عباس رضى الله عنه على ما جاء فى كتاب سعد السعود لابن طاووس[٢] وقد نقله عن محمد بن عبد الكريم الشهرستانى فى مقدمة تفسيره (مفاتيح الأسرار ومصابيح الأبرار) :

---

(١) جاء فى الاتقان أن مصحف على كان أوله اقرأ ، ثم المدثر ، ثم ن ، ثم المزمل ، ثم تبت ثم التكوير ، وهكذا إلى آخر المكى والمدنى . (٢) هو على بن موسى المتوفى سنة ٦٦٤ ﻫ

(١) العلق (٢) القلم (٣) الضحى (٤) المزمل (٥) المدثر (٦) الفاتحة (٧) المسد (٨) التكوير (٩) الأعلى (١٠) الليل (١١) الفجر (١٢) الشرح (١٣) الرحمان (١٤) العصر (١٥) الكوثر (١٦) التكاثر (١٧) الماعون (١٨) الفيل (١٩) الكافرون (٢٠) الإخلاص (٢١) النجم (٢٢) عبس (٢٣) القدر (٢٤) الشمس (٢٥) البروج (٢٦) التين (٢٧) قريش (٢٨) القارعة (٢٩) القيامة (٣٠) الهمزة (٣١) المرسلات (٣٢) ق (٣٣) البلد (٣٤) الطارق (٣٥) القمر (٣٦) ص (٣٧) الأعراف (٣٨) الجن (٣٩) يس (٤٠) الفرقان (٤١) فاطر (٤٢) مريم (٤٣) طه (٤٤) الشعراء (٤٥) النمل (٤٦) القصص (٤٧) الإسراء (٤٨) يونس (٤٩) هود (٥٠) يوسف (٥١) الحجر (٥٢) الأنعام (٥٣) الصافات (٥٤) لقمان (٥٥) سبأ (٥٦) الزمر (٦٢) الجاثية (٥٧) غافر (٥٨) فصلت (٥٩) الشورى (٦٠) الزخرف (٦١) الدخان (٦٣) الأحقاف (٦٤) الذاريات (٦٦) الكهف (٦٧) النحل (٦٨) نوح (٦٩) إبراهيم (٧٠) الأنبياء (٧١) المؤمنون (٧٢) الرعد (٧٣) الطور (٧٤) الملك (٧٥) الحاقة (٧٦) المعارج (٧٧) النبأ (٧٨) النازعات (٧٩) الانفطار (٨٠) الانشقاق (٨١) الروم (٨٢) العنكبوت (٨٣) المطففين (٨٤) البقرة (٨٥) الأنفال (٨٦) آل عمران (٨٧) الحشر (٨٨) الأحزاب (٨٩) النور (٩٠) الممتحنة (٩١) الفتح (٩٢) النساء (٩٣) الزلزلة (٩٤) الحج (٩٥) الحديد (٩٦) محمد (٩٧) الإنسان (٩٨) الطلاق (٩٩) البينة (١٠٠) الجمعة (١٠١) السجدة (١٠٢) المنافقون (١٠٣) المجادلة (١٠٤) الحجرات (١٠٥) التحريم (١٠٦) التغابن (١٠٧) الصف (١٠٨) المائدة (١٠٩) التوبة (١١٠) النصر (١١١) الواقعة (١١٢) العاديات (١١٣) الفلق (١١٤) الناس .

وهذا الترتيب أقرب إلى أن يكون ترتيب مصحف على رضى الله عنه من الترتيب السابق ، لأن ابن عباس كان تلميذا له ، وقد روعى فى هذا الترتيب تاريخ النزول ، وهو الذى نقل أن عليا راعاه فى ترتيبه ، وهو ترتيب يوافق ترتيب مصحف عثمان فى عدد السور ، وإن خالفه فى مراعاة تاريخ النزول .

ترتيب مصحف جعفر الصادق

وهذا ترتيب مصحف جعفر الصادق ابن محمد الباقر ابن على زين العابدين ابن الحسين بن على رضى الله عنهم ؛ وقد نقله محمد بن عبدالكريم الشهرستانى فى مقدمة تفسيره (مفاتيح الأسرار ومصابيح الأبرار) عن كتاب الاستغناء عن سعيد بن جُبَيْرٍ (١)

(١) العلق (٢) القلم (٣) المزمل (٤) المدثر (٥) المسد (٦) التكوير (٧) الأعلى (٨) الليل (٩) الفجر (١٠) الضحى (١١) الشرح (١٢) العصر (١٣) العاديات (١٤) الكوثر (١٥) التكاثر (١٦) الماعون (١٧) الكافرون (١٨) الفيل (١٩) الفلق (٢٠) الناس (٢١) الإخلاص (٢٢) النجم (٢٣) عبس (٢٤) القدر (٢٥) الشمس (٢٦) البروج (٢٧) التين (٢٨) قريش (٢٩) القارعة (٣٠) القيامة (٣١) الهمزة (٣٢) المرسلات (٣٣) ق (٣٤) البلد (٣٥) الطارق (٣٦) القمر (٣٧) ص (٣٨) الأعراف (٣٩) الجن (٤٠) يس (٤١) الفرقان (٤٢) فاطر (٤٣) مريم (٤٤) طه (٤٥) الواقعة (٤٦) الشعراء (٤٧) النمل (٤٨) القصص (٤٩) الإسراء (٥٠) يونس (٥١) هود (٥٢) يوسف (٥٣) الحجر (٥٤) الأنعام (٥٥) الصافات (٥٦) لقمان (٥٧) سبأ (٥٨) الزمر (٥٩) غافر (٦٠) فصلت (٦١) الشورى (٦٢) الزخرف (٦٣) الدخان (٦٤) الجاثية (٦) الأحقاف (٦٦) الذاريات (٦٧) الغاشية (٦٨) الكهف (٦٩) النحل (٧٠) نوح (٧١) إبراهيم (٧٢) الأنبياء (٧٣) المؤمنون (٧٤) السجدة (٧٥) الطور (٧٦) الملك (٧٧) الحاقة (٧٨) المعارج (٧٩) النبأ (٨٠) النازعات (٨١) الانفطار (٨٢) الانشقاق (٨٣) الروم (٨٤) العنكبوت (٨٥) المطففين (٨٦) البقرة (٨٧) الأنفال (٨٨) آل عمران (٨٩) الأحزاب (٩٠) الممتحنة (٩١) النساء (٩٢) الزلزلة (٩٣) الحديد (٩٤) محمد

---

(١) كان من كبار التابعين توفى سنة ٩٥ هـ

(٩٥) الرعد (٩٦) الرحمان (٩٧) الإنسان (٩٨) الطلاق (٩٩) البينة (١٠٠) الحشر (١٠١) النصر (١٠٢) النور (١٠٣) الحج (١٠٤) المنافقون (١٠٥) المجادلة (١٠٦) الحجرات (١٠٧) التحريم (١٠٨) الصف (١٠٩) الجمعة (١١٠) التغابن (١١١) الفتح (١١٢) التوبة (١١٣) المسائدة .

والذى نقص من هذا المصحف هو سورة الفاتحة ، وهو يوافق مصحف ابن عباس فى أسماء السور ، وفى ترتيبها على تاريخ النزول ، وإن كان بينهما بعض اختلاف فى ذلك الترتيب ، وهذا مما يؤيد ما سبق من أن مصحف ابن عباس أقرب إلى مصحف على من ذلك المصحف الذى نسب إليه ، لأن مصحف جعفر الصادق لابد أن يكون مأخوذا من مصحف على ، لأن العلويين كانوا يتوارثون مصحفه ، ويحافظون عليه وعلى غيره من آثاره ، وقد ذكر ابن النديم فى كتاب الفهرست أنه رأى عند أبى يَعْلَى حمزة الحسنى مصحفا سقط منه أوراق بخط على بن أبى طالب رضى الله عنه ، يتوارثه بنو حسن على مر الزمان .

ويمكننا بعد هذا أن نحكم بأن مصاحف أولئك الأصحاب لاتكاد تختلف عن مصحف عثمان الذى أجمع عليه جمهور المسلمين ، لأن الخلاف فى ترتيب السور لاقيمة له بعد الاتفاق فى عددها وآياتها ، ومثل هذا الاختلاف القليل لم يكن منه بُدٌّ بين ذلك العدد الكثير من الأصحاب ، لأن الاختلاف من طبيعة الإنسان ، ولا عصمة منه إلا لمن عصمه الله تعالى .

ترتيب النزول فى مصاحف

عثمان وابن عباس وجعفر

عدد	عثمان	ابن عباس	جعفر
١	العلق	العلق	العلق
٢	ن	ن	ن
٣	المزمل	الضحى	المزمل
٤	المدثر	المزمل	المدثر
٥	الفاتحة	المدثر	المسد
٦	المسد	الفاتحة	التكوير
٧	التكوير	المسد	الأعلى
٨	الأعلى	التكوير	الليل
٩	الليل	الأعلى	الفجر
١٠	الفجر	الليل	الضحى
١١	الضحى	الفجر	الشرح
١٢	الشرح	الشرح	العصر
١٣	العصر	الرحمان	العاديات
١٤	العاديات	العصر	الكوثر
١٥	الكوثر	الكوثر	التكاثر
١٦	التكاثر	التكاثر	الماعون
١٧	الماعون	الماعون	الكافرون
١٨	الكافرون	الفيل	الفيل
١٩	الفيل	الكافرون	الفلق
٢٠	الفلق	الإخلاص	الناس
٢١	الناس	النجم	الإخلاص
٢٢	الإخلاص	عبس	النجم
٢٣	النجم	القدر	عبس
٢٤	عبس	الشمس	القدر
٢٥	القدر	البروج	الشمس
٢٦	الشمس	التين	البروج
٢٧	البروج	قريش	التين
٢٨	التين	القارعة	قريش
٢٩	قريش	القيامة	القارعة
٣٠	القارعة	الهمزة	القيامة
٣١	القيامة	المرسلات	الهمزة
٣٢	الهمزة	ق	المرسلات
٣٣	المرسلات	البلد	ق
٣٤	ق	الطارق	البلد
٣٥	البلد	القمر	الطارق
٣٦	الطارق	ص	القمر
٣٧	القمر	الأعراف	ص
٣٨	ص	الجن	الأعراف
٣٩	الأعراف	يس	الجن
٤٠	الجن	الفرقان	يس
٤١	يس	فاطر	الفرقان
٤٢	الفرقان	مريم	فاطر

تابع ترتيب النزول فى مصاحف عثمان وابن عباس وجعفر

عدد	عثمان	ابن عباس	جعفر
٤٣	فاطر	طه	مريم
٤٤	مريم	الشعراء	طه
٤٥	طه	النمل	الواقعة
٤٦	الواقعة	القصص	الشعراء
٤٧	الشعراء	الإسراء	النمل
٤٨	النمل	يونس	القصص
٤٩	القصص	هود	الإسراء
٥٠	الإسراء	يوسف	يونس
٥١	يونس	الحجر	هود
٥٢	هود	الأنعام	يوسف
٥٣	يوسف	الصافات	الحجر
٥٤	الحجر	لقمان	الأنعام
٥٥	الأنعام	سبأ	الصافات
٥٦	الصافات	الزمر	لقمان
٥٧	لقمان	غافر	سبأ
٥٨	سبا	فصلت	الزمر
٥٩	الزمر	الشورى	غافر
٦٠	غافر	الزخرف	فصلت
٦١	فصلت	الدخان	الشورى
٦٢	الشورى	الجاثية	الزخرف
٦٣	الزخرف	الأحقاف	الدخان
٦٤	الدخان	الذاريات	الجاثية
٦٥	الجاثية	الغاشية	الأحقاف
٦٦	الأحقاف	الكهف	الذاريات
٦٧	الذاريات	النحل	الغاشية
٦٨	الغاشية	نوح	الكهف
٦٩	الكهف	إبراهيم	النحل
٧٠	النحل	الأنبياء	نوح
٧١	نوح	المؤمنون	إبراهيم
٧٢	إبراهيم	الرعد	الأنبياء
٧٣	الأنبياء	الطور	المؤمنون
٧٤	المؤمنون	الملك	السجدة
٧٥	السجدة	الحاقة	الطور
٧٦	الطور	المعارج	الملك
٧٧	الملك	النبأ	الحاقة
٧٨	الحاقة	النازعات	المعارج
٧٩	المعارج	الانفطار	النبأ
٨٠	النبأ	الانشقاق	النازعات
٨١	النازعات	الروم	الانفطار
٨٢	الانفطار	العنكبوت	الانشقاق
٨٣	الانشقاق	المطففين	الروم
٨٤	الروم	البقرة	العنكبوت
٨٥	العنكبوت	الأنفال	المطففين
٨٦	المطففين	آل عمران	البقرة

تابع ترتيب النزول فى مصاحف عثمان وابن عباس وجعفر

عدد	عثمان	لبن عباس	جعفر	عدد	عثمان	ابن عباس	جعفر
٨٧	البقرة	الحشر	الأنفال	١٠١	الحشر	السجدة	النصر
٨٨	الأنفال	الأحزاب	آل عمران	١٠٢	النور	المنافقون	النور
٨٩	آل عمران	النور	الأحزاب	١٠٣	الحج	المجادلة	الحج
٩٠	الأحزاب	الممتحنة	الممتحنة	١٠٤	المنافقون	الحجرات	المنافقون
٩١	الممتحنة	الفتح	النساء	١٠٥	المجادلة	التحريم	المجادلة
٩٢	النساء	النساء	الزلزلة	١٠٦	الحجرات	التغابن	الحجرات
٩٣	الزلزلة	الزلزلة	الحديد	١٠٧	التحريم	الصف	التحريم
٩٤	الحديد	الحج	محمد	١٠٨	التغابن	المائدة	الصف
٩٥	محمد	الحديد	الرعد	١٠٩	الصف	التوبة	الجمعة
٩٦	الرعد	محمد	الرحمان	١١٠	الجمعة	النصر	التغابن
٩٧	الرحمان	الإنسان	الإنسان	١١١	الفتح	الواقعة	الفتح
٩٨	الإنسان	الطلاق	الطلاق	١١٢	المائدة	العاديات	التوبة
٩٩	الطلاق	البينة	البينة	١١٣	التوبة	الفلق	المائدة
١٠٠	البينة	الجمعة	الحشر	١١٤	النصر	الناس	

فإذا نظرنا بعد هذا فى ترتيب المصاحف الثلاثة فى النزول وجدنا أنه لافرق يذكر بين ترتيب مصحف عثمان وترتيب مصحف جعفر الصادق ، ووجدنا أنه لافرق يذكر بين ترتيب مصحف عثمان وترتيب مصحف ابن عباس إلا فى سور الرحمان والرعد والواقعة والعاديات والفلق والناس ، فبعضها مكى أو مدنى فى مصحف عثمان ، وهو بخلافه فى مصحف ابن عباس .

أصول عامة فى ارتباط الآيات

(١)

فى القرآن فنون من الأحكام الفرعية والاعتقادية والْخُلُقِيَّةِ وغير هذا من فنون الوعظ وقصص الأنبياء وحكايات الصالحين والجبارين والطائعين والعاصين، وقد كان من الممكن أن توزع هذه الفنون على سور القرآن، بحيث يكون بعضها للأحكام الفرعية، وبعضها للأحكام الاعتقادية، وبعضها للأخلاق والمواعظ، وبعضها لقصص الأنبياء، وهكذا، فتكون كل سورة فى غير حاجة إلى علم ارتباط الآيات، لظهور ارتباط آياتها واتساقها فى فن واحد من تلك الفنون، ولكن هذا لم يكن من الممكن معه أن يصل القرآن إلى حد الإعجاز فى بلاغته وباهر نظمه، لأنه لا يمكن أن تصل بلاغة إلى ذلك الحد فى سورة لاتشتمل إلا على أحكام فقهية، ولا يتسع فيها المجال لتحريك العواطف بتلك البلاغة المعجزة، وذلك النظم العجيب، ولهذا جرت عادة القرآن أن يجمع بين هذه الفنون فى سوره، ولا يوزعها عليها كما توَزَّعُ مباحث الكتاب على فصوله.

(٢)

وقد جاء فى كتاب الإتقان أن مرجع المناسبة فى الآيات إلى معنى رابط بينها عامٍّ أو خاصٍّ عقلى أو حسى أو خيالى أو غير ذلك من أنواع العلاقات أو التلازم الذهنى، كالسبب والْمُسَبَّبِ والعلة والمعلول والنظيرين والضدين ونحو ذلك، والارتباط بين الآيتين إما أن يكون ظاهرا التعلق الكلام بعضه ببعض وعدم تمامه بالأولى، أو لكون الثانية واقعة من الأولى موقع التأكيد أو التفسير أو الاعتراض أو البدل. وإما أن يكون غير ظاهر لكون كل جملة مستقلة عن الأخرى. والقسم الأول لا كلام فيه لظهوره، والثانى إما أن تكون الجملة الثانية فيه معطوفة على الأولى بحرف من حروف العطف المشرّكة فى الحكم أو غير معطوفة.

فإن كانت معطوفة فلا بد أن يكون بينهما جهة جامعة اقتضت عطفهما ، كقوله تعالى (يعلمُ مايلجُ فى الأرض وما يخرجُ منها وما ينزلُ مِنَ السماء وما يعرجُ فيها) وقوله (والله يقبضُ ويبسط وإليهِ ترجعونَ) للتَّضادِّ بين القبض والبسط والولوج والخروج والنزول والعروج ، وشبه التضاد بين السماء والأرض ، ومما فيه مناسبة التضاد ذكر الرحمة بعد العذاب والرغبة بعد الرهبة ، وقدجرت عادة القرآن إذا ذكرأحكاما ذكربعدهاوعدا ووعيدا ، ليكون باعثاعلى العمل بها ، ثم يذكر آيات توحيد وتنزيه ليعلم عظمة الآمر والناهى ، وهذا كما فى سورة البقرة والنساء والمائدة .

وإن لم تكن معطوفة فلا بد من رابطة تؤْذِنُ باتصال الكلام ، وهى قرائن معنوية تؤذن بالربط ، وله أسباب: أولها التنظير ، لأن إلحاق النظير بالنظير من شأن العقلاء ، وذلك كقوله تعالى فى الآية — ٥ — من سورة الأنفال (كما أخرجكَ ربُّكَ من بيتكَ بالحقِّ) عقب قوله (أولئكَ هم المؤمنونَ حقًّا] فإنه تعالى أمر رسوله أن يمضى فى قسمة الغنائم على كره من أصحابه ، كما مضى فى خروجه من بيته لطلب العير أو القتال على كره منهم ، وقد كان فى الخروج النصر والغنيمة، فهكذا يكون مافعله فى القسمة ، فليطيعوا ما أمروا به ويتركوا هوى أنفسهم .

وثانيها المضادَّة ، كقوله فى سورة البقرة [إنَّ الذينَ كفرُوا سواءٌ عليهمْ] الآية — ٦ — فإن أول السورة كان حديثاً عن القرآن وأن من شأنه الهداية للقوم الموصوفين بالإيمان ، فلما أكمل وصفهم عَقَّب بحديث الكافرين ، فبينهما جامع وهى يسمى بالتضاد ، فإن قيل إن هذا جامع بعيد ، لأن الحديث عن المؤمنين أتى بالعرض لا بالذات ، والمقصود بالذات إنما هو الحديث عن القرآن ، فالجواب أنه يكفى التعلق على أىِّ وجه ، لأن المقصود تأكيد أمر القرآن والحث على الإيمان ، ولهذا لما فرغ من ذلك قال [وإنْ كنتمْ فى ريبٍ ممَّا نزلْنَا على عبدِنَا] الآية —٢٣— فرجع ثانياً إلى الحديث عن القرآن .

وثالثها الاستطراد ، وهو من مقاصد البلغاء ، وذلك كقوله تعالى [يا بَنى آدمَ قدْ أنزلنا عليكم لباساً يُوارى سوآتِكم وريشاً ولباس التقوى ذلك خيرٌ] الآية —٢٦— من سورة

الأعراف ، ، فهذه الآية أتت على سبيل الاستطراد عَقِب ذكر السَّوْآت وخصف الورق عليهما ، إظهارا للمنَّةِ فيما خلق من اللباس ، ولما فى العُرْى من المهانة والفضيحة ، وإشعارا بأن التستر باب عظيم من أبواب التقوى . ويقرب من الاستطراد حسن التخلص ، وهو أن ينتقل مما ابتدىء الكلام به إلى المقصود على وجه سهل يختلسه اختلاسا دقيق المعنى ، بحيث لا يشعر السامع بالانتقال إلا وقد وقع عليه الثانى لشدة الالتئام بينهما ، وفى القرآن من التخلصات العجيبة ما يحير العقول ، ومن ذلك ماجاء فى سورة الأعراف ، فقد ذكر فيها الأنبياء والقرون الماضية والأمم السالفة ثم ذكر موسى إلى أن قص حكاية السبعين رجلا ودعائه لهم ولسائر أمته بقوله (واكتبْ لنا فى هذه الدُّنيا حسنةً) الآية - ١٥٦ - وجوابه تعالى عنه ، ثم تخلص بمناقب سيد المرسلين بعد تخلصه لأمته بقوله (قالَ عذابى أصيبُ بهِ مَنْ أشاءُ ورحمتى وسعتْ كلَّ شيءٍ فسأكتبها لِلذينَ يتقونَ) إلى أن قال (الَّذينَ يتبعونَ الرسولَ النبيَّ الأُمِّيَّ) الآية - ١٥٧ - وأخذ يذكر صفاته الكريمة وفضائله . ومن ذلك ما جاء فى سورة الكهف ، فقد حكى قول ذى القرنين فى السَّدّ بعد دَكِّهِ الذى هو من أشراط الساعة ، ثم النفخ فى الصور ، وذكر الحشر ، ووصف ما للكفار والمؤمنين . وقد فرق بعضهم بين التخلص والاستطراد بأن التخلص تترك فيه ما انتقلت عنه من غير عود إليه ، أما الاستطراد فتمر فيه بما استطردت إليه كالبرق الخاطف ، ثم تتركه وتعود إلى ما كنت فيه كأنك لم تقصده ، وإنما عرض عروضا ، وعلى هذا يكون مافى سورة الأعراف من الاستطراد لا التخلص ، لأنه عاد فيها بعد ذلك إلى قصة موسى بقوله (ومِنْ قومِ موسى أمة) الآية - ١٥٩ - ويقرب من حسن التخلص الانتقال من حديث إلى آخر تنشيطا للسامع مفصولا بينهما بلفظ هذا ، كقوله فى سورة ص بعد ذكر الأنبياء (هذا وإنَّ للطاغينَ لشرَّ مآبٍ) الآية - ٥٥ - فإن هذا القرآن نوع من الذكر ، فلما انتهى ذكر الأنبياء وهو نوع من التنزيل أراد أن يذكر نوعا آخر وهو ذكر الجنة وأهلها ، ولما فرغ من هذا قال (هذا وإن للطاغين لشر مآب) فذكر النار وأهلها

ويقرب من حسن التخلص أيضاً حسن المطلب ، وهو أن يخرج إلى الغرض بعد تقدم الوسيلة . كقوله فى سورة الفاتحة [إِيَّاكَ نعبدُ وَإِيَّاكَ نستعينُ] .

(٣)

والقاعدة التى يرجع إليها فى معرفة ارتباط الآيات فى جميع القرآن هو أن تنظر كما سبق فى الغرض الذى سيقت له السورة ، ثم تنظر ما يحتاج إليه ذلك الغرض من المقدمات ، وتنظر إلى مراتب تلك المقدمات فى القرب والبعد من المطلوب ، وتنظر عند انجرار الكلام فى المقدمات إلى ما يستتبعه من استشراف نفس السامع إلى الأحكام واللوازم التى تقتضى البلاغة شفاء الغليل بدفع عناء الاستشراف إلى الوقوف عليها ، فهذه هى القاعدة المُهَيْمِنة على حكم الربط بين جميع أجزاء القرآن ، فإذا عقلتها تبين لك وجه النظم مفصلا بين كل آية وآية فى كل سورة .

أطوار نزول السور

لا بُدَّ فى معرفة غرض كل سورة من معرفة تاريخ نزولها ومكانه من مكة أو المدينة ، لأن نزول السور كان يراعى فيه الزمان والمكان ، ويتأثر بالحوادث التى تقترن بزمن النزول ، وقد راعى المتقدمون هذا الأصل فى تقسيمهم السور القرآنية إلى مكية ومدنية ، وحين ذكروا أن السور المكية يغلب فيه الكلام على الأصول والعقائد ، لأنها نزلت بين المشركين فى مكة ، فدار الكلام فيها معهم ، وبُين فيها فساد عقائدهم ، وشرحت العقائد الصحيحة التى يدعو الاسلام إليها ، أما السور المدنية فيغلب فيها الكلام على الفروع والأحكام ، ويكثر فيها ذكر المنافقين وأهل الكتاب من اليهود والنصارى ، لأن المسلمين اختلطوا بهم بعد الهجرة إلى المدينة ، فدخلوا مع المشركين فيما كان بينهم وبين المسلمين ، ونزل القرآن فيما اقتضته هذه الحياة الجديدة فى المدينة ، من تشريع الأحكام الفرعية ، وذكر الخصومات التى دارت بين المسلمين والمنافقين وأهل الكتاب ، وكذلك الحروب التى وقعت بعد الإذن فى القتال .

ولكن ما ذكره المتقدمون من هذين الطَّوْرين في نزول القران لا يكفي في بيان حال نزول السور في كل منهما ، لأن النبي صلى الله عليه وسلم مكث ثلاث عشرة سنة في مكة بعد البعث ، ومكث عشر سنين في المدينة بعد الهجرة ، ومثل هذا الزمن الطويل في كل من مكة والمدينة تتغير فيه الأحوال ، وتتجدد الحوادث والمناسبات ، فلا بد من التوسع في بيان هذه الأطوار ، حتى نصل إلى دراسة أتمّ فيما يتعلق بالمناسبات بين أغراض السور وتواريخ نزولها ، وهذا يكون بتقسيم كل من هذين الطورين الطويلين إلى أطوار قصيرة الزمن ، يراعى فيها الحوادث التي كان لها أثر ظاهر في سيرة النبي صلى الله عليه وسلم ، ويمكن تقسيم الأطوار التي نزلت فيها السور المكية إلى ما يأتي :

١ — من ابتداء الوحي إلى الهجرة إلى الحبشة ، وكانت الهجرة إلى الحبشة في نحو السنة السابعة من البعثة ، وقد نزل فيما بين ذلك ما يأتي من السُّوَر :

« العلق . القلم . المُزَّمِّل . المدَّثِّر . الفاتحة . المَسَد . التكوير . الأعلى . الليل . الفجر . الضحى . الشَّرْح . العصر . العاديات . الكوثر . التكاثر . الماعون . الكافرون . الفيل . الفَلَق . الناس . الإخلاص »

والأولى من هذه السور في اعلان الدعوة ، والثانية في تثبيت النبي صلى الله عليه وسلم ، والثالثة في تهيئته للدعوة ، والرابعة في استنهاضه لها ، والخامسة في حمد الله على الدعوة ، وطلب إعانته وهدايته فيها ، والسادسة والسابعة في إنذار الكفار بالهلاك بعد رفضهم لها ، والثامنة في إثبات حسابهم على أعمالهم ، وما يتبع هذا من ثواب وعقاب وترغيب وترهيب ، وبهذا يبتدىء الدخول في صميم الدعوة ، ويتوالى ما بعد هذه السور في هذا الطور ، مراعى فيه زمن ابتداء الدعوة ، وحال من وجهت إليهم في ابتدائها من مشركي مكة ، وحال من آمن بها من أهلها ، ولهذا جاءت كلها من قصار المُفصَّل ، فناسبت في قصرها وأغراضها ما اقترن بها في هذا الزمن ، ومما تجب مراعاته فيه أن المشركين اكتفوا فيه بالطعن في الدعوة وصاحبها ، ولم يطالبوه بآية عليها ، لأنهم كانوا يستهينون بها في أول أمرها

(٢) من الهجرة إلى الحبشة إلى الإسراء ، وكان الإسراء قبل الهجرة إلى المدينة بسنة ، وقد نزل فيما بين ذلك ما يأتى من السُّوَر :

« النجم . عبسَ . القدْر . الشمس . البروج . التّين . قريش . القارعة . القيامة الهُمزَة . المُرْسلات . ق . البلد . الطارق . القمر . ص . الأعراف . الجِنُّ . يس . الفرقان . فاطر . مريم . طه . الواقعة . الشعراء . النّمل . القَصَص »

وقد جمعت هذه السُّور بين قصار المُفَصَّل وبعض ما يليه فى الطول ، فتدرجت فى هذه الناحية من القِصَر والطول بعض التدرج ، وقد جاء فيها مع هذا سورة واحدة من السور الطوال ، وهى سورة الأعراف ، وأما أغراضها فجاءت مناسبة أيضا لحال الزمان والمكان الذى نزلت فيه ، من شرح للعقائد إلى ترغيب وترهيب ، إلى دفع شبه للمشركين ، إلى غير هذا مما يناسب ذلك التاريخ الذى نزلت فيه تلك السور ، ولكن المشركين انتقلوا فيه من الطعن فى الدعوة إلى التعنُّت بطلب الآيات عليها ، فلم يجابوا إلى ما طلبوه من ذلك ، لأن المتعنِّت لا يؤمن إذا أجيب إلى ما يطلب ، ولم يُتحدَّوْا أيضا فيه بمعجزة القرآن ، لأنهم لم يصلوا فيه إلى ما يوجب هذا التحدّى ، وإن كان قد وقع فى آخر سورة القَصَص ما يمكن أن يُعد تمهيداً لتحديهم بهذه المعجزة ، وهى آخر تلك السور نزولا ، فلا فرق يذكر بينها وبين ما يأتى من السور التى وقع فيها هذا التحدى .

(٣) من الإسراء إلى الهجرة إلى المدينة ، وقد نزل فيما بين ذلك ما يأتى من السُّور :

« الإسراء . يونس . هُود . يوسف . الحِجْر . الأنعام . الصّافّات . لقمان سَبأ . الزُّمَر . غافر . فُصِّلت . الشُّورى . الزُّخرُف . الدُّخان . الجاثية . الأحقاف . الذّاريات . الغاشية . الكهف . النحل . نوح . إبراهيم . الأنبياء . المؤمنون . السجدة . الطُّور . الملك . الحاقَّة . المعارِج . النّبأ . النازعات . الانفطار . الانشقاق . الرُّوم . العنكبوت . المطفِّفين »

وهذه السور أكثرها من المثانى والمِئين ، وليس بينها إلا قليل من قصار المفصَّل ،

وسورة واحدة من الطِّوال . وهى سورة الأنعام ، وقد تدرجت فى هذه الناحية من القِصر والطول أكثر مما تدرجت السور السابقة ، وأما أغراضها فجاءت أيضا مناسبة لحال الزمان والمكان الذى نزلت فيه ، وكان الإسراء مبعث تفاؤل لهذه الدعوة ، ورمزا للهجرة إلى المدينة ، فكان له أثره فيما أنذر المشركون به فى هذه السور من عذاب قريب يحلُّ بهم ، وفيما فيها من قرب إنجاز الوعد بالنصر عليهم، وفى الانتقال من الاكتفاء بدفع شبههم إلى تحدِّيهم بمعجزة القرآن ، لأن ما نزل منه بلغ من الكثرة ما يصلح للتحدِّى ، وقد مضى المشركون فى تعنتهم بطلب الآيات، فتحدَّوا بالآية التى نزلت مناسبة لهم فى تفاخرهم بالفصاحة والبلاغة ، لتكون معجزة باقية مناسبة لدعوتها الباقية ، فيختم بها عهد المعجزات ، كما ختم بدعوتها عهد الدعوات .

ويمكن تقسيم الأطوار التى نزلت فيها السور المدنية إلى ما يأتى :

(١) من الهجرة إلى المدينة إلى غزوة بدر ، وكانت غزوة بدر فى السنة الثانية من الهجرة ، وقد نزلت فيما بين ذلك سورة البقرة ، وهى أولى السبع الطِّوال وأطولها ، وقد انتقل القرآن فيها من خطاب المشركين بمكة ، إلى خطاب المنافقين واليهود بالمدينة ، لأن الدعوة انتقلت إليهم بعد هذه الهجرة ، وقد جاء فيها مع هذا من أحكام العبادات والمعاملات ما كان لازما لاستقرار أمر المسلمين بالمدينة ، وما كان لازما لحاجتهم بعد استقرارهم فيها .

(٢) من غزوة بدر إلى صلح الحُدَيْبية ، وكان صلح الحديبية فى السنة السادسة من الهجرة ، وقد نزل فيما بين ذلك ما يأتى من السُّور :

« الأنفال . آل عمران . الأحزاب »

ويغلب فى هذه السور ذكر أخبار القتال وأحكامه ، لأن القتال فى ذلك التاريخ كان متواصلا بين المسلمين والمشركين واليهود ، وقد جاء فيها أيضا من الأحكام الشرعية ما نزل فى تاريخ نزولها ، ليجرى القرآن على طريقته فى تنويع الأسلوب ، ولا يجرى فيه على

نسق واحد ، وقد جاء فيها أيضا ذكر أخبار المنافقين ، وما كان من أمرهم فى ذلك القتال ، فذُمُّوا فيها كما ذُمُّوا فى سورة البقرة ، ولم يصل الأمر إلى أكثر من هذا فى إعلان العداء لهم .

(٣) من صلح الحُدَيْبية إلى غزوة تَبوك ، وكانت غزوة تبوك فى السنة التاسعة من الهجرة ، وقد نزل فيما بين ذلك ما يأتى من السُّور :

«الممتحنة . النساء . الزلزلة . الحديد . محمد . الرعد . الرحمان . الإنسان . الطلاق البيِّنة . الحشر . النور . الحج . المنافقون . المجادلة . الحجُرات . التحريم . التغابُن . الصَّف . الجمعة . الفتح . المائدة»

وقد قلّ القتال فى ذلك التاريخ بعد ذلك الصلح ، فقلت أخباره فى هذه السور ، وكثرت فيها الأحكام التشريعية ، وجرى فيها أمر المنافقين على ماجرى عليه فيما قبلها ، من الاكتفاء فى إعلان العداء لهم بذم نفاقهم ، وتقبيح أمرهم ، وقد استوفى الدين فى هذا التاريخ أحكامه أو كاد يستوفيها ، ولهذا أعلن الله فى آخر سوره نزولا — سورة المائدة — أنه أكمله لنا ، وأتم نعمته به علينا .

(٤) من غزوة تبوك إلى موت النبى صلى الله عليه وسلم ، وكان موته فى السنة العاشرة من الهجرة ، وقد نزل فيما بين ذلك ما يأتى من السُّور : « التوبة . النصر »

وقد تم فى هذا التاريخ نشر الدين فى بلاد العرب من أقصاها إلى أقصاها ، فتحقق النصر الذى وعد الله المسلمين به فيما سبق من السور ، وقد وصل أمر المنافقين فى فى غزوة تبُوك إلى أقصى حده ، فآن وضع حد للشرك الظاهر والباطن فى هذه البلاد ، ليستمر أمرها للإسلام وحده ، ولهذا جاءت سورة التوبة لإعلان البراءة من المشركين والمنافقين ، فمنع المشركون فيها أن يقربوا المسجد الحرام للحج وغيره ، ومنع المسلمون من مهادنتهم وتجديد عقودهم ، ومنع النبى صلى الله عليه وسلم من ملاينة المنافقين والصلاة على من مات منهم ، ، وقد كان هذا سبباً فى القضاء على الشرك فى بلاد العرب ، وفى القضاء على النفاق بالمدينة ، فلم يبق فيها إلا بعض من

أهل الكتاب ، وقد أجيز لهم أن يبقوا فيها على أن يدفعوا جزية للمسلمين ، وهي في نظير مايدفعه المسلمون من الزكاة المفروضة عليهم .

وهذا هو النصر الذي أعلن في سورة النصر ، وختم بإعلانه مانزل من سور القرآن:

« إذا جاءَ نصرُ اللهِ والفتحُ ورأيت الناس يدخلون في دينِ اللهِ أفواجاً ، فسبِّحْ بحمد ربِّك واستغفرْهُ إنه كان توّاباً »

والحق أن سورة الحشر من السور التي نزلت فيما بين غزوة بدر وصلح الحديبية ، لأنها نزلت في غزوة بني النضير ، وكانت هذه الغزوة في السنة الرابعة من الهجرة ، ومما يؤيد هذا أنها مذكورة في مصحف ابن عباس بعد سورة آل عمران .

والحق أيضاً أن سورة الفتح تلي في النزول سورة الممتحنة ، لأنها نزلت عند الانصراف من الحديبية ، ومما يؤيد هذا أنها مذكورة في مصحف ابن عباس بعد هذه السورة .

تشابه مقاصد القرآن

قال الله تعالى في الآية — ٢٣ — من سورة الزمر (اللهُ نَزَّل أحسنَ الحديث كتاباً متشابهاً مَثَانِيَ تقشعرُّ منهُ جلودُ الذينَ يخشونَ ربَّهمْ) فوصف القرآن بأنه كتاب متشابه ، وجعل هذا صفة مدح له ، وذلك لأن القرآن يشتمل على أنواع من الأوامر والنواهي والوعد والوعيد والقصص والمواعظ ، وما إلى هذا من الأنواع التي يشتمل عليها ، وتتكرر في كل سورة من سوره ، وكلها أنواع متشابهة المقاصد ، متقاربة الأغراض ، لاتخرج عن الوظيفة الدينية للقرآن ، ولا تحيد عن الغاية الدينية التي نزل من أجلها ، لأنه نزل لتشريع العقائد والأحكام ، فيجب أن يقف عند حدودها ، وأن يكون كل مافيه من أوامر ونواهٍ ووعد ووعيد وقصص ومواعظ وغيرها متصلا بها ، فلا يقصد منه غير هذا من بيان مسائل التاريخ أو الطب أو غيرهما من العلوم ، لأنه لم ينزل لغرض من هذه الأغراض ، وإنما نزل للأغراض

السابقة التي لا سبيل إلى معرفتها إلا بالوحي ، أما هذه الأغراض العلمية فإنها تعرف بالعقل ، ولا تتوقف معرفتها على الوحي ، فلا يصح أن يخلط بينها وبين الأغراض السابقة في كتاب ديني كالقرآن أو غيره

وقد حددت الوظيفة الدينية للقرآن في فاتحته ، وهي أول سورة منه ، فقال تعالى فيها (بِسْمِ الله الرحمـن الرحيم ، الحمدُ لله ربِّ العالمين ، الرحمن الرحيم ، مالك يوم الدِّين ، إياك نعبد وإياك نستعينُ ، إهْدِنا الصراطَ المستقيم ، صراطَ الذين أنعمتَ عليهمْ غير المغضوبِ عليهمْ ولا الضَّالينَ) وهو في هـذا يبين أنه يراد من القرآن الهداية إلى صراط مستقيم ، وهو الدين الذي بعث به النبي صلى الله عليه وسلم ، والكتاب يقرأ من فاتحته ، فهي التي تحدد المقصود منه ، وتبين الغرض الذي يريد تحقيقه ، وقد توالت سور القرآن بعد هذه الفاتحة ، فسارت في هذا الغرض الذي حدد فيها ، ولم تحد سورة منها عنه ، وبهذا تشابهت سوره في أغراضها ومقاصدها ، كما تشابهت أوامره ونواهيه وما إليهما اشتمل عليه

فلم تُعْـن سورة من سور القرآن بتدوين تاريخ الخلق مثلا ، أو تاريخ شعب من الشعوب ، أو تاريخ رسول من الرسل ، فتسن في هذا أسلوبا تاريخياً يقصد منه الاطلاع ومعرفة الأخبار ، ويراد منه الكشف عما يجهله الناس منها ، لأن هذا ليس في شيء من وظيفة الكتب السماوية ، ولا يتوقف أمره على تنزيل سماوي ، حتى ينزل به وحي من عند الله تعالى ، وإنما هو أمر في متناول البشر ، يصلون إليه بعقولهم ، ويعرفونه باجتهادهم وبحثهم .

وقد يقال إن القرآن قد جاء فيه كثير من أخبار الماضين ، وقد نزلت فيه سور تكاد تكون مقصورة على أخبار رسول من الرسل ، ومن هذا سورة يوسف وسورة طه ، فالأولى مقصورة على أخبار يوسف عليه السلام ، والثانية تكاد تكون مقصورة على أخبار موسى عليه السلام .

والجواب أن القرآن لا يقص علينا أخبار الماضين كما يقصها المؤرخون ،

لا يريدون منها إلا إفادة العلم بها ، وكشف المجهول منها ، وإنما يقصها ليستخلص منها العظة الدينية التي تدخل في وظيفته ، وليكون منها تذكرة نافعة لنا في دنيانا وأخرانا ، فلا يقص منها إلا الأخبار التي يمكن أن يستخلص هذا منها ، فيختارها اختياراً دون غيرها من الأخبار التي لا يقصد منها إلا الفائدة الإخبارية التاريخية ، وهنا تختلف وظيفة الكتاب المنزل عن الكتاب التاريخي ، فالكتاب المنزل إذا ذكر أخبار قوم من الماضين يذكرها نتفا من هنا ونتفا من هناك ، فيختارها اختيارا يوافق غايته الدينية ، أما الكتاب التاريخي فيذكرها كاملة غير منقوصة ، ويرتبها ترتيبا يوافق ترتيبها في حوادث الزمن .

ويندر أن يقع في القرآن قصة ترتب حوادثها ذلك الترتيب الزمني ، ولا يكاد هذا يجاوز عدد أصابع اليد من السور ، ومن هذا قصة يوسف عليه السلام ، فإنها مرتبة ترتيبا زمنيا يبتدىء من صغره إلى أن وصل أمره في مصر إلى ما وصل إليه ، ولكنها لا يذكر فيها مع هذا إلا ما يدخل في باب العظة والعبرة ، فيحذف فيها ما عداه مما يدخل في باب التاريخ المحض ، ولا يقصد منه إلا المعرفة والاطلاع ، لتوسيع الثقافة التاريخية ، وزيادة الثروة العلمية .

ولهذا كله امتاز القرآن من بين الكتب بأنه الكتاب الذي يقرأ ويتلى ، وتكرر تلاوته وقراءته ، فلا يمل ذلك قارئه وتاليه ، لأنه يتلوه للعظة والتذكرة ، والإنسان كثيرا ما يعتريه النسيان ، وتعتوره الغفلة ، فيحتاج إلى تكرير ما يعظه ويذكره ، لتستمر له أسباب العظة والتذكير ، وتتهيأ له وسائل السعادة في دنياه وأخراه ، لأنه يكرر ذكر خالقه وما له عليه من حقوق ، وهي حقوق ترجع إلى تهيئة وسائل تلك السعادة له ، ليعيش في الدنيا رغيد العيش ، محبا لكل ما تربطه به صلة قرابة أو دين أو وطن أو إنسانيه أو حيوانية ، وبهذا ينال السعادة في أخراه كما نالها في دنياه ، لأن الدنيا قنطرة الآخرة .

ولهذا كله امتاز القرآن بهذا الاسم من بين الكتب ، لأن القرآن مصدر قرأ

يقرأ قرءاً وقراءة وقرآناً ، فتعرف حقيقته من عنوانه ، وتدرك وظيفته من اسمه ، وقديما قالوا : إن الكتاب يقرأ من عنوانه .

فإذا أردنا أن نوازن بين ما امتاز القرآن به من ذلك كله وبين التوراة الموجودة الآن وجدنا أن التوراة تشتمل على خمسة أسفار :

١ — سِفر التكوين ، وهو يشتمل على التاريخ القديم ، من بدء الخلق إلى موت يوسف عليه السلام .

٢ — سفر الخروج ، وهو يشتمل على تاريخ خروج بنى إسرائيل من مصر ، كما يشتمل على كثير من المسائل التشريعية والطقوس الدينية .

٣ — سفر اللاَّوِيِّين ، وهو يشتمل على الطقوس الدينية الخاصة بتقديم القرابين ، وعلى طقوس الكهان من أبناء هارون .

٤ — سفر العدد ، وهو يشتمل على تاريخ خروج بنى إسرائيل من سيناء إلى شرق الأردن ، وعلى بعض الرسوم الخاصة بالطقوس والعبادات .

٥ — سفر التثنية ، ويراد منه تثنية الشريعة أى إعادتها مرة ثانية ، فيقصد من الشريعة فى هذا السفر تطهير الطقوس ، مع تعيين مكان خاص ، وهو أرض موآب فى شرق الأردن .

وبهذا تجمع هذه التوراة بين وظيفة المؤرخ ووظيفة المشرع ، وتسير فى كل منهما سيراً منفرداً عن الآخر ، كما تؤرخ لبدء الخلق فى فاتحتها فتقول :

« فى البدء خلق الله السماوات والأرض ، وكانت الأرض خربة وخالية وعلى وجه الغمر ظلمة وروح الله يرفُّ على وجه المياه ، وقال الله ليكن نور فكان نور ، ورأى الله النور أنه حسن ، وفصل الله بين النور والظلمة ، ودعا الله النور نهارا ، والظلمة دعاها ليلا ، وكان مساء وكان صباح يوما واحداً ، وقال الله ليكن جلد فى وسط المياه ، وليكن فاصلا بين مياه ومياه ، فعمل الله الجلد وفصل بين المياه التى تحت الجلد والمياه التى فوق الجلد ، وكان كذلك ، ودعا الله الجلد سماء ، وكان مساء وكان صباح يوما ثانياً — إلخ إلخ »

فتمضى على هذا الأسلوب التاريخي المحض فى سفر التكوين إلى أن تنتهى منه ، وكذلك أمرها فى كل ماجاء فيها من الحوادث التاريخية ، لا تسوقها للعبرة والتذكرة ، وإنما تسوقها للفائدة التاريخية ، وكذلك معظم أسفار العهد القديم التى تنسب إلى أنبياء بنى إسرائيل قبل عيسى عليه السلام ، ولا شك أن هذه وظيفة تاريخية ليست فى شيء من أمر الوحى ، ولا تتوقف معرفتها عليه ، فلا يكون هناك معنى لحشرها بين تلك الشرائع والطقوس ، لأنها لا تشبهها فى مقاصدها وأغراضها .

وإذا تركنا التوراة إلى الأناجيل الأربعة الموجودة الآن نجد إنجيل متَّى يمضى فى ذلك الأسلوب أيضا ، فيقول فى فاتحته :

« كتاب ميلاد يسوع المسيح ابن داود بن إبراهيم ، إبراهيم ولد إسحاق ، وإسحاق ولد يعقوب ، ويعقوب ولد يهوذا وإخوته ، ويهوذا ولد فارص وزارح من ثامار ، وفارص ولد حصرون — إلخ إلخ »

وكذلك نجد إنجيل مرقس يقول فى فاتحته :

« بدء إنجيل يسوع المسيح ابن الله ، كما هو مكتوب فى الأنبياء ، ها أنا أرسل أمام وجهك ملاكى الذى يهىء طريقك قدامك ، صوتُ صارخ فى البرّية أعدُّوا طريق الرب ، اصنعوا سبله مستقيمة ، وكان يوحنا يعمد فى البرية ويكرز بمعمودية التوبة لمغفرة الخطايا . . . . . وكان يكرز قائلا يأتى بعدى من هو أقوى منى الذى لست أهلا أن أنحنى وأحلّ سيور حذائه ، أنا عمّدتكم بالماء ، وأما هو فسيعمدكم بالروح القدس — إلخ إلخ »

وكذلك نجد إنجيل لوقا يقول فى فاتحته :

« إذا كان كثيرون قد أخذوا بتأليف قصة فى الأمور المتيقنة عندنا كما سلمها إلينا الذين كانوا منذ البدء معاينين وخدّاما للكلمة ، رأيت أنا أيضاً إذ قد تتبعت كل شيء من الأول بتدقيق أن أكتب على التوالى إليك أيها العزيز ثاوُفيلُس ، لتعرف صحة الكلام الذى علّمت به إلخ إلخ »

وكذلك نجد إنجيل يُوحنّا يقول فى فاتحته :

« فى البدء كان الكلمة ، والكلمة كان عند الله ، وكان الكلمة الله ، هذا كان فى البدء عند الله ، كل شىء به كان ، وبغيره لم يكن شىء مما كان ، فيه كانت الحياة ، والحياة كانت نور الناس ، والنور يضىء فى الظلمة ، والظلمة لم تدركه — إلخ إلخ » .

فهذه الأناجيل الأربعة الموجودة الآن لا يقصد منها إلا تدوين تاريخ المسيح عليه السلام ، وكل واحد منها يعنى بتدوين سيرته على النحو الذى أراده ، فتتفق فى ذلك مرة وتختلف أخرى ، ويذكر بعضها من أقوال المسيح عليه السلام وأفعاله ما يذكره الآخر ، أو يذكر منها مالم يذكره ، وقد تختلف وتتناقض فى الخبر الواحد

ولا شك أن تاريخ المسيح عليه السلام لا يحتاج إلى كتاب منزل ، لأن أصحابه قد شاهدوا أقواله وأفعاله ، وعرفوا سيرته من أولها إلى آخرها ، ثم عرفها منهم من أتى بعدهم من أتباعهم ، ومثل هذا مما يدونه البشر ، ولا يحتاج فى تدوينه إلى كتاب منزل .

وإنى أومن بعد هذا بأن قوله تعالى فى الآية السابقة (كتابا متشابها مثانى) إشارة إلهية إلى هذه الموازنة الخفية بين القرآن والتوراة الموجودة عند اليهود والإنجيل الموجود عند النصارى ، ليقيمها دليلا على أن القرآن تنزيل من عنده ، لأنه جاء بمقاصد متشابهة لا ينزل بها إلا الوحى ، ولم يخلط بينها وبين مقاصد أخرى لا تشبهها ، ولا توافقها فى أغراضها وغاياتها .

سورة الفاتحة

تاريخ نزولها ووجه تسميتها :

اختلف العلماء فى تاريخ نزول الفاتحة ، فقيل إنها نزلت بمكة بعد سورة المدّثّر ، وهو قول أكثر العلماء ، وقيل إنها نزلت بالمدينة ، وهو قول مجاهد ، وقيل إنها نزلت مرتين : مرة بمكة ومرة بالمدينة ، وسبب ذلك التنبيه على شرفها وفضلها ، وإذا كانت قد نزلت بعد سورة المدثر فهى خامسة سور القرآن فى النزول ، وقد نزلت بذلك فى مرتبتها كفاتحة للكتاب بعد المناسبات التى اقتضت سبق السور الأربع لها ، وبهذا تكون من السور التى نزلت فيما بين ابتداء الوحى والهجرة إلى الحبشة

وقد سُمّيت هذه السورة بهذا الاسم لأن القرآن افتتح بها فى مصحف عثمان ، وهو المصحف الذى اعتمد على ترتيبه جمهور المسلمين ، وتبلغ آياتها سبع آيات

الغرض منها وترتيبها :

نزلت هذه السورة لتكون من القرآن بمنزلة المقدمة للكتاب ، لأن نظام التأليف يقضى بألا يفاجىء المؤلف قراء كتابه بمقصوده منه ، بل يجب أن يبدأه بمقدمة تبين غرضه منه ، ليكون القارىء على بصيرة به قبل الشروع فيه ، وهذه المقدمة يجب أن تشتمل على ثلاثة أركان : أولها افتتاحها باسم الله والحمد والثناء عليه شكرا له على ذلك التأليف الذى هدى إليه ، وثانيها إظهار الخضوع له ، وبيان أنه لا عون إلا منه ، وثالثها الالتجاء اليه بالدعاء استمدادا لذلك العون . ويجب أن تشتمل مع هذا على مايسمى براعة الاستهلال ، وهى أن يؤتى قبل الشروع فى المقصود بما يشعر به ، ليعرف القارىء الغرض من وضع الكتاب ، ويكون على بصيرة به قبل الشروع فيه ، وقد اشتملت هذه السورة على هذه الأركان الثلاثة . فجاء فى أولها (بسم الله الرحمنِ الرحيم ؛ الحمد لله ربِّ العالمينَ ، الرحمانِ الرحيم ، مالك

يوم الدِّين) فافتتحت باسم الله والثناء عليه بهذه الصفات التي تفرد بها دون غيره، وقد كان العرب في جاهليتهم يفتتحون كلامهم ـ باسمك اللهم ـ فاستبدل به القرآن ـ بسم الله الرحمن الرحيم ـ إشارة إلى أن عهد الإسلام عهد رحمة ، وهو العهد الذي يجب أن يشمل العالم كله ، ويكون خاتمة العهود كلها ـ وهذا هو ركنها الأول

ثم جاء فيها بعد ذلك ركنها الثاني بقوله (إِيَّاكَ نعبدُ وإيَّاكَ نستعين) وفي ذلك إقرار بأنه لا معبود غيره ، ولا عون إلا منه .

ثم جاء فيها بعد ذلك ركنها الثالث بقوله (اهْدِنا الصراطَ المستقيمَ، صراطَ الَّذينَ أنعمتَ عليهمْ غيرِ المغضوبِ عليهم ولا الضَّالِّين) وفي ذلك براعة الاستهلال المطلوبة ، لأنه يشير إلى أن المقصود بالقرآن وضع دين جديد للخلق يشتمل على أحكام لا عوج فيها ولا انحراف ، ويصلح ما أفسده الناس في شرائع الله من قبله .

ولا شك أن هذه الفاتحة بهذا الشكل لم يسبق إليها كتاب قبل القرآن ، وقد صارت بعده قدوة تُتبع ، وسنة تحتذى ، وكفى ذلك دليلا على فضلها وحسن ترتيبها .

سورة البقرة

تاريخ نزولها ووجه تسميتها :

نزلت سورة البقرة بعد سورة المطفِّفين ، وهي أول سورة نزلت بالمدينة ، وأطول سورة في القرآن ، فيكون نزولها فيما بين الهجرة وغزوة بدر .

وقد سمِّيت هذه السورة بهذا الاسم لأن قصة بقرة بني إسرائيل ذكرت فيها ، وتبلغ آياتها ستا وثمانين ومائتي آية .

الغرض منها وترتيبها :

لما هاجر النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة نصبت أحبار يهودها له العداوة

بغياً وحسدا ، ومال إليهم المنافقون من الأوس والخزرج ، فكان أولئك الأحبار يسألونه ويتعنَّتونه ويأتونه باللّبس ليلبسوا الحق بالباطل ، فنزلت سورة البقرة فى أولئك الأحبار وفيما يسألون عنه ، وفى أولئك المنافقين الذين مالوا إليهم ، وفيما نزل من أحكام العبادات والمعاملات بعد استقرار الإسلام بالمدينة ، وقد صار بها للمسلمين جماعة تحتاج إلى هذه الأحكام فى أمر دينها ودنياها .

فيكون الغرض المقصود من هذه السورة الرد على أولئك الأحبار ومن مال إليهم من المنافقين، وبيان فساد ما شغبوا به فى أمر القرآن، وفى أمر النبي صلى الله عليه وسلم ، وقد جر هذا إلى ذكر كثير من أمورهم ، جرى بعضها مجرى الترغيب ، وجرى بعضها مجرى الترهيب ، ثم تخلص من هذا إلى بيان مانزل على المسلمين فى هذا العهد من الأحكام اللازمة لهم فى عباداتهم ومعاملاتهم .

وقد ابتدئت هذه السورة بإثبات نزول القرآن من عند الله ، ليكون تمهيدا لبيان فساد ذلك الشَّغب الذى قام فى أمره وفى أمر النبي صلى الله عليه وسلم ، وهذا هو وجه المناسبة فى ذكرها بعد سورة الفاتحة ، وهذا إلى أنها أطول سورة فى القرآن، وقد راعى مصحف عثمان فى الجملة هذه الناحية فى ترتيب السور .

دعوى تنزيل القرآن

الآيات (١ — ٢٢)

قال الله تعالى (ألم ، ذلكَ الكتابُ لا ريب فيه هدًى للمتقينَ) فذكر أن القرآن نزل قطعاً من عنده ، وأخذ فى التنويه بشأنه ، فذكر أنه هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب ، إلى غير هذا مما ذكره من أوصافهم ، ثم ذكر مخالفيهم من أحبار اليهود والمنافقين ، ووصف نفاق المنافقين من المشركين أشنع وصف ، وضرب فى شناعة أمرهم المثل بعد المثل ، ثم أمرهم أن يعبدوه لأنه هو الذى خلقهم والذين من قبلهم ، وجعل لهم الأرض فراشاً والسماء بناء (وأنزلَ منَ السماءِ ماءً فأخرج به مِنَ الثمراتِ رزقا لكمْ فلا تجعلوُا للهِ أنداداً وأنتمْ تعلمونَ) .

الاستدلال على تنزيل القرآن

الآيات (٢٣ — ٢٥)

ثم قال تعالى (وإنْ كنتمْ في ريبٍ ممّا نزّلنا على عبدنا فأتُوا بسورةٍ منْ مثلهِ وادعوا شهداءكمْ من دونِ الله إن كنتم صادقينَ) فأقام الدليل على تنزيل القرآن من عنده بتحديهم أن يأتوا بسورة من مثله ، وأمرهم أن يدعوا فى ذلك آلهتهم ليعينوهم على الإتيان به ، ثم حذرهم من الاستمرار على الكفر بعد ذلك التحدى ، وبشر المؤمنين بأن لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار (كلّما رُزِقوا منها منْ ثمرة رزقا قالوا هذا الذى رزقنا من قبلُ وأتوا به متشابهاً ولهم فيها أزواج مطهرّة وهم فيها خالدونَ) .

الرد على مقالة اليهود الأولى فى القرآن

الآيات (٢٦ — ٩٠)

ثم قال تعالى (إنّ الله لا يستحيي أنْ يضربَ مثلاً ما بعوضةً فما فوقها — الآية) فرد على مقالتهم الأولى فى القرآن ، وذلك أنه لما ضرب المثل بالذباب والعنكبوت وذكر النحل والنمل قال اليهود : ما أراد الله بذكر هذه الأشياء الخسيسة؟ وقال المنافقون : لا نعبد إلها يذكر هذه الأشياء . فرد عليهم بأنه لا يستحيي أن يضرب ذلك مثلا ، وقد كانت العرب تضرب الأمثال بمثل هذا ، فتقول : هو أحقر من ذرة ، وأجمع من نملة . ثم ذكر أن المؤمنين يعلمون أنه الحق من ربهم ، وأن الكافرين ينكرونه ويضلون به ، لأنهم فاسقون ينقضون ما أخذ عليهم من العهد الأول خلقهم أن يؤمنوا بما يأتيهم من هديه ، ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل من اتباع دينه ، ويفسدون فى الأرض بالقتل والغصب والنهب وسائر أنواع الفساد ، ثم أنكر على المنافقين منهم أن يكفروا به مع أنهم كانوا أمواتاً فأحياهم الخ ، ومع أنه هو الذى خلق لهم ما فى الأرض جميعاً الخ ، ثم انتقل من هذا إلى ذكر قصة آدم ليمهد بها إلى ذكر ما أخذه من العهد عليهم عند خلقهم ، ولهذا ختمها بقوله (قلنا اهبِطوا منها جميعاً فإمّا يأتينّكم منّى هدًى فمَنْ تبعَ هدايَ فلا خوفٌ

عليهم ولاهمْ يحزنونَ ، والذّينَ كفرُوا وكذبوُا بآياتنا أولئكَ أصحابُ النارِ هم فيها خالدونَ) .

ثم انتقل من توبيخ المنافقين على كفرهم به إلى توبيخ اليهود الذين يزينون لهم هذا الكفر ، ويؤثرونهم على النبي صلى الله عليه وسلم وهو يدعو إلى الإيمان به ، وفي هذا مشاركة لهم فى كفرهم به ، فأخذ يذكرهم بنعمته عليهم ، ويأخذهم تارة بالترغيب وأخرى بالترهيب ، ويذكر فى هذا ما مضى من أحوالهم وأخبارهم ، فأمرهم أولا أن يذكروا نعمته عليهم ، وأن يفوا بالعهد الذى أخذه عليهم فلا يؤثروا من يكفر به على من يؤمن به ، وأن يؤمنوا بالقرآن الذى نزل مصدقا لما معهم ، ونهاهم أن يلبسوا الحق بالباطل بمثل تلك المقالة فى إنكار ماضربه مثلا من الذباب ونحوه ، إلى غير هذا مما أمرهم به ونهاهم عنه .

ثم أمرهم ثانياً أن يذكروا نعمته عليهم وتفضيله لهم على العالمين ، وأن يتقوا يوماً لايغنى فيه أحد عن أحد شيئاً ، وأخذ يذكرهم ببعض نعمه عليهم وبعض ما مضى من أحوالهم وأخبارهم ، فذكر أنه نجاهم من آل فرعون ، وكانوا يسومونهم سوء العذاب من ذبح الأبناء واستحياء النساء ، وأنه فرق بهم البحر فأنجاهم وأغرق آل فرعون ، وأنه وعد موسى أربعين ليلة فعبدوا العجل من بعده فعفا عنهم ، ولم يعاقبهم بما عاقب به من قبلهم ، وأنه أنزل على موسى التوراة لهدايتهم ، وأنه أمرهم بقتل أنفسهم لعبادتهم العجل ثم نسخ ذلك الأمر رحمة بهم ، وأنهم قالوا لموسى (لنْ نؤمنَ لكَ حتّى نرى الله جهرةً)فأخذتهم الصاعقة عقوبة لهم ، ثم بعثهم من بعد موتهم وظلّل عليهم الغمام وأنزل عليهم المَنّ والسّلوَى ، وأنه أمرهم أن يدخلوا بيت المقدس على حالة مخصوصة فبدّلوا فى ذلك وغيّروا ، فأخذ من بدّل وغير بما أخذه به ، وأن موسى استسقى لهم فضرب بعصاه الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً بعدد أسباطهم ، وأنهم لم يصبروا على طعام واحد فى تيههم (المَنّ والسّلوَى) فطلبوا منه أن يدعو ربه ليخرج لهم من الأرض بَقْلا وقِثّاء وفُوماً وعدساً وبصلا ، فأمرهم بأن يهبطوا مصراً من الأمصار ليجيبهم إلى سؤالهم ، وذكر أن

مثل هذا مما ضربت به عليهم الذلة والمسكنة ، ومما كان سبباً فى غضب الله عليهم ، لأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق ، ويرتكبون من العصيان والاعتداء مايرتكبون . وقد استطرد من هذا إلى ذكر حسن جزائه لمن آمن به من المسلمين واليهود والنصارى والصائبين ، جمعاً بين الوعد والوعيد ، وذكرا للترغيب بعد الترهيب .

ثم عاد إلى السياق الأول فذكر أنه أخذ عليهم ميثاقهم أن يؤمنوا به ، ورفع فوقهم الطور عند أخذه عليهم ، فنقضوا ميثاقهم وكفروا به ، ولولا فضله عليهم لأهلكهم بذلك كما أهلك من قبلهم ، وذكر أنهم يعلمون الذين اعتدوا منهم فى السبت فمسخوا قِرَدَةً جزاء لهم على اعتدائهم ، وأن موسى ذكر لهم أن الله يأمرهم أن يذبحوا بقرة فلم يبادروا إلى امتثال أمره ، بل أخذوا يطلبون منه أن يسأل ربه ما هى ؟ فأجابهم بأنها بقرة لا فارض ولا بكر ، ثم طلبوا منه أن يسأله مالونها ؟ فأجابهم بأنها بقرة صفراء فاقع لونها ، ثم طلبوا منه أن يسأله ثانيا ما هى ؟ فأجابهم بأنها بقرة لا ذَلولٌ تثير الأرض ولا تسقى الحرث مسلّمة لا شِيةَ فيها ، فذبحوها بعد كل هذا وما كادوا يفعلون ، ثم ذكر بعد هذا معجزتها فى النفس التى قتلوها ولم يعرفوا قاتلها ، وأن قلوبهم قست بعد هذه المعجزة حتى صارت كالحجارة أو أشد قسوة .

ثم ذكر أن مثل هؤلاء لا يصح للنبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه أن يطمعوا فى إيمانهم ، لأنهم فى ذلك مثل أسلافهم ، فمنهم من يسمع بشارة التوراة بالنبى صلى الله عليه وسلم ، ثم يحرفها من بعد أن عقلها وعرفها ، وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا أن صاحبكم نبى ، ولكن إليكم خاصّة ، وإذا خلا بعضهم إلى بعض تعاتبوا على هذا الإقرار مع ما فيه من التحريف . ومنهم أُمّيُّون جهلاء لا يعلمون التوراة إلا أمانىَّ يمنيهم بها أحبارهم ، فيزعمون أن الله لا يؤاخذهم بخطاياهم ، وأن النار لا تمسهم إلا أياما معدودة بقدر أيام الخلق ، وهى ستة أيام ، ثم رد عليهم ذلك بأن من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فهو مخلد فى النار ، ومن آمن وعمل صالحا فهو مخلد فى الجنة ،

ثم أخذ يذكر لهم بعضا من سيئاتهم ، فذكر أنه أخذ عليهم ميثاقهم أن يخصوه بالعبادة ويحسنوا إلى الوالدين وذى القربى ، إلى غير هذا بما أخذ ميثاقهم عليه ، فتولَّوْا عنه إلا قليلا منهم ، وأنه أخذ عليهم ميثاقهم ألاّ يسفكوا دماءهم ولا يخرجوا أنفسهم من ديارهم ، فخالفوا هذا أيضا ، ثم ذكر أن جزاء من يفعل ذلك إنما هو الخزى فى الدنيا ، ويوم القيامة يرد إلى عذاب أشد من عذاب دنياه .

ثم أخذ يوبخهم على كفرهم واعتيادهم له من قديمهم ، فذكر أنهم كانوا كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم استكبروا عليهم ، فكذبوا بعضهم وقتلوا بعضهم ، ثم ذكر أنهم لما جاءهم القرآن أنكروه على عادتهم ، مع أنه جاء مصدقا لما معهم ، ومع أنهم كانوا من قبله يستفتحون على مشركى العرب بالرسول المنتظر ، فلما جاءهم ما كانوا ينتظرونه كفروا به حسدا أن يكون هناك رسول من غيرهم (فباءوا بغضب على غضبٍ وللكافرينَ عذابٌ مهينٌ) .

الرد على مقالتهم الثانية

الآيات (٩١ — ٩٦)

ثم قال تعالى (وإذا قيلَ لهمْ آمنُوا بما أنزلَ الله قالوا نؤمنُ بما أنزلَ علينا ويكفرونَ بما وراءهُ وهوَ الحقُّ مصدقاً لما معهمْ قلْ فلِمَ تقتلونَ أنبياءَ الله من قبلُ إنْ كنتمْ مؤمنينَ) فذكر مقالتهم الثانية فى القرآن ، وهى زعمهم أنهم مأمورون ألا يؤمنوا إلا بما أنزل إليهم ، وقد رد عليهم بأن القرآن أتى مصدقا لما معهم ، وبأنهم قتلوا أنبياءهم وقد أتوهم بما أنزل إليهم ، وبأن موسى أتاهم بالتوراة فعبدوا العجل حين غاب عنهم أربعين يوما ، وبأنه أخذ ميثاقهم أن يأخذوا ما أتاهم بقوة ويسمعوا له ، فقالوا سمعنا وعصينا ولم ينزعوا عبادة العجل من قلوبهم ، وبأنهم لو كانوا هم المخصوصين بالآخرة حتى لا تكون رسالة فى غيرهم لتمنَّوا الموت استعجالا لثوابها ، وهم لا يتمنَّونه أبدا خوفا من سوء أعمالهم ، وما يعلمه الله من كفرهم وظلمهم (ولتجدنَّهمْ أحرصَ الناسِ على حياةٍ ومنَ الذينَ أشركوا يودُّ أحدهمْ لوْ يعمَّرُ ألفَ سنةٍ وما هُو بمزحزحهِ منَ العذابِ أنْ يعمَّرَ والله بصيرٌ بما يعملونَ)

الرد على مقالتهم الثالثة

الآيات (٩٧ — ١٠٥)

ثم قال تعالى (قلْ مَنْ كانَ عدوًّا لجبريلَ فإنَّه نزَّله على قلبكَ بإذنِ اللهِ مصدقاً لما بينَ يديهِ وهدًى وبشرى للمؤمنينَ) فذكر مقالتهم الثالثة ، وهى طعنهم فى القرآن بأنه نزل به جبريل وهو عدوهم ، لأنه ينزل بالشدة والقتال ، وميكائيل ينزل بالبشر والرخاء ، فرد عليهم بأن جبريل إنما نزله بإذنه ، وهددهم على هـــذه العداوه لله وملائكته ، وذكر أنه أنزل من ذلك آيات بيِّنات لا يكفر بها إلا الفاسقون ، ثم وبخهم على نقض عهدهم مع النبي صلى الله عليه وسلم بطعنهم فى القرآن ، وعلى أنهم ينبذونه وراء ظهورهم وهو مصدِّق لما معهم ، ويتبعون ما ينسبونه زورا إلى سليمان وهارُوتَ وما رُوتَ من كتب السحر ونحوها ، فيستعملونها فى الأعمال السحرية كالتفريق بين الرجل وزوجه ، ويتعلمون منها مايضرهم ولا ينفعهم ، ولو أنهم آمنوا بالقرآن بدلها لكان خيرا لهم ، ثم حذر المؤمنين من مشاركتهم فى بعض كفرهم ، وكانوا يقولون للنبي صلى الله عليه وسلم (رَاعِنا) وهى كلمة عبرية أصلها (رَاعِينا) أى اسمع لاسمعت ، فيقولونها له استهزاء وطعنا فى نبوته ، وكان المؤمنون يقولون له (رَاعِنا) إذا تلا عليهم شيئا من العلم ليتمهل عليهم ، فأمروا أن يقولوا بدلها (انظرْنا) ليخالفوهم فى مقالتهم ، ثم حذر المؤمنين من اتباعهم فى هذا أو نحوه فقال (ما يودُّ الذينَ كفروا منْ أهل الكتابِ ولا المشركينَ أنْ ينزَّلَ عليكمْ منْ خير منْ ربكمْ واللهُ يختصُّ برحمتهِ منْ يشاءُ واللهُ ذو الفضل العظيم)

الرد على مقالتهم الرابعة

الآيات (١٠٦ — ١١٠)

ثم قال تعالى (ما ننسخْ منْ آيةٍ أوْ نُنْسها نأتِ بخيرٍ منها أوْ مثلها ألمْ تعلمْ أنَّ الله على كلِّ شيءٍ قديرٌ) فذكر مقالتهم الرابعة فى القرآن ، وهى طعنهم فى معجزته ، وقول بعضهم للنبي صلى الله عليه وسلم : يا محمد ، ائتنا بكتاب تنزله علينا من السماء

نقرؤه ، وفجّر لنا أنهارا ، نتّبعك ونصدقك . فذكر لهم أنه لا ينسخ آية من آيات الرسل أو ينسيها بآية أخرى إلا كانت الأخرى خيراً من الأولى أو مثلها ، وأنه هو الذى يتصرف فى تلك الآيات كيف يشاء بماله من ملك السماوات والأرض ، وأنه لاشريك له فى ذلك الملك ، ثم وبخهم وذكر أنهم يتعنتون بسؤال هذه الآيات كما تعنت أسلافهم على موسى بسؤال مثلها ، ثم حذر المؤمنين من انخداعهم بتعنتهم فى ذلك ، وذكر أنهم يودون به أن يردوهم كفارا حسدا لهم على إيمانهم ، وأمرهم أن يعفوا ويصفحوا حتى يأتيهم بأمره فيهم ، إن الله على كل شيء قدير (وأقيمُوا الصلاةَ وآتوا الزكاة وماتقدِّموا لأنفسكمْ منْ خيرٍ تجدوهُ عندَ اللهِ إنَّ الله بما تعملونَ بصيرٌ) .

الرد على مقالتهم الخامسة

(الآيات (١١١ — ١١٧)

ثم قال تعالى (وقالوُا لنْ يدخلَ الجنةَ إلا مَنْ كانَ هُوداً أوْ نصارى تلكَ أمانيُّهُمْ قُلْ هاتُوا برهانكم إنْ كنتم صادقينَ) فذكر مقالتهم الخامسة ، وهى قول اليهود والنصارى (لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى) لأنه لادين إلا دينهم ، وقد رد عليهم بأن تلك أمانِيُّ لا دليل عليها ، وبأن كل من آمن به وأحسن فى عمله فله أجره عنده ولو لم يكن يهودياً أو نصرانياً ، وبأن كلامن اليهود والنصارى يطعن فى دين الآخر ، ولا يسلم بأنه يدخل الجنة ، مع أنهم جميعاً يتلون التوراة ، وبأن المشركين الذين لا علم عندهم يزعمون أيضاً أن الآخرة لهم ، وبأنهم يمنعون مساجد الله أن يذكر فيها اسمه ويسعون فى خرابها ، كما خرب النصارى بيت المقدس ، ولا يوجد أظلم ممن يفعل ذلك بالمساجد ، ومثله لا يصح له أن يزعم أنه لايدخل الجنة غيره ، وإنما جزاؤه الخزى فى الدنيا ، وله فى الآخرة عذاب عظيم ، ثم ذكر أن له المشرق والمغرب ، وأن الناس أينما يولوا وجوههم فثمَّ وجهه ، فلا يصح أن يُسعى فى خراب المساجد لاختلاف قبلتها ، كما فعل النصارى مع اليهود

فى بيت المقدس ، ثم ذكر إلى هذا من قبائح النصارى أنهم يزعمون أن لله ولدا ، وهو من الكفر الذى لا يصح لصاحبه أن يطمع فى دخول الجنة ، ورد عليهم هذا بأن له مافى السماوات والأرض كل له قانتون (بديع السماوات والأرض وإذا قضى أمراً فإنَّما يقولُ له كُن فيكون)

الرد على مقالتهم السادسة

الآيات (١١٨ — ١٣٤)

ثم قال تعالى (وقال الذين لايعلمونَ لولا يكلّمنا الله أو تأتينا آيةٌ كذلك قال الّذين مِن قبلهم مثلَ قولهم تشابهتْ قلوبهمْ قد بيّنّا الآياتِ لقوم يوقنون) فذكر مقالتهم السادسة ، وهى قول بعضهم للنبى صلى الله عليه وسلم : يامحمد ، إن كنت رسولا من الله كما تقول ، فقل لله فليكلمنا حتى نسمع كلامه . وقد رد عليهم بأن هذا من التعنت الذى كان يسلكه من قبلهم مع رسلهم ، وبأنه قد أرسله بالحق بشيرا ونذيراً ، وليس عليه إلا أن يبلغه ، ولا يسأل بعد هذا عن تعنتهم وكفرهم ، لأنهم لا يرضون عنه حتى يتبع ملتهم ، ولأن الهدى هداه ولو شاء لهداهم ، وبأن المنصفين منهم يؤمنون بما أنزل إليه ، ويعرفون أنه الرسول المبشر به ، ولما كانت هذه شهادة منهم وفيها أكبر حجة عليهم ، عاد إلى تذكيرهم ثالثا بنعمته عليهم وتفضيلهم على العالمين ، وتخويفهم من يوم لا يغنى فيه أحد عن أحد شيئا ، ليحملهم على الإقرار بهذه الشهادة ، ثم شرع فى ذكر قصة إبراهيم وإسماعيل وبنائهما البيت بمكة ، إلى أن ذكر دعاء إبراهيم له أن يبعث فى أهلها رسولا منهم يعلمهم الكتاب والحكمة ، ليدلهم على موضع البشارة به فى كتبهم ، ويحملهم على الإقرار بها كما أقر بها من آمن منهم ، ثم ذكر لهم أن ملته هى ملة إبراهيم التى لا يرغب عنها إلا من سفه نفسه ، وهى دين التوحيد الخالص الذى أسلم فيه لرب العالمين ، ووصى بنيه به من بعده ، وكذلك وصى يعقوب بنيه به أيضاً ، ثم ختم ذلك بأن ماقصه من أمرهم وما كانوا عليه من الإسلام والتوحيد لا يعود نفعه إلا إليهم ، ولا ينتفع اليهود والنصارى

بانتسابهم إليهم لمخالفتهم لهم (تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعلمون) .

الرد على مقالتهم السابعة

الآيات (١٣٥ — ١٤١)

ثم قال تعالى (وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا قل بل ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين) فذكر مقالتهم السابعة ، وهي قول بعضهم للنبي صلى الله عليه وسلم : ما الهدى إلا ما نحن عليه ، فاتبعنا يا محمد تهتدى وقد قالت النصارى مثل ذلك أيضاً ، فجمع مقال الفريقين ليرد عليهم جميعاً ، ثم رد عليهم بأمره صلى الله عليه وسلم أن يقول لهم (بل ملة إبراهيم حنيفاً) أى بل نتبع ملة إبراهيم الخالصة من الشرك الذى وقعوا فيه ، وبأمره المسلمين أن يقولوا لهم (آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم — الآية) فإن آمنوا بذلك ولم يفرقوا بين أحد من الأنبياء فقد اهتدو إلى الدين الذى يجمعهم ، وإن لم يؤمنوا به فسيبقون على ما هم فيه من شقاق ، وهذا الدين هو صبغة الله لا ما صارت إليه اليهودية والنصرانية ، ثم أمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يذكر لهم أنه إنما يدعوهم إلى الإيمان بربهم ، أفيحاجون فيه وهو ربهم جميعاً ، أم يقولون إن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا هودا أو نصارى ، والله يعلم أنهم لم يكونوا كذلك (تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون)

الرد على مقالتهم الثامنة

الآيات (١٤٢ — ١٧٧)

ثم قال تعالى (سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها قل لله المشرق والمغرب يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم) فذكر مقالتهم الثامنة ، وهى قول بعضهم بعد تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة : يا محمد ، ما ولاك عن قبلتك التى كنت عليها ؟ وأنت تزعم أنك على ملة إبراهيم ودينه ، إرجع إلى قبلتك

التي كنت عليها نتبعك ونصدقك . وإنما يريدون بذلك فتنته عن دينه ، فأمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يرد عليهم بأن المشرق والمغرب لله يولى إليهما من يشاء ، وبأنه بهذه القبلة يجعلهم أمة وسطاً بين أمم الشرك بالشرق ، وأهل الكتاب من اليهود والنصارى بالغرب ، ليكونوا شهداء عليهم بعد تبليغهم دينهم ، وبأنه لم يعد بالقبلة إلى ما كانت عليه قبل الهجرة إلا ليميز بين المؤمنين الصادقين الذين يعلمون أنها الحق ، والمنافقين الذين يبطنون الكفر ويتأثرون بتلك المقالة ، وبأن قبلة بيت المقدس لم تكن القبلة اللائقة بالمسلمين ، ولهذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يقلب وجهه بالدعاء لتحول قبلتهم إلى الكعبة ، والمتصفون من أهل الكتاب يعلمون أنها الحق من ربهم ، أما غيرهم فلا يؤمنون بها وإن أتاهم بكل آية عليها ، على أنهم مختلفون في قبلتهم ، فإذا اتبع قبلة بعضهم أغضب غيرهم ، ثم ذكر أن لكل أمة قبلة هو موليها ، فليستبق المسلمون إلى الخيرات من الأعمال الصالحة ، لأنها هي المقصود الأهم ، وشأن القبلة دون شأنها ، ثم أمره أن يولى وجهه شطر المسجد في أي مكان كان لأنه الحق منه ، وأمر المسلمين أن يتبعوه في ذلك لئلا يكون للناس عليهم حجة ، وكان اليهود يقولون : لم يدر محمد أين يتوجه في صلاته حتى هديناه . وكان العرب يقولون : إنه كان يقول أنا على ملة إبراهيم ، والآن ترك التوجه إلى الكعبة ، ومن ترك التوجه إلى الكعبة فقد ترك دين إبراهيم . ثم ذكر حكمة ثانية لذلك وهي أن يتم عليهم نعمته بجعل كعبتهم قبلتهم ، كما جعل رسولهم منهم ، ثم أمرهم أن يقابلوا ذلك بذكره وشكره ، وأن يستعينوا على ذلك بالصبر والصلاة والجهاد في سبيله ، فإذا أصابهم في ذلك شيء من الخوف والجوع ونحوهما فليصبروا عليه ليكون لهم بشرى الصابرين ، ثم ختم ذلك ببيان أن الصفا والمروة من شعائر الله بالمسجد الحرام الذي أمروا بالتوجه إليه ، وكان الأنصار من أهل المدينة يكرهون أن يطوفوا بينهما.

ولما انتهى من الرد عليهم في ذلك شرع في تهديدهم على كتمان ما جاء في التوراة من البشارة بالنبي صلى الله عليه وسلم ، فذكر أن من يفعل ذلك منهم يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون ، وأن من تاب منهم عن الكتمان وآمن يقبل الله توبته ، ومن أصر على الكفر استحق تلك اللعنة ، ثم شرع يوبخ اليهود على انقيادهم لأولئك

الأحبار الذين يكتمون عنهم ذلك واتخاذهم أندادا من دونه ، فذكر لهم أن إلههم واحد لا شريك له ، وأن فى خلق السماوات والأرض وغيرهما آيات دالة على تفرده بالألوهية ، فلا يليق بهم أن يتخذوا أحبارهم الذين يكتمون عليهم ذلك أندادا من دونه ، فيحبوهم كحبه ولا يعصوهم فى شيء . ولو يرون ما أعدّ لهم من العذاب لتدبروا فى أمرهم ، لأنهم حين يرونه تتقطع بهم الأسباب ، ويتبرأ المتبوعون من التابعين ، فلا يمنعون عنهم شيئاً من العذاب ، ويود التابعون لو أن لهم كرة إلى الدنيا ليتبرءوا منهم كما تبرءوا منهم ، ثم أمرهم بعد هذا التحذير البالغ من أحبارهم أن يأكلوا مما فى الأرض حلالا طيباً ، ولا يتبعوا خطواتهم فيما يحرمون عليهم من الطيبات ، لأنهم يتبعون بهذا خطوات الشيطان وهو أشد أعدائهم ، ويقولون على الله مالا يعلمون تقليداً لأحبارهم ، ولكنهم إذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله من حل تلك الطيبات أبوا إلا تقليد أولئك الأحبار ، ولو كانوا لا يعقلون شيئا ولا يهتدون ، ومثل من يدعوهم إلى ذلك كمثل الذى ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء ، ولا يفهم مما يُدْعَى به شيئاً ، ثم ترك دعاءهم إلى ذلك لأنه لا يرجى صلاحهم ، وأمر المؤمنين بما أمر به أولئك المخالفين ، وأن يشكروه على ما أحل لهم من ذلك ، وذكر لهم أنه لم يحرم عليهم إلا الميتة والدم وماذكر معهما ، ثم عاد إلى أولئك الأحبار فذكر أنهم يكتمون ما أنزل الله من البشارة بالنبى صلى الله عليه وسلم ، ويشترون بهذا ثمنا قليلا من دنياهم ، وهددهم بأنهم يأكلون به نارا فى بطونهم ، وينالون به غضبه عليهم فى أخراهم ، إلى غير هذا مما ذكره فى تهديدهم ، ثم ذكر أنهم أستحقوا ذلك بأنه نزل القرآن بالحق فلم يؤمنوا به ، ووقعوا فى ذلك الشغب والشقاق البعيد ، وهو الذى جاء فى تلك المقالات التى ردت عليهم .

ثم ختم ذلك الجدال معهم بأن ما يتعلقون به من أمر القبلة لا يذكر فيما يجب من البرّ ، ولكنّ البرّ من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب ، إلى غير هذا من أنواع البر ، ثم مدح من جمع ذلك كله فقال (أولئكَ الذين صدقُوا وأولئك هم المتقونَ)

حكم القصاص

الآيتين (١٧٨ — ١٧٩)

ثم قال تعالى (يأيها الذينَ آمنُوا كتبَ عليكم القصاصُ فى القتلى — الآية) فشرع فى بيان الأحكام التى أراد ذكرها فى هذه السورة، وذلك بعد أن انتهى من محاجّة اليهود، ومهد له بأن المهم هو ماجاء به القرآن من الأحكام، لا ماتعلقوا به من أمر القبلة ونحوه، ولا شك أن فى هذا ما تستشرف به النفس لبيانها، وتتطلع إلى معرفة بعضها، وقد بدأ منها بحكم القصاص الذى يراد به حفظ النفس، وهو من أهم أغراض الشرائع، وقد كان اليهود يوجبون فيه القتل فقط، وكان العرب لايقتصرون على قتل القاتل، فأتى الإسلام فيه بالقصاص العادل، وندب إلى أخذ الدية والعفو عن القاتل، ثم ختمه بما فى القصاص من الفوائد العظيمة (ولكمْ فى القصاص حياةٌ ياأولى الألبابِ لعلكم تتقون).

حكم الوصية

الآيات (١٨٠ — ١٨٢)

ثم قال تعالى (كُتبَ عليكمْ إذا حضرَ أحدكمُ الموتُ إنْ تركَ خيراً الوصيةُ للوالدين والأقربينَ بالمعروفِ حقاً على المتقين) وكانوا قبل الإسلام يوصون للأبعدين طلباً للفخر والشرف، ويتركون الأقارب فى الفقر والمسكنة، فجعل الوصية لهم لأنهم أولى بمال قريبهم، ثم حذر من تبديل الوصية إلا إذا كان فيها جنف أو إثم (فمنْ خاف منْ مُوصٍ جنفاً أو إثماً فأصلحَ بينهمْ فلا إثمَ عليهِ إنّ اللهَ غفورٌ رحيمٌ).

حكم الصيام

الآيات (١٨٣ — ١٨٧)

ثم قال تعالى (يأيها الذينَ آمنوا كتب عليكمُ الصيامُ كما كتبَ على الذينَ منْ قبلكمْ لعلكم تتقون) فذكر أنه أوجب عليهم الصوم كما أوجبه على الذين من

قبلهم ، وأنه فى شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن ، وأوجب الفدية على من لا يطيق الصوم فيه لمرض أو نحوه ، وندب إلى إحيائه بالتكبير والذكر والدعاء ، ثم ذكر أنه أحل لهم ليلة الصيام الرفث والأكل والشرب إلى طلوع الفجر ، إلى أن قال (تلكَ حدودُ اللهِ فلا تقربُوها كذلكَ يبينُ اللهُ آياتِهِ للناسِ لعلهمْ يتقونَ).

تحريم الكسب الحرام

الآية (١٨٨)

ثم قال تعالى (ولا تأكلوا أموالكمْ بينكم بالباطل — الآية) فحرم أن يأكل بعضهم أموال بعض بالباطل ، وأن يرشوا بها الحكام ليأكلوا فريقاً من أموال الناس بالإثم وهم يعلمون .

حكم الأهلة

الآية (١٨٩)

ثم قال تعالى (يسألونكَ عن الأهلةِ قلْ هي مواقيتُ للناس والحج — الآية) وقد سألوه عن الأهلة ما بالها تبدو دقيقة كالخيط ثم تزيد حتى تمتلىء وتستوى ثم تنقص حتى تعود كما بدت ؟ فأجابهم ببيان حكمها وهو أنها مواقيت للناس والحج ، لأنه لم يبعث إليهم ليعلمهم مثل ذلك من علم الفلك ، ثم ضرب لسؤالهم مثلا من يأتى البيوت من ظهورها ، وكنى بهذا عن العدول عن الطريق الصحيح فى السؤال ، ثم أمرهم أن يأتوا البيوت من أبوابها ويتقوه لعلهم يفلحون .

حكم القتال

الآيات (١٩٠ — ١٩٥)

ثم قال تعالى (وقاتلوا فى سبيلِ الله الذينَ يقاتلونكم ولا تعتدُوا إنَّ اللهَ لا يحب المعتدين) فأذن لهم فى قتال من يقاتلهم ، ونهاهم عن قتال من لم يقاتلهم ، ثم أمرهم أن يقتلوا من أمروا بقتالهم فى أى مكان وجدوهم فيه ، ونهاهم أن يقاتلوهم عند المسجد الحرام إلا إذا بدأوهم بالقتال ، إلى أن ختم ذلك بأمرهم بالجهاد

بأموالهم أيضاً فقال (وأنفقوا فى سبيل اللهِ ولا تلقوا بأيديكمْ إلى التهلكةِ وأحسنوا إنّ اللهَ يحبُّ المحسنينَ) .

حكم الحج والعمرة

الآيات (١٩٦ — ٢١٤)

ثم قال تعالى (وأتمّوا الحجّ والعمرةَ لِلّهِ ـ الآية) فذكر أحكام الحج والعمرة إلى أن أمرهم بذكر الله عند المشعرِ الحرام ، ثم ذكر أن الذين يشهدون هذه المناسك منهم كافر لا يقصد من ذكره ودعائه إلا الدنيا فقط ، ومنهم مسلم يقصد من ذكره الدنيا والآخرة ، ثم أمرهم بذكره فى أيام التشريق ونفى الإثم عمن تعجل فى يومين منها وعمن تأخر إلى آخرها ، ثم ذكر أن ممن يشهد هذه المناسك فريق المنافقين، وأن من يسمعه يعجبه قوله فى الحياة الدنيا ، وأنه يشهد الله على إخلاصه وهو ألدُّ الخصام . وأنه إذا انصرف من مناسكه سعى فى الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرثَ والنسلَ ، وأنه إذا قيل له اتق الله أخذته العزّةُ بالإثم ، ثم ذكر أن ممن يشهد هذه المناسك مؤمنين صادقين يبتغون بها رضاه ، ويتقونه حق تقواه ، ثم عاد إلى أولئك المنافقين الذين يظهرون الإيمان ، فأمرهم أن يدخلوا فى السِّلم ويتركوا ذلك الفساد فى الأرض ، وحذّرهم أن يزِلّوا عن ذلك وخوّفهم هول يوم القيامة حين يأتى أمره بالحساب والعذاب ، وأمر النبى صلى الله عليه وسلم أن يذكر لهم ما جرى لبنى إسرائيل حين زلّوا ليعتبروا بهم ، ثم ذكر السبب فى نفاقهم وهو اغترارهم بزينة الحياة الدنيا، واعتقادهم أنهم أعلى منزلة من المؤمنين الصادقين لغناهم وفقرهم ، وقد كان هذا هو السبب فى كفر من قبلهم ، فإن الناس كانوا أمة واحدة قائمة على الحق، ولم يختلفوا إلا بسبب البغى والتحاسد والتنازع فى طلب الدنيا ، وقد هدى الله المؤمنين الصادقين لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه ، ثم ذكر أنه لا بُدّ لمن يريد الآخرة أن يناله من الشدائد والفقر ما نال المؤمنين قبله من الرسل والذين آمنوا معهم (مستهمُ البأساءُ والضراءُ وزلزلوا حتى يقولَ الرسولُ والذينَ آمنوا معهُ متى نصرُ اللهِ ألا إنّ نصرَ اللهِ قريبٌ) .

أحكام متفرقة

الآيات (٢١٥ — ٢٢٥)

ثم قال تعالى (يسألونكَ ماذا ينفقونَ قلْ ما أنفقتمْ منْ خيرٍ فللوالدينِ والأقربينَ واليتامى والمساكين وابن السبيل وما تفعلوا منْ خيرٍ فإن اللهَ بهِ عليمٌ) فرجع بعد ذلك الاستطراد إلى الكلام على الأحكام ، وذكر حكم الإنفاق من جهة مصرفه وأنه يصرف للوالدين ومن ذكر معهما ، ثم ذكر حكم فرض القتال (١) وأنه يجوز فى الشهر الحرام للضرورة ، ثم ذكر تحريم الخمر والميسر ، ثم ذكر حكم الإنفاق من جهة أنه يكون من فضل الأموال ، ثم ذكر حكم كفالة الأيتام بإصلاحهم ومخالطتهم فى المأكل والمشرب ، ثم ذكر حكم نكاح المؤمنين المشركات ونكاح المشركين للمؤمنات ، ثم ذكر تحريم الوطء فى الحيض ، ثم ذكر جواز إتيان النساء على أىّ وجه فيما يجوز إتيانهن فيه ، ثم ذكر حكم الحلف به وأنه لا يؤاخذ باللغو فيه (ولكنْ يؤاخذكمْ بما كسبتْ قلوبكمْ واللهُ غفورٌ حليمٌ)

حكم الإيلاء والعدة والطلاق

الآيات (٢٢٦ — ٢٣٧)

ثم قال تعالى (للذين يؤلونَ من نسائهم تربصُ أربعةِ أشهرٍ فإنْ فاءوا فإنّ الله غفورٌ حليمٌ) فذكر حكم الإيلاء وعدّة المولىَ عليها ، ثم ذكر عدة المطلقة بعد الدخول ، وأنه يجوز مراجعتها إن طلقتْ مرة أو مرتين ، ولا يجوز مراجعتها إن طلقت ثلاثا إلا إذا نكحها شخص آخر ، ولا يجوز إمساكها ضراراً بأن يراجعها فى آخر عدتها ليطلقها ثانيا وتأخذ فى عدة أخرى ، ولا يجوز منعها من الزواج بعد انقضاء عدتها غيرةً عليها ، وإذا كان لها ولد فلها حق الرضاعة والنفقة حولين كاملين ، ثم ذكر عدة المتوفى عنها زوجها وأنه يجوز التعريض بخطبتها فى عدتها ، ثم ذكر أنه لا عدة للمطلقة قبل الدخول وجعل لها حق المتعة إذا لم يسمَّ لها مهر ، فإذا كان

---

(١) هذا [illegible]

كان لها مهر فلها نصفه ، ولما بين حقوق الرجال والنساء فى ذلك أرشدهم إلى التسامح فيها فقال (وأن تعفوا أقربُ للتقوى ولا تنسَوا الفضل بينكمْ إن اللهَ بما تعملونَ بصيرٌ)

حكم الصلاة فى الأمن والخوف

الآيتين (٢٣٨ — ٢٣٩)

ثم قال تعالى (حافظُوا على الصلواتِ والصلاةِ الوسطى وقومُوا للهِ قانتينَ) فأمرهم بالمحافظة على الصلوات فى حال الأمن ، بأن يأتوا بها مستوفية الأركان ، فإذا كانوا فى شدة خوف أتوا بها كيف أمكنهم رجالا أو ركباناً (فإذا أمنتمْ فاذكرُوا الله كما علمكمْ ما لم تكونوُا تعلمونَ)

حكم الوصية للأزواج

الآية (٢٤٠)

ثم قال تعالى (والذينَ يتوفونَ منكم ويذرونَ أزواجا وصيةً لأزواجهمْ ـ الآية) فذكر أن الذين يتوفون منهم عليهم الوصية لأزواجهم بنفقة الحول وسكناه ، فإن خرجن قبل ذلك بعد أن يقمن المدة التى ضربها الله لهن فيما سبق فلا حرج عليهن فيما فعلن فى أنفسهن من معروف أى نكاح صحيح ، وكانوا فى الجاهلية يوجبون عليهن القيام بهذه الوصية .

حكم نفقة المطلقات

الآيتين (٢٤١ — ٢٤٢)

ثم قال تعالى (وللمطلقاتِ متاعٌ بالمعروفِ حقًّا على المتقينَ) والمراد بالمتاع هنا نفقتهن مدة العدة ، وقد جعل ذلك حقا على المتقين (كذلك يبينُ اللهُ لكمْ آياتهِ لعلكمْ تعقلونَ)

الترغيب فى الجهاد بالنفس والمال

الآيات (٢٤٣ — ٢٨٤)

ثم قال تعالى (ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون) فأخذ يرغب فى الجهاد بالنفس والمال بعد أن أذن للمسلمين فيه وفرضه عليهم، وقد مهد لذلك بذكر قصة تدل على أن الحذر من الموت لا يفيد، لأن الحذر من الموت هو الذى ينفرهم من الجهاد، فذكر قصة الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت، وهم قوم من بنى إسرائيل أمروا بالقتال فتقاعسوا خوفا على أنفسهم، فأرسل الله عليهم وباء قضى على كثير منهم، فاعتبر به من نجا وجاهد فى سبيل الله شكرا له على نجاته، ثم أمر المسلمين بالقتال فى سبيله بعد هذا التحذير، ووعد من ينفق منهم شيئا فيه بأن يضاعفه له أضعافا كثيرة.

ثم ذكر لهم قصة ثانية تقتلع [1] خوف الجهاد من نفوسهم لقلة عددهم، وتشتمل على عظات تنفعهم فى جهادهم، وهى قصة بنى إسرائيل حين طلبوا من نبيهم صموئيل أن يبعث لهم ملكا يقاتلون تحت رايته، فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلا منهم، ولما ذكر لهم صموئيل أن الله بعث لهم طالوت ملكا عابوه لفقره. فرد عليهم بأنه يفضلهم ببسطة العلم والجسم، وبأنه يؤتى ملكه من يشاء ولا ينازعه أحد فى ملكه، ثم ذكر ابتلاءه لجند طالوت حين خرج بهم، وأنه لم يصبر على هذا الابتلاء إلا قليل منهم، فساروا معه حتى إذا رأوا جالوت وجنوده قالوا لا طاقة لنا بهم، وقال الذين يظنون أنهم ملاقوا الله كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله، ثم برزوا لهم واستعانوا بالله عليهم، فهزموهم بإذن الله وقتل داود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة جزاء له على قتله، ثم ختم القصة ببيان حكمة الجهاد فى سبيله، فذكر أنه لولا دفع العصاة بالطائعين لفسدت الأرض، ثم نوه بشأن ما تلاه من الآيات فى تلك القصة

---

(١) ويجوز أن تكون هذه القصة تفصيلا للقصة الأولى.

وجعلها دليلا على أنه من المرسلين ، ثم ذكر أنه فضل بعضهم على بعض فى الآيات، وأنه لو شاء لهدى الناس بها ولم يقتتلوا من بعد ما جاءهم منها ، ولكنهم اختلفوا فمنهم من آمن ومنهم من كفر ، وقاتل الكافرون المؤمنين فقاتلوهم كما يقاتلونهم .

ثم أخذ يحضهم على الجهاد بطريق الترهيب بعد أخذهم فيه بطريق الترغيب ، فأمرهم أن ينفقوا فيه مما رزقهم من قبل أن يأتى يوم لا يقبل فيه فداء ، ولا تفيد فيه صداقة ولا شفاعة ، ثم ذكر من عظمته ما يؤكد ذلك ، ويثبت أنه لا يمكن أن يشفع أحد عنده إلا بإذنه ، وهو لا يأذن بالشفاعة إلا فى حق الطائعين المجاهدين فى سبيله ، ثم ذكر أنه لا يكرههم بذلك على الإنفاق والجهاد ، لأنه لا إكراه فى الدين ، وقد تبين الرشد من الغى ، فمن يؤمن بالله ويكفر بالطاغوت فقد استمسك بالعروة الوثقى ، ثم ذكر أنه هو الذى يتولى المؤمنين فيخرجهم من الظلمات إلى النور ، وأن الكافرين أولياؤهم الطاغوت فيخرجونهم من النور إلى الظلمات ، وبهذا يصير المؤمنون إلى الإيمان باختيارهم وتوفيق الله لهم ، ويصير الكافرون إلى الكفر باختيارهم وإيثارهم ولاية الطاغوت لهم ، ثم ضرب لذلك ثلاثة أمثال : أولها مثل إبراهيم ونمرود ، فقد أفحمه إبراهيم بدليله ولكنه تولى الطاغوت فأضله ، وثانيها مثل الذى مر على قرية وهى خاوية على عروشها ، فقال أنى يحيي هذه الله بعد موتها؟ ثم تولاه الله فهداه ، وثالثها مثل إبراهيم حين قال رب أرنى كيف تحيي الموتى ؟ فأراه ذلك وتولاه فزاده إيمانا على إيمانه .

ثم عاد إلى الترغيب فى إنفاق المال فى سبيله ليفصل تلك الأضعاف الكثيرة التى ذكرها فى الطريق الأول ، ويضرب لذلك مثل الحبة التى أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة ، ويبين ما يجب فى ذلك من ترك المنّ والأذى ، لأنهما يبطلان ثوابه عنده ، ومن اختيار الطيبات للإنفاق ، فينفق كل شخص من طيبات كسبه ، ولا يسمع للشيطان الذى يخوفه من الفقر فيحسن له الإنفاق من الخبيث ، بل يسمع لله الذى يعدُه مغفرة منه وفضلا فى الرزق ، ويؤتى الحكمة والعلم وذلك خير من المال ، ثم ذكر أنه يعلم ما يختارونه للإنفاق من أموالهم ، وحذّرهم من مخالفة

أوامره فى الإنفاق ، وذكر أن الإنفاق منه ظاهر ومنه خفى ، وفضَّل الخفى على الظاهر لبعده عن الرياء ، ثم ذكر للنبى صلى الله عليه وسلم أنه ليس عليه أن يهديهم إلى ما أمرهم به من الإنفاق ، لأن الهداية بيده تعالى ، ولأن ما ينفقونه لا يعود نفعه إلا عليهم ، لأنهم ينفقونه ابتغاء وجهه تعالى ، وللفقراء الذين أحصرهم الجهاد عن طلب الرزق ، ثم وعد الذين ينفقون أموالهم بأن لهم أجرهم عنده ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون .

ثم أخذ فى الكلام على الربا لأنه هو الذى يربى فى النفس الشح بالإنفاق ، وذلك لأنه يزيد فى المال والإنفاق ينقص منه ، فقبح حال الذين يأكلون الربا ، وهددهم عليه أقوى تهديد ، وذكر أنه يمحق المال الذى يدخله الربا ، ويُربى المال الذى يدخله الإنفاق والصدقات ، وأنه لا يحب من يأكل الربا من كل كفار أثيم ، وأن الذين آمنوا وعملوا الصالحات من الإنفاق وغيره لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، ثم أمر الذين كانوا يتعاطون الربا قبل تحريمه أن يتركوا ما بقى منه ، وآذنهم بحربه إن لم يفعلوا ما أمرهم به ، وإذا تابوا فليس لهم إلا رؤوس أموالهم ، وإذا أعسر بها المدين أمهل إلى أن تتيسر له ، والتصدق بها خير لهم لو كانوا يعلمون .

ثم أحل لهم السلم ليجدوا منه وسيلة للحصول على ما يحتاجون إليه من المال بدل الربا ، وأمرهم إذا تداينوا فيه بدين أن يكتبوه ويشهدوا عليه ، وإن كانوا على سفر ولم يجدوا كاتبا فرهان مقبوضة ، ثم نهاهم عن كتمان الشهادة فى ذلك ، وأخبرهم بأنه يعلم ما يفعلونه فيها ، وهو الذى له ما فى السماوات وما فى الأرض ، وإن يبدوا ما فى أنفسهم أو يخفوه يحاسبهم به (فيغفرُ لمنْ يشاءُ ويعذبُ منْ يشاءُ واللهُ على كل شيءٍ قديرٌ) .

الخاتمة

الآيتين (٢٨٥ — ٢٨٦)

ثم قال تعالى (آمن الرَّسول بما أُنزلَ إليهِ منْ ربه والمؤمنونَ — الآية)

ختم السورة بذكر إيمان الرسول والمؤمنين بالقرآن والملائكة وغيرهم مما ذكره؛ ليختمها بذكر إيمانهم بعد أن بدأها بذكر كفر المنافقين واليهود، وذكر ما ذكر من حسن إخلاصهم وطاعتهم، وطلبهم منه وهو لا يكلف نفساً إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ألا يؤاخذهم بنسيانهم أو خطئهم، ولا يحمل عليهم إصراً كما حمله على الذين من قبلهم من اليهود وغيرهم، إلى أن قال على لسانهم
(واعفُ عنا واغفرْ لنا وارحمنا أنتَ مولانا فانصرنا على القومِ الكافرينَ) .

سورة آل عمران

تاريخ نزولها ووجه تسميتها :

نزلت سورة آل عمران بعد سورة الأنفال، وكان نزولها في السنة الثالثة من الهجرة بعد غزوة أُحد، فتكون من السور التي نزلت فيما بين غزوة بدر وصلح الحديبية.

وقد سميت هذه السورة بهذا الاسم لذكر قصة آل عمران فيها . وهي قصة امرأته وابنتها مريم، ويدخل فيها قصة عيسى أيضاً، وتبلغ آياتها مائتي آية.

الغرض منها وترتيبها :

نزل صدر هذه السورة في وفد نصارى نجران، وكانوا قد وفدوا على النبي صلى الله عليه وسلم، فدخلوا عليه المسجد وعليهم ثياب الحبَرات وأردية الحرير، مختتمين بالذهب، ومعهم بسط فيها تماثيل ومسوح جاءوا بها هدية له، فقبل المسوح ولم يقبل البسط. ثم جادلوه في الدين، وانضموا بهذا إلى أحبار اليهود في الشغب على الإسلام، فجاء صدر هذه السورة في تصوير ذلك الجدال الذي دار بينهم، وقد جاء أغلبه في جدال النصارى مع النبي صلى الله عليه وسلم، وجاء قليل منه في جدال اليهود معه، وقد أشبهت سورة آل عمران سورة البقرة في ذلك الجدال، كما أشبهتها أيضاً في طولها، ولهذا ذكرت بعدها.

وقد مهد في أول السورة لذلك الجدال ببيان ما يجب لله من الأوصاف، ثم

انتقل من هذا إلى الرد على مقالاتهم فى ذلك الجدال ، ثم انتقل من الرد على مقالاتهم إلى تثبيت المؤمنين وتحذيرهم من التأثر بها ، ثم انتقل من هذا إلى تثبيت المؤمنين بعد هزيمتهم فى غزوة أحد . وقد استغلوها أيضاً فى التأثير عليهم ، ثم ختمت السورة بالتنويه بالمؤمنين كما ختمت به سورة البقرة .

وقد قصد من ابتداء هذه السورة ببيان مايجب لله تعالى من الأوصاف أن يكون هذا كأساس للجدال مع وفد نجران فى شأن عيسى عليه السلام .

ما يجب لله من الأوصاف

الآيات (١ — ٦)

قال الله تعالى (الم ، اللهُ لاإله إلا هُوالحىُّ القيُّوم) فذكر أنه يجب له أن يكون واحداً حياً قيوما ، ومهد بهذا لما سيذكره من نفى الألوهية عن عيسى فى الجدال مع وفد نجران ، ثم ذكر أنه نزّل القرآن مصدقالمابين يديه من الكتب ، وأنزل التوراة والإنجيل من قبله هدى للناس ، وأنزل الفرقان وهو البرهان الذى لا بد منه مع النقل ، ومهد بهذا أيضاً لذلك الجدال ، ليرجع فيه إلى ما اتفقت عليه هذه الكتب من التوحيد ، وإلى تأييد العقل لها فى ذلك ، ثم ذكر مما يجب له أنه لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء ، وأنه يصورنا فى الأرحام كيف يشاء (لا إله إلا هُوَ العزيزُ الحكيمُ)

الرد على مقالة النصارى الأولى

الآيات (٧ — ١٨)

ثم قال تعالى (هُو الذى أنزلَ عليك الكتابَ منهُ آياتٌ مُحْكماتٌ هُنَّ أمُّ الكتابِ وأخَرُ متشابهاتٌ — الآية) فرد على مقالتهم الأولى وهى قولهم : يامحمد ، ألست تزعم أن عيسى كلمة الله وروح منه ؟ فقال : بلى . فقالوا : حسبنا . فرد عليهم بأن القرآن منه محكم ومنه متشابه ، وأن المتشابه يجب تأويله بما يوافق المحكم ، فالذين فى قلوبهم زيغ يتبعون ذلك المتشابه ويؤولونه بما يوافق أهواءهم ، والراسخون

فى العلم يؤولونه ذلك التأويل السابق ، أو يفوضون الأمر فيه لله تعالى ، ثم حذّر الأولين من عذابه الذى لا تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم منه شيئا ، كما لم تغن أموال آل فرعون شيئا عنهم ، وأنذرهم بأنهم سيغلبون وإن اغتروا بأموالهم وقوتهم ، وساق لهم ماجرى فى غزوة بدر عبرة يعتبرون بها ، فقد غلب المسلمون فيها على قلتهم قريشاً على كثرة عددها ، ثم ذكر أنهم قد زين لهم حب أموالهم ، وإنما هى متاع الحياة الدنيا ، ولا قيمة لها بجانب ما أعد الله للمؤمنين من نعيم الآخرة ، ثم ختم ذلك بتقرير أن تفرده بالألوهية معروف قد شهد به فى كتبه ، وهذا فى قوله (شهد اللهُ أنهُ لا إلهَ إلا هوَ والملائكةُ وأولوا العِلمِ قائماً بالقسطِ لاإلهَ إلا هوَ العزيزُ الحكيمُ) .

الرد على مقالتهم الثانية
الآيات (١٩ — ٦٤)

ثم قال (إنَّ الدِّين عندَ اللهِ الإسلامُ ـ الآية) فذكر الرد على مقالتهم الثانية ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد قال لهم : أسلموا فقالوا : قد أسلمنا . فقال لهم : كذبتم ، يمنعكم من الاسلام دعاؤكم لله ولداً ، وعبادتكم الصليب ، وأكلكم الخنزير . وقد احتجوا أمامه على ألوهية عيسى بأنه كان يحي الموتى ويبرىء الأكمه والأبرص ، إلى غير ذلك مما ذكروه ، وعلى أنه ابن الله بأنه لم يكن له أب يُعلم ، فرد عليهم ذلك أولا بإثبات أن الدين عنده هو الإسلام له وحده ، لا ماهم عليه من جعله ثالث ثلاثة ، وقد نزل كتابهم بذلك فحرفوه وبدلوا آياته ، فإن حاجّوا فى ذلك بمثل ماذكروه فإنما هى شبه واهية لا قيمة لها ، وعلى النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين أن يمضوا فى إسلامهم ولا يلتفتوا إلى تلك الشبه الواهية ، فإذا أسلم أهل الكتاب ومشركو العرب كإسلامهم فقد اهتدوا ، وإن تولوا فلا عذر لهم بعد تبليغهم ، ثم ذكر ما ينفى الإيمان به عن أهل الكتاب ، من كفرهم بآياته ، وقتلهم الأنبياء بغير حق ، وأوعدهم بما أعد لهم من عذابه ، ثم ذكر من كفرهم أنهم يُدعَون إلى كتاب الله ليحكم بينهم فيما اختلفوا فيه فيتولون عنه وهم معرضون ، وأنهم يزعمون أن النار لا تمسهم إلا

أياما معدودات بقدر أيام الخلق . ثم أوعدهم بأنه سيجمعهم ويعاقبهم على ما كسبوا من ذلك الكفر ، ثم أمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يذكر لهم أنه مالك الملك وحده ، يعز من يشاء من خلقه ، ويذل من يشاء منهم ، فلا يمتاز أهل الكتاب بشيء على غيرهم ، ثم أكد هذا بأنه يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل ويخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ، ويرزق من يشاء بغير حساب ، ثم نهى المؤمنين أن يغتروا بهم ويوالوهم . وذكر أن من يفعل ذلك فليس منه في شيء ، وأنه يعلم ما يخفونه من ذلك وما يظهرونه ، فإذا كانوا يحبونه فليتبعوا رسوله ويوالوه وحده ، وليطيعوه هو ورسوله (فإنْ تولَّوا فإنَّ اللهَ لا يُحب الكافرينَ) .

ثم رد عليهم ثانياً بذكر قصة عيسى عليه السلام على حقيقتها من أولها إلى آخرها ، فذكر اصطفاءه لآبائه الأولين من آدم إلى نوح إلى آل إبراهيم إلى آل عمران على العالمين ، ثم ذكر ما كان من أمر أمه مريم وكفالة زكريا لها ، وقص خبرها مع زكريا وخبر زكريا إذ وهب له يحيى ، ثم ذكر مريم وإخبار الملائكة لها بأن الله اصطفاها على نساء العالمين ، وبأنه يبشرها بكلمة منه اسمه المسيح عيسى بن مريم ، يخلقه منها بأمره ، ويعلمه الكتاب والحكمة ، ويرسله إلى بني إسرائيل ، فيخلق لهم من الطين طيراً بإذن الله ، ويبرىء الأكمه والأبرص ويحيي الموتى بإذن الله ، ثم ذكر ما كان من أمر بني إسرائيل معه إلى أن أرادوا قتله وصلبه فرفعه الله ، ولما وصل بذلك إلى نهاية قصته ذكر أن ما قصه فيها من الآيات والذكر الحكيم ، فلا يقبل غيره في أمر عيسى ، وأن مثل عيسى إذ خلقه من غير أب كمثل آدم إذ خلقه من تراب ، وهذا هو الحق في أمر عيسى ، وليس أمره فيه بأعجب من أمر آدم ، فإذا حاجُّوا النبي صلى الله عليه وسلم بعد هذا في أمره فليدعهم هم وأبناءهم ونساءهم ليباهلهم هو وأبناؤه ونساؤه فيجعلوا لعنة الله على الكاذبين ، ثم ذكر أن ما جاء به في أمر عيسى هو القصص الحق ، وأنه ما من إله إلا الله ، فإن تولوا بعد ذلك فهم مفسدون لا طلاب حق ، ثم ختم ذلك بدعوتهم إلى التوحيد الذي اتفقت عليه الأديان (قل يا أهلَ الكتابِ تعالَوْا إلى كلمةٍ سواءٍ

بيننـا وبينكم ألاَّ نعبدَ إلاَّ اللهَ ولا نشركَ بهِ شيئاً ولا يتخذَ بعضنا بعضاً أرْباباً منْ دُونِ اللهِ فإنْ تولوْا فقولوا اشهدُوا بأنَّا مُسلمون) .

الرد على مقالتهم الثالثة

الآيات (٦٥ — ٧٨)

ثم قال تعالى (يا أهلَ الكتابِ لِمَ تحاجونَ فى إبراهيمَ وما أنزلتِ التوراةُ والإنجيلُ إلا منْ بعدهِ أفلا تعقلونَ) فذكر الرد على مقالتهم الثالثة ، وهى قول النصارى إن إبراهيم كان على ديننا . وكذلك قال اليهود مثل قولهم ، فرد عليهم بأن التوراة والإنجيل لم ينزلا إلا بعده ، فلا يعقل أن يكون يهوديا أو نصرانيا ، وإذا كان لهم وجه أن يحاجوهُ فى مخالفة شريعة القرآن لما يعلمونه من شريعتهم ، فإنه لا وجه لهم أن يحاجوه بمخالفتها لشريعة إبراهيم وهم لا يعلمونها ، ثم قرر لهم أن إبراهيم كان حنيفا مسلما ولم يك من المشركين كما أشرك النصارى بتأليه المسيح، وأن أولى الناس به الذين اتبعوه ممن لم يحرف فى دينه من أهل الكتاب ، ومن النبى وأتباعه من المؤمنين ، ثم ذكر أن أهل الكتاب يودون أن يضلوا المسلمين بهذه المقالات ، وما يضلون إلا أنفسهم وهم لا يشعرون ، ثم وبخهم على كفرهم بآياته وهم يعلمون صدقها بما عندهم من البشارات بها ، وعلى أنهم لا يريدون بهذه المقالات إلا أن يلبسوا الحق بالباطل وهم يعلمون ، ثم ذكر نوعا آخر من تلبيساتهم أقبح من هذه المقالات ، وهو إظهار بعضهم الإيمان بالقرآن أول النهار والكفر به آخره ليؤثر بهذا فى أتباعه ، وذكر أنهم يتواصونَ عند إظهار هذا الإيمان الكاذب ألاَّ يخلصوا فيه ، ولا يؤمنوا إلا بنبى يقررُ شرائعهم ، ثم رد عليهم بأمر النبى صلى الله عليه وسلم أن يذكر لهم أن الهدى هدى الله لاهداهم ، فلا يليق بهم أن يفعلوا هذا لأن يؤتى أحد مثل ما أوتوا أو يحاجوهم به عند ربهم ، وبأمره أن يذكر لهم أن الفضل بيده يؤتيه من يشاء وليس وقفا عليهم ، ثم ذكر أن هذه الأثرةَ فيهم فى أمور الدين قد تعدتْ بكثير منهم إلى أمور الدنيا ، فمنهم من أن تأمنه بقنطار

يؤده إليك ، ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا مادمت عليه قائما ، لأنهم يعتقدون أن الله لم يجعل عليهم سبيلا فى الأميين من العرب ، وهم يكذبون بذلك عليه ، لأنه يحب الوفاء بالعهد لكل الناس ، والذين لا يوفون بعهدهم لاخلاق لهم فى الآخرة ولا يكلمهم ولا ينظر إليهم يوم القيامة ، ثم ذكر أن منهم من يستبيح فى سبيل ذلك ماهو أقبح مما سبق ، فيكتبون بأيديهم مايدل على أن النبي صلى الله عليه وسلم ليس هو النبي المبشر به ، ويقولون هو من عند الله (وما هوَ من عندِ اللهِ ويقولونَ على الله الكذبَ وهمْ يعلمونَ)

الرد على مقالتهم الرابعة

الآيات (٧٩ — ٩٢)

ثم قال تعالى (ما كانَ لبشرٍ أنْ يؤتيهُ اللهُ الكتابَ والحكمَ والنبوةَ ثمَّ يقولَ للناسِ كونوا عباداً لى منْ دونِ اللهِ ـ الآية) فذكر الرد على مقالتهم الرابعة ، وهى زعمهم أن عيسى عليه السلام كان يدعى الألوهيةَ ويأمر قومه بعبادته ، فرد عليهم بأنه ما كان لبشر أن يؤتيه الكتاب والحكمة والنبوة ثم يأمر الناس بمثل ذلك ، فيصير بهم إلى الكفر بعد الإسلام الذى كانوا عليه من قبله ، ثم ذكر أن هذا الإسلام كان ميثاقه على النبيين وأتباعهم أن يصدقوا الرسول المنتظر الذى يجىء به ، فمن تولى عنه بعد ذلك يكون فاسقا ، ثم أنكر عليهم أن يبغوا غير هذا الإسلام ، لأنه دين الفطرة الذى يؤمن به كل من فى السماوات والأرض من العقلاء وغيرهم طوعا وكرها ، إذ يخضعون جميعا لله وحده ، ثم أمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يذكر لهم أنه هو الدين الذى أنزل على إبراهيم والأنبياء بعده من ذريته ، وأنه يؤمن بهم جميعاً ولا يفرق بينهم ، وأن من يتبع غير الإسلام الذى دعوا إليه فلن يقبل منه ، ثم ذكر أن مثل هؤلاء القوم الذين كفروا بعد إيمانهم وشهادتهم أن الرسول المنتظر حق لا ترجى هدايتهم ، وأن جزاءهم على ذلك اللعنة الخالدة والعذاب الشديد ، وأن من تاب منهم بعد ذلك وأصلح فإن الله يغفر له ماسبق منه ، وأن الذين كفروا

بعد إيمانهم ثم ازدادوا بعد ظهور الإسلام كفرا لن تقبل توبتهم ، ولن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهبا إذا تقرب به إلى الله مع كفره ، ولو افتدى به يوم القيامة لم ينفعه ، فلن ينالوا البرَّ حتى ينفقوا فى دنياهم مما يحبون (وما تنفقوا منْ شيءٍ فإنَّ اللهَ بهِ عليمٌ) .

الرد على مقالتهم الخامسة

الآيات (٩٣ — ٩٩)

ثم قال تعالى (كلُّ الطعامِ كانَ حِلا لبنى إسرائيلَ إلاَّ ما حرمَ إسرائيلُ على نفسهِ منْ قبلِ أن تنزلَ التوراةُ قلْ فأتوا بالتوراةِ فاتلوها إن كنتمْ صادقين) فذكر الرد على مقالتهم الخامسة ، وهى قولهم للنبي صلى الله عليه وسلم : إنك تدعى أنك على ملة إبراهيم ، فكيف تأكل لحوم الإبل مع أنها حرام فى تلك الملة ؟ وقد رد عليهم بأن ذلك كان حلالا فى ملة إبراهيم إلى أن حرمه إسرائيل وهو يعقوب ابن إسحاق بن إبراهيم — على نفسه ، فبقيت تلك الحرمة فى أولاده ، وذكر أن التوراة تشهد بذلك عليهم ، ثم أمرهم بعد هذا أن يتبعوا ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم من ملة إبراهيم ، وذكر أن البيت الحرام الذى يتوجه المسلمون إليه من بناء إبراهيم وابنه إسماعيل ، وفيه آيات بينات مقام إبراهيم وأمن الناس عنده وفرض الحج إليه على الناس جميعا ، ثم وبخهم على كفرهم بآياته بعد هذا كله ، إلى أن قال (قلْ يا أهلَ الكتابِ لمَ تصدُّونَ عنْ سبيل الله منْ آمن تبغونها عوجاً وأنتمْ شهداءُ وما اللهَ بغافلٍ عمَّا تعملونَ)

تثبيت المؤمنين بعد رد مقالاتهم

الآيات (١٠٠ — ١٢٠)

ثم قال تعالى (يا أيُّها الَّذينَ آمنُوا إنْ تطيعُوا فريقاً منَ الَّذينَ أوتُوا الكتابَ يردُّوكمْ بعد إيمانكمْ كافرينَ) فأخذ يثبت المؤمنين ويحذرهم من التأثر بمقالاتهم ، وذكر أنهم إن يطيعوهم يردوهم إلى الكفر بعد إيمانهم ، ولا يليق بهم

أن يعودوا إلى الكفر بعد هدايتهم ، ثم أمرهم أن يتقوه حق تقواه فلا يسمعوا لأعدائه ، وأن يعتصموا بحبله جميعاً ولا يعودوا إلى ما كانوا عليه من التفرق ، وأن يذكروا نعمته عليهم إذ كانوا أعداء فألّف بينهم ، وأن يجعلوا منهم أمة متحدة تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، ولا تكون كأهل الكتاب الذين ضلوا فجعلوا يدعون إلى الكفر ، فاستحقوا عذاب الله فى يوم تَبْيضُّ فيه وجوه المؤمنين ، وتَسودُّ وجوه الكافرين ، ثم نوّه بشأن ما يتلوه من هذه الآيات الداعية إلى خير الناس ، وذكر أن له ما فى السماوات وما فى الأرض وإليه ترجع الأمور كلها ، ليحاسب الناس على خيرها وشرها .

ثم ذكر أن المؤمنين كانوا بهذه الهداية خير أمة أخرجت للناس ، وأن أهل الكتاب لو آمنوا مثلهم لكان خيراً لهم ، لأن أكثرهم فاسقون يفسدون فى الأرض ، ثم ذكر أنهم ضعاف لا يضرونهم إلا بمثل تلك المقالات ، وأن اليهود منهم قد ضربت عليهم الذلة إلا أن يدخلوا فى عهدهم ، ثم ذكر أنهم ليسوا فى هذا سواء ، لأن منهم قوماً انقطعوا لعبادته ، ولم يدخلوا فيما دخل فيه جمهورهم من كفرهم ، وذكر أنه لن يضيع عنده ما يفعلونه من خير ، ثم ذكر أن الكافرين منهم لن تغنى عنهم أموالهم شيئاً من عذابه ، وأن مثل ما ينفقون فى مَلاذِّهم كمثل ريح فيها صِرٌّ أصابت حَرْثَ قوم ظلموا أنفسهم فلم تُبْقِ منه شيئاً .

ثم نهى المؤمنين أن يتخذوا بطانة منهم بعد أن حذرهم من إطاعتهم ، لأنهم يضمرون لهم العداوة ، ولا يليق بهم أن يحبوهم وهم لا يحبونهم ، وإن تَمْسَسْهم حسنة تسؤهم ، وإن تصبهم سيئة يفرحوا بها (وإن تصبروا وتتقوا لا يضرُّكم كيدهم شيئاً إن الله بما يعملون محيطٌ) .

تثبيت المؤمنين بعد أحد

الآيات (١٢١ — ١٨٩)

ثم قال تعالى (وإذْ غدوتَ من أهلكَ تُبوِّىءُ المؤمنينَ مقاعدَ للقتال والله

سميعٌ عليمٌ) فذكر هزيمة المؤمنين فى غزوة أحد، وهى المصيبة التى ذكر أن أهل الكتاب فرحوا بإصابتهم بها، وقد حاولوا أن يؤثروا بها فى إيمانهم، كما حاولوا أن يؤثروا فيه بمقالاتهم، فأمرهم أن يذكروا إذ غدا النبى صلى الله عليه وسلم يبوىء المؤمنين مقاعد للقتال، وإذ همت طائفتان منهم أن تفشلا فى أول القتال بتأثير المنافقين من اليهود والمشركين، وكان المنافقون قد انهزموا عمداً ليؤثروا فيهم، ثم ذكر لهم أنه نصرهم ببدر وهم فى ذلة وقلة، والمشركون فى عزة وكثرة، ليخطئهم فى تأثرهم بانهزام المنافقين، ثم ذكر أنه نصرهم فى بدر ليكون بشرى لهم ولتطمئن قلوبهم به، وليقطع طرفا من المشركين أو يكبتهم أو يتوب عليهم أو يعذبهم، فالأمر فى ذلك له وحده يتصرف فيهم كما يريد، وهو الذى له ما فى السماوات وما فى الأرض يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء.

ثم ذكر بعد هذا تحريم الربا على المؤمنين، لأنه هو الذى كان يصل بينهم وبين اليهود، فأراد أن يقطع هذه الصلة بينهم بعد أن ظهرت فى هذه الغزوة عداوتهم، لينقذهم من دسائسهم وتحكمهم فيهم بأموالهم، ولينهض بهم فى هذه المحنة التى حلت بهم، وكان اليهود يقرضونهم بالربا الفاحش الذى أفقرهم وأضعفهم، وقد بدأ بهذا التدبير اهتماما به بعد ذكر هذه الغزوة، ثم أمرهم أن يسارعوا إلى مغفرة تمحو ما حصل من مخالفاتهم فيها، وتوصلهم إلى جنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين، وهم الذين ينفقون فى السَّرَّاء والضَّرَّاء إلى غير ذلك مما ذكره من أوصافهم، ثم ذكر لهم أنه قد حصلت سُنن من قبلهم فيما بين المؤمنين والمكذبين انتهت بهلاك المكذبين، وذكر أن فى هذا بياناً وهدى وموعظة لهم، ونهاهم أن يهنوا ويحزنوا لما أصابهم وهم الأعلون، وإذا كانوا قد مسهم قرح فى غزوة أحد، فقد مس المشركين قرح مثله فى غزوة بدر، والأيام دول بين الناس، ومثل هذا يميز الله به بين المؤمنين الصادقين وغيرهم، ويتخذ به شهداء يكونون قُدْوةً فى الشهادة لمن بعدهم، وقد كانوا يتمنون الشهادة فقد رأوها فى إخوانهم وهم ينظرون، ثم ذكر لهم أن محمداً صلى الله عليه وسلم ما هو إلا رسول قد خلت من قبله الرسل، ووبخهم على فرارهم

إلى المدينة حينما أشيع أنه قد قتل، وذكر أن كل نفس لها أجل لا يقدمه القتال ولا يؤخره الفرار ، وأن من يرد ثواب الدنيا فيفر من القتال يؤته منها ويحرمه ثواب الآخرة ، ومن يرد ثواب الآخرة يؤته منها ولا يحرمه ثواب الدنيا ، ثم ذكر أن كثيراً من الأنبياء قاتل معه ربيّون كثير فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله ، فنصرهم الله على أعدائهم ، وآتاهم ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة، ثم أخذ يحذر المؤمنين من إطاعة الكافرين في التأثير عليهم بهزيمتهم ، لأنهم قالوا لهم : لقد وعدكم النصر ولو كان صادقا ما هُزِمتم . فذكر لهم أنه مولاهم وهو خير الناصرين، وأنه سيلقى في في قلوب الكافرين الرعب مع انتصارهم في أحد فلا ينتصرون بعده ، وأنه صدقهم وعده في أحد فنصرهم في أول الأمر ، ولم يهزموا إلا بعد أن خالف الرُّماة أمره ، فلم يثبت إلا قليل منهم في أماكنهم التي أمروا بالثبات فيها ولو نصروا ، وتركها أكثرهم إلى جمع الغنائم فأخذوا من ورائهم ، ثم ذكر أنهم انهزموا بعد هذا لا يلوون على أحد ولا يسمعون دعاء النبي صلى الله عليه وسلم لهم بالرجوع إليه ، فأثابهم الله غم أحد بدل غم المشركين في بدر ، لكيلا يحزنوا على ما فاتهم ولا ما أصابهم ثم ذكر أنه بعد هذا ثبّت قلوب الذين ثبتوا مع النبي صلى الله عليه وسلم فصمدوا للمشركين، وأن الذين انهزموا أهمتهم أنفسهم وظنوا بالله غير الحق فيما وعدهم به ، وردّدوا ماقاله المنافقون في هزيمتهم؛ وما كان ذلك منهم إلا زلة من الشيطان وقد عفا عنهم

ثم رجع إلى تحذيرهم من أولئك الكافرين ، وكانوا يقولون لهم : لو تركتم الغزو وأقمتم عندنا كما أشرنا عليكم مامُتُّمْ وما قُتِلتُمْ ، فأمر المؤمنين ألاّ يسمعوا لهم ولا يشاركوهم في مقالهم ، ليكون ذلك حسرة في قلوبهم ، وذكر أن كل إنسان يحيا ويموت على حسب ماقُدِّرَ له ، وأن من يقتل أو يموت في سبيله فله عنده خير من أموالهم التي يحرصون على الحياة من أجلها ، وأنه لابد من حشر كل من يموت أو يُقْتَل ليلقى جزاءه على ما قَدَّم .

ثم ذكر أن لين النبي صلى الله عليه وسلم لهم بعد ما حصل منهم كان بما فطره عليه من الرحمة ، وأمره أن يعفو عنهم ويستغفر لهم ، وأنْ يستمر في مشاورته لهم وإن

أخطأوا فى هذه المرة ، فإذا عزم بعد المشاورة فليتوكل عليه لأن النصر بيده ، وإذا أراد نصرهم فلا غالب له ، وإذا أراد أن يخذلهم فلا ناصر لهم .

ثم ذكر أنه ما كان لنبى أن يغل فى الغنائم ويحتجزها لنفسه ، حتى يبادر رماتهم إليها ويكشفوا ظهرهم لعدوهم ، ومن يغلل يأت بما غلّ يوم القيامة ، ثم توفى كل نفس ما كسبت ولا يكون من غل كمن لم يغل ، لأنه لا يصح أن يكون من اتبع رضوانه بترك الغلول كمن غل فباء بسخط منه ، ثم ذكر أنه قد منّ عليهم بأن بعث فيهم رسولا منهم يطهرهم من الرذائل ويعلمهم ما ينفعهم . ومن هذا شأنه لا يمكن أن يغلهم فى غنائمهم .

ثم أخذ يلومهم على استكثارهم لمن قتلوا منهم بعد أن قتلوا اضعفه من المشركين فى بدر ، وقد قالوا فى استكثارهم (أنّى هذا) فأجابهم بأنه من عند أنفسهم لما حصل منهم من المخالفات ، وأنه حصل بإذنه ليميز المؤمنين من المنافقين الذين أبوا أن يقاتلوا ، وقالوا فيمن قتل من المسلمين لو أطاعونا ما قتلوا ، وقد أمر النبى صلى الله عليه وسلم أن يجيبهم بأن يدفعوا عن أنفسهم الموت إن كانوا صادقين فى زعمهم أنهم لو أطاعوهم نجوا من القتل ، ثم نهى النبى صلى الله عليه وسلم والمسلمين أن يحسبوا هؤلاء الشهداء أمواتاً ، وذكر أنهم أحياء عنده ، وأنهم فرحون بما أتاهم من فضله ، وأنهم مستبشرون بنجاة إخوانهم الذين ثبتوا فى القتال ، واستجابوا للنبى صلى الله الله عليه وسلم من بعدما أصابهم القرح ، وكان قد طلب منهم الذهاب وراء المشركين ، حين بلغه أنهم أرادوا أن يرجعوا إليهم ثانياً ليقضوا عليهم ، فلما علموا أن المسلمين يطلبونهم رجعوا عن عزمهم ، وقد وعدهم على ذلك بعظيم الأجر ، وذكر أن بعض الناس ثبطهم عن طلب المشركين وخوفهم منهم فلم يسمعوا لهم ، وأنهم مضوا فى طلبهم ثم انقلبوا بنعمة منه وفضل ، إلى غير ذلك مما ذكره فى أمرهم .

ثم نهى النبى صلى الله عليه وسلم أن يحزن لمسارعة المنافقين واليهود فى مناصرة الكفر ، لأنهم لن يضروا الله شيئا ، وإنما يجنون على أنفسهم الحرمان من الثواب

فى الآخرة ، ولهم فيها عذاب عظيم، ثم نهاهم أن يحسبوا أن إملاءه لهم خير لأنفسهم، لأنه إنما يملى لهم ليزدادوا إثما ولهم عذاب مهين . ثم ذكر أنه ما كان ليترك المؤمنين على ما كانوا عليه حتى يميز بين الخبيث والطيب بهذه المحنة ، وأنه ما كان ليطلعهم على غيب القلوب ، ولكنه يجتبي من رسله من يشاء للاطلاع على ذلك الغيب ، فيجب عليهم أن يؤمنوا بما يخبرونهم به من أسرارهم ، ثم نهى الذين يبخلون من المنافقين عن الجهاد بأموالهم أن يحسبوه خيرا لهم، لأنهم سيطوّقونَ ما بخلوا به فى آخرتهم وذكر أن ميراث السماوات والأرض من أموالهم وغيرها له دون غيره ، فلا يصح لهم أن يبخلوا بها عليه ، ثم ذكر أنه سمع ما تهكم به اليهود منهم حين طلبوا إلى بذل أموالهم (إنَّ اللهَ فقيرٌ ونحنُ أغنياءُ) وأنه سيكتب ما قالوا من ذلك وما حصل منهم قديما من قتل الأنبياء بغير حق ، ثم يذيقهم عليه فى الآخرة عذاب الحريق ، ثم ذكر أنهم تعللوا فى ذلك بأنه عهد إليهم الا يؤمنوا ويجاهدوا إلا مع رسول يأتيهم بقربانٍ تأكله نار تنزل من السماء ، وكذبهم فيما تعللوا به بأنهم قد جاءتهم رسلهم بذلك فكذبوهم وقتلوهم ، ثم ذكر أنهم إذا كذبوه فليس هو بأول من كذب من الرسل، فقد كذب رسل من قبله جاءوا بالمعجزات والكتب والكتاب المنير ، ثم هددهم بأن كل نفس ذائقة الموت ، وإنما يوفون أجورهم يوم القيامة ، فالفائز من فاز فى ذلك اليوم ، ولا قيمة للحياة الدنيا التى يحرصون عليها .

ثم ذكر للمؤمنين أنهم سَيُخْتَبرُون فى أموالهم وأنفسهم بالجهاد بعد أُحد ، وأنهم سيسمعون من أهل الكتاب والمنافقين أذى كثيراً كما سمعوا فى هذه الغزوة، وأنهم إذا صبروا على ذلك وَدَارَوهُمْ فإن ذلك من عزم الأمور ، وصواب التدبير ثم ذكر لأهل الكتاب أنه قد أخذ عليهم الميثاق أن يبينوا ما عندهم من البشارات بالنبي المنتظر ، فنبذوا ذلك الميثاق وراء ظهورهم ، واشتروا به ثمنا قليلا من متاع الدنيا ، ثم نهى النبي صلى الله عليه وسلم أن يحسب الذين يفرحون منهم بما أتوا من التلبيس والكيد للمسلمين ويحبون مع هــذا أن يحمدوهم بمفازة

من عذاب الدنيا ، ولهم فى الآخرة عذاب أليم (ولله ملكُ السماواتِ والأرض والله على كلِّ شيءٍ قديرٌ) .

الخاتمة

الآيات (١٩٠ — ٢٠٠)

ثم قال تعالى (إنَّ فى خلقِ السماواتِ والأرض واختلاف الليل والنهارِ لآياتٍ لأولى الألبابِ) ختم السورة بالتنويه بالمؤمنين بعد أن انتهى من المعاندين من أهل الكتاب والمنافقين ، فذكر أن فى خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألبـــاب من المؤمنين ، وهم الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ، إلى غير هذا مما ذكره من أفعالهم وأقوالهم ، ثم ذكر ما وعدهم به أن يكفر عنهم سيئاتهم ، ويدخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ثوابا من عنده ، وذكر ما أوعد به أولئك الكافرين على غرورهم بدنياهم وترك التفكر فى آياته، وأنهم يتمتعون بذلك قليلا ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد ، ثم عاد إلى وعد المؤمنين فذكر أن لهم من تلك الجنات نعيما خالدا لا يزول ، وذكر أن من أهل الكتاب الذين لم يقعوا فى ذلك الغرور من هو مثل أولئك المؤمنين فى إيمانهم وخشوعهم ، وأن لهم أيضا أجرهم فى آخرتهم ، ثم ختم ذلك بأمر المؤمنين بالصبر على ما شرحه من الأذى فى هذه السورة . فقال (يأيها الذين آمنُوا اصبروا وصابرُوا ورابطوا واتقوا اللهَ لعلكمْ تفلحونَ)

سورة النساء

تاريخ نزولها ووجه تسميتها :

نزلت سورة النساء بعد سورة الممتحنة ،وقد نزلت سورة الممتحنة عقب صلح الحديبية ، وكان صلح الحديبية فى السنة السادسة من الهجرة ، فيكون نزول سورة النساء فيما بين صلح الحديبية وغزوة تبوك .

وقد سميت هذه السورة بهذا الاسم لأن كثيراً من الأحكام التى ذكرت فيها يتعلق بالنساء ، وتبلغ آياتها ستاً وسبعين ومائة آية .

الغرض منها وترتيبها :

نزلت هذه السورة فى كثير من الأحكام التى شرعت بعد سورة البقرة إلى نزولها ، فذكر فيها ماشرع من هذه الأحكام ، كما ذكر فى سورة البقرة ماشرع من الأحكام فى عهدها ، وقد اشتملت سورة النساء مع هذا على بيان حال أهل الكتاب والمنافقين فى الزمن الذى نزلت فيه ، وكانوا قد غلوا فى أمرهم مع المسلمين ، وزادوا فى إيذائهم عما كانوا عليه فى الزمن الذى نزلت فيه سورتا البقرة وآل عمران ، فقوبلوا فى هذه السورة بما يليق بذلك من الشدة فى الخطاب ،وأمر المسلمون فيها باستعمال الشدة معهم ، وكانوا يؤمرون فى سورتى البقرة وآل عمران باللين معهم والصبر على أذاهم .

وقد ابتدئت هذه السورة بآية جاءت كبراعة مطلع لما جاء بعدها من الأحكام ، ثم جاء بعدها آيات كثيرة من الأحكام والشرائع ، ثم استطرد منها إلى شرح أحوال اليهود من أهل الكتاب ، ثم عاد السياق بعد ذلك إلى ما كان عليه من بيان الشرائع والأحكام ، ثم استطرد منه إلى الكلام ثانياً فى أحوال المنافقين وأهل الكتاب ، ثم ختمت السورة بالعود إلى سياقها الأول ، ليكون آخرها مشاكلا بهذا لأولها .

وقد جاءت سورة النساء بعد سورتى البقرة وآل عمران لأنها تشبههما فى

الطول ، وفيما تناولته من بيان بعض الأحكام العملية ، وشرح بعض أحوال أهل الكتاب والمنافقين .

براعة المطلع

قال الله تعالى (يا أيها الناس اتّقوا ربكمُ الذى خلقكم مِنْ نفسٍ واحدةٍ وخلق منها زوجها ـ الآية) فأمر الناس بالتقوى لما سيأتى فى السورة من الأحكام ، والتقوى هى امتثال الأوامر واجتناب النواهى ، ثم ذكر أنه خلقنا من نفس واحدة وجعل منها زوجها ، لأن كثيراً من هذه الأحكام قد شرع لتنظيم العلاقة بين الزوجين ثم كرر الأمر بتقوى الله الذى يتساءلون به والأرحام (إنَّ الله كانَ عليكم رقيباً)

أحكام اليتامى والسفهاء
الآيات (٢ — ٦)

ثم قال تعالى (وآتوا اليتامى أموالهم ـ الآية) فأمرهم بأن يأتوا اليتامى أموالهم بالإنفاق عليهم منها وتسليمها لهم بعد بلوغهم ، ونهاهم أن يضموا أموالهم إلى أموالهم فى الإنفاق ، لتتميز أموالهم وحدها ، ولا يدخل شىء منها فى أموالهم ، ثم أمرهم أن يتركوا نكاح اليتيمة إذا خافوا أن يطمعهم ذلك فى أموالها وأموال إخوتها فلا يُقسطوا فيها ، ووسع عليهم فى نكاح غيرها إلى أربع ، حتى لا يكون لهم عذر فى نكاح اليتيمة فى تلك الحالة ، ثم أمرهم أن يؤتوا النساء مهورهن حتى لا يظنوا أنها بخلاف مهر اليتيمة يحل لهم الطمع فيها ، وأحل لهم أن يأخذوا منها ما تطيب نفوسهن به ، لأنهن يحل لهن التصرف فيها بخلاف اليتيمة لرشدهن ، ثم نهاهم أن يؤتوا السفهاء من اليتامى وغيرهم أموالهم ، وأمرهم أن يبتلوا اليتامى عند بلوغهم ، فإذا ظهر أنهم غير سفهاء دفعوا إليهم أموالهم ، ثم أمر من كان منهم غنياً أن يعف عن أموال اليتامى ، ومن كان فقيرا أن يأكل بالمعروف (فإذا دفعتمْ إليهمْ أموالهمْ فأشهدُوا عليهمْ وكفى بالله حسيباً)

أحكام الميراث

الآيات (٧ — ١٤)

ثم قال تعالى (للرِّجال نصيبٌ مِمَّا تَرَكَ الوَالدان والأقربُون وللنساءِ نَصيبٌ مِمَّا تركَ الوالدَانِ والأقربَونَ مِمَّا قلَّ منهُ أوْ كثرَ نصيباً مَفرُوضاً) فذكر أن للرجال والنساء نصيباً فى الميراث، وكانوا فى الجاهلية يورثون الرجال دون النساء، وأمرهم إذا حضر قسمة الميراث أولو القربى ممن لا يرث واليتامى والمساكين أن يرزقوهم منه مايليق بحالهم على طريق الهبة أو الهدية، وذكر أن الصغار يرثون كما يرث الكبار، وكانوا فى الجاهلية لا يورثونهم لضعفهم، ثم حذرهم من أكل نصيبهم فى الميراث كما كانوا يفعلون فى الجاهلية، وجعل ذلك جارياً مجرى أكل النار لأنه يستلزمه، ثم ذكر نصيب كل وارث ووعد من يطيعه بإعطاء كل وارث نصيبه جنات يخلد فيها، وأوعد من يتعدى ذلك (ناراً خالداً فيها ولهُ عذابٌ مهينٌ).

حكم الزنا واللواط

الآيات (١٥ — ١٨)

ثم قال تعالى (واللَّاتى يأتينَ الفاحشة من نسائكم فاستشهدُوا عليهنّ أربعة منكم فإنْ شهدوا فأمسكوهنّ فى البيوت حتى يتوفاهن الموتُ أو يجعلَ اللهُ لهنّ سبيلا) فذكر أنه لا يقبل فى الزنا أقل من أربعة شهود، وأن من يثبت عليهن الزنا يُحبسن فى البيوت حتى يتوفاهن الموت أو ينزل فيهن حكم آخر، ثم ذكر أنه يجب فى اللذين يأتيان فاحشة اللواط الأذى بالفعل والقول إلى أن يتوبا، وأن التوبة إنما تقبل منهما ومن غيرهما إذا تابوا من قريب، ولا تقبل منهم إذا أخروها إلى ما قبيل الموت، ولا من الذين يموتون وهم كفار (أولئك أعتدنا لهمُ عذابا أليما).

أحكام متفرقة فى النساء

الآيات (١٩ — ٢٨)

ثم قال تعالى (يأيها الذين آمنوا لا يحلّ لكم أنْ ترثوا النساء كرهاً — الآية) فحرم

عليهم إرث النساء كرها ، وكان الرجل إذا مات فى الجاهلية ورث امرأته من يرث ماله ،وحرم عليهم عضلهن لأخذ شيء من مهورهن ، ثم ذكر أن المهور تدفع فى نظير الاستمتاع بهن لا لتملك بها رقابهن حتى يورثن أو يعضلن ، ثم ذكر محرمات النكاح من امرأة الأب ، والأم ، والبنت ، والأخت ، والعمة ، والخالة ، وبنت الأخ ، وبنت الأخت ، وأم الرضاع ، وأخت الرضاع ، وأم الزوجة ، وبنت الزوجة المدخول بها ، وأخت الزوجة مادامت فى العصمة ،وذات البعل إلا السبية إذا ملكت ولها بعل ، ثم أحل ما وراء ذلك من النساء ، إلى غير هذا من الأحكام، ثم ذكر أنه يريد بذلك أن يبين لهم سنن من قبلهم فى الحلال والحرام من النساء ، وأن يتوب عليهم مما كانوا فيه أيام جاهليتهم ، وأن يخفف عنهم ما كان فيها من العادات الضارة (يريد الله أن يخفّف عنكم وخلق الإنسان ضعيفاً) .

تحريم التعدى على المال والنفس

الآيات (٢٩ — ٣٤)

ثم قال تعالى (يأيها الذين آمنوُا لا تأكلوا أموالكمْ بينكم بالباطل — الآية) فحرم أكل أموال الناس بالباطل من غصب أو سرقة أو نحوهما ، وأحل أكلها بالتجارة عن تراض منهم ، ثم حرم عليهم أن يقتلوا أنفسهم ، وأوعد من يفعل ذلك وعيداً شديداً ، ووعد من يترك ذلك ونحوه من الكبائر أن يكفر عنه سيئاته ويدخله مدخلا كريماً ، ثم نهاهم أن يتمنى بعضهم ما عند الآخر من المال ، لأنه كسبه فهو أحق به من غيره ، وأمرهم أن يسألوه أن يعطيهم مثل ما أعطى غيرهم ، فإن هذا من الغبطة الممدوحة، وذلك من الحسد المذموم ، ثم ذكر أن لكل مال مما ترك الوالدان والأقربون والمعتقون موالى يلون أمره بإرثهم له ، فهم يملكونه بذلك الحق الثابت لهم ، ولا يحل لغيرهم مايحل لهم منه (فأتوهم نصيبهم إنّ الله كان على كل شيء شهيداً) .

قوامة الرجال على النساء

الآيتين (٣٤ — ٣٥)

ثم قال تعالى (الرجالُ قوّامونَ على النساءِ ـ الآية) فجعل الرجال قوامين على

النساء بما فضلهم عليهن فى القدرة على مشاقّ الحياة ، وبما أنفقوا عليهن من أموالهم، فالصالحات منهن مطيعات لبعولهن حافظات لغيبهن ، واللاتى يخافون نشوزهن لهم حق تأديبهن ، وإن وقع شقاق بين الرجل وامرأته اختير لهما حكمان من أهلهما (إنْ يريدَا إصلاحاً يوفقِ اللهُ بينهما إنَّ اللهَ كانَ عليماً خبيراً)

حقوق الله وبعض العباد

الآيات (٣٦ — ٤٢)

ثم قال تعالى (واعبدُوا اللهَ ولا تشركوا بهِ شيئاً وبالوالدينِ إحساناً ـ الآية) فأمرهم بعبادة الله وحده ، وأن يحسنوا إلى الوالدين وذى القربى واليتامى والمساكين والجار ذى القربى والجار الجُنُب والصاحب بالجَنْب وابن السبيل وما ملكت أيمانهم ، وأن يقوموا بذلك من غير اختيال وتفاخر عليهم ، لأن هذا شأن أولئك الكفار الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ، ولا ينفقون شيئا إلا رئاء الناس ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ، ثم ذكر أن سيجازيهم على ذلك ولا يظلم أحدا مثقال ذرة ، وإن تك حسنةً يضاعفها ، وهددهم بأنه سيجيء من كل أمة بشهيد ويجيء بالنبي صلى الله عليه وسلم شهيداً عليهم (يومئذ يودُّ الذينَ كفروا وعصَوُا الرسول لو تسوَّى بهمْ الأرضُ ولا يكتمونَ اللهَ حديثاً)

تحريم الصلاة على السكارى والجنب

الآية (٤٣)

ثم قال تعالى (يأيها الذينَ آمنوا لا تقربوا الصلاةَ وأنتم سكارى ـ الآية) فحرم عليهم الصلاة فى حال السكرِ وهم جُنبُ حتى يغتسلوا ، ثم شرع لهم التيمُّم عند فقد الماء بالتراب (فامسحوا بوجوهِكمْ وأيديكم إنَّ اللهَ كانَ عفوًّا غفوراً)

التحذير من أهل الكتاب

الايات (٤٤ — ٥٧)

ثم قال تعالى (ألمْ ترَ إلى الذينَ أوتوا نصيباً منَ الكتابِ يشترونَ الضلالةَ

ويريدون أن تضلوا السبيل) وكان اليهود قد بالغوا فى عداوة المسلمين حتى حالفوا المشركين عليهم، وزينوا لهم ماهم فيه من الشرك على الإسلام ، فلما ذكر تلك الأحكام العظيمة شرع فى تحذير المسلمين من اليهود أن يضلوهم عنها ، ويعودوا بهم إلى ما كانوا عليه من ضلال الشرك ، فذكر أن أولئك اليهود قد ضلوا ويريدون أن يعودوا بهم إلى ما كانوا عليه من الضلال ، وذكر من ضلالهم تحريفهم للكلم عن مواضعه، وأن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا أمرهم بأمر يقولون سمعنا وعصينا ، إلى غير ذلك مما ذكره من ضلالهم ، ثم أمرهم أن يؤمنوا بالقرآن من قبل أن يطمس وجوههم فيردها على أدبارها ، وهذا كناية عن تغيير حالهم من عز إلى ذل ، ثم ذكر عظم ذنب الشرك الذى آثروا نصر أهله على المسلمين ، وذكر تزكيتهم لأنفسهم بأنهم شعب الله المختار ، وأنهم مع هذا فضلوا عبدةَ الأصنام على المؤمنين، ثم ذكر أنهم لم يحملهم على ذلك إلا حسد النبي صلى الله عليه وسلم على ما آتاه الله من فضله، وأنهم إذا حسدوه على ذلك فقد آتى قبله آل إبراهيم النبوة والكتاب والحكمة والملكِ ، فمنهم من آمن بما آتاهم من ذلك ، ومنهم من صد عنه حقداً وحسداً ، ثم أوعدهم على ذلك بما أوعدهم به ، ووعد الذين آمنوا جنات تجرى من تحتها الأنهار (لهم فيها أزواجٌ مطهرة وندخلهمْ ظلاً ظليلاً)

عود إلى الأحكام

الآيات (٥٨ — ٧٠)

ثم قال تعالى (إنَّ اللهَ يأمركمْ أنْ تؤدُّوا الأماناتِ إلى أهلها وإذا حكمتمْ بين الناسِ أنْ تحكموا بالعدل إنَّ الله نِعِمَّا يعظكم بهِ إن الله كانَ سميعاً بصيراً) فأمرهم بأن يؤدوا الأمانات إلى أهلها ، وأن يحكموا بين الناس بالعدل ، وأن يطيعوا الله والرسول وأولى الأمر منهم ، وأن يردُّوا ما يتنازعون فيه إلى كتاب الله وسنة رسوله ، ثم ذكر أن المنافقين يعدلون عن ذلك إلى التحاكم إلى الأوثان كما كانوا يفعلون فى الجاهلية ، وأنهم إذا دعوا إلى التحاكم إلى كتاب الله وسنة رسوله صدُّوا

صدوداً ، وأنهم إذا أصابتهم مصيبة بما فعلوا من ذلك جاءوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم يحلفون أنهم ما أرادوا بتحاكمهم إلى غيره إلا إحسانا وتوفيقا ، وأنه يعلم أنهم يبطنون خلاف مايظهرون ، وأنهم لو كانوا مخلصين فى ذلك لوجدوه تواباً رحيما ، وأنهم لا يؤمنون حتماً حتى يُحكِّموا النبي صلى الله عليه وسلم فى كل ما شجر بينهم عن رضا منهم ، ثم ذكر أنه لو كلفهم بما يشق عليهم من قتل أنفسهم أو الخروج من ديارهم لم يفعله إلا قليل منهم وضاقوا به ، وأنهم لو فعلوا ما يوعظون به بما يطيقونه لكان خيراً لهم ، ثم ذكر أن من يطيعه ورسوله يكون مع الذين أنعم عليهم من النبيين والصديقين ومن إليهم (ذلكَ الفضلُ من اللهِ وكفى بالله عليمًا)

أحكام القتال

الآيات (٧١ — ١٠٤)

ثم قال تعالى (يأيها الذين آمنُوا خذوا حذركم فانفروا ثباتٍ أو انفروا جميعاً) فأمرهم بأخذ الحذر وهو السلاح ، وأن ينفروا إلى القتال جماعات متفرقة أو مجتمعين ، ثم ذكر لهم أن منهم من يثبطهم عن القتال وهم المنافقون ، فإن أصابتهم فيه مصيبة فرحوا بعدم خروجهم معهم ، وإن أصابهم فيه فوز تمنوا أن لو كانوا معهم ، ثم أمرهم بالقتال ووعدهم عليه عظيم الأجر قتلوا أو غلبوا ، وحثهم على هذا بأنهم يقاتلون فى سبيله وفى سبيل والمستضعفين منهم بمكة ، وأن أعداءهم يقاتلون فى سبيل الطاغوت ، ومن يقاتل فى سبيل الطاغوت يكون من أولياء الشيطان ، ومن يتولاه الشيطان يكون ضعيفاً ثم ذكر ما كان من المنافقين من طلب القتال قبل شرعه لهم فلما كتب عليهم هابوه وتمنوا لو أخر عنهم إلى أجل قريب حذراً من الموت ، وأمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يرد عليهم بأن متاع الدنيا قليل ولو طال ، وبأن لكل منهم أجلا لا بد أن يدركهم ولو كانوا فى بروج مشيدة ، ثم ذكر أنهم بعد استثقال القتال إذا خرجوا إليه فأصابتهم حسنة يقولون إنها من عند الله ، وإن تصبهم سيئة ألقوا فيها اللوم على النبي صلى الله عليه وسلم ، وأمره أن يرد عليهم بأن الحسنة والسيئة جميعا من عند الله ، وإذا كان هناك سبب من العبد فى إصابة السيئة فهو من نفسه لا من غيره ،

فلا يصح أن يلوم فى ذلك إلا نفسه ، وليس للنبي صلى الله عليه فى الأمر شيء ، لأنه ليس إلا رسولا من الله ، فمن يطعه فقد أطاع الله ، ومن يتول عنه فلا شيء عليه فى توليه ، ثم ذكر أنهم إذا أمروا بالقتال أظهروا الطاعة فى حضرة النبي صلى الله عليه وسلم ، فإذا خرجوا من عنده أضمروا خلافها ، والله يعلم ما يضمرون من ذلك ويكتبه لهم ، ولو أنهم تدبروا فيما يظهره القرآن من خفاياهم لعلموا أنه من عند الله ، لأن ما يظهره منها لا يختلف عما فى ضمائرهم ، ولا يعلم الغيب إلا الله تعالى ، ثم ذكر أنهم إذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به وزادوا فيه ليربكوا المسلمين بإرجافاتهم ، ويخفوا أمره عليهم .

ثم أمر النبى صلى الله عليه وسلم أن يقاتل فى سبيله ويدع أولئك المنافقين ، وأن يحرض المؤمنين على القتال ، لأنه بهذا يشفع شفاعة حسنة ، ومن يشفع شفاعة حسنة ، يكن له نصيب منها ، ومن يشفع شفاعة سيئة كالمنافقين المثبطين يكن له كفل منها ، ثم أمرهم إذا قابلهم أعداؤهم بالسلام أن يقابلوهم بأحسن منه ، لأنه لا يأمرهم إلا بقتال من يقاتلهم .

ثم لامهم على اختلافهم فى قوم من أولئك المنافقين بمكة كانوا يعينون المشركين على المسلمين ، فقال بعضهم إنهم مسلمون يحرم قتلهم ، وقال بعضهم إنهم كفار يجوز قتلهم ، فذكر لهم أنه ما كان لهم أن يختلفوا فيهم وقد أركسهم بما كسبوا ، وردهم إلى أحكام الكفار من الذل والصغار والسبي والقتل ، ونهاهم أن يتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا من مكة إليهم ، فإن تولوا عن الهجرة فحكمهم حكم المشركين من أهل مكة ، ثم استثنى منهم فريقين : أولهما قوم دخلوا فى عهد من كان داخلا فى عهد المسلمين ، وثانيهما قوم ضاقت صدورهم عن القتال ، فلا يريدون قتال المسلمين ولا قتال قومهم. ثم ذكر قوما آخرين من غطفان كانوا إذا أتوا المدينة أسلموا ليأمنوا المسلمين ، وإذا رجعوا إلى قومهم كفروا ليأمنوهم ، فأمرهم بقتالهم إن لم يعتزلوهم ويسالموهم ويتركوا مظاهرة قومهم عليهم .

ثم ذكر أنه لا يصح لمؤمن أن يقتل مؤمنا فى الحرب إلا خطأ ، بأن يرى عليه شعار الكفار فيظنه مشركا ، وقد أوجب فيه الدية إلى أهله إلا أن يصّدقوا ، ثم ذكر حكم المؤمن المقتول خطأ إذا كان فى دار الحرب ، وحكم المؤمن المقتول خطأ إذا كان بين أهل العهد ، ثم ختم ذلك بما ذكره من الوعيد الشديد على قتله عمدا، تأكيدا لما ذكره من أنه لا يصح قتله إلا خطأ .

ثم أمرهم أن يتبينوا حال الكفار قبل قتالهم ، ولا يقتلوا من يلقى إليهم السلام منهم طمعا فى أموالهم ، وذكر لهم أنهم كانوا كفارا مثلهم فمنّ عليهم بالإسلام ، وقد يمنّ عليهم بالإسلام مثلهم .

ثم ذكر أنه لا يستوى القاعدون عن الجهاد والمجاهدون بأموالهم وأنفسهم ، واستثنى من القاعدين أولى الضرر لأنه لا جهاد عليهم ، ثم ذكر من فضل المجاهدين على القاعدين ما ذكر ، وأتبعه بوعيد من قعد عن الجهاد فى دار الكفر ، وأوجب عليهم الهجرة منها إلى دار الإسلام ، واستثنى منهم المستضعفين الذين لا يمكنهم الهجرة ، ثم رغبهم فى الهجرة بأنهم يجدون بها فى الأرض مراغماً كثيراً وسعة ، وهذا إلى ما يكون لهم عند الله من عظيم الأجر .

ثم بين لهم كيف يؤدون الصلاة فى زمان الخوف والاشتغال بمحاربة العدو ، فأباح لهم قصر الصلاة إذا ضربوا فى الأرض للجهاد ، فإذا صلوا خلف النبي صلى الله عليه وسلم فى حال الحرب ، فليقسموا أنفسهم فى الصلاة خلفه ، ولا يصلوا خلفه دفعة واحدة ، فإذا زال الخوف أتوا بالصلاة على وجهها المعروف ، ثم ختم الكلام على القتال وأحكامه بقطع العذر عليهم فيه فقال (ولا تهنُوا فى ابتغاءِ القومِ إنْ تكونوا تألمون فإنهمْ يألمونَ كما تألمونَ وترجونَ من اللهِ ما لا يرجون وكانَ اللهُ عليماً حكيماً) .

تحريم المحاباة فى الحكم

الآيات (١٠٥ — ١٢٦)

ثم قال تعالى (إنا إنزلنَا إليكَ الكتابَ بالحقِّ لتحكمَ بينَ الناس بما أراكَ الله ولا تكنْ للخائنينَ خصيماً) وكان طعمةُ بن أبيرقَ سرقَ درْعاً ، فلما طلبت منه رمى بها واحدا من اليهود ، فجاء قومه يطلبون من النبي صلى الله عليه وسلم أن يعينهم عليهم ، فذكر له أنه أنزل عليه الكتاب ليحكم بين الناس بما يريه إياه ، ونهاه أن يخاصمَ للخائنين وأمره أن يستغفره من ذلك ، تعريضاً بمن فعل ذلك من قوم طعمة ، ثم وبخهم على ما كان منهم ، وذكر أنهم إذا جادلوا عن الخائنين فى الدنيا فمن يجادل عنهم يوم القيامة ، وأن من يعمل سوءا ويستغفر الله ولا يرْم به بريئا يغفره الله له ، ومن يعمل سوءا ثم يرم به بريئا فقد أضاف إليه إثما أشنع منه ، ثم ذكر أنه لولا فضله على النبي صلى الله عليه وسلم لأضلوه بذلك ، وأنهم لا يضلون إلا أنفسهم ، وأنه أنزل عليه الكتاب والحكمة وعلمه مالم يكن يعلم فتضاعف بهذا فضله عليه ، ثم ذكر أن ما يتناجون به من ذلك وغيره لا خير فيه ، وإنما الخير فى التناجى بالأمر بالصدقة أو المعروف أو الإصلاح بين الناس ، ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله فله عظيم الأجر ، ومن يمض فى شقاقه إلى أن يرتد عن دينه كأولئك المنافقين فله شديد العقاب ، ولا يغفر الله له أبدا ، لأنه لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون الشرك لمن يشاء ، ثم ذكر من قبائح شركهم أنهم لا يدعون من دونه إلا إناثا كاللات والعُزّى ، وإلا شيطانا مريدا يضل الناس ويزين لهم القبائح ويمنّيهم أنه لا بعث ولا حساب ، ثم ذكر أنه لا صحة لأمانيهم ولا لأمانىِّ أهل الكتاب أنه لن يدخل الجنة غيرهم ، فمن يعمل سوءا يجز به فى يوم الجزاء ، ومن يعمل صالحا يدخله الجنة ولا يظلمه شيئا ، وليس هناك أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله واتبع ملة إبراهيم فى توحيده (ولله ما فى السماواتِ وما فى الأرضِ وكان الله بكلِّ شىءٍ محيطاً)

أحكام أخرى فى النساء

الآيات (١٢٧ — ١٣٤)

ثم قال تعالى (يستفتونك فى النساء قل اللهُ يفتيكم فيهنَّ — الآية) وكانوا قد سألوا التخفيف فيما نزل فى أول السورة فى يتامى النساء اللاتى كانوا ينكحونهن طمعاً فى أموالهن ، وفى اليتامى الذين كانوا يحرمونهن من الميراث ، وفى العدل مع الزوجات فى عشرتهن وعند مفارقتهن ، فذكر لهم أن ماتلاه عليهم أول السورة فى اليتامى هو الذى يفتيهم الآن به ، لأنه لا سبيل إلى تغييره ، وأن الصلح بين المرأة وبعلها عند خوفها من نشوزه أو اعراضه خير من التسريح والفراق ، ولو اقتضى ذلك أن تتنازل المرأة عن بعض حقوقها فى القسم والنفقة ونحوهما ، وتتغلب بذلك على ما جُبِلتْ عليه الأنفس من الشُّحِّ ، ثم ذكر أن ما أمر به فى أول السورة من العدل بين الزوجات لا يمكن الإتيان به على وجهه الكامل ، فليأتوا منه ما فى استطاعتهم من العدل فى القسم ونحوه ، فإذا لم يمكنهم ذلك العدل المستطاع ولم ترض الزوجات أن ينزلن عن حقهن فيه فليتفرقا يُغْنِ الله كلا من سعته ، ثم ذكر أن ما أمرهم به فى ذلك من التقوى التى وصى بها أهل الكتاب من قبلهم ، ويوصيهم بها من بعدهم ، وأنهم إذا كفروا ولم يتقوه فإنه غنى عنهم ، وأنه إن يشأ يذهبهم ويأت بغيرهم ، وأن من يريد ثواب الدنيا بالطمع فى أولئك الضعاف (فعند الله ثوابُ والآخرةِ وكانَ الله سميعاً بصيراً) .

تحريم المحاباة فى الشهادة

الآية (١٣٥)

ثم قال تعالى (يا أيها الذينَ آمنوا كونوا قوّامينَ بالقسطِ — الآية) فأمرهم أن يكونوا قوامين بالعدل فى كل أمورهم ، وأن تكون شهادتهم لله ولو كان فيها ضرر على أنفسهم أو الوالدين والأقربين ، وإذا كان المشهود عليه غنياً أو فقيراً فلا يكتموا الشهادة لرضا الغنى أو الترحم على الفقير ، ونهاهم عن متابعة الهوى ليمكنهم

القيام بما أمروا به من ذلك (وإنْ تلوُوا أو تعرضوا فإنَّ الله كانَ بما تعملون خبيراً)

عود إلى المنافقين وأهل الكتاب

الآيات (١٣٦ — ١٧٥)

ثم قال تعالى (يأ يها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله — الآية) فعاد إلى الكلام على المنافقين وأهل الكتاب ، وقد بدأ بالمنافقين فأمرهم أن يؤمنوا إيمانا صادقا بما أمرهم أن يؤمنوا به ، وذكر أنه لا يغفر لمن يتذبذب فى إيمانه مثلهم ، ثم أمر النبى صلى الله عليه وسلم أن يبشرهم بمالهم من عذاب أليم تهكما بهم ، وذكر أنهم يتخذون الكافرين من اليهود أولياء من دون المؤمنين ، فيجلسون إليهم ويسمعون إلى طعنهم فى القرآن مع أنهم قد نهوا عن سماع ذلك منهم ، ثم ذكر تذبذبهم بين المسلمين والكفار ، فإن كان للمؤمنين فتح طلبوا أن يشاركوهم فى الغنائم ، وإن كان للكفار ظفر امتنوا عليهم بمنعهم من المسلمين ، وأنهم يخادعون الله بذلك وهو خادعهم ، وأنهم يقومون إلى الصلاة متكاسلين يراؤون الناس فيها ، ثم ذمهم على تلك الذبذبة وحذر المؤمنين أن يتذبذبوا مثلهم فيوالوا الكفار كما والوهم ، وذكر أنه أعد للمنافقين أشنع عقاب مبالغة فى التحذير منهم ، واستثنى من ذلك من تاب من نفاقه وأخلص دينه له ، لأنه لا حاجة له فى عذاب أحد ، وإنما يعذب الناس ليحملهم على التوبة من ذنوبهم ، ثم ذكر أنه لا يحب الجهر بالسوء من القول كما يفعل أولئك المنافقون ، وأباح لمن ظلم أن يجهر بما وقع عليه من ظلم ، ولمن يأتى بخير أن يظهره أو يخفيه ، وفضل لمن ظلمَ أن يعفو عمن ظلمه .

ثم انتقل إلى اليهود فحكم بكفرهم لأنهم يريدون أن يؤمنوا ببعض كتبه ورسله دون بعض ، ثم أوعدهم على ذلك عذاباً مهيناً ، ووعد الذين يؤمنون بسائر الرسل بأنه سوف يؤتيهم أجورهم يوم القيامة ، ثم ذكر من تعنتهم على النبى صلى الله عليه وسلم أنهم سألوه أن ينزل عليهم كتابا من السماء يعاينونه حين ينزل ، وأنهم تعنتوا على موسى أكبر من ذلك ، فطلبوا منه أن يريهم الله جهرة ، وعبدوا العجل من بعد

من بعد ما جاءتهم البينات ، إلى غير هذا من تعنتهم وعنادهم ، ثم ذكر أنهم تعنتوا على مريم ونسبوها إلى الزنا ، وأنهم تعنتوا على المسيح وزعموا أنهم قتلوه ، وذكر أنهم لم يقتلوه يقينا بل رفعه إليه ، وأنه لا يموت بعد رفعه حتى يؤمن به من كذبه منهم ، ثم ذكر أنه جازاهم على تعنتهم بتشديده عليهم فى الدنيا ، فحرم عليهم بعض ما أحل لهم من الطيبات ، وأعد فى الآخرة للكافرين منهم عذابا أليما ، ثم استدرك على ذلك بأن الراسخين فى العلم منهم لا يتعنتون على النبى صلى الله عليه وسلم ، بل يعلمون أنه النبي المبشر به، ويؤمنون به وبما أنزل إليه وما أنزل من قبله ، ثم ذكر أنه أوحى إلى النبي صلى الله عليه وسلم كما أوحى إلى الأنبياء من قبله ، وأنهم إذا لم يشهدوا بذلك فإنه يشهد به هو والملائكة ، ثم أوعدهم على كفرهم وتعنتهم بما أوعدهم به ، وختم الكلام معهم بدعوتهم إلى الإيمان بما جاءهم من الحق ، لأنه خير لهم من كفرهم وتعنتهم .

ثم انتقل إلى النصارى فنهاهم عن الغُلوّ فى دينهم بتعظيم المسيح إلى مرتبة الألوهية، وذكر أنه إنما هو رسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ، ثم أمرهم أن يؤمنوا به وحده ويتركوا عقيدة التثليث ، ونفى أن يكون له ولد كما يزعمون ، وذكر أن المسيح والملائكة المقربين لن يستنكفوا أن يكونوا عبيدا له ، وأوعد من يستنكف عن عبادته بما ذكره فى وعيده، ووعد الذين يؤمنون به بما وعدهم به ،ثم دعاهم إلى الإيمان بعد أن جاءهم برهان به وأنزل إليهم نورا مبيناً (فأمّا الذين آمنوا بالله واعتصمُوا به فسيدخلهم فى رحمةٍ منه وفضلٍ ويهديهمْ إليه صراطاً مستقيما)

حكم الكلالة

الآية (١٧٦)

ثم قال تعالى (يستفتونك قل ُالله ُ يفتيكم فى الكلالةِ ـــ الآية) فذكر أنهم استفتوه فى الكلالة من الورثة ، وهم الحواشي الذين يدلون بالوالدين إلى الميت ، وقد ذكر فى أحكام الميراث السابقة نصيب الكلالة إذا كانوا إخوة لأم ، وذكر هنا نصيب

الكلالة إذا كانوا من العصب ، وقد أفتاهم فى ذلك بأن الأخت لها النصف ، وبأن أخاها يرث مالها كله إن لم يكن لهـا ولد (فإنْ كانتا اثنتينِ فلهما الثلثان ممَّا ترك وإن كانوا إخوةً رجالا ونساءً فللذَّكرِ مثلُ حظِّ الأنثيينِ يبينُ اللهُ لكم أنْ تضلوا واللهُ بكلِّ شيءٍ عليمٌ) .

سورة المـائدة

تاريخ نزولها ووجه تسميتها :

نزلت سورة المائدة بعد سورة الفتح ، وكان نزول سورة الفتح بعد صلح الحديبية فى السنة السادسة من الهجرة، فيكون نزول سورة المـائدة فيما بين صلح الحديبية وغزوة تبوك .

وقد سميت هذه السورة بهذا الاسم لأنه ذكر فيها حديث المـائدة التى أنزلت من السماء على حوارىى عيسى عليه السلام ، وتبلغ آياتها عشرين ومائة آية .

الغرض منها وترتيبها :

نزلت سورة المـائدة بعد صلح الحديبية ، وكان النبى صلى الله عليه وسلم قد قصد مكة للعمرة هو وأصحابه ، فصدتهم قريش عن عمرتهم ، وجرت بين الفريقين حوادث انتهت بصلح رضيه النبى صلى الله عليه وسلم ، وكان كثير من أصحابه يرى أن فيه غبنا لهم ، لأنه جاء على الشروط التى أرادتها قريش ، وهى وضع الحرب بين المسلمين وقريش أربع سنين ، وأن من جاء المسلمين من قريش يردونه ، ومن جاء قريشاً من المسلمين لا يلزمون برده ، وأن يرجع المسلمين من غير عمرة هذا العام ويقضوها فى العام المقبل ، وأن من أراد أن يدخل فى عهد المسلمين من غير قريش دخل فيه، ومن أراد أن يدخل فى عهد قريش دخل فيه .

فنزلت هذه السورة وفى أولها الأمر بالوفاء بالعقود ، ليفوا بما للمشركين فى ذلك العقد وإن كان فيه غبن لهم ، ويقوموا بعمرة القضاء ولا يتثاقلوا عنها تهاونا بما استفادوه منه ، وقد أطلقت العقود فى ذلك إطلاقا لتشمل هذا العقد وغيره من العقود ، سواء أكانت بين بعض العباد وبعض، أم كانت بين الله والعباد ، ثم ذكر فيها ما أوقعه الله بالأولين من أهل الكتاب وغيرهم لنقضهم عهودهم ، ليحذر

المسلمين أن يصيبهم إذا نقضوا عهودهم مثل ما أصابهم ، وقد جر ذلك إلى الكلام على نقض المنافقين واليهود لعهودهم مع النبي صلى الله عليه وسلم ، وما كان من موالاة المنافقين لليهود وإيثارهم عهودهم معهم على عهودهم مع المسلمين .

وقد جاء بعد الأمر بالوفاء بالعقود في أول السورة بيان حكم الذبائح والصيد في الحرم وتحريم التعرض لمن يؤمه للنسك ، وما إلى هذا من أحكام المناسك ، وقد جاء معها قليل من الأحكام العملية الأخرى ، فلما انتهى من الكلام على أهل الكتاب والمنافقين عاد إلى الكلام على تلك الأحكام العملية ، وفصل فيها بعض ما أجمله في أحكام المناسك ، ليبين للمسلمين ما يحتاجون إليه من ذلك في عمرة القضاء ، وليعلموا الفرق في ذلك بين الجاهلية والإسلام ، ثم ختمت السورة بذكر أحوال يوم القيامة ليبين ما أعد فيها للذين يفون بعهودهم ، ويتناسب في هذا بدؤها وختامها .

وقد ذكرت هذه السورة بعد سورة النساء لأنها تشبهها في الطول ، وفيما جاء فيها من الكلام على أهل الكتاب والمنافقين ، كما تشبهها فيما جاء فيهما من الأحكام العملية .

أحكام العقود والمناسك

الآيات (١ — ٥)

قال الله تعالى (يأيها الذينَ آمنوا أوْفوا بالعقودِ أحلتْ لكمْ بهيمة الأنعامِ إلا ما يتلى عليكم غير محلِّي الصيدِ وأنتمْ حرمٌ إنَّ الله يحكم ما يريدُ) فأمرهم بالوفاء بالعقود ، وأحل لهم بهيمة الأنعام وهم حُرُمٌ إلا ما يتلى عليهم ، وحرَّمَ عليهم الصيد وهم حُرُم ، ثم نهاهم أن يحلوا شعائره أو الشهر الحرام أو الهدى أو القلائد أو الحجاج والمعتمرين ، وأحل لهم ما حرَّمه من الصيد إذا حلوا ، ونهاهم أن يحملهم صدُّ المشركين لهم عن العمرة على الاعتداء عليهم ، ثم فصل ما استثناه من بهيمة الأنعام ، فحرم الميتة وغيرها إلى الاستقسام بالأزلام وهو الميسرُ ، وكانوا إذا اجتمعوا في الحرم يهلون بذبائحهم للنُّصُب ، ثم يلطخونها بالدماء ويضعون اللحوم عليها ، ثم ينحرون جزورا ويسهمون عليها بالأزلام ، ثم ذكر لهم أن الكفار قد يئسوا من

التأثير عليهم فى دينهم، ونهاهم أن يخشوهم إذا خالفوهم فى مناسكهم ، وذكر لهم أنه أكمل لهم دينهم ورضى لهم الإسلام دينا ، فيجب عليهم أن يرضوا ما يرضاه لهم ، ولا يخشوا فيه لومة لائم .

ثم ذكر أنهم سألوا النبى صلى الله عليه وسلم قولا جامعاً فيما أحل لهم من ذلك، فذكر أنه أحل لهم الطيبات وصيد ماعلّموا من جوارح الطير والسباع ، وأن ذبائح أهل الكتاب حِلّ لهم كما أن ذبائحهم حل لهم ، وأنه أحل لهم المحصنات من المؤمنات ومن أهل الكتاب إذا أعطوهن مهورهن محصنين غير مسافحين ولا متخذى أخدان (ومنْ يكفرْ بالإيمانِ فقد حبطَ عملهُ وهوَ فى الآخرةِ منَ الخاسرينَ)

أحكام الوضوء والتيمم

الآية (٦)

ثم قال تعالى (يأيهّا الذينَ آمنُوا إذا قمتمْ الى الصلاةِ فاغسلوا وجوهكم ـ الآية فذكر حكم الصلاة بعد حكم الحج والعمرة ، لأنهما ركنان من أركان الإسلام الخمسة، فأمرهم بالوضوأ أو التيمم عند القيام للصلاة ، ثم ذكر حكمة الوضوء والتيمم فقال (مايريدُ اللهُ ليجعلَ عليهم منْ حرجٍ ولكنْ يريدُ ليُطهِّركم وليتمَّ بعمتهُ عليكم لعلكمْ تشكرونَ)

التحذير من نقض العقود

الآيات (٧ — ١١)

ثم قال تعالى (واذكرُوا نعمة اللهِ عليكمْ وميثاقهُ الذى واثقكمْ بهِ إذْ قلتمْ سمعنا وأطعنا واتقوا الله إنّ الله عليم بذات الصدور) فعاد إلى المقصود الأول من السورة ، وأمرهم أن يذكروا نعمته عليهم بظهورهم على المشركين، وأن يفوا بميثاقه عليهم، وأن يكونوا قوامين له شهداء بالعدل ، ونهاهم أن تحملهم عداوتهم للمشركين على نقض ميثاقهم ، ثم وعدهم على ذلك بالمغفرة والأجر ، وأوعد الكفار بأنهم من أصحاب الجحيم ، ثم أمرهم أن يذكروا نعمته عليهم إذ كانوا فى مكة مغلوبين للمشركين ، فكف أيديهم عنهم وجعلهم يرضون بصلحهم لشعورهم بقوتهم ، ثم أمرهم أن يتقوه فى ذلك ويتوكلوا عليه (وعلى اللهِ فليتوكلِ المؤمنونَ)

الاعتبار بناقضى العقود من الأولين

الآيات (١٢ — ٤٠)

ثم قال تعالى (ولقدْ أخذَ الله ميثاقَ بنى إسرائيلَ ـ الآية) فذكر أنه أخذ الميثاق عليهم بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والإيمان برسله الذين يبعثهم إليهم، فلما نقضوا ذاك الميثاق أوقع عليهم لعنته فى الأرض، فأذلهم وجعل قلوبهم قاسية لا تبالى بشىء، فحرفوا كتبهم ونسوا بعض ما أنزل إليهم، ولا يزال أثر تلك الخيانة فيهم بما فعلوه فى عقودهم مع النبى صلى الله عليه وسلم.

ثم ذكر أنه أخذ على النصارى مثل ذلك العهد فلم يفوا به أيضاً، فأوقع بينهم العداوة والبغضاء باختلافهم فى دينهم، بعد نسيانهم بعض ما أنزل إليهم

ثم ذكر أنه قد أرسل النبى صلى الله عليه وسلم إلى الفريقين ليبين لهم ما أخفوه من كتبهم، وأنزل عليهم كتابا يخرجهم من الظلمات إلى النور فى أمر دينهم، ثم ذكر أظهر ما وقع فيه كل منهما بنقض عهودهم، من قول النصارى إن الله هو المسيح ابن مريم، مع أنه إن أراد أن يهلكه وأمه ومن فى الأرض جميعا لم يملك أحد منه شيئاً، ومن قول اليهود نحن أبناء الله وأحباؤه، مع أنه يعذبهم بذنوبهم ولا فرق عنده بينهم وبين غيرهم، ثم ذكر أنه أرسل إليهم النبى صلى الله عليه وسلم بعد انقطاع الرسل عنهم، ليبين لهم ما أحدثوه بعدهم، ويقطع بذلك العذر عنهم.

ثم ذكر ما كان من موسى حين أمر قومه أن يذكروا نعمته عليهم، وأن يدخلوا الأرض المقدسة التى كتبها لهم، ليقوموا بما عاهدوا الله عليه من محاربة أهلها، فأبوا أن يحاربوهم خوفا منهم، ثم ذكر عقابه لهم على ذلك بتحريمها عليهم أربعين سنة يتيهون فى الأرض.

ثم ذكر ما كان من أمر هابيل وقابيل ابنى آدم عليه السلام، وقد اختلفا فى أمر من الأمور، فقدم كل منهما قرباناً إلى الله ليحكم بينهما فيه، فتقبل الله قربان هابيل دون قابيل، فلم يرض قابيل بذلك وهدد أخاه بالقتل، ولم يخف الله فيما عهد

به اليهم من تحريم ذلك عليهم ، وكف هابيل عن قتله خوفا من الله تعالى . ثم ذكر أن قابيل قتل بعد ذلك أخاه فأصبح من الخاسرين ، وأدركه من الندم ما ساءت به حياته بعد أخيه .

ثم عقَّبَ على هذا بأنه كتب من أجله على بنى إسرائيل أنه من قتل نفساً بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً ، ومن أحياها بإقامة القصاص فكأنما أحيا الناس جميعا ، فنقضوا أيضا ما كتبه عليهم من ذلك ، وأسرفوا فى الأرض بالقتل وقطع الطريق والسرقة وغيرها ، ثم ذكر أن جزاء الذين يبغون فى الأرض بهذا الفساد أن يقتّلوا أو يصلّبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو يُنفوا من الأرض ، واستثنى منهم الذين يتوبون قبل القدرة عليهم، وأمر المؤمنين بالتقوى وابتغاء الوسيلة إليه وجهاد أولئك المفسدين ، وأنذرهم بأن لهم من عذاب القيامة ما لو أن لهم ما فى الأرض جميعاً ومثله معه ليفتدوا به منه ما تقبل منهم ، ثم ذكر أن جزاء السرقة من ذلك الفساد قطع الأيدى ، وأن من تاب يقبل توبته ولا يعاقبه ، لأنه المتفرد بالملك فى السماوات والأرض (يعذِّبُ مَنْ يشاءُ ويغفرُ لمنْ يشاءُ واللهُ على كلِّ شيءٍ قديرٌ)

نقض المنافقين واليهود لعقودهم

الآيات (٤١ - ٨٦)

ثم قال تعالى (يأيها الرسولُ لا يحزنكَ الذينَ يسارعونَ فى الكفرِ - الآية) فنهى النبى صلى الله عليه وسلم أن يحزن لمسارعة المنافقين واليهود فى نقض عهودهم معه ، وذكر من أمر اليهود فى ذلك أنهم كانوا يجاسون إليه لكى يسمعوا منه ويكذبوا عليه ويتجسسوا لمن لا يحضر مجالسه من رؤسائهم ، وأن رؤساءهم كانوا يحذرونهم إذا تحاكموا إليه أن يقبلوا منه ما يخالف ما حرفوه من أحكام التوراة فى جاهليتهم ، وكانوا قد حرفوا أحكامها فى القصاص ، وعدلوا عنها بالرشوة إلى أحكام جائرة ظالمة ، فجعلوا دية القتيل من بنى قريظة نصف دية القتيل من بنى النَّضير ، ثم خيره

فى الحكم بينهم والإعراض عنهم ، وأمره عند اختيار الحكم بينهم أن يحكم بالعدل الذي أنزله وهو القصاص ، ثم عجّبه من أنهم يحكّمونه وعندهم التوراة فيها حكمه فى القتل ثم يتولون عنه بعد التحكيم إذا علموا أنه سيحكم بينهم بذلك لا بما حرفوه فى جاهليتهم ، ثم ذكر أنه أنزل التوراة فيها هدى ونور من الأحكام التى لم يحرفوها ، وأن أسلافهم كانوا يحكمون بها لا بتلك الأحكام التى تواضعوا عليها ، ونهاهم أن يخشوا الناس فى الرجوع إلى حكم التوراة فى القصاص ، وأمرهم أن يخشوه وحده ولا يشتروا بآياته تلك الرشوة الزائلة ، ثم ذكر ما جاء فيها من القصاص فى النفس والعين والأنف والأذن والسنّ والجروح ، وأن عيسى عليه السلام جاء بعد ذلك مصدقاً لأحكام التوراة ، وأنه أنزل عليه الإنجيل مصدقا لها أيضا ، وأنه أنزل القرآن بعد ذلك مصدقاً لأحكام التوراة والإنجيل ومهيمناً عليهما ، وقد توافقت الكتب الثلاثة على القصاص ، فيجب الحكم بينهم به ولا يصح اتباع أهوائهم فى الحكم ، ثم ذكر أنه جعل لكل من اليهود والنصارى والمسلمين شرعةً ومنهاجاً ، وله فى اختلاف تلك الشرائع حكمة الابتلاء فيها ، وقد جعل شرعتنا خير الشرائع التى أنزلها ، ثم حذر النبي صلى الله عليه وسلم من اليهود أن يفتنوه عما جاء فيها من القصاص ، وعجّب من أنهم يبغون حكم الجاهلية الذى يفرق بين الدماء (وَمَنْ أحسنُ منَ اللهِ حكماً لقوم يوقنونَ) .

ثم نهى المؤمنين أن يتخذوا اليهود والنصارى أولياء لنقضهم عهودهم ، ولإيثارهم أعداءهم منهم عليهم ، ثم ذكر أن المنافقين يتمسكون بحلفهم ويقولون نخشى أن تصيبنا دائرة من هزيمة أو نحوها فنحتاج إليهم ، وكانوا أهل ثروة ومال يقرضونه بالربا وغيره ، ثم ذكر أنه سيفتح على المؤمنين فيندم المنافقون على نفاقهم ، ويقول المؤمنون متعجبين من أمرهم (أهؤلاءِ الذينَ أقسموا بالله جهدَ أيمانهمْ إنهمْ لمعكمْ حبطتْ أعمالهمْ فأصبحوا خاسرين) ثم ذكر أن من يرتد من أولئك المنافقين عن دينه فسوف يأتى بقوم خير منهم يجاهدون فى سبيله ، وأنه يجب أن يكون وليهم الله ورسوله والمؤمنون لينصرهم على أعدائهم .

ثم عاد إلى نهى المؤمنين عن موالاة أهل الكتاب والمنافقين ليذكر سبباً آخر فى ذلك ، وهو أنهم يتخذون دينهم هزواً ولعباً ، ويستهزئون بصلاتهم عند قيامهم بها، ثم أمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يخبر أهل الكتاب بأنهم لا ينقمون منهم إلا أنهم يؤمنون بسائر الكتب المنزلة وأن أكثرهم فاسقون ، وأن يخبرهم بأن هناك من هو شر مثوبة عند الله ممن يظنونهم كذلك ويستهزئون بهم ، وهو من لعنه الله وجعل منهم من هو على غرائز القردة والخنازير فى الشره والطمع ، ثم ذكر أن منهم من إذا جاءوا المؤمنين قالوا آمنا ، وقد دخلوا بالكفر وهم قد خرجوا به ، وأن كثيرا منهم يسارعون فى الإثم والعدوان وأكل السُّحْت ،وقد كان على ربانيِّيهم وأحبارهم أن ينهوهم عن ذلك ، ولكنهم تركوه طمعا فيما يأخذونه منهم ، ثم ذكر أنهم كانوا إذا طلب منهم الإنفاق فى سبيله قالوا إن الإله الذى يستقرض شيئا من عباده فقير يده مغلولة ، يتهكمون بذلك ويتعللون به فى كف أيديهم عن الإنفاق ، ويقولون على الله هذا القول الشنيع ، وهو الغنى المبسوط اليدين بالعطاء ، ومن يكون هذا شأنه لا ينتظر منه إلا أن يزيده ما ينزل من القرآن طغياناً وكفراً ، ثم ذكر أنه ألقى بينهم العداوة إلى يوم القيامة بسبب تكالبهم على الدنيا ، فكلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها بتفرقهم وتخاصمهم ، ثم ذكر أنهم لو آمنوا وأقاموا حكم التوراة والإنجيل فى القصاص وغيره بدل أحكام الجاهلية لكفر عنهم سيئاتهم ، ورزقهم سعادة الآخرة والدنيا ، وأن منهم من اقتصد فى أمره وحافظ على عهده ، ولم ينقضه كما نقضه كثير منهم .

ثم أمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يمضى فى تبليغ رسالته إليهم ، ووعده بعصمته وحفظه منهم ، ثم فصل ما يبلغه بأن يقول لهم إنهم ليسوا على شىء حتى يقيموا عهد التوراة والإنجيل والقرآن فى القصاص وغيره من الأحكام ، وأخبره بأن تبليغه إليهم ذلك سيزيدهم طغيانا وكفرا ، ونهاه أن يحزن على قوم كافرين مثلهم ، وذكر ما أعده لمن آمن منهم ومن غيرهم ليقلعوا عن كفرهم ، ثم ذكر من خروجهم على عهد التوراة والإنجيل أنه أخذ على بنى إسرائيل ميثاقهم أن يؤمنوا برسله ، فكلما

جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم كذبوا بعضهم وقتلوا بعضهم، وأن النصارى كفروا بعد إيمانهم، فقال بعضهم إن الله هو المسيح ابن مريم، مع أنه قد أمرهم أن يعبدوا الله ربه وربهم، وقال بعضهم إن الله ثالث ثلاثة، مع أنه ما من إله إلا إله واحد، ثم رد عليهم جميعاً بأن المسيح لم يكن إلا رسولا، وبأن أمه لم تكن إلا صدِّيقة، وكانا يأكلان الطعام كما يأكل سائر البشر، ثم وبخهم على أن يعبدوا من دونه ما لا يملك لهم ضرا ولا نفعا، ونهاهم أن يغلوا فى أمر المسيح وأن يتبعوا فى ذلك من ضل قبلهم فقال بالتثليث ونحوه مما يقولون به.

ثم ذكر أنه لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم، وأن كثيراً منهم كانوا لا يتناهون عن المنكر فيما بينهم، وأن كثيرا منهم يتولون المشركين على المؤمنين، ولو كانوا يؤمنون بالله ونبيهم موسى عليه السلام ما اتخذوهم أولياء، ثم ذكر أن اليهود والمشركين الذين يوالى بعضهم بعضاً أشد الناس عداوة للمؤمنين، وأن النصارى أقرب منهم مودة لهم، لأن منهم قسيسين ورهبانا قد أقبلوا على العبادة ولم يحرصوا على الدنيا حرص اليهود والمشركين، ومنهم من إذا سمعوا ما أنزل على النبى صلى الله عليه وسلم تفيض أعينهم من الدمع، ويؤمنون بأنه النبى الذى بشروا به فى التوراة والإنجيل، فكان جزاؤهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء المحسنين (والذينَ كفروا وكذَّبوا بآياتنا أولئك أصحابُ الجحيم).

عود إلى ما سبق من الأحكام

الآيات (٨٧ — ١٠٨)

ثم قال تعالى (يأيها الذين آمنوا لا تحرِّموا طيبات ما أحلّ الله لكم ولا تعتدُوا إن الله لا يحبُّ المعتدين) فنهاهم أن يحرموا شيئاً من الطيبات التى أحلها لهم فيما سبق، وأمرهم أن يأكلوا مما رزقهم حلالا طيبا، ثم ذكر لهم أنه لا يؤاخذهم باللغو فى أيمانهم، ولكن يؤاخذهم بما قصدوه منها، وبين لهم كفارته، ثم حرم عليهم الخمر والميسر والأنصاب والأزلام، وذكر أن الشيطان يريد أن يوقع بينهم العداوة

فى الخمر والميسر ، ثم ذكر أنه لا حرجٌ عليهم فيما طعموا إذا ما اتقوه فيها بامتثال أوامره واجتناب نواهيه ، ثم ذكر أنه سيبلوهم فى حال الإحرام بشىء من الصيد تناله أيديهم ورماحهم ، وأعاد ذكر تحريمه ليبين حكم من يقتله متعمداً ، وأن الذى يحرم صيد البر لا صيد البحر ، ثم ذكر أنه جعل البيت الحرام أمنا للناس فلا يحل القتال فيه ، وكذلك جعل الشهر الحرام أمنا لهم ، وكذلك جعل الهدى والقلائد لتسير إلى البيت آمنة ، ثم ذكر أنه شرع لهم ذلك بواسع علمه وحكمته ، وهددهم على مخالفة ذلك بشديد عقابه ، وذكر أنه ليس على الرسول صلى الله عليه وسلم إلا تبليغه لهم .

ثم ذكر أنه لا يستوى الخبيث الذى حرمه عليهم والطيب الذى أحله لهم ، ولو كان فى كثرة الخبيث ما يدعو إلى الإعجاب به ، ثم نهاهم أن يسألوا عن أشياء من ذلك يريدون التشديد فيها ، لأنه قد سألها قوم من قبلهم ثم كفروا بها ولمية وواعابها

ثم أبطل ما كانوا يهدونه للأصنام ، فذكر أنه ما جعل لهم من بَحيرة ولا سائبة ولا غيرهما من هدايا الأصنام ، وأنهم يفترون عليه فى نسبة تشريعها إليه ، وأنهم يقلدون فيها آباءهم ولو كانوا لا يعلمون شيئا ولا يهتدون ، ثم أمر المؤمنين أن يعرضوا عنهم لأنهم لا يضرنهم بشىء من ضلالهم ، وذكر أن مرجعهم إليه فينبئهم بأعمالهم

ثم ذكر أن أحدهم إذا كان مسافرا وحضره الموت أشهد على وصيته اثنين من المسلمين ، فإذا لم يجدهما أشهد عليها اثنين من غيرهم ، ثم أكد فى الشهادة على الوصية بما أكد به ليأتوا بها على وجهها (أو يخافوا أن تردَّ أيمانٌ بعد أيمانهم واتّقوا الله واسمعوا واللهُ لا يهدى القومَ الفاسقين)

الخاتمة

الآيات (١٠٩ — ١٢٠)

ثم قال تعالى (يومَ يجمعُ اللهُ الرسلَ فيقولُ ماذا أُجبتم قالوا لا علمَ لنا إنكَ أنت علاّمُ الغيوبِ) فذكر أنه يجمع رسله يوم القيامة ليسألهم عما فعله أتباعهم

فيما عهدوا به إليهم ، فيجيبوا بأنهم لا يعلمون ما أحدثوه فيها بعد وفاتهم ، لأنهم غابوا عنهم ولا يعلم الغيب غيره ، ثم خص النصارى بذكر ما أحدثوه فى عهدهم لأنهم كانوا أشد انحرافا من غيرهم ، فذكر أنه فى يوم القيامة يذكر لعيسى عليه السلام ما أنعم به عليه وعلى والدته ، وأنه علمه الكتاب والحكمة الخ ، ومما ذكره فى هذا حديث المائدة التى سميت هذه السورة باسمها ، ثم ذكر أنه يسأله بعد هذا (أأنتَ قلتَ للناسِ اتخذونى وأمىَ إلهينِ منْ دونِ اللهِ) وأنه يجيبه بتنزيهه عن أن يكون له شريك ، وبأنه ليس له أن يقول مثل هذا الذى نسبه أتباعه إليه ، وبأنه إنما أمرهم بعبادة الله ربه وربهم ، وكان عليهم شهيدا بذلك فى حياته ، فلما توفاه كان هو الشهيد عليهم ، ثم فوض الأمر إليه فى تعذيبهم والمغفرة لهم إظهارا لكمال العبودية ، وإن كان الشرك لا يغفر لأصحابه .

ثم ذكر أنه يقول لرسله بعد ذلك (هذا يوم ينفع الصادقينَ صدقُهمْ) وهم الذين صدقوا فى عهودهم ولم يغيروا فيها بعد وفاة رسلهم ، وذكر أن لهم على ذلك جنات يتمتعون فيها برضاه عنهم ورضاهم عنه ، وأن ذلك هو الفوز العظيم (لله ملكُ السماواتِ والأرضِ وما فيهنّ وهُو على كل شيءٍ قديرٌ) .

سورة الأنعام

تاريخ نزولها ووجه تسميتها :

نزلت سورة الأنعام بمكة بعد سورة الحجر ، وقد نزلت سورة الحجر بعد ثلاث سور من سورة الإسراء ، وكان الإسراء قبل الهجرة إلى المدينة بسنة ، فتكون سورة الأنعام من السور التى نزلت بين الإسراء والهجرة .

وقد سميت هذه السورة بهذا الاسم لأنه فصل فيها حكم الأنعام من الإبل والبقر والضأن والمعز ، وتبلغ آياتها خمساً وستين ومائة آية .

الغرض منها وترتيبها :

نزلت سورة الأنعام دفعة واحدة فى ذلك الزمن السابق ، وتمتاز بطولها على

كل السور المكية ماعدا سورة الأعراف ، فكان لها شأنها في ذلك حين نزولها ، وقد اهتم النبي صلى الله عليه وسلم بها فدعا الكتاب فكتبوها من ليلتهم ، والغرض منها إثبات التوحيد والنبوة ، ودحض مذاهب المبطلين والملحدين ، وإبطال ما ابتدعوه من تحليل الحرام وتحريم الحلال من الطيبات تقربا لأصنامهم ، وبهذا ينحصر الغرض منها في هذين المقصدين ، وقد ابتدئت بإثبات التوحيد والنبوة تمهيدا لمناظرة المشركين فيهما ، وختمت ببيان أن النبي صلى الله عليه وسلم ليس في شيء منهم بعد أن قام بإبطال شبهاتهم ، وأن ما أتاهم به من التوحيد هو دين أبيهم إبراهيم عليه السلام ، وأنه ما كان ليتركهم من غير تكليف وهو لم يخلقهم عبثاً ، وإنما خلقهم ليجعلهم خلفاءه في أرضه .

وقد ذكرت هذه السورة بعد سورة المائدة لأنها من الطوال مثلها ، ولأنه ذكر فيها كثير من أحكام الحلال والحرام كما ذكر في سورة المائدة ، وذكر من مبتدعاتهم فيها أكثر مما ذكر في هذه السورة .

إثبات التوحيد والنبوة

الآيات (١ — ٧)

قال الله تعالى (الحمدُ لِلهِ الذِي خلقَ السماواتِ والأرضَ وجعلَ الظلماتِ والنورِ ثمَّ الذينَ كفرُوا برَبِّهِمْ يَعدِلونَ) فذكر أنه المستحق للحمد لأنه الذى خلق السماوات والأرض وجعل الظلمات والنور ، واستبعد مع هذا أن يسوّى به المشركون أصنامهم التى لا تقدر على هذه الأشياء العظيمة ، ثم استدل على توحيده أيضاً بخلقه الإنسان من طين ، وبكونه لا يغيب عن علمه شيء فى السماوات والأرض وما يعمله الناس فى سرهم وجهرهم ، وما يكسبون من خير وشر ، ثم ذكر أن النبي صلى الله عليه وسلم لا يأتيهم بآية من ذلك تدل على نبوته إلا أعرضوا عنها وكذبوا واستهزءوا بها ، وأنه سوف يأتيهم أنباء ما يستهزئون به ، فيأخذهم بعذابه كما أخذ كثيراً من قرون قبلهم مكّنهم فى الأرض مالم يمكّن لهم ، ثم ذكر أنه بلغ من تعنتهم

على النبي صلى الله عليه وسلم أنه لو نزّل عليه (كتاباً في قرطاسٍ فلمسوهُ بأيديهم لقالَ الذين كفرُوا إنْ هذا إلا سحرٌ مُبينٌ).

شبهتهم الأولى على التوحيد والنبوة

الآيات (٨ — ٣٦)

ثم قال تعالى (وقالوا لولا أنزلَ عليهِ ملكٌ ولوْ أنزَلنا ملكا لقضى الأمرُ ثمَّ لا يُنظرونَ) فذكر أنهم كانوا يقولون تعنتاً واستهزاء إنه لو كان نبياً لأنزل عليه ملك يصدقه فيما يدعو إليه من التوحيد والنبوة، وقد أجابهم بأنه لو أنزل عليه ملكا ولم يؤمنوا به لعجل بإهلاكهم وهو لا يريد ذلك لهم، وبأنه لو أنزل ملكا لجعله في صورة البشر ليروه ويسمعوا كلامه، فلا يصدقون أنه ملك ويعودون إلى اقتراح ما اقترحوه، ثم ذكر أن تعجيل الإهلاك هو ماجرت به سُنته في الأمم التي كانت تقترح الآيات على رسلها تعنتاً واستهزاء ثم لا يؤمنون بها، وأمرهم أن يسيروا في الأرض ليروا بأنفسهم كيف كانت عاقبتهم.

ثم أخذ بعد أن ذكر أنه لا سبيل إلى هذه الآية يبين لهم آياته على التوحيد، فأمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يسألهم لمن مافي السماوات والأرض؟ وأن يجيبهم بأن ذلك له وحده لا لآلهتهم، وبأن له ما سكن في الليل والنهار من الدواب وغيرها، ثم أمره أن يقول لهم إنه لا يمكنه بعد هذا أن يتخذ غيره وليا من أصنامهم، وإنه قد أمر أن يكون أول من أسلم له ولا يشرك به غيره وليًّا من أصنامهم، وإنه يخاف إن عصاه عذاب يوم القيامة، ثم ذكر أنه من يصرف عنه هذا العذاب فقد رحمه الله، وأنه إن يمسسه بضر فلا كاشف له غيره، وإن يمسسه بخير فهو على كل شيء قدير (وهو القاهرُ فوق عبادهِ وهو الحكيمُ الخبير).

ثم أخذ يبين لهم الأدلة على النبوة، فأمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يسألهم أي شيء أكبر شهادة؟ وأن يجيبهم بأن الله هو الأكبر شهادة لا غيره منهم ومن آلهتهم، وقد شهد له بالنبوة بما أوحى إليه من القرآن المعجز، وإذا كانوا يشهدون أن معه

آلهة أخرى تساويه فى الشهادة فهو لا يشهد معهم بذلك ، ثم ذكر أن أهل الكتاب يشهدون بنبوته أيضا ، ويعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، وأن أولئك المشركين قد ضلوا وخسروا أنفسهم فلا سبيل إلى إيمانهم، ثم ذكر أنه لا يوجد أضل منهم لافترائهم شركاء له وتكذيبهم بآياته ، وأنه سيحشرهم جميعا ثم يسألهم عن شركائهم فينكرون انهم كانوا مشركين (أنظرْ كيف كذبوا على أنفسهم وضلّ عنهم ما كانوا يفترونَ)

ثم انتقل إلى بيان بعض أسباب كفرهم ، فذكر منها أنه جعل على قلوبهم أكنّة وفى آذانهم وقرا ، وأنهم إن يروا كل آية لا يؤمنوا بها ، وليس عندهم إذا جادلوا فيها إلا أن يقولوا إنْ هذا لا أساطير الأولين، ثم ذكر أنهم ينهون الناس عن الاستماع إليه وينأون عنه ولا يضرون بهذا إلا أنفسهم ، وأنهم سيندمون عليه حين يعرضون على النار ويتمنون أن يردوا إلى الدنيا ليؤمنوا بتلك الآيات التى كذبوا بها ، ولو أنهم ردوا إلى الدنيا لعادوا إلى تكذيبهم ، ثم ذكر من تلك الأسباب أنهم لا يؤمنون إلا بالحياة الدنيا ، وينكرون أن يكون هناك بعث لهم ، وذكر أنهم سيبعثون ويعرضون عليه فيسألهم (أليسَ هذا بالحقِّ) فيقرون به ولا ينكرونه ، ويجازيهم على هذا بإذاقتهم عذاب النار ، ثم ذكر أنهم قد خسروا بإنكارهم البعث ، وأنهم سيندمون حين تأتيهم الساعة بغتة وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم ، وما أسوأها من أوزار لهم (وما الحياة الدنيا إلا لعبٌ ولهوٌ وللدارُ الآخرةُ خيرٌ للذينَ يتقونَ أفلا تعقلونَ)

ثم ذكر للنبي صلى الله عليه وسلم أنه يعلم أنه يحزنه الذى يقولون من أن ما أنزل عليه من أساطير الأولين ، وأنهم لا يكذبونه بهذا وإنما يكذبون الله ويجحدون آياته ، وأنه قد كُذبَ رسل من قبله فصبروا على تكذيبهم حتى نصرهم الله عليهم ، وأنه إن كان كبرَ عليه إعراضهم واقتراحهم تلك الآيات فليبتغ نفقاً فى الأرض أو سُلماً فى السماء فيأتيهم بها ، وأنه لو شاء لجمعهم على الهدى من غير آية من الآيات، ثم نهاه أن يكون من الجاهلين فيحزن لإعراضهم أو يطمع فى استجابتهم (إنما يستجيبُ الذينَ يسمعونَ والموتى يبعثهمُ اللهُ ثمَّ إليهِ يُرجعونَ) .

شبهتهم الثانية على التوحيد والنبوة

الآيات (٣٧ — ٩٠)

ثم قال تعالى (وقالوا لولا أنزلَ عليهِ آيةٌ من ربهِ قلْ إنَّ اللهَ قادرٌ على أنْ ينزل آيةً ولكنَّ أكثرهمْ لا يعلمونَ) فذكر أنهم اقترحوا عليه بعد ذلك آية عذاب ، ورد عليهم بأنه قادر أن ينزل عليهم ذلك ولكنه لايريد أن يهلكهم لحكمة لايعلمها أكثرهم ، ثم ذكر أنه مامن دابة في الأرض ولاطائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالهم ، لينظروا فى آياتها ويتركوا ما يقترحونه من ذلك نعنتا ، ثم ذكر أن الذين يكذبون بآياته فى ذلك صمٌّ بكمٌ ، وأنه من يشأ يضلله فلا يهتدى بآية من الآيات ، ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم ، ثم ذكر لهم أن العذاب الذى يقترحونه لو أتاهم أو أتتهم الساعة فإنهم لا يدعون غيره ليكشفه عنهم ، وينسون هنالك آلهتهم ، فليؤمنوا به من غير أن يقترحوا ذلك العذاب الذى لا يدعون فيه غيره ، ثم ذكر أن أمما قبلهم اقترحوا على رسلهم مثل ذلك ولم يؤمنوا به بعد إجابتهم إليه ، فأمهلهم ومدَّ لهم حبل الطغيان ثم أخذهم بغتة فإذا هم مُبلِسون ، ثم ذكر أنه لو فعل بهم أكثر مما يقترحون فأخذ سمعهم وأبصارهم وختم على قلوبهم فإنه لا يقدر غيره على رد ذلك إليهم ، وأن ذلك العذاب لو نزل بهم فإنه لا يهلك به إلا القوم الظالمون ، فليقلعوا عن ظلمهم ولا يقترحوا نزول العذاب عليهم ، ثم ذكر أنه لا يرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين ، ليبين أنهم لا قدرة لهم على إنزال تلك الآيات ، فمن آمن فلا خوف عليه ، ومن كذب بآياته يمسه العذاب بفسقه ، ثم أمر النبى صلى الله عليه وسلم أن يخبرهم بأنه لم يقل إن عنده خزائن الله أو إنه يعلم الغيب أو إنه ملك حتى يصح لهم أن يتعنتوا عليه باقتراح تلك الآيات ، وإنما هو رسول يتبع ما يوحى إليه ، وهو من الوضوح كالفرق بين الأعمى والبصير ، ثم أمره أن ينذرَ به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم ليس لهم من دونه ولىٌّ ولا شفيع ، ونهاه أن يطردهم عنه إرضاء لأولئك المتعنتين ، ثم ذكر أنه فتنهم بهم ليقولوا أهؤلاء منَّ الله عليهم من بيننا ؟ والله أعلم حيث يضع هدايته ، ثم أمره أن يكرمهم إذا جاءوه للسلام

ونحوه بعد أن نهاه عن طردهم ، وذكر أنه يفصّلُ الآيات فى ذلك ليظهر الحق له فى إيثارهم على الذين يريدون طردهم ، ويستبين سبيل أولئك المجرمين المتعنتين عليهم

ثم أمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يخبرهم بأنه نهى أن يعبد مايدعون من دونه، وبأنه لايتبع أهواءهم فى اقتراح الآيات ، وبأنه على بينة من ربه وقد كذبوا به مع قيام هذه البينة ، وليس عنده مايستعجلون به من نزول العذاب عليهم، وإنما الحكم له فى أمر عذابهم ، ولو أن عنده ما يستعجلون به لقُضى بينه وبينهم بإهلاكهم ، وعند الله وحده مفاتيح الغيب ، فهو الذى يعلم وقت عذابهم، وقد استطرد من ذلك إلى بيان كمال علمه وقدرته بما بينه به ، إلى أن ذكر أنه قادر على أن يبعث عليهم عذابا من فوقهم أو من تحت أرجلهم أو يلبسهم شيعاً ويذيق بعضهم بأس بعض ، وأنهم كذبوا بهذا العذاب وهو حق لاريب فيه ، ثم أمر النبى صلى الله عليه وسلم أن يخبرهم بأنه ليس بوكيل عليهم ، ولكل نبأ وقت يحصل فيه من غير خُلف .

ثم أمر النبي صلى الله عليه وسلم إذا رآهم يخوضون فى تكذيب آياته أن يعرض عنهم حتى يخوضوا فى حديث غيره ، وأخبره بأن الذين يتقونه من المؤمنين ليس عليهم شيء من حساب تكذيبهم ، ولكنه يعظهم بذلك تنزيها لهم عن سماع باطلهم ، ثم أمره أن يترك الذين اتخذوا دينهم لعبا ولهوا أو خوضا فى تكذيب آياته ، وأن يذكر بها قبل أن ترتهن نفس بما كسبت ، ولا ينفعها من دون الله ولى ولا شفيع ، ولا يقبل منها فداء عن عذابها، ولأصحابها شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون .

ثم أراد أن يثبت توحيده بطريق النظر الذى يغنى عن تلك الآيات ، فأمر النبى صلى الله عليه وسلم أن يذكر لهم أنه لا يصح له أن يدعوا من دونه مالا ينفع ولا يضر فيرَدّ على عقبه بعد هدايته له ، وأن هداه هو الهدى وقد أمر هو وأتباعه أن يسلموا له ، وأن يقيموا الصلاة ويتقوه ، وهو الذى يحشرون إليه ، وهو الذى خلق السماوات والأرض بالحق ، وإذا أراد تكوين شيء لابد أن يكون ، وله الملك يوم ينْفَخُ فى الصُّورِ عالم الغيب والشهادة وهو الحكيم الخبير .

ثم نوّه بشأن إثبات التوحيد بالنظر فذكر أنه طريق إبراهيم عليه السلام ، وساق ماجرى بينه وبين أبيه آزَرَ فى إنكاره عليه أن يتخذ أصناما آلهة ، وذكر أنه أراه ملكوت السماوات والأرض ليستدل به على توحيده ، فلما جنّ عليه الليل رأى كوكبا فقال هذا ربى ، فلما غاب علم أنه لا يصلح أن يكون ربا ، وكذلك نظر فى القمر والشمس ، وكان قومه يعبدون هذه الكواكب ويتخذون لها تماثيل من أصنامهم ، فتبرأ من عبادتها ، وتوجه بوجهه للذى فطر السماوات والأرض ، ثم ذكر أن قومه حاجوّه فى ذلك فأنكر عليهم أن يحاجوه فيه بعد أن اهتدى إليه ، ثم نوه بشأن تلك الحجة النظرية التى اهتدى بها ، وذكر أنه رفع بها درجته ، ووهب له ذرية صالحة قاموا بها بعده ، من إسحاق ويعقوب وداود وسليمان وغيرهم من الأنبياء ، ثم ذكر أن أولئك الأنبياء هم الذين آتاهم الكتاب والحكمة والنبوة ، فإن يكفر بها مشركو العرب فقد وكل بها قوما ليسوا بها بكافرين (أولئكَ الذين هدى الله فبهداهم اقْتَدِهْ قُلْ لا أسألكمْ عليهِ أجراً إنْ هُوَ إلا ذكرى للعالمِينَ)

شبهتهم الثالثة على التوحيد والنبوة

الآيات (٩١ — ١٠٨)

ثم قال تعالى (وماقدرُوا اللهَ حقّ قدرهِ إذْ قالوا ما أنزلَ اللهُ على بشرٍ منْ شيء — الآية) فذكر شبهتهم الثالثة فى إنكار التوحيد والنبوة ، وهى قولهم (ما أنزل الله على بشر من شيء) وفى هذا إنكار للتوحيد أيضا ، لأنهم لم يقدروا الله فيها حق قدره ، لأنه لا يليق به أن يخلقهم ويتركهم من غير أن يرشدهم ، وقد أمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يسألهم : من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى نورا وهدى للناس ؟ وذكر أنهم جعلوه قراطيس يبدون بعضها ، ويخفون منها ما فيه البشارة بالنبي صلى الله عليه وسلم ، وقد علموا من هذا ما لم يعلموه هم ولا آباؤهم ، ثم أمره أن يخبرهم بأن الذى أنزله هو الله ، وحينئذ يبطل قولهم (ما أنزل الله على بشر من شيء) ثم ذكر أنه أنزل القرآن مصدقا لهذا الكتاب لينذر مكة ومن حولها ، وأن الذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به لأنه يدعوهم إليها ، ثم ذكر أنه لا يوجد أظلم ممن افترى

عليه كذبا أو ادعى أنه يوحى إليه ولم يوحَ إليه شيء أو أنه يمكنه أن ينزل مثل ما أنزل الله ، فكيف يفترى النبي صلى الله عليه وسلم مثل هذا الكتاب عليه ؟ ثم ذكر أنهم فى حال الموت يخبرهم الملائكة بأنهم سيجزون عذاب الهُونِ بقولهم عليه غير الحق واستكبارهم عن آياته ، وأنهم يجيئونه فرادى كما خلقهم أول مرة ، وليس معهم ما أعطاهم من المال وغيره فى دنياهم ، ولا شفعاؤهم الذين زعموا أنهم شركاء فيهم

ثم أخذ فى ذكر ما يبطل هذا الزعم ، فذكر أنه فالق الحب والنوى ، إلى غير هذا مما ذكره فى إثبات قدرته وعلمه وحكمته ، ولا يصح معه أن يكون هناك شريك له ، ثم ذكر أنهم مع هذا جعلوا له شركاء من الجن ، وجعلوا له بنين وبنات من الملائكة وغيرهم ، ورد عليهم بأنه بديع السماوات والأرض ، فأنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة ؟ إلى غير هذا مما ذكره فى الرد عليهم ، ثم ذكر أنه قد جاءهم من هذا بصائر من ربهم ، فمن أبصر فلنفسه ، ومن عمى فعليها ، وأنه كذلك يصرف الآيات حتى تصل إلى نهاية الكمال ، ويزعموا أنها نتيجة دراسة وعلم ، ثم أمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يتبع ما أوحى إليه من تلك الآيات ، ويعرض عن المشركين وما يقترحونه من الآيات على سبيل التعنت ، وذكر أنه لو شاء ما أشركوا ، وأنه لم يجعله حفيظا ولا وكيلا عليهم ، فليس عليه إلا أن يبلغهم ، ثم نهاهم أن يَسُبُّوا آلهتهم لئلا يسبوه عَدْوًا بغير علم (كذلك زيَّنا لكل أمةٍ عملهم ثم إلى ربهم مرجعهم فينبئهم بما كانوا يعملونَ) .

شبهتهم الرابعة على التوحيد والنبوة
الآيات (١٠٩ — ١١٧)

ثم قال تعالى (وأقسموا بالله جَهْدَ أيمانهم لئن جاءتهم آية ليُؤمنُنَّ بها قل إنما الآيات عند الله وما يشعركم أنها إذا جاءتْ لا يؤمنون) فذكر أنهم أقسموا به جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها ، ثم أجابهم بأنه يعلم أنهم لا يؤمنون بها إذا جاءتهم وإن وقع ذلك الحلف منهم ، وأنه لو جاءهم بها تتحول أفئدتهم وأبصارهم

عنها كما تحولت عن الآيات التى تتلى عليهم ، وأنه لو أجابهم إلى ما يطلبون وزاد عليه بأن حشر عليهم كل شيء قبلا ما كانوا ليؤمنوا إلا بمشيئته ، فلا وجه لهم فى تعليق إيمانهم على تلك الآيات التى يقترحونها ، ثم ذكر أنه كذلك جعل لكل نبى عدواً من شياطين الإنس والجن يزخرف بعضهم إلى بعض بمثل ما زخرف المشركون بقسمهم ، ليخدعوا بذلك من ينخدع بهم ، ثم ذكر أن الدليل على صدقه قد كمل بحكمه به ، وهو الحكم الذى لا يُطلب بعده حكم ، كما كمل بشهادة المؤمنين من أهل الكتاب به ، فلا يصح أن يلتفت بعد ذلك إلى ما يطلبونه من تلك الآيات ، وقد تم حكم الله بذلك صدقا وعدلا ، ثم ذكر أنه لا يصح له بعد ذلك أن يطيعهم فيما يقترحون من طلب الآيات ، وأنه إن أطاعهم فى ذلك يضلونه عن سبيل الحق ولا يصل إلى ما يريده من إيمانهم ، لأنهم لا يتبعون إلا الظن وإنْ هم إلا يخرصون (إنَّ ربكَ هُوَ أعلم مَنْ يضلُّ عنْ سبيلهِ وهوَ أعلمُ بالمهتدينَ) .

إبطال بدعة لهم فى الحلال والحرام

الآيات (١١٨ — ١٢٣)

ثم قال تعالى (فكلوا مِمَّا ذُكِرَ اسم اللهِ عليهِ إن كنتمْ بآياتهِ مؤمنينَ) فانتقل إلى إبطال بدعة لهم فى شركهم ، وهى تحليل مالم يذكر اسم الله عليه من الميتة ونحوها تنويعاً لضروب الكلام ، وتصريفاً لفنون الجدال ، وكانوا يقولون للمسلمين : إنكم تعبدون الله ، فما قتله الله أحق أن تأكلوه مما قتلتموه أنتم . فأمر المسلمين أن يعرضوا عن قولهم ويأكلوا مما ذكر اسمه عليه ، ثم ذكر لهم أنه قد فصل لهم ما حرم عليهم ولم يبح لهم الميتة إلا عند الضرورة ، وأن هؤلاء المشركين يريدون أن يضلوهم عنه بأهوائهم وجهالاتهم ، ثم أمرهم أن يتركوا ذلك الإثم ما ظهر منه وما بطن ، ونهاهم أن يأكلوا مما لم يذكر اسمه عليه ، وحذرهم من الاستماع إلى ذلك الجدال الذى يوحى به شياطين المشركين إليهم ، ثم ضرب لهم مثلا ميز به حال المؤمنين من الكافرين ، وهو أنه لا يصح أن يجعل من كان ميتاً بالشرك فأحياه بالإيمان كمن غرق فى ظلمات الشرك فصار بحيث لا يمكنه الخروج منها ، ثم ذكر أنه فى هذه

الظلمات زين للكافرين ما كانو يعملون (وكذلك جعلنا فى كلّ قرية أكابرَ مجرميها ليمكرُوا فيها وما يمكرون إلاّ بأنفسهم وما يشعرونَ).

شبهتهم الخامسة على التوحيد والنبوة

الآيات (١٢٤ — ١٣٥)

ثم قال تعالى (وإذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى تؤتى مثلَ ما أوتىَ رسل الله — الآية) فذكر شبهتهم الخامسة فى إنكار التوحيد والنبوة، وعاد بهذا إلى السياق الأول، وقد حكوا عن الوليد بن المغيرة أنه قال: والله لو كانت النبوة حقاً لكنت أنا أحق بها من محمد، فإنى أكثر منه مالا وولدا. وحكوا عن غيره من المشركين أنهم قالوا: لن نؤمن حتى يحصل لنا مثل هذا المنصب. فأجابهم عن ذلك بأنه أعلم حيث يجعل رسالته، ثم توعدهم بأنهم سيصيبهم صغار عنده على ذلك التعالى، وذكر أن من يرد هدايته يشرح صدره للإسلام، ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً، فيتعنت بمثل ما يتعنت به أولئك المشركون، ثم ذكر أن صراطه مستقيم قد فصله لمن يتذكرون، وأن لهم دار السلام بما كانوا يعملون، ثم ذكر أنه سيحشر أولئك المشركين من الجن والإنس، فيخبر الجن بأنهم قد أكثروا من الإضلال تبكيتاً لهم، ويبكت الإنس على قبول إغوائهم، فيجيب الإنس بأنه قد استمتع بعضهم ببعض وصاروا الآن إلى أجلهم الذى أجله لهم، فيقضى عليهم بجعل النار مثواهم، وكذلك يجمع بينهم فى النار ويولى بعضهم بعضاً فيها بما كانوا يكسبون، ثم ذكر أنه يسألهم أيضاً: ألم يأتكم رسل يقصون عليكم آياتى وينذرونكم لقاء يومكم هذا؟ فيعترفون بذلك ويشهدون على أنفسهم أنهم كانوا كافرين، ثم ذكر أن ذلك العذاب إنما كان بعد بعث الأنبياء، لأنه لا يليق بعد له أن يهلك القرى قبل تنبيهها من غفلتها، وأن ثوابه وعقابه على درجات بقدر الأعمال، وأنه غنى ذو رحمة لو شاء لعجل لهم العذاب فى الدنيا، واستخلف من بعدهم من يشاء من خلقه، وأن ما يوعدون من ذلك لآت وما هم بمعجزين (قل يا قوم اعملوا على مكانتكم إنى عامل فسوف تعلمون من تكون له عاقبة الدار إنه لا يفلح الظالمون).

إبطال بدع لهم فى الحلال والحرام

الآيات (١٣٦ — ١٤٧)

ثم قال تعالى (وجعلوا لله مما ذرأ من الحرثِ والأنعام نصيبا) فذكر من بدعهم فى شركهم أنهم جعلوا له نصيبا مما ذرأ من حرثهم وأنعامهم ونصيبا لآلهتهم ، فإن نما نصيب آلهتهم دون نصيبه تركوا نصيبها لها ، وقالوا لو شاء نمّى نصيب نفسه ، وإن نما نصيبه دون نصيبها قالوا لا بد لها من نفقة ، فأخذوا نصيبه فأعطوه لسدنتها ، ثم ذكر منها أنهم كانوا ينحرون أولادهم لآلهتهم ، وكان الرجل يقوم فى الجاهلية فيحلف لئن ولد له كذا وكذا غلاما لينحرن أحدهم ، ثم ذكر منها حجرهم لبعض أنعامهم ، وتحريم ظهور بعضها ، وتحريم ذكر اسم الله على بعضها ، وجعل مافى بطون بعضها خالصة لذكورهم محرما على أزواجهم ، وقتلهم أولادهم سفها بغير علم ، وتحريمهم مارزقهم الله من الطيبات افتراء عليه (قد ضلوا وماكانوا مهتدين) .

ثم بين حكمه فى ذلك فذكر أنه هو الذى أنشأ جنات معروشات وغير معروشات والنخل والزرع وغيرهما ، وأمر الناس أن يأكلوا منها ويؤدوا حقه فيها يوم حصادها ، ثم ذكر أنه أنشأ من الأنعام حمولة تحمل أثقالنا ، وأنشأ منها فرشا يفرش للذبح ، وأمر الناس أن يأكلوا منها ولا يتبعوا فيها الشيطان فيما زينه من تلك البدع ، وذكر أنه أباح من ذلك ثمانية أزواج ذكر وأنثى من كل من الضأن والمعز والإبل والبقر ، ثم توعدهم على افتراء ماحرموه منها ، وأمر النبى صلى الله عليه وسلم أن يخبرهم بأنه لايجد فيما أوحى إليه محرما من ذلك إلا أن يكون ميتة أو دماً مسفوحا أو غير ذلك مما ذكره ، ثم ذكر أنه حرم على اليهود كل ذى ظُفر وغيره مما حرمه عليهم عقابا لهم على بغيهم ، وتوعدهم إذا كذبوه فى ذلك فقال (فإن كذبوك فقلْ ربكم ذو رحمةٍ واسعة ولا يردّ بأسه عن القوم المجرمين)

شبهتهم السادسة على التوحيد والنبوة

الآيات (١٤٨ — ١٥٨)

ثم قال تعالى (سيقولُ الذين أشركوالو شاء اللهُ ما أشركنا ولا آباؤنا ـ الآية) فذكر شبهتهم السادسة على التوحيد والنبوة ، وهى قولهم : لوشاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من دونه من شيء ، وإذا كان ذلك بإرادته كان راضيا عنه . ثم رد عليهم بأن من قبلهم اعتمد على مثل هذا فى تكذيب الرسل حتى ذاق عذابه فعلم أنه كان واهما ، وبأنهم يزعمون ذلك من غير أن يكون عندهم به علم ، وبأن الحجة البالغة لله عليهم بمعجزاته التى أيد بها رسله ، وبأنه لاأحديشهد لهم على زعمهم أن الله حرم ماحرموه على أنفسهم ، ثم أمر النبى صلى الله عليه وسلم أن يتلو ما حرمه عليهم من الشرك به وما ذكر معه ، وذكر أن هذا هو صراطه المستقيم الذى يجب عليهم أن يتبعوه ولا يتبعوا غيره من السبل التى تفرقهم عن سبيله ، وأنه أنزل التوراة على موسى هدى ورحمة لقومه ، وأنزل القرآن لئلا يحتج من كفر بعد التوراة بأنه لم ينزل عليهم كتاب كما أنزل على اليهود والنصارى من قبلهم، وأنه لوأنزل عليهم كتاب لـكانوا أهدى منهم ، ثم ذكر أنه قد جاءهم ذلك الـكتاب الذى يقطع عذرهم ، وأنه لا يوجد أظلم منهم إذا صدفوا عن آياته بعد أن ظهر صدقها لهم ، وأوعدهم على ذلك بما أعده لهم من سوءالعذاب ، وذكر أنهم إذا كانوا ينتظرون بإيمانهم أن تأتيهم الملائـكة أوغير ذلك من اقتراحاتهم ، فإن إيمانهم لا ينفع فى ذلك الوقت (يوم يأتى بعض آيات ربك لاينفعُ نفساً إيمانُها لم تـكن آمنتْ من قبلُ أو كسبت فى إيمانها خيراً قل انتظروا إنا منتظرونَ) .

الخـاتمة

الآيات (١٥٩ — ١٦٥)

ثم قال تعالى (إنَّ الذينَ فرّقوا دينهم وكانوا شيعاً لستَ منهم فى شىْ إنمـا أمرهم إلى الله ثم ينبئهم بما كانو يفعلون) فذكر أن النبى صلى الله عليه وسـلم ليس

فى شىء من أولئك المشركين الذين فرقوا دينهم ، لأنه بلغهم رسالته ، وكل إنسان لا يسأل إلا عن عمله ، ومن جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ، ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها ، ثم أمره أن يذكر لهم أن ما أتى به هو دين أبيهم إبراهيم الذى لم يكن من المشركين ، وأن صلاته ونسكه ومحياه ومماته لله الذى لا شريك له ، وأنه لا يمكنه أن يطلب غيره وهو رب كل شىء ، وأنه يتحمل تبعة عمله فى ذلك كما يتحملون تبعة عملهم ، ثم إلى ربهم مرجعهم فيحكم بينهم فى خلافهم ، ثم ذكر أنه خلقهم ليجعلهم خلائف الأرض ، وأنه رفع بعضهم فوق بعض درجات ليبلوهم فيما آتاهم (إنَّ ربكَ سريعُ العقابِ وإنَّه لغفورٌ رحيمٌ)

سورة الأعراف

تاريخ نزولها ووجه تسميتها :

نزلت سورة الأعراف بعد سورة ص وقبل سورة الجنّ ، وكان نزول سورة الجن فى رجوع النبي صلى الله عليه وسلم من الطائف ، وكان قد سافر إليها سنة عشر من بعثته ليعرض الإسلام على أهلها ، فيكون نزول سورة الأعراف فيما بين الهجرة إلى الحبشة والإسراء .

وقد سميت هذه السورة بهذا الاسم لقوله تعالى فى الآية — ٤٨ — منها (ونادى أصحابُ الأعراف رجالا يعرفونهم بسيماهم قالوا ما أغنى عنكم جمعكمْ وما كنتم تستكبرون) وتبلغ آياتها ستا ومائتى آية .

الغرض منها وترتيبها :

يقصد من هذه السورة الإنذار والاعتبار بقصص الأولين وأحوالهم ، وقد أخذ المشركون فى هذا بطريق الترهيب والترغيب ، بعد أن أخذوا فى سورة الأنعام بطريق النظر والدليل ، ولهذا ذكرت هذه السورة بعدها ، ولأنها أيضاً تشبهها فى الطول ، وقد فصل فيها من أخبار الأولين ما أجمل فى سورة الأنعام .

وقد ابتدئت هذه السورة بمقدمة فى إنذار المشركين إجمالا بما حصل لأولئك الأولين ،

ثم أتبع هذا بتفصيل أخبارهم وبيان ما حصل لهم ، ثم ختمت ببيان أن الهدى والإضلال بيد الله ، فمن يهده ينتفع بهذا القصص ، ومن يضلله لا ينتفع به ، إلى غير هذا مما يأتى فى هذه الخاتمة .

المقدمة

الآيات (١ — ٩)

قال الله تعالى (المص ، كتابٌ أُنزِلَ إليك فلا يكنْ فى صدركَ حرجٌ منهُ لتنذر به وذكراى للمؤمنين) فذكر أن القرآن كتاب أنزل إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، ونهاه أن يضيق صدره من تكذيب المشركين له ، لينذر به المشركين ويذكِّر المؤمنين ، وفى هذا براعة مطلع للغرض المقصود من هذه السورة ، ثم أمرهم أن يتبعوا ما أنزل إليهم من ربهم ولا يَتَّبِعُوا غيره من أوليائهم ، وأنذرهم إجمالا بأنه كم أهلك قبلهم من قرية بعذاب جاءهم بياتا أوهم قائلون ، فلما جاءهم العذاب اعترفوا بظلمهم فلم ينفعهم اعترافهم ، ثم ذكر أنه سيجمعهم ومن أرسلوا إليهم فيسألهم عن أمرهم ، ويقص عليهم ما يعلمه من أعمالهم ، ويزن أعمالهم بالحق (فمن ثَقُلتْ موازينه فأولئك هم المفلحونَ ، ومن خفَّتْ موازينه فأولئك الذين خسُروا أنفسهمْ بما كانوا بآياتنا يظلمونَ)

قصة آدم وإبليس

الآيات (١٠ — ٥٨)

ثم قال تعالى (ولقد مكنّا كم فى الأرض وجعلنا لكم فيها معايشَ قليلا ما تشكرون) فذكر نعمته عليهم بالتمكين لهم فى الأرض تمهيداً لقصة آدم . لأنه أول من مكن له فيها ، ثم ذكر أنه خلقه ثم صوره ثم أمر الملائكة بالسجود له تكريما لخلقه ، وأن إبليس امتنع عن السجود له عنادا واستكبارا ، وأنه جازاه على هذا باللعن والطرد من الجنة ، وجعل وظيفته أقبح وظيفة وهى الوسْوَسة بالشر ، ثم ذكر أنه أسكن آدم وزوجته الجنة ونهاهما عن الأكل من شجرة منها عينها لهما ، وأن إبليس احتال

عليهما حتى أكلا منها فبدت لهما سوآتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة حياء منها ، ثم ذكر أنه ناداهما وذكرهما بنهيه لهما فاعترفا بذنبهما ، فأمرهما بأن يهبطا من الجنة إلى الأرض ، وأوقع العداوة فيها بين ذريتهم وبين إبليس ، وجعل لهم فيها مستقرا ومتاعا إلى أن يرجعهم إليه .

ثم ذكر أنه أنزل عليها وعلى ذريتها بعد هبوطها إلى الأرض لباسا يوارى سوآتهم، وأن لباس التقوى خير من ذلك اللباس ، ثم حذرهم أن يفتنهم إبليس كما فتن أبويهم فى الجنة، وذكر أنه هو وقبيله يأتونهم من حيث لا يرونهم ، وأنه قد جعلهم أولياء للذين لا يؤمنون ، وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا ، وزعموا أن الله أمرهم بها ، ثم أمر النبى صلى الله عليه وسلم أن يخبرهم بأنه لا يأمر بالفحشاء ، وإنما يأمر بالقسط وأن يقيموا وجوههم عند كل مسجد ويدعوه مخلصين له ، ثم ذكر أنه سيعيدهم كما بدأهم فريقين : فريقا هداه ، وفريقاً حقت عليه الضلالة لأنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دونه ويحسبون أنهم مهتدون ،ثم أمرهم أن يأخذوا ما أنزل عليهم من اللباس عند كل مسجد ، وأن يأكلوا ويشربوا ولا يسرفوا فى لباسهم وأكلهم وشربهم ، وكانوا فى الجاهلية يطوفون عراة بالبيت ، الرجال بالنهار والنساء بالليل ، ويقولون لا نطوف فى ثياب أصبنا فيها الذنوب ، وكان منهم متنسكون لا يأكلون من الطعام إلا قوتا ولا يأكلون دسما ، ثم أمر النبى صلى الله عليه وسلم أن يسألهم سؤال تعجيز عمن حرم عليهم الزينة والطيبات من الرزق ، وذكر لهم أنه إنما حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغى والشرك والكذب عليه فى تحريم ما حرموه على أنفسهم ، وهددهم بأنه إذا كان يمهلهم على ذلك فلأن كل أمة لها أجل (فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون)

ثم ذكر أنه أوحى إلى آدم وذريته حين هبطوا إلى الأرض أنه إذا أتاهم رسل يقصون عليهم آياته فمن آمن بهم فلا خوف عليهم ، ومن كذب واستكبر فجزاؤه الخلود فى النار ، ثم أخذ فى تفصيل وعيدهم فذكر أنه لا يوجد أظلم ممن افترى عليه وكذب بآياته ، وأنهم ينالون نصيبهم فى الحياة من العمر والرزق ، ثم يتوفاهم

ملائكة الموت ويسألونهم عن شركائهم ليدفعوا عنهم ، فيجيبون بأنهم ضلوا عنهم ويعترفون بكفرهم ، وهناك يأمرهم بأن يدخلوا النار فيمن دخلها قبلهم من أمم الجن والإنس ، فيتلاومون فيها بما ذكره من تلاومهم ، ثم ذكر أنهم لاتفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل فى سَمِّ الخياط ، إلى غير هذا مما ذكر فى وعيدهم .

ثم أخذ فى تفصيل وعد المؤمنين ، فذكر من نعيمهم فى الجنة ماذكر ، ثم ذكر أنهم ينادون أصحاب النار أنهم وجدوا ما وعدهم ربهم حقا ، فهل وجدوا ماوعدوا به من العذاب حقاً ؟ فيجيبونهم بأنهم وجدوه حقاً ، ثم ذكر أنه يوجد على الأعراف الذى بين الجنة والنار رجال يعرفون كلا من أهل الجنة والنار بسيماهم وينادونهم بما ذكره فى ندائهم ، وأن أصحاب النار ينادون أصحاب الجنة أن يفيضوا عليهم من الماء أو مما رزقهم الله ، فيجيبونهم بأن الله حرمها على الكافرين الذين اغتروا بدنياهم ، وأنه ينساهم فى آخرتهم كما نسوا لقاءها ، ثم ذكر أنه جاءهم بكتاب فصله على علم وجعله هدى ورحمة فقطع به عذرهم ، ووبخهم على انتظارهم تأويل ما أنذرهم به من العذاب، وذكر أنه يوم يأتى تأويله يعترفون بأن ما أنذروا به حق ، ثم يسألون عن شفعاء يشفعون لهم ، أو أن يردوا ليعملوا أعمالا غير أعمالهم .

ثم أخذ فى إبطال اعتقادهم فى أولئك الشفعاء ، فذكر أنه ربهم الذى خلق السماوات والأرض فى ستة أيام الخ ، وأمرهم أن يدعوه تضرعا وخفية ولا يفسدوا فى الأرض بعد أن أصلحها ومكن فيها لهم ، وأن يدعوه خائفين عذابه راجين رحمته لأن رحمته قريب من المحسنين ، ثم ذكر أنه هو الذى يرسل الرياح بشراً بين يدى رحمته لتحمل السحاب الى البلد الميِّت فتحييها ، وأنه كذلك يحيى الموتى لعلهم يتذكرون (والبلدُ الطيب يخرجُ نباته بإذن ربهِ والذى خبثَ لايخرجُ إلا نكداً كذلك نصرفُ الآياتِ لقومٍ يشكرونَ) .

قصة نوح وقومه

الآيات (٥٩ — ٦٤)

ثم قال تعالى (لقدْ أرسلنا نوحاً إلى قومهِ فقالَ ياقوم اعبدُوا اللهَ مالكُمْ من الهٍ غيرُه إنى أخافُ عليكم عذابَ يومٍ عظيم) فذكر أن نوحا أمر قومه بأن يعبدوه وحده وأنذرهم إن لم يطيعوه بعذاب يوم عظيم ، وأنهم أجابوه بأنهم يرونه فى ضلال مبين ، وأنه أجابهم بأنه لا ضلالة به ولكنه رسول من الله إليهم ، وأنه ينصح لهم ويعلم من الله مالا يعلمون ، ثم ذكر أنهم أصرُّوا على تكذيبه فأنجاه والذين معه فى الفُلكِ (وأغرقْنَا الَّذينَ كَذَّبُوا بآياتِنَا إنهم كانُوا قوماً عَمِينَ)

قصة هود وقومه

الآيات (٦٥ — ٧٢)

ثم قال تعالى (وإلى عادٍ أخاهم هوداً قال ياقوْمِ اعبدوا الله مالكم منْ إلهٍ غيره أفلا تتقونَ) فذكر أن هودا أمر قومه بعبادته وحده ، وأنهم أجابوه على ذلك بتسفيهه وتكذيبه ، وأنه أجابهم بأنه ليس به سفاهة ولكنه رسول من الله وناصح أمين لهمْ ، ثم وبخهم أن يعجبوا من أن يجيئهم ذكر من ربهم على رجل منهم لينذرهم ويذكرهم بنعمته عليهم إذ جعلهم خلفاء من بعد قوم نوح وزادهم فى الخلق بَسْطَةً ، ثم ذكر أنهم أصرُّوا على تكذيبه فأنجاه والذين معه برحمة منه (وقطعْنَا دابرَ الَّذينَ كذَّبوُا بآياتِنَا وما كانوُا مؤمنينَ) .

قصة صالح وقومه

الآيات (٧٣ — ٧٩)

ثم قال تعالى (وإلى ثمُودَ أخاهم صالحاً قالَ ياقومْ اعبدُوا الله مالكم منْ اله غيره ـ الآية) فذكر أن صالحا أمر قومه بعبادته وحده ، وأنه جاءهم بناقة الله آيةً لهم ، وأنه حذَّرهم أن يمسوهَا بسوء فيأخذهم عذاب أليم ، وأنه ذكَّرهم بنعمة الله عليهم إذ جعلهم خلفاء من بعد عاد ، ثم ذكر أنهم أصرُّوا على تكذيبه فأخذتهم

الرجفة فأهلكتهم (فَتَولىَّ عنهمْ وقالَ ياقومِ لقدْ أبلغتكم رسالةَ ربى ونصحتُ لكمْ ولكنْ لاتحبُّونَ الناصحينَ) .

قصة لوط وقومه

الآيات (٨٠ — ٨٤)

ثم قال تعالى (ولوُطاً إذْ قالَ لقومهِ أتأتونَ الفاحشةَ ماسبقكمْ بها مِنْ أحدٍ مِنَ العالِمينَ) فذكر أن لوطا استنكر من قومه الفاحشة التى لم يسبقهم أحد إليها ، وهى إتيانهم الرجال من دون النساء ، وأنهم أجابوه بتآمرهم على إخراجه هو وأهله من قريتهم ، فأنجاهم الله إلا امرأته كانت من الغابرين (وأمطرْنا عليهمْ مطراً فانظرْ كيفَ كانَ عاقبةُ المجرمينَ) .

قصة شعيب وقومه

الآيات (٨٥ — ١١٢)

ثم قال تعالى (وإلى مَدْين أخاهم شعيباً قال يا قوم اعبدُوا اللهَ ما لكم من إلهٍ غيرُه — الآية) فذكر أن شعيباً أمر قومه أن يعبدوه وحده ويوفوا الكيل والميزان ولا يبخسوا الناس أشياءهم ولا يفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها ، ثم ذكر أن بعضهم استكبر وأراد أن يخرجه هو ومن آمن به من قريتهم ، وأنه أخذهم بالرجفة فأهلكهم وكانوا هم الخاسرين (فتولى عنهم وقالَ ياقومِ لقد أبلغتكم رسالاتِ ربى ونصحت لكم فكيفَ آسى على قومٍ كافرينَ)

ثم عقّب على هذه القصص ببيان أن هذا شأنه فى كل قرية أرسل فيها نبياً ، فلا يأخذها بعذاب الاستئصال دفعة واحدة ، بل يأخذها أولا بالشدائد والأمراض ، ثم يزيل عنهم ذلك ويأتيهم بالخصب والرخاء ، فلا يؤثر فيهم شىء من ذلك وينسبون ما أصابهم منه إلى عادة الزمان ، فيأخذهم بغتة وهم لا يشعرون ، ولو أنهم آمنوا لفتح عليهم بركات السماء والأرض بالمطر والنبات .

ثم وبخ أهل القرى الحاضرة على أمنهم أن يصيبهم ما أصاب تلك القُرى من بأسه بياتاً وهم نائمون ، أو ضحى وهم يلعبون ، وعلى أمنهم مكره بهم فلا يأمنه إلا القوم الخاسرون ، وعلى أنه لم يتبين لهم بعد أن ورثوا أرضهم وقصّ عليهم أخبارهم أنه لو يشاء أصابهم كما أصابهم ، ولكنه طبع على قلوبهم فهم لا يسمعون، ثم ذكر أنه قص عليه من أنباء تلك القرى ، وأنهم كانوا سواء فى أنهم يكذبون بعد نزول المعجزات كما كذبوا من قبلها ، وينسون عهدهم أن يؤمنوا بعد نزولها (وما وجدْ نا لأكثرهمْ من عهدٍ وإنْ وجدنا أكثرهم لفاسقينَ) .

قصة موسى وفرعون وبنى إسرائيل

الآيات (١٠٣ — ١٧٤)

ثم قال تعالى (ثمّ بعثنا منْ بعدهم موسى بآياتنا إلى فرعونَ وملإه فظلمُوا بها فانظرْ كيفَ كان عاقبةُ المفسدين) فذكر أنه بعث موسى إلى فرعون وقومه بآياته وأنهم كذبوا بها فأهلكهم ، ثم فصّل ذلك فذكر أن موسى أخبر فرعون بأنه رسوله إليه ، وطلب منه أن يرسل معه بنى إسرائيل إلى الأرض التى وعدوا بها ، وأن فرعون طلب منه آية تدل على صدقه ، فألقى عصاه فإذا هى ثعبان مبين ، ونزع يده فإذا هى بيضاء للناظرين ، فلما رأى قومه ذلك زعموا أنه سحر ، وطلبوا منه أن يجمع السحرة ليغلبوه بسحرهم ، ثم ذكر ما كان من السحرة وإيمانهم حين ظهر لهم عجزهم ، وما كان من إصرار فرعون وقومه على الكفر بعد عجز سحرتهم ، ومضيهم فى الانتقام من بنى إسرائيل بقتل أبنائهم واستحياء نسائهم ، فأمر موسى بنى إسرائيل أن يستعينوا على ذلك بالصبر، ووعدهم أن يهلك الله عدوهم ويستخلفهم فى الأرض، ثم ذكر ما كان من أخذه قوم فرعون بالسنينَ ونقص من الثمرات ، وأنهم كانوا إذا أصيبوا بذلك لا يتعظون به ، بل يشتد كفرهم ويزعمون أنه من شؤم موسى وقومه عليهم ، ثم ذكر أنه أرسل عليهم بعد ذلك الطوفان والجراد والقُمَّل والضفادع والدم فاستكبروا ولم يؤمنوا ، ثم أوقع عليهم الرِّجز وهو الطاعون فذهبوا إلى

موسى ليدعو ربه أن يرفعه عنهم ، ووعدوه عند رفعه أن يؤمنوا به ويرسلوا معه بنى إسرائيل ، فلما كشف الرجز عنهم نكثوا عهدهم ، فانتقم منهم بإغراقهم فى البحر ، وأورث بنى إسرائيل الأرض التى بارك فيها ، ودمَّر ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشونَ .

ثم ذكر ما كان من بنى إسرائيل بعد أن أنجاهم وأغرق آل فرعون ، وأنهم جاوزوا البحر فأتوا على قوم يعبدون الأصنام ، فطلبوا من موسى أن يجعل لهم إلها مثلهم ، فجهّلهم وبين لهم بطلان عبادة الأصنام ، وأنه لا يليق بهم بعد أن أنجاهم الله من آل فرعون أن يعبدوا غيره ، ثم ذكر أنه تغيب عن قومه أربعين ليلة ليتلقى التوراة فيها عن ربه ، وأنه استخلف فيها أخاه هارون على قومه ، وأنه لما جاء لميقات ربه وكلمه طلب منه أن يراه ، وأنه لم يجبه إلى ذلك وطلب منه أن ينظر إلى الجبل وقد تجلى له فاندك وتفرق ، وخرَّ هو صعقا من هول ما رأى ، فلما أفاق أظهر له التوبة من طلب رؤيته ، فقبل توبته وأنزل عليه التوراة مكتوبة فى الألواح ، وأمره أن يأخذها بقوة وأن يأمر قومه أن يأخذوا بأحسنها إذا كان فيها تخيير بين حسن وأحسن ، ووعدهم بأنه سيدخلهم الأرض التى وعدهم بها ، وذكر أنه سيصرف عن آياته أصحابها الذين يتكبرون فيها ويؤثرون سبيل الغى على سبيل الرشد ، لأنهم كذبوا بآياته وغفلوا عنها ، فحبطت أعمالهم ولا يجزون إلا ما كانوا يعملون ، ثم ذكر أن قوم موسى اتخذوا من بعده من حليهم عجلا جسدا له خوار فعبدوه من دونه ، وأنهم ندموا على ذلك ورأوا أنهم قد ضلوا وطلبوا رحمة الله ومغفرته لذنبهم ، وأن موسى رجع إليهم غضبان أسفاً لما فعلوا ، وألقى الألواح وأخذ برأس أخيه هارون يجُرُّه إليه ، فاعتذر له بأنهم استضعفوه وكادوا يقتلونه ، فطلب من ربه أن يغفر له ولأخيه ويرحمهم جميعاً ولا يؤاخذهم بما فعلوا ، وقد أجيب بأن الذين اتخذوا العجل وزينوا عبادتها لهم سينالهم غضب من ربهم وذلة فى الدنيا ، لأنهم سيعودون إلى عصيان ربهم ، وقد فعلوا ذلك بعد أن فتحوا الأرض الموعودة لهم ، وبأن الذين لم يقعوا فى العبادة مثلهم وأساءوا بعدم مفارقتهم ثم تابوا وآمنوا ستغفر

سيئاتهم . ثم ذكر أن موسى اختار سبعين رجلا منهم لميقاته ليعتذروا عن ذلك الفعل، وأنه أخذهم بالرجفة إظهارا لغضبه مما فعلوا ، فتوجه موسى اليه بالدعاء أن يغفر لهم ويرحمهم ، ولا يؤاخذهم بما فعل السفهاء منهم ، وأنه أجابه بأنه يعذب من يشاء ولا يسأل عما يفعل ، وأن رحمته وسعت كل شيء حتى العاصين من عباده ، وسيكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة ويؤمنون به ، ويتبعون الرسول النبي الأمى حين يبعث إليهم ، وهو الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل ، يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، إلى غير هذا مما ذكره فى البشارة بمحمد صلى الله عليه وسلم ، ثم استطرد من ذلك إلى أمره صلى الله عليه وسلم بعد هذه البشارة أن يذكر للناس أنه رسوله إليهم جميعا ، وأن يأمرهم باتباعه لعلهم يهتدون ، ثم ذكر أن من قوم موسى أمة يهدون بالحق فلا ينكرون تلك البشارة .

ثم عاد إلى موسى وقومه فذكر أنه قطّعهم اثنتى عشرة أسباطا ، وأنه أوحى إليه إذ استسقوه أن يضرب بعصاه الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا بعددهم ، وأنه ظلل عليهم الغمام وأنزل عليهم المنّ والسَّلوى ، وأنهم ما ظلموه إذ عصوه بعد هذا ولكن ظلموا أنفسهم ، ثم ذكر من عصيانهم أنه أمرهم بسكنى القرية التى وعدهم بها وهى بيت المَقْدِس ، وأن يقولوا حين دخولها حِطةٌ ويدخلوا الباب سُجداً ، فبدلوا ذلك وقالوا حنطة ، فطلبوا ذلك ولم يطلبوا حط الخطايا عنهم ، ثم ذكر أيضا منه قصة الذين اعتدوا منهم فى السبت ، وأنهم أصروا على اعتدائهم ولم يسمعوا للذين وعظوهم ، فأخذهم بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون ، وجعلهم فى طباع القردة والخنازير من الشره والطمع ، وبعث عليهم من يسومهم الذُّل والصَّغَارَ إلى يوم القيامة ، وبدَّدَ شملهم فى الأرض طوائف محكومة لأهلها ، منهم الصالحون وهم الذين لم يصيروا فى طباع القردة والخنازير ، ومنهم دون ذلك وهم الذين صاروا فى طباعها ، وانحرفوا عما جاءت به التوراة من الأخلاق الفاضلة ، ثم ذكر أنه بلاهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون إلى فضائل دينهم ، فخلف من بعدهم خلف انحرفوا عنه أكثر منهم ، يأخذون الرشا على تحريف التوراة ، ويزعمون أنه سيغفر

ذلك لهم ، مع أنهم يصرّون عليه ولا يقلعون عنه ، وقد أخذ عليهم عهد التوراة أن يحافظوا عليها ولا يحرفوها ، وهم يدرسون ذلك فيها ويعرفونه ، والدار الآخرة خير من تلك الرشوة التي يأخذونها على التحريف ، والذين يتمسكون بالتوراة ولا يحرفونها لا يضيع أجرهم فيها ، ثم ذكر أنه أخذ هذا العهد عليهم حين رفع الجبل فوقهم وأمرهم أن يأخذوا التوراة بقوة ويحافظوا عليها ، ثم ذكر أنه أخذ على بنى آدم جميعاً عهده يوم خلقهم أن يعترفوا بأنه ربهم ويطيعوه ، وأنهم شهدوا على أنفسهم يوم أخذه عليهم لئلا يدّعوا يوم القيامة أنهم غفلوا عنه ، أو أنهم أشركوا كما أشرك آباؤهم تقليداً لهم ، فلا يصح أن يؤخذوا بما فعلوه قبلهم (وكذلك نفصّل الآياتِ ولعلّهم يرجعونَ)

قصة عالم لم يعمل بعلمه

الآيات (١٧٥ — ١٧٧)

ثم قال تعالى (واتلُ عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوينَ) فذكر نبأ عالم أتاه علم كتبه فلم يعمل به ، فتولاه الشيطان حتى أضله وصار مثله كمثل الكلب فى خسته وذلته ، ثم ذكر أن هذا مثل الذين كذبوا بآياته ، وأمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يقص عليهم ذلك المثل لعلهم يتفكرون (ساءَ مثلا القومُ الذين كذبوا بآياتنا وأنفسهم كانوا يظلمونَ)

الخاتمة

الآيات (١٧٨ — ٢٠٦)

ثم قال تعالى (من يهدِ اللهُ فهو المهتدى ومن يضلل فأولئك هم الخاسرونَ) فذكر أن الهداية والإضلال بعد ماقصه للاعتبار بيده وحده ، فمن يهده فهو المهتدى ومن يضلله فأولئك هم الخاسرون ، ثم ذكر أنه خلق لجهنم كثيراً من الجن والإنس لا يعتبرون بما قصه من ذلك ، لأنهم لا يفقهون ولا يبصرون ولا يسمعون ، فهم كالأنعام بل هم أضل ، ثم ذكر أن له الأسماء الحسنى وأمرهم أن يدعوه بها

ولا يتبعوا الذين يلحدون فى أسمائه من أولئك الجهلاء ، وأن ممن خلقه أمة يهدون بالحق فلا يلحدون فى أسمائه كما يلحدون ، وأن الذين كذبوا بآياته سيستدرجهم ثم يأخذهم بغتة كما أخذ أولئك الأولين ، ثم وبخهم على ترك التفكر فى أمر النبى صلى الله عليه وسلم ليعلموا أنه ليس به جِنة وإنما هو نذير مبين ، وفى ملكوت السماوات والأرض ليعرفوا خالقهم ، وفيما ينذرهم به ليعلموا أنه قد اقترب أجلهم ، لأنه لا شىء بعد هذا يؤمنون به ، ثم ذكر أن من يضلله فلا يهتدى بشىء من ذلك ، ويتركهم فى طغيانهم يعمهون .

ثم ذكر أنهم سألوه عن ساعة ذلك العذاب أيَّانَ مُرسَاهَا ؟ فأجابهم بأن علمها عند الله وحده ، وهى لا تأتيهم إلا بغتة من غير سابق علم ، وبأنه لم يدَّع لهم أنه يملك لنفسه نفعاً أو ضرا أو يعلم الغيب حتى يكون إليه ذلك الأمر ، وإنما يرجع ذلك إلى مشيئة الله وإرادته ، وما هو إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون .

ثم أخذ يبين لهم فساد شركهم ، فذكر أنه هو الذى خلقهم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ، فلما حملت منه دعوا الله (لئن آتيتنا صالحاً لنكونَنَّ من الشاكرين) فلما آتاهما ما طلبا جعل أولادهما له شركاء فيما آتاهما ، ثم وبخهم على أن يشركوا به مالا يخلق شيئاً وهم يُخلَقون ، إلى غير هذا مما ذكره فى إبطال شركهم ، ثم أمر النبى صلى الله عليه وسلم أن يأمرهم بدعوة شركائهم لكيده تعجيزاً لهم ، وأن يذكر لهم أن وليه الله الذى نزل الكتاب وهو يتولَّى الصالحين ، وأن هؤلاء الشركاء لا يستطيعون نصرهم ولا نصر أنفسهم ، ثم ذكر أنه إن يدعهم إلى الهدى لا يسمعوا وأنه يراهم ينظرون إليه وهم لا يبصرون ، وأمره أن يأخذ بما شرعه له من العفو والأمر بالمعروف والإعراض عن الجاهلين ، وأن يستعيذ به إذا اعتراه من الشيطان نزغ ، لأن هذا هو سبيل المتقين إذا مسهم الشيطان بطائف منه ، وإخوان الشياطين يمضون معهم فى الغى ثم لا يُقصِرُونَ ، ثم ذكر أنه إذا لم يأتهم بآية مما يقترحونه قالوا لولا اقترحتها على الله ، وأمره أن يجيبهم بأنه لا يتبع إلا ما يُوحى إليه فلا يقترح

شيئاً عليه ، وبأنه ، قد أتاهم بصائر من القرآن تغنى عن غيره من المعجزات ، ثم أمرهم أن يستمعوا له وينصتوا إذا قرىء عليهم لعلهم يرحمون ، وأمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يذكره تضرعا وخيفة ودون الجهرِ من القول بالغدوّ والآصال ، ونهاه أن يكون من الغافلين (إنّ الذين عند ربك لا يستكبرونَ عن عبادتهِ ويسبحونه وله يسجدونَ) .

سورة الأنفال

تاريخ نزولها ووجه تسميتها :

نزلت سورة الأنفال بعد سورة البقرة ، وكان نزولها بعد غزوة بدر ، وكانت غزوة بدر فى السنة الثانية من الهجرة ، فتكون سورة الأنفال من السُّوَر التى نزلت بين غزوة بدر وصلح الحديبية .

وقد سميت هذه السورة بهذا الاسم لقوله تعالى فى أولها (يسألونك عن الأنفالِ قل الأنفالُ للهِ والرسولِ — الآية) والأنفال هى الغنائم ، وتبلغ آياتها خمساً وسبعين آية .

الغرض منها وترتيبها :

نزلت سورة الأنفال فى غزوة بدر لتشرح وقائعها ، وتستخلص وجوه العبر منها ، وكانوا قد تنازعوا بعدها فى قسمة الأنفال ، لأن النبي صلى الله عليه وسلم قسم على من حضرها وبعض من لم يحضرها ، فأعطى ممن لم يحضرها عثمان بن عفان ، لأنه تركه على ابنته رُقية زوجه وكانت مريضة ، وأعطى طلحة بن عُبيد الله وسعيد ابن زيد ، وكان قد بعثهما للتجسس على العِير ، وثلاثتهم من المهاجرين ، وكذلك أعطى خمسة من الأنصار ، وقيل إن من باشر القتال فقتل وأسر نازع من كان يقف مع النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال الأولون : الغنائم لنا لأنا قاتلنا وهزمنا . وقال الآخرون : كنا رِدءاً لكم ، ولو انهزمتم لا نحزتم إلينا ، فلا تذهبوا بالغنائم دوننا .

فسألوا النبي صلى الله عليه وسلم عن حكمها ، فنزلت هذه السورة تجيبهم فى أولها بأن قسمة الأنفال لله ورسوله ، لأن الله هو الذى نصرهم ومكنهم منها ، فدبر لهم ما دبر فى هذه الغزوة ، وأمدهم بما أمدهم به من الملائكة ، إلى غير هذا مما ذكره فى هذا السياق ، ثم تجيبهم بعد هذا ببيان مصرف الأنفال ، وقد فُصلت فى هذا قسمتها ، وبين أن خمسها لله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ، وأيد حقهم فى خمسها بمثل ما أيد به حق الله والرسول فى قسمتها ، ومضى السياق فى هذا إلى آخر السورة ، وبهذا يدور السياق فيها على هذين الأمرين : تفويض قسمة الأنفال لله والرسول ، وبيان مصرف الأنفال .

وقد ذكرت هذه السورة بعد سورة الأعراف لأن فيها تحقيق ما أنذر به المشركون فى هذه السورة ، ولأنها تعد هى وسورة التوبة كسورة واحدة متممة للسبع الطوال .

تفويض قسمة الأنفال لله والرسول

الآيات (١ — ٤٠)

قال الله تعالى (يسألونكَ عن الأنفالِ قلِ الأنفالُ للهِ والرسول فاتقوا اللهَ وأصلحُوا ذات بينكم وأطيعوا الله ورسوله إنْ كنتم مؤمنين) فذكر أن قسمة الأنفال من حقه وحق رسوله ، وأمرهم أن يتقوه ويصلحوا ذات بينهم ويطيعوا ما يؤمرون به إن كانوا مؤمنين ، لأن المؤمنين هم الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ، وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا ، إلى غير هذا مما ذكره من صفاتهم .

ثم ذكر أنه لا يفعل فى تقسيم الأنفال إلا ما فيه مصلحتهم وإن خفيت عليهم . كما أخرجه من بيته يوم بدر بوعده الحق من النصر على المشركين ، وإن فريقاً منهم لكارهون لقتالهم ، ثم ذكر إذ يعدهم إحدى الطائفتين وهى النفير أنها لهم ، وأنهم ودوا أن غير ذات الشوكة وهى العير تكون لهم ، وأنه يريد أن يحق الحق بتسليطهم على ذات النفير وأن يقطع دابر الكافرين .

ثم ذكر إذ يستغيثونه فأمدهم بألف من الملائكة مُردفين ، وأنه لم يجعل هذا الإمداد إلا بشرى لهم ، ولتطمئن به قلوبهم ، وما النصر إلا من عنده وحده ، وليس بالملائكة ولا بغيرهم ، ثم ذكر إذ يُغشيهم النوم ليحصل لهم به الأمن ، وما أنزل عليهم من المطر ليُطهِّرهم به ويذهب عنهم وسوسة الشيطان ، وكان المشركون قد سبقوا إلى الماء وغلبوا عليه ، وطمعوا أن تكون لهم الغلبة به ، وقد عطش المؤمنون وخافوا وأعوزهم الماء للشرب والطهارة .

ثم ذكر إذ يوحى إلى الملائكة أنه معهم ، وأمره لهم بتثبيت المؤمنين ، وإخباره لهم بأنه سيلقى الرعب فى قلوب المشركين ، وأمره لهم بأن يضربوهم فوق الأعناق يضربوا منهم كل بَنَانٍ ، لأنهم شاقُّوا الله ورسوله والله شديد العقاب ، فليذوقوا هذا العذاب فى الدنيا ولهم فى الآخرة عذاب النار ، ثم ذكر نهيه للمؤمنين أن يولوهم الأدبار عند لقائهم ، ووعيده لمن يفعل هذا منهم .

ثم ذكر أنه مع هذا لا يكون المؤمنون هم الذين قتلوهم ، ولكنه هو الذى قتلهم بتدبيره لهم ، وقد أراد ذلك ليُبلى المؤمنين بلاء حسنا على ما أصابهم من المشركين قبل هذه الغزوة ، ويوهن كيدهم بمن قَتَلَ من صناديدهم ، ثم ذكر للمشركين أنهم إن يستنصروا بآلهتهم فقد جاءهم استنصارهم بنصر المؤمنين عليهم ، وإن ينتهوا عن القتال فهو خير لهم ، وإن يعودوا إليه يَعدْ إليهم بمثل ذلك النصر ، ولن تغنى عنهم فئتهم شيئا ولو كَثُرَتْ .

ثم أخذ فى وعظهم بما يناسب مقام هذه الوقائع ، فأمرهم أن يستجيبوا له ولرسوله ولا يتنازعوا فيما يدعوهم إليه ، كما تنازعوا فى تقسيم الأنفال وفى دعوتهم إلى القتال ، ثم حذَّرهم أن يصيبهم بالخلاف والتنازع فتنة تعُم الظالم وغيره منهم ، وأمرهم أن يذكروا وهم قليل مُستَضْعَفُونَ بمكة ، فآواهم فى المدينة ونصرهم بفضل طاعتهم وإذعانهم له ولرسوله .

ثم نهاهم أن يخونوا الله ورسوله بالتَّجَسُّس للأعداء وغيره ، وأمرهم أن يعلموا أن أموالهم وأولادهم فتنة لهم ، فلا يقاتلوا لأجل الغنائم ولا يفتتنوا بها كما

افتتنوا فى غنائم بدر ، ثم ذكر لهم أنهم إن يتقوه ينصرهم على الكفار ويغفر لهم ما حصل منهم .

ثم أخذ يُذَكِّرُ النبي صلى الله عليه وسلم ويعظه كما وعظهم ، فذكر ما كان من مَكْرِ المشركين به فى ليلة الهجرة ، وأنه مكر بهم فَدَبَّرَ أمره حتى نجَّاهُ منهم . وأنهم كانوا إذا تتلى عليهم آياته فى إنذارهم ووعيدهم لم يؤمنوا بها وسألوه أن يمطرهم حجارة من السماء أو يأتيهم بعذاب أليم إن كانت من عنده ، وأنه ما كان لِيعذبهم والنبي معهم فى مكة ، وهم يستغفرونه ويتوبون إليه واحدا بعد واحد .

ثم ذكر أنهم يستحقون ما طلبوه من العذاب لأنهم يَصُدُّونَ عن المسجد الحرام ، ولم تكن صلاتهم فيه إلا صفيرا وتصفيقا ، ثم ذكر أنه أذاقهم ما طلبوه من العذاب يوم بدر ، وأنهم سيغلبون بعد هذا ثم يحشرون إلى جهنم فيذوقون عذابها بعد عذاب الدنيا ، ثم أمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يذكر لهم أنهم إن ينتهوا عن كفرهم يغفر لهم ما سلف منهم ، وإن يعودوا إلى القتال فسيصيبهم ما أصاب أمم الكفر قبلهم ، وأمر المؤمنين أن يستمروا فى قتالهم حتى لا يفتنوهم فى دينهم ، ويكون الدين كله لله ، فإن انتهوا عن الكفر والقتال فإن الله بما يعملون بصير (وإنْ تولوْا فاعلمُوْا أنَّ اللهَ مولاكم نعم الْمَوْلَىَ وِنعْمِ النصيرُ)

مصرف الأنفال

الآيات (٤١ — ٧٥)

ثم قال تعالى (واعلموا أنما غنمتم منْ شيء فأَنَّ لِلهِ خمسَه وللرسولِ ولذى القُرْبَى واليتامى والمساكين وابن السبيل ـ الآية) فذكر أن خمس الأنفال يصرف لمن ذكرهم ، والباقى وهو أربعة أخماسها يصرف للغانمين ، ثم أيد حقه وحق المذكورين فى الخمس بأنه الذى أنزل النصر يوم بدر ، وقد نزلوا بالعدْوةِ الدُّنيا بعيدين عن الماء ، ونزل المشركون بالعدوة القصوى قريبين منه ، ولو تواعد الفريقان على القتال لاختلفوا فى الميعاد لقلة المسلمين وكثرة المشركين ، ولكن الله جمع بينهم على هذا الحال ليكون

النصر معجزة من المعجزات ، ويهلك من هلك عن بينة ، ويحيا من حى عن بينه ، ثم أيده أيضا بأنه الذى أراهم للنبي صلى الله عليه وسلم فى منامه قليلا ليقدموا على قتالهم ، ثم قللهمْ فى أعين المؤمنين بعد التقائهم بهم لتقوى قلوبهم ، ثم ذكر ما كان من أمره لهم أن يثبتوا ويستعينوا به ويطيعوا رسوله ، وما كان من نهيه لهم أن يتنازعوا ويخرجوا كالمشركين بطراً ورئاء الناس ، وقد غرهم الشيطان وأخبرهم بأنه جارٌ لهم ، فلما تراءت الفئتان للقتال فرّ منهم ، لأنه رأى مالم يروه من مدد الملائكة المؤمنين ، ثم ذكر ما كان من استحقار المنافقين واليهود لقلة عددهم ورميهم لهم بالغرور لخروجهم بهذا العدد القليل ، مع أن من يتوكل على الله ينصره ولو كان قليل العدد ، ثم ذكر ما كان من الملائكة الذين سلطهم على المشركين يَتَوَفَّوْنَهُمْ ويضربون وجوههم وأدبارهم ، ويأمرونهم أن يذوقوا عذاب الحريق بما قدمت أيديهم ، ثم ذكر أنه أخذهم بهذا كما أخذ آل فرعون والذين كفروا من قبلهم بذنوبهم ، لأنه لا يُغَيِّرُ نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم .

ثم ذكر أن أولئك المنافقين واليهود الذين رموا المؤمنين بالغرور لقلة عددهم شر الدوابّ عنده لجهلهم ونقضهم عهودهم عهدا بعد عهد ، ثم أمر النبي صلى الله عليه وسلم إذا وجدهم فى الحرب أن يفعل بهم مايشرد به من خلفهم من أعدائه ، وإذا خاف منهم خيانة أن ينبذ إليهم عهدهم نَبْذاً ظاهرا ، بألا يبادرهم بالحرب قبل علمهم بنبذ العهد .

ثم أوعد الكفار جميعا بأنه لا يعجزه أن يصيبهم بمثل ما أصابهم يوم بدر ، وأمر المؤمنين أن يعدوا لقتالهم ما استطاعوا من آلات الحرب ليرهبوهم بذلك ، ويرهبوا من يبطن لهم العداوة من المنافقين واليهود ، ثم أمره إذا جنحوا بعد ذلك للسلم أن يجنح لها ، وذكر أنهم إن يريد واخداعه بها فإنه هو حسبه ، وهو الذى أيده بنصره وبالمؤمنين ، ثم أمره أن يحرضهم دائما على القتال ، ووعدهم بأنهم إن يكن منهم عشرون صابرون يغلبوا مائتين ، وإن يكن منهم مائة صابرة يغلبوا ألفا ، ثم خَفَّفَ عنهم وأمرهم أن يثبت المائه منهم لمائتين ، والألف لألفين .

ثم عاتب النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين على اتخاذهم الأسرى فى غزوة بدر ، لأنه لا يصح له اتخاذ الأسرى من الكفار إلا بعد أن يثخن فيهم بالقتل ، ليضعف جمعهم ، ويقل عددهم ، ثم ذكر أنهم آثروا الأسر طمعا فى الفداء ولولا أنه لا يعذب إلا بعد الإنذار لمسهم فيما أخذوا عذاب عظيم ، ثم أباح لهم أن يأكلوا مما أخذوه من الفداء ، لئلا يفهموا من ذلك أنه محرم عليهم ، ثم أمره أن يذكر لمن قاتل مع المشركين من مسلمى مكة وأسر معهم أنه إن يعلم فى قلوبهم خيرا يؤتهم خيراً مما أخذ منهم ، وأنهم إن يريدوا خيانته بعد إطلاقهم فقد خانوه من قبل فأمكن منهم ، ثم رغبهم فى الهجرة فجعل ولاية الإسلام للمهاجرين والأنصار ، وقطع الولاية بين من هاجر ومن لم يهاجر منهم ، وأجاز للمهاجرين والأنصار إن استنصروهم أن ينصروهم إلا على من عاهدوهم من المشركين ، وجعل الكفار بعضهم أولياء بعض ، فلا يصح للمسلمين أن يوالوهم ويقاتلوا معهم ، وذكر أن المهاجرين والأنصار هم المؤمنون حقا لا غيرهم ممن لم يهاجر ، وأن الذين آمنوا من بعد ذلك وهاجروا فهم من المؤمنين حقا أيضاً ، ثم أبطل الإرث بسبب الهجرة والنصرة وجعله لذوى القرابة فقال (وأولُو الأرحام بعضُهم أولى ببعضٍ فى كتابِ الله إنّ الله بكل شىء عليم) .

سورة التوبة

تاريخ نزولها ووجه تسميتها :

نزلت سورة التوبة بعد سورة المائدة ، وكان نزولها فى ذى القعدة أوذى الحجة من السنة التاسعة للهجرة ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم أرسل أبا بكر فى أخريات ذى القعدة ليحج بالناس ، فنزلت هذه السورة بعد سفره وفيها نبذ العهود لجميع المشركين الذين لم يوفوا بعهودهم ، فأرسل بها علياً ليبلغها الناس فى يوم الحج الأكبر ، فلحق أبا بكر فى الطريق ، ثم بلغها الناس فى ذلك اليوم ، ثم نادى : لا يحج بعد العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عُرْيان . فتكون سورة التوبة من السور التى نزلت بين غزوة تبوك ووفاة النبي صلى الله عليه وسلم .

وقد سميت هذه السور باسم التوبة لأنه ذكر فى الآيتين - ١١٧ ، ١١٨ - توبة الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه فى ساعة العسرة من بعدما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ، وعلى الثلاثة الذين خلفوا فى غزوة تبوك ، وتبلغ آياتها تسعا وعشرين ومائة آية .

الغرض منها وترتيبها :

نزلت هذه السورة لتحديد علاقة المسلمين بأعدائهم فى آخر عهد النبوة ، وكان أعداؤهم على ثلاثة أقسام : أولها مشركو العرب ، وقد نبذت فى هذه السورة عهود الذين لم يوفوا بعهودهم منهم ، وأمهلوا فيها أربعة أشهر يسيحون فى الأرض ، وأتم فيها عهد من وفى بعهده إلى مدته ، لتتخلص جزيرة العرب للمسلمين وحدهم . وثانيها من حاربهم من اليهود والنصارى ، وقد أمروا فيها بقتالهم وقبول الجزية منهم إذا

سالموهم ، وثالثها المنافقون ، وقد فضحوا فيها وكشفت أسرارهم ، وأمر المسلمون بمقاطعتهم والبعد عنهم ، وتنقسم هذه السورة فى ذلك إلى قسمين : أولها فى الكلام على المشركين وأهل الكتاب ، وثانيهما فى الكلام على المنافقين . وقد استطرد فى أثناء ذلك إلى بعض الحوادث التى وقعت فى تاريخ نزول هذه السورة ، كغزوة حُنَين وغزوة تَبُوكَ .

وقد ذكرت هذه السورة بعد سورة الأنفال لما سبق من أنهما يعدان كسورة واحدة تتمم السبع الطوال ، وقد ذهب كثير من الصحابة إلى أنهما سورة واحدة ، وجعل هذا هو السبب فى ترك التسمية فى أول هذه السورة ، ومما يذكر فى المناسبة بين السورتين أن سورة الأنفال ذكرت فيها العهود ، وسورة التوبة ذكر فيها نبذ العهود ، وأن سورة الأنفال ختمت بفرض الموالاة بين المؤمنين وقطعها بينهم وبين الكفار ، وقد افتتحت بهذا سورة التوبة ، وأن قصة سورة التوبة تشبه قصه سورة الأنفال ، لأن كلا منهما نزل فى القتال .

الكلام على المشركين وأهل الكتاب

الآيات (١ — ٣٧)

قال الله تعالى (براءةٌ مِنَ اللهِ ورسولهِ إلى الذينَ عاهدتمْ مِنَ المشركينَ) فأوجب البراءة من عهود المشركين ، وأباح لهم أن يسيحوا فى الأرض أربعة أشهر ، وأمر أن يؤْذَنوا بهذا يوم الحج الأكبر ، فإن تابوا فى مدة إمهالهم فهو خير لهم ، وإن أصروا على كفرهم فلن يعجزوا الله فى دنياهم ، ولهم فى الآخرة عذاب أليم ، ثم استثنى منهم الذين كان لهم عهد ولم ينقضوه ، فأمر أن يتم لهم عهدهم إلى مدتهم ، ثم أمر بقتالهم بعد انسلاخ الأشهر الحُرُم حيث وجدوا ، فإن تابوا كُفَّ عن قتالهم ، ثم أمر النبى صلى الله عليه وسلم أن يجير من استجاره منهم حتى يسمع كلامه ، وأن يبلغه بعد هذا مأمنه من دار قومه ، ويكون حكمه فى القتال كحكمهم ، ثم أنكر أن يكون لأولئك المشركين عهد عنده ، واستثنى منهم الذين عاهدهم عند المسجد الحرام ، وأمر أن يستقيموا لهم ما استقاموا لهم ، ثم عاد فأنكر أن يكون لهم عهد عنده وهم

إن يظهروا على المؤمنين لا يرعون فيهم عهدا ، لأنهم غير مخلصين فى عهدهم ، وأكثرهم فاسقون لا قيمة للعهد عندهم ، ثم ذكر من فسقهم أنهم آثروا الكفر على الإيمان بثمن قليل من متاع الدنيا ، وأنهم لا يرقبون فى مؤمن عهدا ، وأنهم هم المعتدون على المسلمين ، ثم ذكر أنهم إن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فهم إخوانهم فى الدين ، وأنهم إن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وجب قتالهم ونقض عهدهم لأنهم لا أيمان لهم .

ثم ذكر فى تسويغ قتالهم أنهم نكثوا أيمانهم وهمّوا بإخراج الرسول من مكة قبل أن يهاجر منها ، وبدأوا المسلمين بالقتال ظلما وعدوانا ، ثم أمرهم بقتالهم ليعذبهم بأيديهم ويخزيهم وينصرهم عليهم ويشفى صدورهم منهم ، وذكر أنه لم يكن ليتركهم من غير أن يميز بالجهاد بين الصادقين فى إيمانهم وغيرهم ، ولم يكن ليترك المشركين يعمرون المسجد الحرام بكفرهم ، لأن الأحق بعمارته الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ، ثم أنكر على المشركين أن يُسَوُّوا بين ذلك وما يقومون به من سقاية الحاجّ وعمارة المسجد الحرام ، وحكم بأن المؤمنين أعظم درجة عنده منهم .

ثم نهى المؤمنين بعد البراءة من عهود الكفار أن يتخذوا آباءهم وإخوانهم أولياء إن آثروا الكفر على الإيمان ، وأوعدهم إن آثروا آباءهم وأبناءهم وإخوانهم وأزواجهم وعشيرتهم وأموالهم وتجارتهم عليه ورسوله والجهاد فى سبيله أن يتربصوا حتى يأتى بأمره ، ثم ذكر أنه نصرهم فى مواطن كثيرة ليؤثروه على غيره ، وخص من هذه المواطن يوم حُنَيْن إذ أعجبتهم كثرتهم فلم تغن عنهم شيئاً ، وضاقت عليهم الأرض بما رحبت ثم ولّوا مدبرين ، ثم أنزل سكينته على النبى ومن ثبت معه وهزم أعداءهم ، ثم ذكر أنه يتوب على من يشاء منهم والله غفور رحيم (يأيُّها الذين آمنُوا إنمَّا المشركون نجسٌ فلا يقربُوا المسجدَ الحرامَ بعدَ عامهمْ هذا وإنْ خفتمْ عَيْلةً فسوفَ يغنيكمُ اللهُ مِنْ فضلهِ إنْ شاء إن اللهَ عليمٌ حكيمٌ)

ثم أمرهم أن يقاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرّمون ما حرّم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من أهل الكتاب حتى يعطوا الجزية ،

وكانوا قد حاربوهم وانضموا إلى المشركين عليهم ، ثم أثبت ما ذكره من كفرهم بان اليهود يقولون عُزَيْزٌ ابن الله ، والنصارى يقولون المسيح ابن الله ، يضاهئون المشركين قبلهم فى زعمهم أن له أولاداً من الملائكة وغيرهم ، وأثبته أيضاً باتخاذهم أحبارهم ورهبانهم أرباباً يطيعونهم من دونه ، ثم ذكر أنهم يريدون أن يطفئوا نوره وهو دين الإسلام بأفواههم ، يسوغ ما أمر به من قتالهم ، ثم ذكر أن كثيراً من أحبارهم ورهبانهم ليأكلون أموال الناس بالباطل ويَصُدُّونَهم عن سبيله ، وأن الذين يكنزون منهم الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيله لهم عذاب أليم (يومَ يُحمى عليها فى نارِ جهنمَ فتكوى بها جباهُهمْ وجنوبُهمْ وظهورُهمْ هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقُوا ما كنتم تكنزونَ) .

ثم ختم الكلام على الفريقين ببيان ما يحلُّ القتال فيه وما يحرم من شهور السنة فذكر أن عدة الشهور اثنا عشر شهراً ، وأن منها أربعة حُرُماً يحرم القتال عليهم فيها ويجب عليهم قتال المشركين كافة فيما عداها كما يقاتلونهم كافة ، ثم حرّم عليهم النسيء وهو تأخير الأشهر الحرم عن مواضعها من السنة إذا صادفتهم وهم فى حرب أو لم يوافق الحج فيها موسم تجارتهم ، لِيُواطِئُوا عدة ما حرَّم الله (فيُحلُّوا ما حرَّم الله زُين لهم سوءُ أعمالهم والله لا يهدى القوْمَ الكافرينَ) .

الكلام على المنافقين

الآيات (٣٨ — ١٢٩)

ثم قال تعالى (يأيُّها الذين آمنُوا مالكمْ إذا قيل لكمُ انْفروا فى سبيلِ الله اثّاقَلْتمْ إلى الأرضِ — الآية) فذكر ما حصل من المنافقين فى غزوة تبُوكَ وكانت فى وقت الصيف وشدة الحر ولغزو الرُّومِ ، وهى دولة قوية ليست كمن قاتلوهم من قبائل العرب ، فتثاقل عنها المنافقون واستعظموا غزو الروم وأثّرُوا فى بعض المؤمنين ، وقد بدأ بلومهم على تثاقلهم إذا قيل لهم انفروا فى سبيله ، وإيثارهم الحياة الدنيا على الآخرة ، ثم ذكر أنهم إن لا ينفروا يعذبهم ويستبدل قوما

غيرهم ولا يضروا النبي صلى الله عليه وسلم ، وأنهم إن لا ينصروه فقد نصره فى هجرته من مكة ثانى اثنين ، وقد جزع رفيقه وهما فى الغار أن يدركها المشركون ، فقال له (لا تحزنْ إنَّ اللهَ معنا) فأنزل سَكِينَتَهُ عليه وأيَّدَهُ بجنود من عنده وجعل كلمة الكافرين السفلى وكلمته هى العُلْيَا ، ثم أمرهم أن يَنْفِرُوا خِفَافاً وثِقَالاً ويجاهدوا بأموالهم وأنفسهم ، ورَغَّبَهُمْ فى ذلك بأنه خير لهم لو كانوا يعلمون ، ثم عاد إلى توبيخهم على تثاقلهم فذكر أنه لو كان دعاهم إلى عَرَضٍ قريب من الدنيا أو سفر سهل لاتبعوه طمعا فى منافع الدنيا ، ولكن طال السفر عليهم فى هذه الغزوة وأيِسُوا من الفوز بالغنائم فتثاقلوا عنها ، وسيحلفون بالله أنهم لو استطاعوا الخروج لخرجوا ، والله يعلم إنهم لكاذبون ، ثم عاتب النبي صلى الله عليه وسلم على إذنه لهم بالقعود ، وكان من الخير ألاَّ يأذنَ لهم حتى يعلم الصادقين فى عذرهم من الكاذبين ، ثم ذكر أن الذين يؤمنون به وباليوم الآخر لا يستأذنون فى الجهاد بأموالهم وأنفسهم ، لأنهم يعلمون عظيم ما أُعِدَّ لهم فى ذلك اليوم إذا استشهدوا فى الجهاد ، وإنما يستأذن فى الجهاد الذين لا يؤمنون بذلك من المنافقين ، ولو أنهم أرادوا الخروج لأعَدُّوا له عُدَّتَهُ وخرجوا مع المجاهدين ، ولكنه علم المصلحة فى عدم خروجهم فَثَبَّطَهُمْ عن الخروج ، ولو خرجوا لأوقعوا الفتنة فى صفوف المسلمين ، وأطلعوا أعداءهم على أسرارهم ، كما فعلوا مثل هذا من قبل فى غزوة أُحُدٍ وغيرها

ثم قَسَّمهم فى النفاق إلى أقسام : أولها الذين إذا طُلِبُوا للجهاد ذهبوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم وعرضوا عليه أن يعينوه بأموالهم على أن يأذن لهم فى القعود ولا يفتنهم بعدم الإذن ، فسقطوا فى الفتنة من حيث يظهرون البراءة منها . ثم ذكر بعد هذا أنه إن أصابه فوز ساءهم ، وإن أصيب بمكروه فرحوا بحذرهم وعدم خروجهم ، وأمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يذكر لهم أنه لن يصيب المسلمين إلا ما كتب لهم ، وأنهم لا يتربصون بهم إلا إحدى الحسنيين : النصرة أو الشهادة ، أما هم فسيصابون بعذاب من عند الله أو بأيدى المسلمين ، ثم ذكر لهم أن ما ينفقونه طوعاً أو كرهاً ليقعدوا فى نظيره عن القتال لن يتقبله منهم لفسقهم وكفرهم

وعدم إخلاصهم فى صلاتهم وإنفاقهم ، ثم نهى النبي صلى الله عليه وسلم أن تعجبه أموالهم وأولادهم ، لأنه يريد أن يعذبهم بها فى الدنيا بإنفاقها فيما يكرهون وهو أشق شيء عليهم ، وتزهق أنفسهم وهم كافرون فيعذبون فى الآخرة أيضا ، ثم ذكر أنهم مع هذا يحلفون أنهم من المسلمين وماهم منهم ، ولكنهم قوم جبناء يفرّقون من الجهاد (لو يجدونَ ملجأ أو مغارات أو مدّخلا لولّوا إليه وهم يجمحونَ).

وثانيها الذين يطعنون على النبي صلى الله عليه وسلم فى الصدقات المفروضة ، ويزعمون أنه يخص بها أقاربه وأهل مودته ، فإن أعطوا منها رضوا ، وإن لم يعطوا سخطوا ، ولو أنهم رضوا بقسمة الله ورسوله فيها ونصيبهم منها لكان خيراً لهم ، ثم ذكر فى الجواب عن طعنهم أن هذه الصدقات لها مصارف معلومة من الفقراء ومن ذكرهم ، وهى مصارف لايراعى فيها قرابة ولا مودة ، وإنما يراعى فيها المصلحة والحاجة .

وثالثها الذين يؤذون النبي صلى الله عليه وسلم ويقولون هو أذُن ، لأنه يسمع مايقال فيهم ، وقد أمره أن يذكر لهم أنه أذن خير لهم ، لأنه يؤمن بالله ويخافه فلا يقدم على أذى أحد ، ولا يسمع إلا للمؤمنين الصادقين الذين يريدون المصلحة بنقل أخبارهم ، ثم ذكر أنهم إذا بلغ عنهم مايقولون يحلفون للمسلمين أنهم لم يقولوه ليرضوهم ، والله ورسوله أحق أن يرضوه بترك مايقولونه من الإثم ، ثم ذكر أنهم حين يفعلون ذلك يحذرون أن تنزل عليهم سورة تفضحهم به ، وأمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يأمرهم بأن يفعلوا مايفعلونه من الاستهزاء به وغيره ، فإن الله مخرج مايحذرون من أسرارهم بهذه السورة التى أنزلها فيهم ، ثم ذكر أنه إذا سألهم عما يبلغ عنهم اعتذروا عنه بأنه كان على وجه اللعب لا على وجه الجِد ، ورد عليهم بأنه لا محل للعب فى أمر الله وآياته ورسوله ، إلى غير ذلك مما ذكره فى الرد عليهم ، ثم ذكر أن المنافقين والمنافقات بعضهم من بعض ، فلا يوالى بعضهم إلا بعضاً ، لأنهم يستأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ، إلى غير هذا مما لا يصح موالاتهم عليه .

ثم ذكر أنه أعدّ لهم على ذلك نار جهنم خالدين فيها، وذكر أنه سينالهم ما نال من كان قبلهم ممن كانوا أشد منهم قوة وأكثر أموالا وأولادا، كقوم نوح وعاد وثمود وقوم إبراهيم وغيرهم.

ثم ذكر أن المؤمنين يجب أن يكون بعضهم أولياء بعض، لأنهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر على عكس مايفعله المنافقون، وذكر ما أعد لهم من الثواب كما ذكر ما أعد للمنافقين من العذاب، ثم أمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يجاهدهم بالتغليظ والتشديد عليهم، لأنهم لا يحاربون بالسيف كما يحارب غيرهم، ثم أعاد ما ذكره من حلفهم وإنكارهم مايقولونه بعد الأمر بجهادهم، ليؤكد ثانيا أنهم قالوه فيمضى فى جهادهم ولا يسمع لحلفهم.

ورابعها الذين عاهدوا الله إن أغناهم أن يتصدقوا من أموالهم، فلما آتاهم ماطلبوا بخلوا بصدقاتهم، فجازاهم على ذلك بأن أعقبهم نفاقاً لا يفارقهم إلى يوم القيامة. وهددهم بأنه يعلم سرهم ونجواهم ولا يخفى عليه شىء من أحوالهم، ثم ذكر أنهم مع بخلهم بالصدقات يطعنون المطوّعين من المؤمنين فيها والذين لا يجدون مايتصدقون به إلا جهد المقلّ، فيسخرون منهم ويزعمون أنهم يقصدون الرياء والسمعة وأن الله غنى عن صدقة المقل منهم، ثم ذكر أنه جازاهم سخرية بسخرية ولهم عذاب أليم، ونهى النبى صلى الله عليه وسلم أن يستغفر لهم كما يستغفر للمسلمين، وذكر أنه لايغفر لهم ولو استغفر لهم سبعين مرة، لأنهم كفروا به وبرسوله وهو لا يهدى القوم الفاسقين.

ولما انتهى من بيان أقسامهم عاد إلى أصل الكلام فى تثاقلهم وتخلفهم عن غزوة تبوك ليرتب عليه ما أراد من عقوباتهم، فذكر ما كان من فرحهم بتخلفهم، وكراهتهم للجهاد بأموالهم وأنفسهم، وتثبيطهم الناس عن هذه الغزوة، وأوعدهم على ذلك بما أوعدهم به، ثم أمر النبى صلى الله عليه وسلم ألاّ يأذنَ لهم فى الخروج بعد ذلك إذا استأذنوه فيه، وألاّ يشركهم معه فى قتال عدو، ونهاه أن يصلى على أحد

منهم مات أبدا وأن يقوم على قبره ، وأن تمتد عينه إلى أموالهم وأولادهم كما كان يفعل قبل ذلك من أخذ أموالهم وقبول تخلفهم - ثم وبخ أصحاب الأموال منهم على ما كانوا يفعلونه من ذلك ، ورضاهم بأن يقعدوا مع الخوالف من النساء والولدان ، ثم ذكر أن الرسول والمؤمنين على خلاف ما يفعل أولئك المنافقون ، وأنه أَعدّ لهم على ذلك ما أعد من جنات النعيم .

ثم شرع فى بيان ما حصل من منافقى الأعراب فى تلك الغزوة ، وكان ما سبق فى منافقى المدينة ، فذكر أنه جاءه فيها المعذِّرُونَ منهم لِيُؤْذَن لهم فى القعود ، وهم الذين يعتذرون بلا عذر ، وأن بعضهم قعد ولم يعتذر جراءة على الله ورسوله ، وأوعدهم بأنهم سيصيبهم عذاب أليم ، ثم نفى الحَرَجَ عمن قعد بعذر لضعفه أو لأنه لا يجد الأُهْبة والزاد والراحلة ، فهؤلاء ليس عليهم من سبيل والله غفور رحيم ، إنما السبيل على الذين يستأذنون وهم أغنياء ولا ضعف فيهم ، ثم ذكر أنهم سيعتذرون إليهم بعد رجوعهم من الغزو ، ونهى النبى صلى الله عليه وسلم عن قبول عذرهم ، وذكر أنهم سيحلفون لهم أنهم لم يقدروا على الخروج ليعرضوا عنهم ولا يوبخوهم ، وأمرهم أن يعرضوا عنهم إعراض مَقْت وسخط ، ثم ذكر أن منافقى الأعراب أشد كفرا ونفاقا وجهلا من منافقى المدينة ، وأن منهم من يعتقد أن ما ينفقه فى سبيل الله غرامة وخسران ، ويتربص بالمسلمين الدوائر بظهور أعدائهم عليهم ، ثم ذكر أن من الأعراب من يخلص فى إيمانه ، وأنه سيدخلهم فى رحمته ، وأن السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان لهم درجات أعلى منهم ، لأن الأعراب وإن أخلصوا فى إيمانهم ليس لهم مثل سبقهم وجهادهم .

ثم ذكر أن من الأعراب وأهل المدينة منافقين مَرَدُوا على النفاق ، وأن النبى صلى الله عليه وسلم لا يعلمهم وهو يعلمهم وسيعذبهم مرتين فى الدنيا والآخرة ، وأن منهم آخرين اعترفوا بذنوبهم وخلطوا عملا صالحا وآخر سيئا ، وذلك بخروجهم مع النبى صلى الله عليه وسلم فى سائر الغزوات وتخلفهم فى هذه الغزوة ، وأنه قد قبل توبتهم وغفر لهم ، وكانوا قد تأخروا عن تقديم زَكَوَاتِهم قبل توبتهم ، فأمر النبى

صلى الله عليه وسلم أن يأخذها منهم لِتتِمَّ توبتهم بها ، ثم ذكر أنه هو الذى يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات ترغيبا فيها لمن لم يتب ، وأمرهم أن يعملوا الصالحات لِتكفِّر ما مضى من سيئاتهم ، وأخبرهم بأنه يرى عملهم ترغيبا وترهيبا لهم ، ثم ذكر أن منهم آخرين ندموا على ما فعلوا ، ولكنهم أحجموا عن الحضور إلى النبي صلى الله عليه وسلم وإظهار التوبة خوفا منه أو خجلا واستحياء ، وأنهم مُرْجَوْنَ لأمره ، فإما يعذبهم وإما يوفقهم لتكميل التوبة ، لأن الندم وحده لا يكفى فيها ، ثم ذكر أن منهم الذين اتخذوا مسجدا قبيلَ غزوة تبوكَ يضارُّونَ به مسجد قباء ، ويفرقون به بين المؤمنين ، ونهى النبي صلى الله عليه وسلم أن يصلى فيه ، وذكر أن مسجد قباء الذى أُسِّسَ على التقوى من أول يوم أحق بذلك وأجدر ، وكان قد أمر النبي صلى الله عليه وسلم بتخريبه ، فذكر أنه لايزال بنيانهم بعد تخريبه ريبة فى قلوبهم إلا أن تقطَّع قلوبهم والله عليم حكيم .

ولما انتهى من ذكر مافعلوه فى تلك الغزوة ذكر أنه اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ، فلا يصح لمسلم أن يبخل بنفسه وماله فى الجهاد كما يبخل أولئك المنافقون ، وأنه وعد المجاهدين بذلك وعدا عليه حقاً فى التوراة والإنجيل والقرآن ، ولا يُوجَدُ من هو أوفى بعهده منه . ثم أمرهم أن يستبشروا بذلك البيع الرابح ، وأخبرهم بأن ذلك هو الفوز العظيم ، ومدحهم بأنهم التائبون العابدون إلى غير ذلك من الصفات التى امتازوا بها على المنافقين ، وجعلتهم يبذلون أنفسهم أموالهم فى سبيل الله راضين مطمئنين .

ثم عاد إلى نهى النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين عن الاستغفار لأولئك المنافقين بعد أن انتهى من بيان ما حصل منهم ، لأن هذا أشد عقوباتهم ، فكرر النهى عنه تأكيداً له ، وذكر أنه لا يصح أن يقتدوا فى هذا باستغفار إبراهيم لأبيه ، لأنه لم يستغفر له إلا بعد أن وعده أن يؤمن ، فلما لم يَفِ بوعده تبرأ منه وترك الاستغفار له ، ثم ذكر أنه لا يؤاخذهم بما سبق منهم فيضلهم ، لأنه لا يؤاخذ قوما

بعد إذ هداهم حتى يبين لهم مايتقون ، ثم ذكّرهم بكمال علمه وواسع ملكه لينقادوا لنهيه ويستغنوا به عن أولئك المنافقين .

وكان قد حصل من النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بعض مايؤاخذون عليه فى تلك الغزوة ، كإذنه صلى الله عليه وسلم للمنافقين فى القعود ، وتأثر بعض المؤمنين بتثبيط المنافقين . فذكر أنه تاب عليهم من تلك الزلات ، وعلى الثلاثة الذين تخلفوا منهم ثم ندموا وتابوا ، وهم كعب بن مالك وهلال بن أميّة ومرارة بن الربيع ، فتاب عليهم بعد أن ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ، وأمرهم بأن يتقوه ويكونوا مع الصادقين .

ثم ذكر أنه ماكان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب على العموم أن يتخلفوا عن النبي صلى الله عليه وسلم ، لأنهم لا يصيبهم شيء فى الجهاد ولا ينالون ظفراً على العدو إلا كتب لهم به عمل صالح ، ولا ينفقون نفقة ولا يقطعون واديا إلا كتب لهم ، ثم ذكر أنه لا يكلفهم كلهم أن ينفروا إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، وإنما يكلفهم أن تنفر من كل فرقة منهم طائفة إليه ليتفقهوا فى الدين ويشاركوه فى الجهاد وينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم .

ثم أمر المؤمنين أن يقاتلوا الذين يلونهم من الكفار وهم المنافقون ، وقد أمر النبي صلى الله عليه وسلم بجهادهم فيما سبق ، فأعاده تأكيداً له ، والمراد من قتالهم أن يظهروا العداوة لهم بالتشديد والتغليظ عليهم كما سبق ، ثم أخذ فى تحريضهم عليهم فذكر أنهم إذا أنزلت سورة من القرآن فمنهم من يقول (أيُّكمْ زادته هذه إيماناً) وأجاب عن قولهم بأن المؤمنين يزدادون بها إيمانا ، وأما هم فيزدادون بها نفاقا إلى نفاقهم ، ثم وبّخهم بأنهم يفتنون فى نفاقهم كل عام مرة أو مرتين ثم لا يتوبون ولاهم يذّكّرُون . ومنهم من ينظر عند نزولها هل يراه أحد إذا انصرف كراهة لسماعها ، ثم ينصرفون إلى دورهم صرف الله قلوبهم بأنهم قوم لا يفقهون .

ثم ذكر لهم من أمر النبي صلى الله عليه وسلم مالا يصح معه أن ينافقوه ، وهو

أنه رسول لهم من أنفسهم عزيز عليه ماهم فيه من العنت حريص عليهم بالمؤمنين رؤوف رحيم (فإنْ تولوْا فقُل حسبِيَ اللهُ لا إله إلا هُوَ عليه توكلتُ وهُوَ رب العرشِ العظيمْ) .

سورة يونس

تاريخ نزولها ووجه تسميتها :

نزلت سورة يُونُسَ بعد سورة الإسراء ، وكان الإسراء قبل الهجرة بسنة ، فتكون سورة يونس من السُّور التى نزلت بين الإسراء والهجرة .

وقد سُميت هذه السورة بهذا الاسم لذكر قصة يونس فيها ، وتبلغ آياتها تسعا ومائة آية .

الغرض منها وترتيبها :

يقصد من هذه السورة إثبات تنزيل القرآن ، وهى فى هذا تنقسم إلى أربعة أقسام : أولها فى إبطال شبههم عليه ، وثانيها فى تحديهم به ، وثالثها فى دعوتهم إلى تصديقه بطريق الترغيب والترهيب ، ورابعها فى خاتمة تناسب مقام هذه السورة .

وقد ذكرت هذه السورة بعد سورة التوبة لأنها ختمت كما سبق بترغيبهم فى الإيمان برسول جاءهم من أنفسهم ، وقد ابتدئت هذه السور بإنكار تعجبهم من أن يوحى إلى رجل منهم ، وهذا إلى أن هذه السورة أولى السور المئين ، وهى التى تأتى فى الترتيب بعد السبع الطوال .

إبطال شبههم على القرآن

الآيات (١ — ٣٦)

قال الله تعالى (الر ، تِلْكَ آياتُ الكتابِ الحكِيم) فأقسم بهذه الحروف أن ما أنزله هو آيات الكتاب الحكيم ، ثم ذكر شبهتهم الأولى على تنزيله ، وهى استنكارهم أن ينزل على رجل منهم لينذرهم بما جاء فيه من البعث والعقاب والثواب ، وزعمهم أن هذا سحر باطل

لاحقيقة له ، ثم أجابهم بإثبات قدرته على بعثهم وعقابهم وثوابهم . فذكر أنه هو ربهم الذى خلق السماوات والأرض ثم استوى على العرش يدبر أمره وحده ، ولا يشفع أحد عنده إلا بإذنه ، ولا بُدَّ من رجوعنا اليه ليجزى المؤمنين بالقسط ، ويعاقب الكافرين على كفرهم ، ثم ذكر أنه هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نوراً وقَدَّره منازل لنعلم عدد السنين والحساب ، وأن فى اختلاف الليل والنهار وما خلقه فى السماوات والأرض لآيات لقوم يتقون ، ثم أوعد الذين لا يؤمنون بلقائه بأن ماواهم النار ، ووعد المؤمنين بأنه يهديهم بإيمانهم تجرى من تحتهم الأنهار فى جنات النعيم (دعواهمْ فيها سبحانَكَ اللهمَّ وتحيتهم فيها سلام وآخر دعواهمْ أن الحمدُ لله ربِ العالمين)

ثم ذكر أنه لو يعجل لهم العقاب فى الدنيا كما يعجل لهم الخير فيها لعجل بهلاكهم ، ولكنه لم يرد هذا ليذرهم فى طغيانهم يعمهون ، ويكون عقابهم بعد إمهالهم وقطع عذرهم ، ثم ذكر أنه إذا مس الإنسان ضُرٌّ من جنس ما يُنْذَرُ به دعاه إلى كشفه ، فإذا كشفه عنه عاد إلى كفره ونسى دعاءه له ، ليثبت بهذا أن تعجيل العذاب لهم لا يؤثر فيهم ، ثم ذكر أنه قد عجل العذاب لمن كفر قبلهم فلم يؤمنوا وأصرُّوا على كفرهم ، وأنه جعلهم خلائف فى الأرض من بعدهم لينظر كيف يعملون

ثم ذكر شبهتهم الثانية على تنزيل القرآن ، وهى أنهم إذا تتلى عليهم آياته يطلبون أن يأتيهم بقرآن غير هذا أو يبدله لهم ، ثم أمره أن يجيبهم بأنه لا يمكنه أن يفعل ذلك من نفسه ، لأنه لا يتبع إلا ما يوحى إليه ، ويخاف عذاب يوم عظيم إن عصى ربه ، وبأنه قد لبث فيهم عمراً من قبله لا يتلو عليهم كتابا ولا يجلس إلى معلم ، فلا يمكن أن يكون هذا القرآن منه ، ثم ذكر أنه لا يوجد أظلم ممن افترى عليه كذبا أو كذّب بآياته كما يفعلون ، وأوعدهم على هذا بأنهم لا يفلحون ، ثم ذكر أنهم يعبدون ما لا يضرهم ولا ينفعهم ، ويزعمون أنهم شفعاؤهم عنده ، فيمنعون ما يوعدون به من ذلك ، وأمره أن يجيبهم بأنهم يخبرونه بشفعاء لا يعلمها فى السماوات ولا فى الأرض ، وذكر أن الناس كانوا أمة واحدة على التوحيد فاختلفوا فيه بعد اتفاقهم (ولولا

كلمةٌ سبقتْ منْ ربِّكَ لقُضِيَ بينهمْ فيما فيهِ يختلفونَ)

ثم ذكر شبهتهم الثالثة على تنزيل القرآن ، وهى طلبهم آية عذاب تدل على تنزيله ، ثم أمره أن يجيبهم بأن هذا من الغيب الذى لا يعلمه إلا هو ، وأمرهم أن ينتظروه لأنه ينتظره ولا يشك فى وقوعه ، ثم ذكر أنه إذا آتاهم بآية عذاب ثم أذاقهم رحمة بعدها مكروا فيها ولم يؤمنوا بها ، فهكذا يكون حالهم إذا أجيبوا إلى ما طلبوه منها ، وهددهم على ذلك بأنه أسرع مكرا منهم ، وبأن رسله يكتبون ما يمكرون ليحاسبهم عليه ، ثم ضرب لهم مثلا على مكرهم فى هذا ، فذكر أنه هو الذى يسيِّرهم فى البر والبحر ، حتى إذا كانوا فى الفُلك وجرت بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوه مخلصين (لئنْ أنجيْتَنا من هذه لنكوننّ من الشاكرين) فلما أنجاهم عادوا إلى بغيهم ونسوا دعاءهم له ، ثم ذكر أن بغيهم لا يعود إلا على أنفسهم ، وأنهم يتمتعون به فى هذه الحياة ثم إليه مرجعهم فينبئهم بما كانوا يعملون ، ثم ضرب لهم مثلا فى شأن هذه الدنيا التى يبغون فيها وينسون الآخرة معها ، فذكر أن مثلها كماء أنزله من السماء فاختلط به نبات الأرض حتى إذا أخذت به زخرفها وازَّيَّنتْ وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمره ليلا أو نهارا فجعلها حصيدا كأن لم تكن بالأمس ، ثم ذكر أنه يدعو إلى دار السلام التى لا يزول نعيمها كما يزول نعيم الدنيا ، وأنه يهدى من يشاء إلى طريق يوصل إليها ، وأن للذين أحسنوا فى دنياهم الحسنى فى تلك الدار وزيادة ، والذين كسبوا السيئات جزاؤهم سيئة فيها بمثل سيئاتهم ، ثم أمره أن يذكر لهم يوم يحشرهم جميعا ثم يأمرهم أن يلزموا مكانهم هم وشركاؤهم ، فيقطع بينهم ويتبرأ شركاؤهم من عبادتهم ، ويشهدون الله على أنهم كانوا عنها غافلين ، ثم ذكر أنه هنالك تبلو كل نفس ما أسلفت ، ويردون إليه وحده ويضل عنهم آلهتهم .

ثم أمره أن يسألهم من يرزقهم من السماء والأرض ؟ ومن يملك السمع والبصر ؟ ومن يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ؟ ومن يدبر الأمر ؟ وذكر أنهم

سيقولون الله ، وأنه يجب عليهم حينئذ أن يتقوه ، وأن من يكون هذا شأنه يكون ربهم الحق ، وأنه ليس بعد الحق إلا الضلال فأنى يصرفون ، ثم أمره أن يسألهم هل من شركائهم من يبدأ الخلق ثم يعيده ؟ وأن يجيب عنهم بأنه هو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده فأنى يؤفكون ، ثم أمره أن يسألهم هل من شركائهم من يهدى إلى الحق؟ وأن يجيب عنهم بأنه هو الذى يهدى للحق ، وحينئذ يكون هو الأحق بأن يتبع ممن لا يهدِى إلا أن يهدَى فما لهم كيف يحكمون (وَمَا يتبعُ أكثرهُمْ إلا ظنًّا إنَّ الظنَّ لا يغنى مِنَ الحقِّ شيئاً إن اللهَ عليمٌ بما يفعلونَ) .

تحديهم بالقرآن

الآيات (٣٧ — ٥٦)

ثم قال تعالى (وما كانَ هذا القرآنُ أن يفترى مِن دونِ اللهِ ولكن تصديقَ الذى بينَ يديهِ وتفصيلَ الكتابِ لا ريب فيهِ منْ ربِّ العالمينَ) فانتقل من إبطال شبههم على القرآن إلى تحديهم به ، وذكر أنه ماكان أن يفترى من دونه ولكنه تصديق ما قبله من الكتاب وتفصيل له ، وأنه لاريب فى تنزيله من عنده ، ثم تحداهم أن يأتو بسورة مثله ، وأن يدعوا من استطاعوا من دونه ليساعدهم على الإتيان به ، ثم ذكر أنهم يكذبون به من غير أن يحيطوا بعلمه ومن قبل أن يأتيهم تأويله ، فكذبوا به جهلا وعنادا كما كذب الذين من قبلهم فساءت عاقبتهم ؛ ثم ذكر أن منهم من يؤمن به وينكره عناداً ، ومنهم من لا يؤمن به جهلا ، وأنه أعلم بهم ومجازيهم على كفرهم ، ثم أمره إن كذبوه بعد تحديهم وعجزهم أن يتاركهم ولا يطمع فى إيمانهم ، لأن منهم من يستمعون إليه فلا يسمعون ، ولا يمكنه أن يسمع الصم ولو كانوا لا يعقلون ، ومنهم من ينظر إليه فلا ينظر ، ولا يمكنه أن يهدى العُمىَ ولو كانوا لا يبصرون ، ثم ذكر أنه لم يظلمهم بهذا ولكن أنفسهم يظلمون .

ثم أتبع ذلك بوعيدهم فذكر أنه يوم يحشرهم يكون حالهم كحال من لم يلبث

إلا ساعة من النهار فى الدنيا ، لأنهم لم ينتفعوا بما مكثوه فيها ، وأنهم يتعارفون بينهم ليوبخ بعضهم بعضاً ، ثم ذكر أنه إما يُرِيَنَّهُ بعض الذى يعدهم من العذاب فى الدنيا أو يَتَوَفَّيَنَّهُ قبل أن يريه له فإليه مرجعهم ثم هو شهيد على ما يفعلون ، وأن لكل أمة رسولا لا تعذب قبله (فإذا جاء رسولهمْ قَضِيَ بينهمْ بالقسط وهمْ لا يظلمونَ) .

ثم ذكر أنهم سألوا مستهزئين : متى هذا الوعد بالعذاب ؟ وأمر النبى صلى الله عليه وسلم أن يجيبهم بأن أمر ذلك مفوض اليه وحده ، لأنه لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً ، ولكل أمة أجل لا تتأخر عنه ولا تتقدم ، وبأن يسألهم عن فائدتهم فى استعجال هذا العذاب ، لأنهم إذا آمنوا عند وقوعه يكون إيمانهم بطريق الإلجاء ولا ينفعهم ، ثم يقال لهم (ذوقوا عذابَ الخلدِ بما كنتم تكسبونَ)

ثم ذكر أنهم سألوه عن ذلك العذاب مرة أخرى أحقٌّ هو ؟ وأمره أن يجيبهم بأنه حق ، وأنهم لا يُعجِزُونه إذا أراد عذابهم ، وأنه إذا أتاهم وكان لهم ملك ما فى الأرض لافتدوا به ، ثم ذكر أن له ما فى السماوات والأرض دليلا على قدرته على تحقيق وعيده لهم ، ولكن أكثرهم لا يعلمون (هُوَ يُحيي ويُميتُ وإليهِ تُرجعون) .

دعوتهم إلى تصديق القرآن بالترغيب والترهيب

الآيات (٥٧ — ٩٨)

ثم قال تعالى (يأيُّها الناسُ قد جاءتكم موعظةٌ مِنْ ربكم وشفاءٌ لما فى الصدور وهدًى ورحمة للمؤمنينَ) فذكر أنه موعظة منه وشفاء لما فى الصدور وهدى ورحمة المؤمنين ، وأمرهم أن يفرحوا بفضله عليهم به لأنه خير مما يجمعون ، ثم أمرهم أن يخبروه عما رزقهم به فجعلوا منه حراماً وحلالا أكان بإذنه أم كان افتراء عليه ؟ ليبين حاجتهم إلى هدايته ، وذكر أنه إذا كان افتراء عليه فما يكون جزاؤهم عليه يوم القيامة ؟ وأنه ذو فضل عليهم بإنزاله هذا القرآن الذى يبين لهم حرامه وحلاله

ولكن أكثرهم لا يشكرون ثم أخذ فى وعد النبى صلى الله عليه وسلم والمؤمنين على الإيمان بما أنزله إليهم ، فذكر أنه ما يكون فى شأن وما يتلو منه من قرآن إلا كان شاهدا عليهم ، وأن كل صغيرة وكبيرة ثابتة عنده فى كتاب مبين ، ثم ذكر أن أولياءه منهم لاخوف عليهم ولاهم يحزنون (الذين آمنوا وكانوا يتقونَ) .

ثم نهى النبى صلى الله عليه وسلم أن يحزن لتكذيبهم لما أنزل عليه ، لأن العزة له وحده وهو يسمع ويعلم تكذيبهم ، وله من فى السماوات ومن فى الأرض ، وما يتبعون من دونه شركاء فيه ، وإنما يظنون أنهم شركاء من غير أن يكون لهم دليل عليه ، ثم ذكر أنه هو الذى جعل الليل سكنا والنهار مبصراً وأن فى هذا آية لمن يسمع على أنه لاشريك له ، وأنهم زعموا أنه اتخذ ولدا يشاركه فى ملكه ، وأبطل هذا بأنه هو الغنى الذى له ما فى السماوات وما فى الأرض ، فلا يشاركه فيه ولد ولا غيره ، ثم أمر النبى صلى الله عليه وسلم أن يخبرهم بأن الذين يفترون عليه الكذب من الولد وغيره لا يفلحون (متاعٌ فى الدنيا ثم إلينا مرجعهمْ ثم نذيقهمَ العذابَ الشديد بما كانوا يكفرونَ) .

ثم أخذ فى ترهيبهم بما حصل للمكذبين قبلهم ، فأمر النبى صلى الله عليه وسلم أن يتلو عليهم نبأ نوح وما حصل لقومه من هلاكهم بالطوفان ، وقد سبقت قصتهم فى سورة الأعراف ، ولكن ما هنا يخالف ما هناك فى السياق والأسلوب والزيادة والنقص ، ثم ذكر أنه بعث من بعده رسلا إلى قومهم فجاءوهم بالبينات فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل ، وأنه كذلك يطبع على قلوب المعتدين ، ثم ذكر أنه بعث من بعدهم موسى وهارون إلى فرعون وقومه ، وأنهم لم يؤمنوا به فأغرقهم فى البحر ، وقد سبقت هذه القصة فى سورة الأعراف أيضاً ، ولكن ما هنا يخالف ما هناك فى السياق والأسلوب والزيادة والنقص ، وقد ختمها هنا بأنه بَوّأ بنى إسرائيل مُبَوّأ صدق من الأرض المقدسة بعد أن نجاهم من فرعون وقومه ، وذكر أنهم لم يختلفوا فى دينهم حتى جاءهم العلم ، وأنه يقضى بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون .

ثم أمر النبي صلى الله عليه وسلم على سبيل التعريض إن كان فى شك من هذا القصص أن يسأل أهل الكتاب عنه ، ونهاه أن يكون من الذين يكذبون بآياته، ثم ذكر أن الذين حقت عليهم كلمته من الأولين أن يعذبهم لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية حتى يروا عذابه ، وأنه كان عليهم أن يؤمنوا لينفعهم إيمانهم ، ثم استثنى منهم قوم يونس (لمّا آمنوا كشفنا عنهمْ عذاب الخزىِ فى الحياةِ الدنيا ومتّعْناهمْ إلى حينٍ) .

الخـــاتمة

الآيات (٩٩ — ١٠٩)

ثم قال تعالى (ولوْ شاءَ ربُّك لآمنَ مَنْ فى الأرض كلهم جميعاً أفأنتَ تكره الناسَ حتَّى يكونُوا مؤمنينَ) فذكر للنبى صلى الله عليه وسلم أنه لو شاء لآمن بما أنزل إليه من فى الأرض جميعاً، وأنه لا يصح أن يكره الناس حتى يكونوا مؤمنين، ثم أمرهم أن ينظروا فى آياته فى السماوات والأرض ليؤمنوا بالنظر فيها ، وذكر أن هذا لا يغنى عنهم لأنهم لا يريدون الإيمان ، وإنما ينتظرون مثل أيام العذاب التى أهلك فيها الأولين ، ثم نجى رسله والذين آمنوا معهم ، ثم أمره إن استمروا بعد هذا على شكهم فى دينه أن يخبرهم بأنه لا يعبد ما يعبدون من دونه ولكن يعبد الذى يتوفاهم ، وبأنه أمر أن يكون من المؤمنين ، وأن يقيم وجهه للدين حنيفاً ولا يكونَنّ من المشركين ، ثم نهاه أن يدعو من دونه ما لا ينفعه ولا يضره ، وذكر له أنه إن يمسسه بضر فلا كاشف له إلا هو ، وإن يرده بخير فلا رادّ له ، ثم أمره أن يذكر لهم أنه قد جاءهم الحق (القرآن) منه ، وأن من اهتدى فلنفسه ومن ضل فعليها ، وأنه ليس عليهم بوكيل (واتبعْ ما يُوحى إليك واصبرْ حتى يحكم الله وهو خير الحاكمينَ)

سورة هود

تاريخ نزولها ووجه تسميتها :

نزلت سورة هُود بعد سورة يُونس ، وقد نزلت سورة يونس بعد الإسراء وقُبيل الهجرة ، فيكون نزول سورة هود فى ذلك التاريخ أيضاً .

وقد سُمّيت هذه السورة بهذا الاسم لذكر قصة هود فيها ، وتبلغ آياتها ثلاثا وعشرين ومائة آية .

الغرض منها وترتيبها :

يقصد من هذه السورة إثبات تنزيل القرآن مثل سورة يونس ، ولهذا ذكرت بعدها لتكمل الغرض منها ، ولتستوفى جانب القصص الذى ذكر فيها ، وقد ابتدئت بإثبات تنزيل القرآن بالتنويه بشأنه وبيان حاجتهم إليه ، وبتحدّيهم به كما تحُدّوا به فى سورة يونس ، ثم انتقل من هذا إلى القصص لتثبيت النبى صلى الله عليه وسلم على تكذيبهم له ، ثم ختمت بما يناسب هذا السياق فيها .

إثبات تنزيل القرآن

الآيات (١ — ٢٤)

قال الله تعالى (الر ، كتابٌ أحكمت آياتُهُ ثمّ فصّلتْ مِنْ لدُنْ حكيم خبير) فأقسم بهذه الحروف أنه كتاب أحكمت آياته ثم فصلت فصولا حلالا وحراماً وترغيباً وترهيباً ونحو ذلك ، وأنه أنزله كذلك لأجل أن يعبدوه ، وليستغفروه ويتوبوا إليه ليمتعهم متاعا حسنا إلى أجل مُسَمًّى ، ثم أوعدهم إن تولوا عنه بعذاب يوم كبير ، وذكر أن إليه مرجعهم وهو على كل شىء قدير ، وأنه يعلم مايسرون وما يعلنون من أعمالهم ، وما من دابّةٍ فى الأرض إلا عليه رزقها ويعلم مستقرّها ومستودَعها ، وكل ذلك عنده فى كتاب مبين ، ثم ذكر أنه هو الذى خلق السماوات والأرض فى ستة أيام ليبلوهم أيُّهم أحسن عملا ، فلا بُدّ لهم من يوم يحاسبون فيه على أعمالهم ،

ثم ذكر أن النبي صلى الله عليه وسلم إذا أخبرهم مع هذا بأنهم مبعوثون بعد الموت يزعمون أن هذا سحر باطل لا حقيقة له ، وأنه إذا أخر عنهم هذا العذاب الذى يوعدهم به يقولون على سبيل الاستهزاء (ما يحبسه ؟) وأجابهم بأنه يوم يأتيهم لا يصرف عنهم ويحيق بهم ما كانوا به يستهزئون ، ثم أراد أن يبين أنه لو عجل لهم هذا العذاب لم يؤمنوا به ، لأن الواحد منهم إذا أذاقه رحمة ثم نزعها منه يبالغ فى اليأس والكفر ، فإذا أذاقه نعماء بعدهذا ظن أن السيئات ذهبت عنه إلى غير عودة وبالغ فى الفرح والفخر ، ومثل هذا لا يتعظ بنقمة ولا نعمة ، ثم استثنى منهم الذين صبروا لأنهم لا تؤئسهم النقمة ولا تبطرهم النعمة ، ووعدهم بمغفرة وأجر كبير .

ثم عاد إلى الحديث عن القرآن فذكر للنبي صلى الله عليه وسلم أنه لعله يترك بعض ما يوحى إليه منه ويضيق به صدره لأنهم يطلبون آية تدل على أنه منزل من عنده ، كأن ينزل عليه كنز أو يجيء معه ملك ، ثم ذكر أنه ليس إلا نذيرا لهم ، فلا يطلب منه إلا أن يبلغهم ، وهو على كل شيء وكيل ، ثم ذكر أنهم يزعمون أنه افتراه عليه ، وأمره أن يتحداهم بأن يأتوا بعشر سور مثله مفتريات ، وأمرهم أن يدعوا من استطاعوا ليساعدوهم على الإتيان بها ، ثم أمرهم إن لم يستجيبوا لهذا التحدى أن يعلموا أنه إنما أنزل بعلمه ، وأنه لا إله إلا هو لأنهم لم يستطيعوا هم وآلهتهم أن يأتوا بما تحداهم به ، وطلب منهم أن يسلموا بعد عجزهم عنه ، ثم ذكر أن الذين يؤثرون الحياة الدنيا على الإيمان به يُوَفَّى إليهم أجور أعمالهم فيها ، ولا يكون لهم فى الآخرة إلا النار ، ويحبط ما صنعوا فيها وتبطل أعمالهم ، لأنهم وُفُّوا أجورها فى دنياهم ، ثم ذكر أن من كان على بينة من ربه — وهو القرآن — ويتلوه شاهد منه — وهو الإنجيل — ومن قبله كتاب موسى — وهو التوراة — لا يمكن أن يكون جزاؤه كغيره ، أولئك يؤمنون به ، ومن يكفر به فالنار موعده ، ثم نهى النبي صلى الله عليه وسلم على سبيل التعريض أن يكون فى مِرْيَةٍ منه (إِنَّهُ الحَقُّ مِنْ رَبِّكَ ولَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يؤمنونَ) ثم ذكر أنه لا يوجد أظلم ممن افترى عليه كذبا بشركهم ، وأنهم يعرضون عليه ويقول الأشهاد من الملائكة الذين كانوا يراقبونهم

فى دنياهم (هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنةُ الله على الظالمين) ثم يذكرون أنهم كانوا يُصَدّون عن سبيل الله ويبغونها عوجا وهم بالآخرة هم كافرون ، وأنهم لم يكونوا معجزين فى الأرض وما كان لهم من دون الله من أولياء يمنعون عنهم ، ولكنه أراد إمهالهم ليضاعف العذاب لهم ، وأنهم ما كانوا يستطيعون سماع القرآن وما كانوا يبصرون هديه ، وأنهم خسروا أنفسهم وضلَّ عنهم ما كانوا يفترون ، وأنهم فى الآخرة هم الأخسرون ، ثم أتبع هذا بوعد المؤمنين بأنهم أصحاب الجنة هم فيها خالدون ، وضرب مثلا للفريقين فقال (مثلُ الفريقينِ كالأعمى والأصمّ والبصير والسميع هلْ يستويانِ مثلا أفلا تذكرونَ) .

تثبيت النبى بالقصص على تكذيبهم

الآيات (٢٥ — ٩٨)

ثم قال تعالى (ولقدْ أرسلنا نوحًا إلى قومه إنى لكم نذيرٌ مبينٌ) فذكر أنه أرسل نوحا إلى قومه لينذرهم قبل أن يأخذهم بعقابه . فأمرهم ألا يعبدوا إلا الله لأنه يخاف عليهم عذاب يوم أليم ، فأجابه الذين كفروا من قومه بأنهم لا يرونه إلا بشرا مثلهم ، ولا يرونه اتبعه إلا أراذلهم بادى الرأى ، ولا يرون لهم عليهم من فضل . بل يظنونهم كاذبين فى دعواهم ، ثم ذكر أنه أجابهم بأنه على بينة من ربه وقد أتاه رحمة من عنده ، فإذا كان هذا قد عُمِّيَ عليهم فلا يلزمهم أن يؤمنوا به وهم له كارهون . وقد فصّل فى قصته هنا ما فصل ، وذكر فيها مالم يذكره فى قصة يونس من الأخبار والحكم والمواعظ . إلى أن ختمها ببيان ما كان من عقابه لمن كذبه ، وأنه نجّاه هو ومن آمن به وبارك عليه وعلى أمم منهم يهتدون بهديهم ، ومنهم أمم سَيُمَتِّعهم فى الدنيا ثم يمسهمْ منه عذاب أليم (تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنتَ تعلمها أنتَ ولا قومك منْ قبلِ هذا فاصبرْ إنَّ العاقبة للمتقينَ) .

ثم ذكر أنه أرسل إلى عاد أخاهم هوداً فأمرهم بعبادته وحده ، وقد مضت قصته معهم فى سورة الأعراف ، لكن ما ذكر منها هنا يخالف ما ذكر منها هناك فى السياق

والأسلوب والزيادة والنقص ، وقد ذكر فى ختامها أنه لما جاء أمره بهلاكهم نجَّى هوداً ومن آمن به ، وأنهم لايذكَرون إلا بأنهم جحدوا بآياته وعصوا رسله واتبعوا أمر كل جبار عنيد (واتبِعُوا فى هذهِ الدنيا لعنة ويومَ القيامةِ ألا إنَّ عاداً كفرُوا ربَّهم ألا بُعداً لعادٍ قومِ هودٍ) .

ثم ذكر أنه أرسل إلى ثمود أخاهم صالحا فأمرهم أن يعبدوه وحده ، وقد مضت قصتهم أيضاً فى سورة الأعراف ، والفرق بينها فى السورتين كالفرق بين قصة عاد فيهما ، وقد ذكر فى ختامها أنه لما جاء أمره بهلاكهم نجى صالحاً ومن آمن به ، وأخذ الكافرين الصيحة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين (كأنْ لم يغنَوْا فيها ألا إنَّ ثمود كفرُوا ربهمْ ألا بُعداً لثمودَ) .

ثم ذكر أنه جاءت رسله إبراهيم بالبشرى ، وأنه قدم لهم بعد السلام عِجْلاً حنيذاً ليأكلوا منه فلم تمتد إليه أيديهم ، فلما رأى ذلكَ نكرَهُمْ وأوْجسَ منهمْ خيفةً ، فطمأنوه وأخبروه بأنهم أرْسِلُوا لهلاك قوم لوطٍ ، وكانت امرأته قائمة فضحكت فبشروها بولد يولد لها من إبراهيم وهو إسحاق ، وبولد يكون لإسحاق وهو يعقوب ، ثم ذكر أن إبراهيم طلب منهم أن يؤخروا عذاب قوم لوط لعلهم يؤمنون به ، وأنهم أمروه أن يعرِضَ عن هذا الطلب ، لأنه قد جاء أمر الله بهلاكهم ، ثم ذكر قصة قوم لوط وقد مضت فى سورة الأعراف ، والفرق بينها فى السورتين هو ما سبق فى قصة عاد وثمود ، وقد ذكر فى ختامها أنه أمر لوطا وأهله إلا امرأته أن يخرجوا من قريتهم ، ثم أمطر عليها حجارة من سجِّيلٍ منضود (مسوَّمةً عند ربِّكَ وما هِيَ مِنَ الظالمينَ ببعيدٍ)

ثم ذكر أنه أرسل إلى مَدْيَنَ أخاهم شعيباً فأمرهم أن يعبدوه وحده ، وقد مضت قصتهم فى سورة الأعراف ، والفرق بينها فى السورتين هو ما سبق فى قصة عاد وثمود وقوم لوط ، وقد ذكر فى ختامها أنه لما جاء أمره بهلاكهم نجَّى شعيبا ومن آمن به ، وأخذت الكافرين الصيحة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين (كأنلم يغنَوْا فيها ألا بعْداً لمدينَ كما بَعِدَتْ ثمودُ) ثم ذكر أنه أرسل موسى إلى فرعون وقومه

وقد مضت قصتهم فى سورة يونس، ولكنه لم يفصّلها هنا كما فصّلها هناك ، وإنما ذكر أنهم خالفوه واتبعوا أمر فرعون فأوردهم النار وبئس الوِرْدُ المورود (وأُتبِعُوا فى هذهِ لعنةً ويوم القيامةِ بئسَ الرِّفدُ المرفودُ) .

الخاتمة

الآيات (٩٩ — ١٢٣)

ثم قال تعالى (ذلكَ مِنْ أنباءِ القُرى نقصُّه عليكَ منها قائمٌ وحصيد) فذكر أن ما سبق من أنباء القرى يقصه عليه وبعضها لا تزال آثاره قائمة وبعضها ذهبت آثاره كلها ، وأنه لم يظلمهم بهذا ولكنهم ظلموا أنفسهم باتخاذهم آلهة غيره فلم تدفع عنهم شيئًا ، ثم ذكر أن فى هذا دليلا لمن خاف عذاب الآخرة ، وأنه يومٌ يُجْمَعُ له الناس وما يؤخره إلا لأجل معدود ، إلى غير هذا مما ذكره من أحوال الأشقياء والسعداء فيه .

ثم نهى النبي صلى الله عليه وسلم على سبيل التعريض أن يكون فى مِرْيَة مما يعبده قومه ، وذكر أنهم لا يعبدون إلا كما يعبد الذين قَصَّ أخبار هلاكهم ، وأنه سيوفّيهم نصيبهم من العذاب أيضاً ، ثم ذكر أنه قد أنزل على موسى التوراة من قبله فاختلفوا فيها كما اختلف قومه فيما أنزل اليه ، وأنه لولا أن كلمته سبقت بتأخير عذابهم لقضى به بينهم ، وأنه لا بُدَّ أن يُوَفِّيَ كلا من الفريقين جزاء أعمالهم (إنهُ بما يعملون خبيرٌ) ثم أمره أن يستمر على استقامته كما أُمِرَ هو ومن تاب معه ، ونهاهم أن يطغوا كما يطغى المشركون أو يركنوا إليهم لئلا تمسهم النار ولا يجدون من دونه أولياء ثم لا ينصرون ، وأمره أن يستمر على إقامة الصلاة فى أوقاتها وأن يصبر على تكذيب قومه له (فإن اللهَ لا يضيعُ أجرَ المحسنينَ)

ثم عاد إلى أولئك الذين قَصَّ أخبار هلاكهم فذكر أنه لم يكن فيهم أولُو بَقِيَّةٍ ينهون عن الفساد فى الأرض إلا قليلا ممن أنجاهم ، وأنهم اتبعوا ما أُتْرِفُوا فيه وكانوا مجرمين ، وأنه لم يكن ليهلك تلك القرى بظلم وأهلها مصلحون ، وأنه لو شاء

لجعلهم مصلحين جميعا ولا يزالون مختلفين إلا من رحمه ولذلك خلقهم (وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ)

ثم ذكر للنبي صلى الله عليه وسلم أنه يقص عليه ما قصّ من أنباء الرسل لِيُثَبِّتَ به فؤاده ، وأنه جاءه فى هذه السورة الْقَصَصُ الحق وموعظة وذِكْرَى للمؤمنين ، وأمره أن يخبر الذين لا يؤمنون بما جاء فيه من الوعيد بالعذاب أن يعملوا ما يقدرون لمنعه لأنه سيعمل لتحقيقه ، وأمرهم ينتظروه لأنه والمؤمنين ينتظرونه لهم (وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ)

سورة يوسف

تاريخ نزولها ووجه تسميتها :

نزلت سورة يُوسُف بعد سورة هودٍ ، وقد نزلت سورة هود بعد الإسراء وقُبَيل الهجرة ، فيكون نزول سورة يوسف فى ذلك التاريخ أيضاً .

وقد سُمِّيت هذه السورة بهذا الاسم لأنها نزلت فى قصة يوسف مع أبيه وإخوته ، وتبلغ آياتها إحدى عشرة ومائة آية .

الغرض منها وترتيبها :

يقصد من هذه السورة إثبات تنزيل القرآن ، كما يقصد من سورتى يونس وهود ، ولهذا ذكرت بعدهما ، وتختلف طريقة إثباته فيها عن طريقة إثباته فيهما ، لأن طريقة إثباته فيهما كانت بتحديهم أن يأتوا بسورة أو عشر سُوَرٍ مثله ، أما طريقة إثباته فى هذه السورة فبأنه يقص عليهم من تفصيل أخبار يوسف ما لا يمكن أمِّيًّا مثله أن يعرفه .

وقد جاءت هذه السورة فى هذا الغرض على ثلاثة أقسام : أولها فى مقدمة يقصد منها التمهيد لقصة يوسف ، وثانيها فى قصة يوسف ، وثالثها فى خاتمة تناسب ما سيقت له هذه القصة

المقـــدمة

الآيات (١ — ٣)

قال الله تعالى (الر ، تِلْكَ آياتُ الكتابِ المبينِ) فأقسم بهذه الحروف أن ما أنزله هو آيات الكتاب المبين ، وذكر أنه أنزله قرآنا عربياً ليعقلوه ويفهموه ، وأنه يقص عليه فيه أحسن القَصَص وقد كان من قبله لا يعلم شيئاً منه ، فلا يمكن إلا أن يكون منزلا من عنده .

قصـــة يوســـف

الآيات (٤ — ١٠١)

ثم قال تعالى (إذ قال يوسفُ لأبيهِ ياأبتِ إنِّي رأيتُ أحدَ عشرَ كوكباً والشمسَ والقمرَ رأيتهم لي ساجدينَ) كان ليعقوب اثنا عشر ولدا : ستة من ليا بنت ليان ، وأربعة من سريتين له ، واثنان من راحيل بنت ليان ، وكان قد تزوجها بعد وفاة أختها ، فولدت له بنيامين ويوسف ، فذكر أن يوسف رأى وهو ابن اثنتى عشرة سنة أحد عشر كوكبا والشمس والقمر يسجدون له ، فقصَّ ما رآه على أبيه فنهاه أن يقصه على إخوته لئلا يحملهم الشيطان على الكيد له ، وكان يحبه هو وأخوه بنيامين أكثر منهم ، ثم أوَّله له بان ربه يجتبيه ويعلمه من تأويل الأحاديث ويتم نعمته عليه وعلى آل يعقوب كما أتمها على أبويه إبراهيم وإسحاق ، ثم ذكر أن فى قصة يوسف آيات وعبرا للسائلين ، وأخذ بعد هذا فى تفصيلها ، فذكر أن إخوة يوسف ذكروا فيما بينهم أن يوسف وأخاه أحب إلى أبيهم منهم ، وحكموا بتخطئته فى إيثارهما بزيادة حبه عليهم ، وتآمروا على قتله أو إبعاده فى أرض عن أبيه ، فأشار بعضهم بإلقائه فى جُبّ ليلتقطه بعض السَّيَّارة الذين يمرون به ، فاتفقوا على هذا الرأى ، ثم احتالوا على أبيهم حتى يرسله ليرتع ويلعب معهم ، فذكر أنه يخاف أن يأكله الذئب وهم عنه غافلون ، فتعهدوا له ألا يغفلوا عنه ، فلما ذهبوا به ألقوه فى ذلك الجب ، واتفقوا على أن يرجعوا إلى أبيهم فيخبروه بأن الذئب أكله وهم فى غفلة عنه ، وأوحى الله إليه ليُنبئَنَّهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون .

ثم ذكر أنهم رجعوا إلى أبيهم يبكون ، وأخبروه بأنهم ذهبوا يستبقون وتركوا يوسف عند متاعهم فأكله الذئب ، وأتوه بقميصه وعليه دم لطخوه به ، فنظر إلى القميص فوجده لا تمزيق فيه ، فعرف كذبهم وأخبرهم بأن أنفسهم سوّلتْ لهم فيه أمرا ، وصبر على فقد يوسف صبراً جميلا ، واستعان الله على ما يصفون من الكذب ، ليظهر أمره له ، ويعلم ما فعلوه به .

ثم ذكر أن سيارة كانت ذاهبة من مدْيَنَ إلى مصر أرسلوا واردهم ليطلب لهم الماء ، فسار حتى وصل إلى ذلك الجب فأدلى دلوه فتعلق يوسف به ، فلما رآه فرح به لجماله وحسنه ، واتفق هو ومن معه على أن يخفوا أمره عن سيارتهم ، ويخبروهم بأن أهل الماء جعلوه بضاعة عندهم على أن يبيعوه لهم بمصر ، ثم ذكر أنهم باعوه بثمن بخس لأنهم لم يغرموا فيه شيئاً ، وكان الذى اشتراه عزيز مصرفأمر امرأته أن تكرم مَثواهُ ، عسى أن ينفعهم أو يتخذوه ولدا ، ثم ذكر أنه لما بلغ أشده آتاه حكمة وعلماً وجزاه بذلك على إحسانه وطاعته ، وأن امرأة العزيز راودته عن نفسه فاستعاذ بالله مما تطلبه منه ، وخرج هاربا إلى الباب فخرجت وراءه لتتبعه ، وتعلقت بقميصه فقَدَّته من دبرٍ ، فلما وصلا إلى الباب وجدا بعلها عنده ، فرمته بأنه كان يريد بها سوءاً ، وذكر له أنها راودته عن نفسه فأبى ، وجاء شاهد من أهلها فذكر أن قميصه إن كان قدَّ من قبل تكون هى الصادقة ، وإن كان قد من دبر يكون هو الصادق ، فلما رآه قدمن دبر علم أن اتهامها له من الكيد الذى عرفن به ، وأمره أن يعرض عن هذا لئلا يظهر للناس ، وأمرها أن تستغفر من ذنبها ولا تعود إليه

ثم ذكر أن نسوة فى المدينة عرفن ذلك فلمنها عليه ، فلما سمعت بما حصل منهن دعتهنَّ إليها ، وأحضرت لهن طعاماً وآتت كل واحدة منهن سكيناً لقطع الطعام ، وأمرت يوسف أن يخرج عليهن ، فلما رأينه أكبرْنَه ودُهِشْنَ فوقعت سكين كل واحدة على يدها فجرحتها ، ثم أخبرتهن بأنه هو الذى لمنها فيه ، وأنه إن لم يفعل ما تأمره به فلا بدَّ أن تسعى فى سجنه ، فآثر السجن على ما دعته إليه ولم يجبها إلى

ما أرادته ، فذهبت إلى بعلها فشكته أنه فضحها فى الناس، وأنه يخبرهم بأنها راودته عن نفسه ، فرأى أن يحبسه حتى يسقط عن ألسنة الناس ذكر ذلك الحديث .

ثم ذكر أنه دخل معه السجن فتيان: أحدهما صاحب طعام الملك ، وثانيهما كان صاحب شرابه ، فقص عليه صاحب الشراب أنه رأى أنه يَعصر خمراً ، وقص عليه صاحب الطعام أنه رأى أنه يحمل فوق رأسه خبزاً تأكل الطير منه ، وطلبا منه أن يُؤَوِّلَ لهما رؤياهما ، فأخبرهما بأنه سيؤول لهما ذلك قبل أن يأتيهما طعامهما ، وأن علمه بتأويل الرؤيا مما عَلَّمه ُربه ، لأنه ترك ملة من لا يؤمنون به ولا باليوم الآخر ، واتبع ملة آبائه إبراهيم وإسحاق ويعقوب ، ثم بينَ لهما بطلان ما يعبدانه من دون الله ، وأوَّلَ لصاحب الشراب رؤياه بأنه سيعود إلى عمله عند الملك ، وأول لصاحب الطعام رؤياه بأنه سيُصلبُ فتأكل الطير من رأسه ، وطلب من صاحب الشراب أن يذكره عند الملك إذا عاد إلى عمله ، فلما عاد إلى عمله نسى أن يذكره عند الملك فلبث فى السجن بِضْعَ سنين .

ثم ذكر أن الملك رأى سبع بقرات سِمَانٍ يأكلهن سبعٌ عجاف ، وسبعَ سنبلات خُضْر وأخر يابسات ، وطلب من قومه أن يؤوّلوا له هذه الرؤيا ، فعجزوا عن تأويلها له ، فطلب منهم صاحب الشراب أن يرسلوه إلى يوسف ليؤوّلها ، فلما قَصّها عليه أخبره بأنهم يزرعون سبع سنين متوالية ، وأوصاهم أن يتركوا ما يحصدونه فى سنبله لئلا يأكله السوس ، ولا يأكلوا إلا قليلا منه ، ثم أخبره بأنه سيأتى بعد ذلك سبع سنين مجدبات يأكلون فيها ما ادّخرُوهُ لها ، ثم يعودون إلى الخصب كما كانوا قبل الجدب . فلما عاد صاحب الشراب إلى الملك وأخبره بهذا التأويل طلب أن يأتوه بيوسف من السجن ، فلما جاءه الرسول أمره أن يرجع إلى الملك فيسأله عن حال النسوة اللاتى قَطَّعنَ أيديهن ، لينكشف أمرهن وتُعلْم براءته مما اتهمنهُ به ، فسألهن الملك عن خطبهن إذ راودن يوسف عن نفسه ، فأجبن بأنهن لم يعلمن عليه من سوء ، واعترفت امرأة العزيز بأنها هى التى راودته عن نفسه

ثم ذكر أن الملك أمر أن يأتوه به ليستخلصه لنفسه ، فلما أتاه وكلمه أخبره بأنه

قد صار عنده مكيناً أمينا ، فطلب منه يوسف أن يجعله أميراً على خزائن أرض مصر ليدبر أمورها فى سنى الجدب ، فأجابه الملك إلى ما طلب من ذلك ، ثم ذكر أن إخوة يوسف جاءوا إليه يبتاعون ميرة لأهلهم فعرفهم ولم يعرفوه ، ولما جهزهم بجهازهم سألهم أن يأتوه بأخ لهم من أبيهم ، وأخبرهم بأنهم إن لم يأتوه به لم يعطهم شيئاً ، فأخبروه بأنهم سيراودون عنه أباه لعله يرسله معهم ، ثم أمر يوسف فتيانه أن يجعلوا بضاعتهم التى ابتاعوا الميرة بها فى رحالهم ، ليعرفوها إذا انقلبوا إلى أهلهم فيرجعوا إليه ثانياً ، فلما رجعوا إلى أبيهم أخبروه بأنهم لا يعطَوْنَ شيئاً إذا لم يرسل معهم أخاهم بنيامين ، وطلبوا منه أن يرسله معهم وتعهدوا له بحفظه ، فأجابهم بأنهم قد تعهدوا قبل ذلك بحفظ يوسف ولم يحفظوه ، وذكر لهم أن الله خير حافظا وهو أرحم الراحمين ، ولما فتحوا متاعهم وجدوا بضاعتهم ردّتْ إليهم ، فأخبروا أباهم بذلك وأنهم إذا ذهبوا ثانياً يميرون أهلهم ويحفظون أخاهم ويزدادون كيلَ بعير له ، فطلب منهم أن يؤتوه موثقاً من الله ليأتُنَّهُ به ، فلما آتوه موثقهم أرسله معهم وأشهد الله عليهم ، ثم ذكر أنهم لما دخلوا على يوسف آوى إليه أخاه بنيامين وعرفه بأنه أخوه ، ونهاه أن يبتئس بما كانوا يفعلون ، فلما جهزهم بجهازهم جعل صُواع الملك فى رحل بنيامين ، ثم أمهلهم حتى انطلقوا فأرسل وراءهم رسولا اتهمهم بأنهم سرقوا صواع الملك ، فرجعوا إلى يوسف وأصحابه وأقسموا بالله أنهم ماجاءوا ليفسدوا فى الأرض وما كانوا سارقين ، فسألوهم عن جزائه إن ظهر أنه منهم ، فأجابوهم بأن جزاءه استرقاق من وُجِدَ فى رحله ، وكان هذا هو حكم السارق فى شريعة ملك مصر ، وقد احتال يوسف بذلك ليأخذ أخاه منهم ، ففتش أوعيتهم حتى وجد الصواع فى وعاءِ أخيه ، فحكم باسترقاقه وأخذه منهم .

ثم ذكر أنهم أخبروا يوسف بأن لأخيهم أبا شيخاً كبيرا ، وسألوه أن يأخذ أحدهم مكانه ، فأبى أن يأخذ إلا من وجد الصواع عنده ، فلما يئسوا منه تناجوا فى أمرهم وما يقولونه لأبيهم ، فذكر كبيرهم أنه لن يبرح أرض مصر حتى يأذن له أبوه أو يُمكنهُ الله من خلاص أخيه ، وأمرهم أن يرجعوا إلى أبيهم ويخبروه بما فعله

بنيامين ، فلما رجعوا إليه وأخبروه بذلك لم يصدقهم ، واتهمهم بأنه دبروا له أمراً كما دبروا لأخيه من قبل ، وصبر على فقده أيضاً صبراً جميلا . ورجا من الله أن يأتيه بأبنائه الثلاثة جميعاً ، ثم أعرض عنهم وأظهر أسفه على يوسف وصار يبكي عليه حتى ذهب بصره ، فأشفق عليه أبناؤه وأخبروه بأنه لا يفتأ يذكر يوسف حتى يمرض أو يهلك ، فأجابهم بأنه إنما يشكو أمره إلى الله ويعلم منه مالا يعلمون ، ثم أمرهم أن يذهبوا إلى مصر فيفتشوا عن يوسف وأخيه ولا ييأسوا من رحمة الله ، فأطاعوه وذهبوا إلى مصر يمتارون ويفتشون عن إخوتهم ، فلما دخلوا على يوسف شكوا إليه ما مسهم وأهلهم من الضر ، وأنهم جاءوا ببضاعة رديئة يرجون أن يقبلها منهم ، وأن يعطيهم بدلها كيلا وافياً ويتصدق بذلك عليهم ، فلما شكوا إليه ذلك رقّ لهم ودمعت عيناه ، وسألهم عما فعلوه بيوسف وأخيه وهم في جهل الشباب ، فقالوا له : أئنك لأنت يوسف ؟ قال (أنا يوسف وهذا أخي قَدْ مَنَّ الله علينا إنه مَن يتَّق ويصبرْ فإنَّ الله لا يضيعُ أجرَ المحسنين) .

ثم ذكر أنهم لما عرفوه اعترفوا له بالمزية والفضل ، وأقرّوا بأنهم أخطؤا معه ، فعفا عنهم ورجا من الله أن يغفر لهم ، وأمرهم أن يذهبوا بقميصه فيلقوه على وجه أبيه ليأتي إليه بصيرا ويأتوا بأهلهم أجمعين ، ثم ذكر أنهم رجعوا إلى أبيهم وألقوا عليه القميص فارتد إليه بصره ، وأنهم أتوا بأهلهم فلما دخلوا على يوسف ضمّ إليه أبويه ورفعهما إلى سريره الذي يجلس عليه ، وأنهم خرّوا له سجّداً سجود تكريم ، وأن يوسف أخبر أباه بأن هذا هو تأويل رؤياه من قبل قد جعلها ربه حقا ، وقد أحسن به إذ أخرجه من السجن وجاء بهم إليه من بعد أن نزغ الشيطان بينه وبين إخوته ، إنه لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم (رَبِّ قد آتيتني مِنَ المُلْكِ وعَلَّمتني مِن تأويلِ الأحاديثِ فاطِرَ السماواتِ والأرضِ أنتَ وليِّ في الدنيا والآخرةِ توفّني مسلماً وألحقني بالصالحينَ) .

الخـــاتمة

الآيات (١٠٢ — ١١١)

ثم قال تعالى (ذلكَ مِنْ أنباءِ الغيبِ نوحيهِ إليكَ وما كنتَ لديهِمْ إذْ أجمعوا أمرهم وهم يمكرونَ) فذكر أن قصة يوسف من غيب الماضي الذي يوحيه إليه وما كان يعلمه ، وأن أكثر الناس لا يؤمنون بالقرآن ولو حرص على إيمانهم لتعنُّتِهم ، وأنه لا يسألهم عليه أجرا حتى يعرضوا عنه ، وإنما هو تذكير للناس وعظة لهم ، ثم ذكر أن هذا الإعراض شأنهم في آياته في السماوات والأرض ، وأن أكثرهم لا يؤمن به إلا وهم مشركون ، ثم أنكر عليهم أنهم لا يحذرون أن يؤاخذهم على تعنتهم بغاشية من عذابه أو تأتيهم الساعة بغتة وهم لا يشعرون .

ثم أمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يذكر لهم أن هذه سبيله يدعو إليه على بصيرة هو ومن اتبعه ، ولا يأتيهم بما يقترحونه من الآيات على سبيل التعنت ، ثم ذكر أنه لم يرسل من قبله إلا رجالا مثله من أهل القرى ، فلم يرسل ملائكة كما يقترحون ، وأمرهم أن يسيروا في الأرض لينظروا كيف كانت عاقبة المكذبين قبلهم ، وذكر أن دار الآخرة خير للمتقين من دنياهم التي أعمتهم ، ثم ذكر أنه لم يهلك المكذبين قبلهم إلا بعد أن استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كُذِبُوا فيما وُعِدوا به من هلاكهم ، وأن نصره جاءهم بعد هذا فنجى من يشاء من المؤمنين ، ولم يَرُدَّ أحد عذابه عن القوم المجرمين (لقدْ كانَ في قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأولي الألبابِ ما كانَ حديثًا يُفترَى ولكِنْ تصديقَ الذي بينَ يديهِ وتفصيلَ كُلِّ شيءٍ وهدًى ورحمةً لقوم يؤمنون) .

سورة الرعد

تاريخ نزولها ووجه تسميتها :

نزلت سورة الرعد بعد سورة محمد ، وقد نزلت سورة محمد بعد سورتين من سور النساء ، وكان نزول سورة النساء فيما بين صلح الحُدَيبِيَة وغزوة تَبوكَ ،

فيكون نزول سورة الرعد فى ذلك التاريخ أيضاً ، وعلى هذا تكون سورة الرعد من السُّوَر التى نزلت بالمدينة ، وقيل إنها نزلت بمكة ، لأنها تجرى فى أغراض السُّوَر التى نزلت بها ، وقال الأصم : إنها مدنية بالإجماع . وكأنه لم يقم وزنا لهذا القول ، ولا شىء فى أن تجرى بعض السور المدنية فى أغراض السور المكية ، لأن المشركين الذين نزلت فيهم السور المكية لم ينقطع أمرهم بعد الهجرة ، وكان كثير منهم يحيط بالمدينة ، وكانت دعوتهم لاتزال قائمة ، ومما يؤيد أن هذه السورة مدنية قوله تعالى فى الآية — ٣١ — منها (ولا يزالُ الَّذينَ كفرُوا تصيبهم بما صنعُوا قارعةٌ أو تحلُّ قريباً مِن دارهم حتى يأتىَ وعدُ الله إنَّ الله لا يخلفُ الميعادَ)

وقد سُمِّيت هذه السورة بهذا الاسم لقوله تعالى فى الآية — ١٣ — منها (ويسبحُ الرعدُ بحمده) وتبلغ آياتها ثلاثا وأربعين آية .

الغرض منها وترتيبها :

يقصد من هذه السورة إثبات تنزيل القرآن ، كما يقصد من السور الثلاث المذكورة قبلها ، ولهذا ذكرت هذه السورة بعدها ، وقد ابتدئت بمقدمة ذكر فيها أن الذى أنزل إليه من ربه هو الحق ، وأن الذى يمنعهم من تصديقه أنه يدعو إلى التوحيد وهم لا يؤمنون به ، وقد استطرد فيها إلى إثبات هذا التوحيد ، ثم عاد إلى المقصود من الكلام على تنزيل القرآن ، فذكر شبهتين لهما عليه وأخذ فى إبطالهما ، وبهذا ينحصر المقصود من هذه السورة فى هذه الأمور الثلاثة .

المقـــدمة

الآيات (١ — ٦)

قال الله تعالى (المر ، تِلكَ آياتُ الكتابِ والَّذى أنزلَ إليكَ مِن ربِّكَ الحقُّ ولكِنَّ أكثرَ الناسِ لايؤمنونَ) فأقسم بهذه الحروف أن ما أنزله هو آيات الكتاب وأن ما أنزلَ إليه منه هو الحق ، ولكن الذى يمنعهم من تصديقه أنه يدعو إلى التوحيد وهم لا يؤمنون به ، ثم استطرد من هذا إلى اثبات توحيده ،

فذكر أنه هو الذى رفع السماوات بغير عَمَدٍ ، وسَخَّر الشمس والقمر يجريان لأجل مُسَمًى ، ودَبَّر أمر خلقه وفَصَّل آياته لهم لعلهم بلقائه يؤمنون ، ثم ذكر غير هذا من الآيات الدالة على توحيده وأنه لا بد لهم من لقائه ، وعَجَّبَ من إنكارهم بعد هذا أن يخلقوا من جديد بعد أن يصيروا ترابا ، وهددهم عليه بأنهم ستوضع الأغلال فى أعناقهم ، وأنهم أصحاب النار هم فيها خالدون ، ثم ذكر أنهم يستعجلونه بهذا فقال (ويستعجلونكَ بالسيئةِ قبلَ الحسنةِ وقَدْ خلتْ مِنْ قبلِهمُ المَثُلاتُ وإنَّ ربكَ لَذو مغفرةٍ للناسِ على ظلمِهمْ وإنَّ ربكَ لشديد العقاب)

رد شبهتهم الأولى على القرآن

الآيات (٧ — ٢٦)

ثم قال تعالى (ويقولُ الَّذينَ كفرُوا لَوْلا أُنْزِلَ عليهِ آيةٌ مِنْ ربهِ إنما أنت منذرٌ ولكلِّ قومٍ هادٍ) فذكر شبهتهم الأولى على القرآن ، وهى إنكارهم له وطلب آية غيره ، وقد رد عليهم بأن النبى صلى الله عليه وسلم إنما هو منذر ، فليس بيده إجابتهم الى تلك الآيات ، وبأن كل قوم لهم هادٍ يبعث بالآية التى تناسبهم فى علمه بأحوالهم ، ثم ذكر من علمه بأحوالهم أنه يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد ، إلى غير هذا مما ذكره فى إثبات علمه ليرضوا بما اختاره لهم من آياته ، ثم انتقل من إثبات علمه إلى إثبات قدرته على ما يقترحونه من تلك الآيات ، فذكر أنه هو الذى يريهم البرق خوفا وطمعا وينشىء السحاب الثقال ، وأنه يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء ، ثم ذكر أنهم يجادلون فى وحدانيته وهو شديد المِحال ، وهو الذى إذا دُعِىَ أجاب (له دعوةُ الحقِّ) وشركاؤهم لا يستجيبون لهم بشىء إلا كباسط كَفَّيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه ، لأنه لا يمكنه أن يستجيب له ، ثم ذكر أن له يسجد من فى السماوات والأرض طوعا وكرها ، وأمر النبى صلى الله عليه وسلم أن يسألهم (مَنْ ربُّ السماوات والأرضِ) وأن يجيب عن سؤاله بأنه الله لأنه لا رب لها غيره .

وأن ينكر منهم مع هذا أن يتخذوا من دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضرا ، وأن يذكر لهم أنه لا يستوى الأعمى والبصير ولا الظلمات والنور ، ثم أضرب عن هذا بسؤال آخر (أمْ جعلُوا لِلهِ شركاءَ خلقُوا كخلقهِ فتشابه الخلقُ عليهم) وأمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يجيب عنه بأنه خالق كل شيء وهو الواحد القهار ، ثم ضرب مثلا لحقه وباطلهم بعد تلك الأمثال ، شبَّه فيه حالها بحال ماء أنزله من السماء فسالت به أودية بقَدرِها فاحتمل السيل زَبَداً رابياً ، وبحال ذهب أوقدَ عليه فى النار ابتغاء حلية أو متاع فاحتمل زبدا أيضاً ، فما يبقى تحت الزبد من الماء والذهب الخالص مثل للحق ، والزبد مثل للباطل ، فأما الزبد فيذهب ويفنى وكذلك الباطل ، وأما الماء والذهب الخالص فيبقى كل منهما لينتفع الناس به وكذلك الحق

ثم وعد أهل الحق الذين استجابوا له بأن لهم الحسنى ، وأوعد أهل الباطل الذين لم يستجيبوا له بأن لهم سوء الحساب ، ومأواهم جهنم وبئس المهاد ، ثم ذكر أنه لا يمكن أن يسوى بين الفريقين فى ذلك ، وأنه لا يذكر بهذا إلا أولو الألباب ، وهم الذين يوفون بعهده ولا ينقضون ميثاقهم ، ويصلون ما أمر به أن يوصل ويخشونه ويخافون سوء حسابهم ، ويصبرون ابتغاء وجهه ويقيمون الصلاة وينفقون مما رزقهم سراً وعلانية ويدرؤون بالحسنة السيئة ، ثم وعدهم بأن لهم عُقْبى الدار ، جنات عدْن يدخلونها الخ الخ ، وأوعد الذين ينقضون عهده من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر به أن يوصل ويفسدون فى الأرض بأن لهم اللعنة ولهم سوء الدار (الله يبسطُ الرزقَ لمنْ يشاءُ ويَقْدِرُ وفرِحُوا بالحياةِ الدُّنيا وما الحياةُ الدُّنيا فى الآخرةِ إلا متاعٌ) .

رد شبهتهم الثانية على القرآن

الآيات (٢٧ — ٤٣)

ثم قال تعالى (ويقولُ الذين كفرُوا لوْلا أُنزِلَ عليهِ آيةٌ مِنْ ربهِ قلْ إنَّ الله يضلُّ منْ يشاءُ ويهدى إليهِ مَن أناب) .

فذكر شبهتهم الثانية على القرآن ، وهى شبهتهم الأولى بعينها ، وقد أجابهم أولا بأنه يضل من يشاء فلا يؤمن ولو أجيب إلى ما يقترحه من الآيات ، ويهدى إليه من أناب فيؤمن بغير اقتراح آيات ، ثم وصف من أناب بأنهم الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكره ، إلى غير هذا مما وصفهم به .

ثم أجابهم ثانياً بأنه أرسل النبى صلى الله عليه وسلم فى أمة هى آخر الأمم ، وخصه بمعجزة القرآن ليتلوها عليهم ، فيبقى إعجازها قائماً بينهم رحمة بهم ، وهم مع هذا يكفرون به ولا يقدّرون رحمته ، ثم أمره أن يؤمن به ويتوكل عليه ويتوب إليه ولا يلتفت إليهم .

ثم أجابهم ثالثاً بأنه لو كان هناك قرآن سُيِّرت به الجبال أو قطّعت به الأرض أو كلم به الموتى لكان هذا القرآن الذى لا يؤمنون به ، وذكر أن الأمر له فى إنزال ما ينزله من الآيات ، وأنه لو شاء لهدى الناس جميعا من غير معجزة من المعجزات ، وذكر أنهم لا يزالون تصيبهم بتعنتهم فى طلب الآيات قارعة من سبى أو قتل أو تحل قريباً من دارهم ، حتى يأتى وعده بنصر المؤمنين عليهم ، ثم ذكر أنه قد استهزأت قبلهم أمم باقتراح الآيات على رسلهم ، فأملى لهم ثم أخذهم بما أخذهم به من العقاب ، وانتقل من هذا إلى إثبات قدرته عليهم وعجز آلهتهم عن دفع شىء عنهم ، فذكر أنه لا يكون من هو قائم على كل نفس بما كسبت كمن لا يقوم على شىء ، وأمرهم أمر تعجيز أن يسموا هؤلاء الشركاء الذين جعلوهم له ، وذكر أنهم يدعون له شركاء لا يعلمها لعدم وجودها ، وإنما يأخذون فى هذا بظاهر من القول ، وليس عندهم شىء من العلم ، وقد زُيِّنَ لهم ما هم فيه وصدوا عن السبيل فلا يمكن اهتداؤهم ، ثم أوعدهم بأن لهم عذابا فى الحياة الدنيا وعذاباً أشق منه فى الآخرة ، ووعد المتقين بأن لهم جنة تجرى من تحتها الأنهار أكلها دائم وظلّها .

ثم أجابهم رابعاً بأن أهل الكتاب يفرحون بهذا القرآن الذى لا يؤمنون به ، وإن كان من أحزابهم من ينكر بعضه لمخالفته لما عندهم ، وأمر النبى صلى الله عليه وسلم أن يعبده ولا يشرك به ، وأن يدعو إليه وحده ، ثم ذكر أنه أنزل القرآن

حكمة عربية لا يصح طلب آية بعدها ، وحذَّر النبي صلى الله عليه وسلم من أن يتبع أهواءهم فيما يطلبونه من الآيات ، بعد أن جاء من العلم مالا يصح معه اتباع أهوائهم

ثم أجابهم خامساً بأنه أرسل رسلا من قبله ، وكانوا بشرا مثله لهم أزواج وذرِّية ، فلا يمكنهم أن يأتوا بآية إلا بإذنه ، ولكل أجل قدَّره لآياته كتاب لا تمكن مخالفته ، وكل ما يحصل من محو أو إثبات يأتى على وفق ما فيه ، ثم ذكر للنبي صلى الله عليه وسلم أنه قد يريه بعض ما يعدهم من العذاب وقد يتوفاه قبله ، فليس هذا من شأنه ، وإنما عليه أن يبلغهم وعليه هو حسابهم ، ثم نبههم إلى أن ما يعدهم به قد حصل بعضه ، فذكر ما حصل من انتقاص المسلمين أطراف أرضهم ، وأنه قد حكم بنصر المؤمنين عليهم ، وهو حكم لا مُعقِّب له ولا تأخير فيه ، ثم ذكر أنه قد مكر من كان قبلهم فلم يفدهم مكرهم ، لأن له المكر جميعاً ، يعلم ما تكسب كل نفس وسيعلم الكفار لمن عقبى الدار (ويقولُ الذينَ كفروا لستَ مرسلاً قُل كفى باللهِ شهيداً بيني وبينكمْ ومنْ عندهُ علمُ الكتابِ) .

سورة ابراهيم

تاريخ نزولها ووجه تسميتها :

نزلت سورة إبراهيم بعد سورة نوح ، وهي من السور التى نزلت بمكة بعد الإسراء ، فيكون نزولها مثلها بعد الإسراء وقبيل الهجرة ، وعلى هذا تكون من السور المكية ، وقيل إنها من السور المدنية ، وقد قال الإمام فخر الدين الرازى : إعلم أن الكلام فى أن هذه السورة مكية أو مدنية طريقه الآحاد ، ومتى لم يكن فى السورة ما يتصل بالأحكام الشرعية فنزولها بمكة والمدينة سواء ، إنما يختلف الغرض فى ذلك إذا حصل فيه ناسخ ومنسوخ ، فيكون فيه فائدة عظيمة .

وقد سميت هذه السورة بهذا الاسم لذكر قصة إبراهيم بمكة فيها ، وتبلغ آياتها اثنتين وخمسين آية .

الغرض منها وترتيبها :

يقصد من هذه السورة بيان الغرض من نزول القرآن ، وهو هداية الناس بالترغيب فى الثواب والترهيب من العقاب ، وقد افتتحت هذه السورة ببيان هذا الغرض ، ثم انتقل من هذا إلى بيان موافقة القرآن للكتب المنزلة قبله فى هذا الغرض ، ثم انتقل من هذا إلى تحذير مشركى مكة من تكذيبه بما حصل للمكذبين قبلهم ، وبهذا ينقسم سياق هذه السورة إلى هذه الأقسام الثلاثة

وقد ذكرت بعد سورة الرعد لأنها تشبهها فى غرضها ، وفى افتتاحها بالحروف التى افتتحت بها .

نزول القرآن للترغيب فى الإيمان والتحذير من الكفر

الآيات (١ — ٣)

قال الله تعالى (الر ، كتابٌ أنزلناهُ إليك لتخرجَ الناسَ مِنَ الظلماتِ إلى النور بإذنِ ربهم إلى صراطِ العزيزِ الحميدِ) فأقسم بهذه الحروف على أنه كتاب أنزله إليه ليخرج الناس من الظلمات إلى النور ، وهذا هو طريق الترغيب ، ثم حذر الذين يكفرون به من عذاب شديد ، وهذا هو طريق الترهيب ، ثم ذكر أن الذين يكفرون بهم (الذينَ يستحبُّونَ الحياةَ الدنيا على الآخرةِ ويصدُّونَ عن سبيل اللهِ ويبغونَها عوجاً أولئكَ فى ضلالٍ بعيدٍ) .

اتحاد الغرض من الكتب المنزلة

الآيات (٤ — ١٨)

ثم قال تعالى (وما أرسلنا مِنْ رسولٍ إلاَّ بلسان قومه ليبينَ لهمْ فيضلُّ اللهُ منْ يشاء ويهدى من يشاء وهُوَ العزيزُ الحكيمُ) فذكر أنّ إنزال القرآن لأجل هداية الناس هو شأن الكتب المنزلة قبله ، وفصّل هذا الإجمال بما كان من إرسال موسى إلى بنى إسرائيل لإخراجهم من الظلمات إلى النور ، وذكَّرهم بأيام العذاب

التي مرت على الأمم قبلهم ، وبنعمة الله عليهم إذا أنجاهم من آل فرعون ، وأخبرهم بأنهم إن شكروا الله يزيدهم من نعمته ، وإن كفروا به عاقبهم بشديد عذابه ، وبأنهم إن يكفروا هم ومن في الأرض جميعاً (فإنّ اللهَ لغنيٌّ حميدٌ) .

ثم ذكر أن هذا كان أيضا شأن قوم نوح وعاد وثمود ومن بعدهم ، وأن رسلهم جاءتهم بالبينات فكفروا بهم ، وشكوا فيما يدعونهم إليه من الإيمان بالله وحده ، وأن رسلهم ردوا عليهم بأنه لا يصح الشك في الله وهو فاطر السماوات والأرض ، إلى غير ذلك من الجدال الذي دار بينهم ، ثم ذكر أنهم لجئوا بعد هذا الجدال إلى تهديد رسلهم بأن يخرجوهم من أرضهم أو يعودوا في ملتهم ، وأنه أوحى إلى رسلهم أنه سيهلكهم ويسكنهم الأرض من بعدهم ، ثم ذكر ما عاقبهم به في الدنيا والآخرة ، وضرب مثلا لحبوط أعمالهم في الآخرة فقال (مَثلُ الذينَ كفرُوا بربهم أعمالُهُم كرماءٍ اشتدّت بهِ الريحُ في يومٍ عاصفٍ لا يقدرونَ مِمّا كسبُوا على شيءٍ ذلكَ هُوَ الضلالُ البعيدُ) .

ترهيب المشركين وترغيبهم

الآيات (١٩ — ٥٢)

ثم قال تعالى (ألم ترَ أنَّ اللهَ خلقَ السماواتِ والأرض بالحق إنْ يشأ يذهبكمْ ويأت بخلقٍ جديدٍ) فذكر في ترهيبهم أنه خلق السماوات والأرض بالحق ، فهو قادر على أن يهلكهم كما أهلك أولئك الأقوام ويأت بخلق غيرهم يؤمنون به ، ثم ذكر ما يكون من إعادتهم بعد هلاكهم وبروزهم له، وما يكون من سؤال الضعفاء للمستكبرين أن يُغنُوا عنهم شيئا من عذابه ، وما يجيب المستكبرون من أنه لا مفرّ منه جزعوا أو صبروا ، وما يكون من تبرّؤ الشيطان منهم وإيقاعه اللوم عليهم لسماعهم لإغرائه وإعراضهم عن نصح الله لهم ، ثم ذكر ما أعده للمؤمنين من جنات تجري من تحتها الأنهار على سُنّته في ذكر وعده بعد وعيده .

ثم ضرب في ترغيبهم وترهيبهم مثلا لحال المؤمنين وحالهم ، فشبّه الإيمان به بشجرة طيّبةٍ أصلها ثابت وفرعها في السماء ، وثمرها دائم لا ينقطع ، وشبّه

الكفر به بشجرة خبيثة ليس لها أصل ولا عِرقٌ ولا ثمر ، ورتّبَ على ذلك أن صاحب الحال الثابت يُثَبِّتُهُ الله فى الدنيا وفى الآخرى ، وصاحب الحال الذى لاثبات له يُضِلُّهُ الله فلا يهتدى .

ثم ذكر تبديلهم نعمته عليهم بسكنى حَرَمِهِ كفرا به ، وجعلهم له أندادًا ليُضِلُّوا عن سبيله ، وأمرهم أمر تهديد أن يتمتعوا بنعيم الدنيا فإن مصيرهم إلى النار ، وأمر المؤمنين أن يخالفوهم فى ذلك فيقيموا الصلاة وينفقوا مما رزقهم من قبل أن يأتيهم يوم لا ينفعهم فيه إلا ما قدمت أيديهم ، ثم ذكر من نعمه العامة عليهم وعلى غيرهم بعد تلك النعمة الخاصة أنه خلق السماوات والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لهم ، إلى غير هذا من نعمه التى لا تحصى ولا تعد ، ولا يصح أن يقابلوها باتخاذ أندادٍ له .

ثم عاد إلى تلك النعمة الخاصة فشرحها وبَيّنَ كيف بدّلُوا فيها ، فذكر أن إبراهيم دعا ربه أن يجعل مكة بلدا آمنا وأن يُجَنِّبَهُ وبنيهِ عبادة الأصنام ، وأنه شكا لربه أنه أسكن ذريته من ابنه إسماعيل بواد غير ذى زرع عند بيته المُحَرَّمِ ليعبدوه فيه ، وأنه سأله أن يجعل أفئدة من الناس تَهْوِى اليهم بالحَجِّ وغيره ، إلى غير هذا مما حكاه عنه .

ثم عاد إلى ترهيبهم فذكر أنه ليس بغافل عما يفعلون ، وأنه يُؤَخِّرُ عذابهم ليوم تشخص فيه أبصارهم من شدته ، وأنه إذا أتاهم يسألونه أن يؤخرهم إلى أجل قريب ليجيبوا دعوته ويتبعوا رسله ، وأنه يجيبهم بتذكيرهم بأنهم كانوا يُقْسِمُون من قبل ما لهم من زوال إلى حياة أخرى ، وبأنهم سكنوا فى مساكن الذين كذّبوا قبلهم وتَبَيّنَ لهم ما فعل بهم فلم يعتبروا بما حصل لهم . ثم ذكر أنهم قد مكروا مكْرَ أولئك الذين سكنوا فى مساكنهم ، وأنه ليس بغافل عن مكرهم ، ونهى النبى صلى الله عليه وسلم أن يظن أنه مُخْلِفُ وعده بعذابهم ، ثم ذكر أنه سيكون فى يوم تُبدّلُ فيه الأرض غير الأرض ، ويبرزون إليه مُقَرّنينَ فى الأصفاد ، سرابيلهم من قطرانٍ وتغشى وجوههم النار ، وأنه يعيدهم فى ذلك اليوم ليجزى

كل نفس ما كسبت إنه سريع الحساب (هذا بلاغٌ للناسِ ولِيُنذَرُوا به وليعلمُوا أنما هُو إلهٌ واحدٌ ولِيذكَّر أُولُوا الألبابِ).

سورة الحجر

تاريخ نزولها ووجه تسميتها :

نزلت سورة الحِجْرِ بعد سورة يوسفَ، وقد نزلت سورة يوسف بعد الإسراء وقبيل الهجرة، فيكون نزول سورة الحجر في ذلك التاريخ أيضاً.

وقد سميت هذه السورة بهذا الاسم لذكر قصة أصحاب الحجرِ فيها، وهم ثمودَ قوم صالح عليه السلام، وتبلغ آياتها تسعا وتسعين آية.

الغرض منها وترتيبها :

يقصد من هذه السورة إثبات تنزيل القران مثل السوَر السابقة، ولكنه يأخذهم فيها بالترهيب والتحذير مما حصل للمكذبين قبلهم، وقد افتتحت بهذه الدعوى ومجادلتهم فيها، ثم انتقل من هذا إلى ترهيبهم بذكر أخبار المكذبين قبلهم، ثم ختمت بما يناسب هذا الغرض المقصود منها.

وقد ذكرت هذه السورة بعد سورة إبراهيم لأنها تشبهها في الغرض المقصود منها، كما تشبهها في الحروف التي افتتحت بها.

إثبات تنزيل القران

الآيات (١ — ٢٧)

قال الله تعالى (الر، تلك آياتُ الكتابِ وقرآنٍ مبينٍ) فأقسم بهذه الحروف على أن ما أنزله آيات الكتاب وقرآن مبين، وحذرهم من تكذيبه بأنهم سيندمون عليه ويودون لو كانوا مسلمين، ثم أمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يدعهم في لهوهم

حتى يأتى وقت عذابهم ، وأخبره بأنه لم يهلك قرية من القرى إلا فى أجل معلوم لا تتقدم عنه ولا تتأخر .

ثم ذكر استهزاءهم بالقرآن وأنهم قالوا عن النبي صلى الله عليه وسلم إنه لمجنون ، لأنه يدعى أنه آية على نبوته ، ثم طلبوا منه أن يأتيهم بالملائكة إن كان من الصادقين ، وقد رد عليهم بأنه لا ينزل الملائكة إلا بالعذاب ، وإذا نزلوا به لا يمهلونهم ، وبأنه هو الذى نزّل القرآن وتولى حفظه مما حصل فى الكتب المنزلة قبله ، ثم ذكر للنبي صلى الله عليه وسلم أنه قد استهزىء بالرسل من قبله كما استهزىء به ، ليصبر على استهزائهم به وطعنهم فيه ، وأنه كذلك يسلك القرآن فى قلوب المجرمين ، ليعاقبهم عليه كما عاقب المكذّبين الأولين ، ثم رد عليهم بأنه لو فتح عليهم بابا من السماء فظلوا يعرجون فيه لزعموا أن هذا سحر ولم يؤمنوا به .

ثم انتقل من هذا إلى إثبات قدرته على ما يقترحون من الآيات ، فذكر أنه هو الذى جعل فى السماء بروجا وزينها للناظرين الخ ، وأنه مدّ الأرض وألقى فيها رواسى وأنبت فيها من كل شىء موزون الخ ، وأنه أرسل الرياح لواقحَ فأنزل من السماء ماء فأسقاهموه وما هم له بخازنين الخ ، وأنه يحيى ويميت وهو الوارث الباقى ، وأنه يعلم المستقدمين منهم والمستأخرين (وإنَّ ربكَ هوَ يحشرهمْ إنه حكيمٌ عليمٌ)

ترهيب المشركين بأخبار المكذبين قبلهم

الآيات (٢٨ — ٨٤)

ثم قال تعالى (وإذْ قالَ ربكَ للملائكةِ إنى خالقٌ بشراً من صلصالٍ منْ حمأٍ مسنونٍ) فذكر قصة آدم حين خلقه وأمر الملائكة بالسجود له ، وأن إبليس كذّبَ وعصى فعوقب بما عوقب به من الطرد واللعن ، وقد سبقت هذه القصة فى سورتى البقرة والأعراف ، ولكنها هنا تخالف ما سبق فى سياقها وأسلوبها وما فيها من زيادة ونقص .

ثم ذكر قصة إبراهيم ولوط ، وقد سبقت قصتهما فى سورة هودٍ وغيرها ،

والفرق بينها فى هذه المواضع كالفرق السابق فى قصة آدم .

ثم ذكر قصة أصحاب الأيكة وهوم قوم شعيب ، وقد سبقت قصتهم فى سورة هود وغيرها ، والفرق بينها فى هذه المواضع كالفرق السابق فى قصة آدم .

ثم ذكر قصة أصحاب الحجر وهم قوم صالح ، وقد سبقت قصتهم فى سورة هود وغيرها ، والفرق بينها فى هذه المواضع كالفرق السابق فى قصة آدم ، وقد ذكر فى آخرها أنه أهلكهم بالصيحة مصبحينَ (فما أغنى عنهمْ ما كانوا يكسبونَ) .

الخاتمة

الآيات (٨٥ - ٩٩)

ثم قال تعالى (وما خلقنا السماوات والأرضَ وما بينهما إلا بالحق وإن الساعة لآتية فاصفح الصفحَ الجميل) فذكر أنه لابد أن يعاقب أولئك المشركين كما عاقب أولئك الأولين ، لأنه لم يخلق ما خلقه عبثاً ، ثم أمره أن يصفح عن استهزائهم ، وأخبره بأنه هو الخلاق العليم ليفوض أمره إليه ، ثم نوّهَ بشأن القرآن الذى يكذبون به ، فذكر أنه آتاه سبعاً من المثانى والقرآن والعظيم ، ونهاه أن يمدّ عينيه إلى أموالهم أو يحزن عليهم ، وأمره أن يخفض جناحه لمن آمن به ، وأن يخبرهم بأنه هو النذير المبيين كما أنزل من الإنذار على المقتسمين ، وهم الذين اقتسموا طرق مكة يصدّون الناس عنه ، وجعلوا القرآن عِضينَ ، بعضه سحر ، وبعضه شعر ، وبعضه أساطير الأولين ، ثم أقسم أنه سيسأ لهم أجمعين عما كانوا يعملون ، وأمره أن يجهر بما أمر أن يبلغه لهم ، وأن يعرض عنهم فلا يقابل استهزاءهم بمثله ، ووعده أن يكفيه المستهزئين منهم ، ثم ذكر له أنه يعلم أنه يضيق صدره بما يقولون فى حقه ، وأمره بما يشرح صدره ويصبره على أذاهم ، فقال (فسبحْ بحمد ربكَ وكنْ من الساجدينَ ، واعبدْ ربكَ حتى يأتيكَ اليقينُ)

سورة النحل

تاريخ نزولها ووجه تسميتها :

نزلت سورة النحل بعد سورة الكهف ، وهى من السور التى نزلت بعد الإسراء وقبيل الهجرة ، فيكون نزول سورة النحل فى ذلك التاريخ أيضاً ، وقيل إنها من السور المدنية .

وقد سميت هذه السورة بهذا الاسم لقوله تعالى فى الآية — ٦٨ — منها (وأوحى ربُّكَ إلى النحلِ أن اتخذى مِنَ الجبالِ بيوتاً ومِنَ الشجرِ ومما يعرشونَ) وتبلغ آياتها ثمانى وعشرين ومائة آية .

الغرض منها وترتيبها .

يقصد من هذه السورة إنذار المشركين بالعذاب وإبطال شركهم ورد شبههم على القرآن والنبوة والبعث ، وهى أمور متشابكة متلازمة ، وقد افتتحت بآيتين أجملت فيهما تلك الأغراض ، وقصد بهما التمهيد لتفصيل الكلام فيها ، ثم ختمت بذكر نعمة الله على أولئك المشركين بسكنى حرمه ، وأنهم كفروا بنعمته بهذا عليهم فجوزوا بذلك العذاب الذى حق عليهم .

وقد ذكرت بعد سورة الحجر لأنه أمره فى آخرها أن يعبد ربه حتى يأتيه اليقين ، وقد افتتحت هذه السورة بأن ما وعدوا به قد أتى وقته وحان حينه .

إبطال الشرك

الآيات (١ — ٢٣)

قال الله تعالى (أتى أمرُ اللهِ فلاَ تستعجلوهُ سبحانه وتعالى عمَّا يشركونَ) فافتتحها بآيتين أجمل فيهما أغراضها ، فأنذرهم فيهما بأنه أتى أمره بعذابهم ، ونزه ذاته عن شركائهم ، وذكر أنه ينزل الملائكة بالوحى على من يشاء من عباده لينذروا

الناس بتوحيده ويأمروهم بتقواه .

ثم شرع فى إبطال الشرك وإثبات التوحيد ، فذكر أنه خلق السماوات والأرض بالحق ، وأنه خلق الإنسان من نطفة . وأنه خلق الأنعام فيها دفء ومنافع لنا ، وأنه خلق الخيل والبغال الحمير لنركبها وتتخذها زينة ، وأنه يخلق غير هذا مما لا يدخل تحت علمنا ، وأنه يبين بهذا قصد السبيل إليه ، ومنها جائر ينحرف عنه ، ولو شاء لهداهم أجمعين ، ثم ذكر أنه هو الذى أنزل من السماء ماء منه شراب ومنه شجر ، وأنه ينبت الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات ، وأنه سخر الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ، وأنه سخر البحر لنأكل منه لحماً طرياً ونستخرج منه حلية نلبسها ، وأنه ألقى فى الأرض رواسى — جبالا — وأنهارا وسبلا لنهتدى بها ، وأنه جعل علامات فى هذه السبل لنهتدى بها فيها كما نهتدى بالنجم أيضاً .

ثم ذكر أنه لا يصح أن يكون من يخلق هذا كله كمن لا يخلق من أصنامهم التى يتخذونها شركاء له ، وأنهم إن يعدوا نعمته مما سبق وغيره لا يحصوها ، وأنه يعلم سرهم وعلانيتهم ، وأن الذين يدعونهم من دونه لا يخلقون شيئا وهم يخلقون ، وهم أموات غير أحياء وما يشعرون أيان يبعثون ، ثم ذكر أنه يجب بعد هذا كله أن يكون إلههم واحداً ، وأن الذين لا يؤمنون بالآخرة هم الذين لا يؤمنون به ، لأن قلوبهم منكرة وهم مستكبرون (لا جَرَمَ أنَّ اللهَ يعلمُ ما يسرُّون وما يعلنونَ إنَّه لا يحبُّ المستكبرين) .

رد شبهة لهم على القرآن

الآيات (٢٤ — ٣٤)

ثم قال تعالى (وإذا قيلَ لهمْ ماذا أنزلَ ربكمْ قالوا أساطيرُ الأولينَ) فذكر أنهم إذا سئلوا عن القرآن قالوا إنه أساطير الأولين ، وأجاب عنه بتهديدهم بأنهم يحملون به أوزارهم وبعض أوزار الذين يضلونهم بغير علم ، ثم ذكر أن المكذبين من الأولين قد

مكروا بمثل ما يمكرون به فى القرآن فأبطل مكرهم وأهلكهم ، ثم يوم القيامة يخزيهم ويسألهم أين شركاؤهم الذين كانوا يخاصمون بالطعن فى القرآن من أجلهم ؟ فيجيب الذين أوتوا العلم من الملائكة أو المؤمنين بأن الخزى اليوم والسوء عليهم، فلا يمكنهم أن يجيبوا من خزيهم ، ثم ذمهم بأنهم يموتون ظالمى أنفسهم بشركهم، فلا يجدون إلا أن يلقوا السلم وينكروا ما عملوا من سوء ، فيرد عليهم بأنه عليم بما كانوا يعملون ، ويأمرهم أن يدخلوا أبواب جهنم خالدين فيها ، وبئس مثواها لهم

ثم ذكر أن المؤمنين إذا سئلوا عن القرآن أجابوا بأنه خير للناس ، وأنه سيجازيهم على هذه الحسنة بمثلها فى الدنيا وبخير منها فى الآخرة ، فيدخلون جنات عدن تجرى من تحتها الأنهار لهم فيها ما يشاءون بما تشتهيه أنفسهم . وكذلك يجزى الله المتقين هذا الجزاء الحسن ، ثم مدحهم بأن الملائكة يتوفونهم طيبين فيتلقونهم بالسلام ، ويأمرونهم بدخول الجنة جزاء لهم بما كانوا يعملون

ثم عاد إلى أولئك المكذبين فهددهم بأنهم لا ينتظرون بتكذيبهم إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتيهم أمره بهلاكهم . كما أهلك من فعل من الأولين مثل فعلهم ، وما ظلمهم بهذا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون (فأصابهم سيئاتُ ماعملوا وحاقَ بهم ماكانُوا به يستهزئونَ) .

عود إلى إبطال شركهم

الآيات (٣٥ — ٣٧)

ثم قال تعالى (وقالَ الذينَ أشركوا لوْ شاءَ اللهُ ما عبدْنا مِنْ دونهِ مِنْ شيءٍ نحنُ ولا آباؤنا ولا حرَّمنا من دونه مِنْ شيءٍ كذلك فعلَ الذينَ مِنْ قبلهمْ فهلْ على الرسل إلا البلاغُ المبين) فذكر أنهم استدلوا على شركهم بأنه وقع بإرادته ومشيئته ، وهو لا يشاء إلا مايرضاه ، ورد عليهم بأن المشركين قبلهم فعلوا مثل فعلهم فلم يمنع ما نزل من عذابه لهم ، وليس على الرسل إلا أن يبلغوا من أرسلوا إليهم ، فإذا بلغوهم زال بهذا عذرهم ، ثم ذكر أن كل الرسل بعثوا بإبطال

الشرك ، فمن أقوامهم من هداه إلى الإيمان به ، ومنهم من حقت عليه الضلالة فساءت عاقبتهم ، ثم ذكر للنبي صلى الله عليه وسلم أن شأن قومه فى هذا مثلهم (إن تحرصْ على هداهم فإنَّ اللهَ لا يهدِى مَنْ يضلُّ وما لهم مِنْ ناصرينَ) .

رد شبهة لهم على البعث

الآيات (٣٨ — ٤٢)

ثم قال تعالى (وأقسمُوا باللهِ جهدَ أيمانهم لا يبعثُ اللهُ من يموتُ بلى وعداً عليهِ حقاً ولكنَّ أكثرَ الناسِ لا يعلمون) فذكر إنكارهم للبعث وأجاب عنه بأنه لابد منه ولكن أكثرهم لا يعلمون ، لأنه يبين لهم به ما يختلفون فيه ويعلم به الكافرون أنهم كانوا كاذبين ، وهو إذا أراد شيئاً فإنما يقول له كن فيكون ، فلا يعجزه البعث كما لم يعجزه الخلق .

ثم ذكر أنه سيجازى المؤمنين فى الدنيا حسنة وأن أجرهم بعد البعث أكبر لو كانوا يعلمون (الذينَ صبروا وعلى ربهم يتوكلونَ)

ردشبهة لهم على النبوة

الآيات (٤٣ — ٥٠)

ثم قال تعالى (وما أرسلنا مِنْ قبلكَ إلاَّ رجالاً نوحِى إليهمْ فاسألوُا أهلَ الذكر إن كنتمْ لا تعلمونَ) فرد على مايزعمونه من أن الرسول لا يكون بشرا بأنه لم يرسل من قبله إلا رجالا مثله ، وأمرهم أن يسألوا أهل العلم عن هذا إن كانوا لا يعلمون ، ثم هددهم على مكرهم بهذا أن يخسف بهم الأرض أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون . إلى غير هذا مما هددهم به ، ثم ذكر ما يدل على قدرته على هذا فحثهم على النظر فيما خلق من شىء يتفيَّأ ظلاله عن اليمين والشمائل سجَّداً له وهم داخرون ، وذكر أنه يسجد له مافى السماوات وما فى الأوض من دابة والملائكة وهم لا يستكبرون (يخافونَ ربهُم مِنْ فوقهم ويفعلونَ ما يؤمرونَ) .

عود إلى إبطال أنواع من الشرك

الآيات (٥١ - ١٠٠)

ثم قال تعالى (وقالَ اللهُ لا تتخذُوا إلهينِ اثنينِ إنمَّا هُوَ إلهٌ واحدٌ فإيايَ فارهبون) فأبطل مذهب الثنويةِ الذين يقولون بإله الخير وإله الشر ، لأن له مافى السماوات والأرض من خير وشر ونعمة وضر ، ثم أمرهم أمر تهديد أن يكفروا بما آتاهم من النعم ويتمتعوا فسوف يعلمون ، ثم ذكر أنهم يجعلون لأصنامهم نصيبا مما رزقهم من زروعهم وأنعامهم وهي جماد لا تحس بنذرهم ، وأنهم يجعلون لله البنات من الملائكة ولأنفسهم مايشتهون من البنين ، ثم ذكر من كرههم للبنات أنهم إذا بشرَ أحدهم بالأنثى يظل وجهه مسوداً وهو كظيم ، يتوارى من قومه من سوء مابشر به أيمسكه على هُون أم يدسه فى التراب ليتخلص من عاره بينهم ، ثم عجَّبَ من سوء حكمهم بهذا وحكم بأن لهم صفة السوء وهى الاحتياج إلى الولد ، وله الصفة العليا وهى عدم الاحتياج إليه ، وذكر أنه لو يؤاخذهم بهذا الكفر ما ترك على الأرض من دابَّة ، ولكنه يؤخرهم إلى أجل مُسَمًّى ، فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يتقدمون ، ثم ذكر ثانيا أنهم يجعلوا له البنات ولأنفسهم البنين ليوجب أن لهم النار وأنهم مُفْرَطون .

ثم أقسم بنفسه أنه أرسل إلى أمم من قبله فزين لهم الشيطان شركهم ، فهو يزينه لهؤلاء المشركين كما زينه لتلك الأمم ، ثم ذكر أنه لم ينزل عليه القرآن إلا ليبين لهم ما وقعوا فيه من الشرك ، وليكون هدى ورحمة لمن يؤمن به .

ثم ذكر مما يدل على وحدانيته أنه أنزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها ، وأنه جعل لنا فى الأنعام عِبْرَة يسقينا مما فى بطونه من بين فَرْثٍ ودم لبنا خالصا ، وأنه جعلنا نتخذ من ثمرات النخيل والأعناب سَكَراً ورزقا حسنا ، وأنه أوحى إلى النحل أن تتخذ من الجبال وغيرها بيوتا وأن تأكل من كل الثمرات ليخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس ، إلى غير هذا مما ذكره من الأدلة على وحدانيته .

ثم ذكر أنهم مع هذا يعبدون من دونه ما لا يملك لهم رزقا من السماوات والأرض، ونهاهم أن يضربوا له الأمثال بقولهم إنهم خدامه وأقرب الخلق إليه، فهم يتخذونهم وسيلة له لأنه أجل من أن يتوجهوا إليه بأنفسهم، وهم في هذا كأصاغر الناس يخدمون حاشية الملك، وحاشيته هي التي تخدمه، فهذه كلها أمثال باطلة، والله يعلم الأمثال الصحيحة وهم لا يعلمون.

ثم ضرب لهم من أمثاله الصحيحة مَثَلين له ولشركائهم: أحدهما مثل عبد مملوك لا يقدر على شيء ورجل رزق رزقا حسنا ينفق منه سرا وجهرا، فلا يصح أن يكون أحدهما مساويا للآخر، وثانيهما مثل رجلين أحدهما أبكم لا يقدر على شيء، وهو ثقيل على مولاه أينما يوجّهه لا يأت بخير، وثانيهما يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم، فلا يصح أيضا أن يكون أحدهما مساويا للآخر.

ثم ذكر من صفات كماله تأكيدا لمضمون هذين المثلين أن له غيب السماوات والأرض، وأن أمر الساعة عنده كلمح البصر أو هو أقرب، وأنه يخرجنا من بطون أمهاتنا لا نعلم شيئا ويجعل لنا السمع والأبصار والأفئدة، إلى غير هذا من نعمه علينا، ثم ذكر أنهم إن أعرضوا بعد هذا فليس على النبي صلى الله عليه وسلم إلا أن يبلغهم، وذمهم بأنهم يعرفون نعمته ثم ينكرونها وأكثرهم الكافرون.

ثم شرع في بيان حالهم وحال شركائهم في يوم بعثهم، ليذكر تكذيبهم لهم فيما يزعمونه من ألوهيتهم، فذكر أنه يبعث يوم القيامة مع كل أمة شهيدا منها وهو رسولها. ثم لا يؤْذنَ لمن كفر منها في كلام ولا استعتاب، وإذا رأوا عذابهم سيقوا إليه من غير إمهال، وإذا رأوا شركاءهم قالوا لربهم (هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعو منْ دونكَ) فيكذبونهم فيما ينسبونه إليهم من الألوهية، وهنالك يستسلمون لما يحكم به عليهم، ولا يجدون أحدا من شركائهم يشفع لهم، ثم ذكر أن من كان منهم يضم إلى كفره صدّ غيره عن الإيمان يزيده عذابا فوق عذاب كفره، ثم ذكر ثانيا أنه يبعث من كل أمة شهيدا عليهم منهم، ليذكر أنه يجيء بالنبي صلى

الله عليه وسلم شهيدا على أمته ، وقد قطع عليهم عذرهم بتنزيله القرآن تبياناً لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى لمن يؤمن به .

ولما ضرب فى المثل الثانى مثلا له من يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم أخذ يفصل ما أجمله فيه ، فذكر أنه يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى ، فجمع فى ذلك ما يتصل بالتكليف فرضا ونفلا ، وما يتصل بالأخلاق عموما وخصوصا ، ثم ذكر مما جمعه فى ذلك من المأمورات والمنهيات الأمر بالوفاء بعهد الله ، والنهى عن نقض الأيمان بعد توكيدها ، ونهاهم أن يتخذوها على غش وخديعة كما كانوا يفعلون فى الجاهلية ، إذ كانوا يحالفون قوما ثم يجدون غيرهم أقوى منهم فينقضون حلفهم ويحالفون من وجدوهم أقوى منهم ، ثم ذكر أنه يختبرهم بهذا التكليف ، ولو شاء لجمعهم عليه بالإلجاء فجعلهم أمة واحدة فى الوفاء بعهده ، ولكنه يضل من يشاء ويهدى من يشاء ثم يسألهم جميعاً عن عملهم ، ثم أعاد النهى عن اتخاذهم أيمانهم دَخلا بينهم ليوعدهم عليه بما أوعدهم به ، ونهاهم أن يشتروا بعهده ثمنا قليلا من عرض الدنيا ، لأن ما عنده هو خير لهم لبقائه ، وما عندهم ينفدُ ولا يبقى ، ثم بين ما عنده من الجزاء الحسن والحياة الطيبة لمن يستحقها من المؤمنين الذين يصبرون على الوفاء بالعهد ، وأنه يجزيهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون .

ثم ذكر مما جمعه فيما سبق من المأمورات والمنهيات الامر بالاستعاذة من الشيطان عند قراءة القرآن ، ليرشدهم إلى ما تخلص به أعمالهم من وساوسه ، ويستحقون به الجزاء الذى وعدهم به ، ثم ذكر أنه لا سلطان للشيطان على المؤمنين الذى يتوكلون على ربهم (إنما سلطانهُ على الذينَ يتولونهُ والذين هم به مشركونَ)

عود إلى رد شبههم على القرآن

الآيات (١٠١ — ١١١)

ثم قال تعالى (وإذا بدّلنا آيةً مكانَ آية والله أعلمُ بما ينزِّلُ قالوا إنما أنتَ

مفتر بل أكثرهم لا يعلمونَ) فذكر شبهتين أخريين لهم فى القرآن : أولاهما أنهم كانوا إذا نسخ حكم آية بآية أخرى يقولون : والله ما محمد إلا يسخر بأصحابه ، اليوم يأمر بأمر وغدا ينهى عنه ، فما هذا إلا من عنده . وقد أجابهم عنها بأنه أعلم بحكمة ذلك وما فيه من المصلحة للعباد ، وبأنه نزل القرآن ليثبّتَ المؤمنين بأخذهم بالأحكام على التدريج ، ويكون هدى وبشرى لهم ، فلا يصح مع هذا أن يؤخذوا بالأحكام دفعة واحدة .

والشبهة الثانية أنهم كانوا يقولون إنه يتعلم القرآن من بعض نصارى مكة من الأعاجم ، وقد أجابهم عنها بأن الذى يزعمون أنه يتعلمه منه لسانه أعجمى ، والقرآن لغته عربية فى أعلى درجات البيان ، ثم ذكر أن الذين لا يؤمنون بالقرآن ويزعمون ذلك فيه لا يهديهم إلى الإيمان به مع ظهور فضله ، وأن الذى يفترى الكذب عليه إنما هو من لا يؤمن بآياته لا من يؤمن بها ، ثم ذكر ممن يفترى الكذب عليه بالطعن فى القرآن من كفر منهم بعد إيمانه ، واستثنى منه من أكره على الكفر وقلبه مطمئن بالإيمان ، وأوعد من شرح بالكفر صدرا بعد إيمانه بأن عليهم غضبا منه ولهم عذاب أليم ، لأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة ، وأن الله لم يشأ هدايتهم بعد اختيار الكفر على الإيمان ، وطبع على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم ، فهم فى الآخرة هم الخاسرون ، أما الذين أكرهوا بالفتنة على الكفر فإن الله لهم وإنه من بعد فتنتهم لغفور رحيم (يومَ تأتى كل نفس تجادلُ عنْ نفسها وتوفى كلُّ نفسٍ ما عملتْ وهم لا يظلمونَ)

الخاتمة

الآيات (١١٢ - ١٢٨)

ثم قال تعالى (وضربَ اللهُ مثلاً قريةً كانتْ آمنةً مطمئنةً يأتيها رزقها رغداً منْ كلِّ مكانٍ فكفرتْ بأنعم اللهِ فأذاقها اللهُ لباسَ الجوعِ والخوفِ بما كانوا يصنعونَ) ختم السورة ببيان سبب استحقاقهم ما أنذروا به من العذاب فى أولها ،

وهو أنهم كانوا أصحاب قرية آمنة مطمئنة يأتيها رزقاً رغدا من كل مكان[1] فكفروا بأنعم الله عليهم . فأذاقهم لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون ، وقد جاءهم أيضا رسول منهم فكذبوه فأخذهم العذاب وهم ظالمون ، ثم أمرهم أن يأكلوا مما رزقهم حلالا طيبا ، ولا يحرموا منه ما حرموه فى شركهم ، وأن يشكروا نعمته عليهم بسكنى هذه القرية إن كانوا إياه يعبدون ، ثم ذكر أنه لم يحرم عليهم إلا الميتة والدم ونحوهما من الخبائث ، ونهاهم أن يحللوا ويحرموا من أنفسهم ، ثم ذكر أنه حرم على اليهود ما قصه عليه من قبل فى سورة الأنعام ، وأنه لم يظلمهم بهذا ولكنهم كانوا يظلمون أنفسهم بعملهم بخلاف علمهم ، ثم ذكر أنه الذين عملوا السوء بجهالة من العرب الأميين ثم تابوا من بعد ذلك وأصلحوا (إنَّ ربكَ منْ بعدها لغفورٌ رحيمٌ)

ثم ذكر أن إبراهيم الذى أنشأ تلك القرية وأقام فيها الكعبة كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين، وأنه كان شاكرا لأنعمه فاجتباه وهداه إلى صراط مستقيم ، وآتاه فى الدنيا حسنة وإنه فى الآخرة لمن الصالحين ، ثم ذكر أنه أوحى إلى النبي صلى الله عليه وسلم أن يتبع ملةَ إبراهيم حنيفا وماكان من المشركين ، وأنه إنما جعل شريعة السبت على اليهود الذين اختلفوا فيها . وأنه سيحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا يختلفون ، فلا يصح له أن يعمل بها ، لأنهم حرفوها حتى خرجوا بها عن أصلها ، وهو ملة إبراهيم .

ثم أمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يدعو إلى هذه الملة بالحكمة والموعظة الحسنة، وأن يجادل المشركين فيها بالتى هى أحسن ، لأن الضلال والهدى بيده تعالى ، ثم أمره وأتباعه إذا خرج الأمر من الجدال إلى القتال أن يعاقبوا بمثل ما عوقبوا به ، فلا يبدئوهم بالقتال ولا يجاوزوا ماعوقبوا به ، منهم، ثم رغبهم فى الصبر والعفو عنهم، ونهى النبي صلى الله عليه وسلم أن يحزن لكفرهم أو يكون فى ضيق مما يمكرون (إن اللهَ معَ الذينَ اتقوْا والذين هم محسنون)

(١) هذه القرية هى مكة

سورة الإسراء

تاريخ نزولها ووجه تسميتها :

نزلت سورة الإسراء بعد سورة القَصَص ، وقد كانت حادثة الإسراء فى السنة الثانية عشرة من البعثة ، فيكون نزول سورة الإسراء فى هذه السنة .

وقد سُمِّيت هذه السورة بهذا الاسم لابتدائها بقوله تعالى (سُبْحانَ الذى أسرى بعبدِهِ ليلاً منَ المسجدِ الحرامِ إلى المسجدِ الأقصى) وتبلغ آياتها إحدى عشرة ومائة آية .

الغرض منها وترتيبها :

يقصد من هذه السورة ثلاثة أمور : أولها إثبات حادثة الإسراء ، وقد كان الإسراء من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، فاستدعى هذا بيان فضل هذا المسجد ، وذكر بعض من أخبار أهله . وثانيها الموازنة بين كتابى المسجدين : القرآن والتوراة ، وقد استدعى هذا ذكر بعض مما أتى به القرآن من الحكم والمواعظ . وثالثها بيان حكمة الإسراء من اختبار الناس به . وقد عاد بعد هذا إلى بيان فضل القرآن ، فانتهى به الكلام فى هذه السورة .

وقد ذكرت سورة الإسراء بعد سورة النحل ، لأن الإسراء كان رمزاً للهجرة إلى المدينة ، وكان فى الهجرة إليها تحقيق ما أنذروا به من قرب عذابهم فى أول سورة النحل .

إثبات الإسراء من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى

الآيات (١ — ٨)

قال الله تعالى (سبحانَ الذى أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجدِ الأقصى الذى باركنا حولهُ لنريهُ مِنْ آياتنا إنّه هُوَ السميعُ البصيرُ) . فذكر أنه

أسرى بالنبي صلى الله عليه وسلم من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ليريه ما فيه من آياته ، ثم ذكر أنه أنزل التوراة على موسى شريعة لأهله من بنى إسرائيل ، وأنه قضى إليهم فيها أنهم سيفسدون فى أرضهم مرتين ويخرجون على شريعتهم بعبادة الأوثان والأصنام ، وأنه إذا جاءت المرة الأولى بعث عليهم قوماً ذوى بأس شديد ليخربوا ديارهم ويهدموا مسجدهم ، وهم قوم بختنصّر ملك بابل ، ثم ينقذهم منهم وينصرهم عليهم ويجعلهم أحسن حالا مما كانوا عليه قبل غزوهم ، فإذا جاءت المرة الثانية بعث عليهم قوماً آخرين يخربون ديارهم ويهدمون مسجدهم كما هدم فى المرة الأولى ، وهم الروم الذين غزوهم وأخرجوهم من ديارهم ، ثم التفت إلى اليهود المعاصرين للنبى صلى الله عليه وسلم فقال (عسى ربكم أنْ يرحمكمْ وإن عدتمْ عُدنا وجعلنا جهنمَ للكافرينَ حصيراً).

الموازنة بين كتابى المسجدين

الآيات (٩ — ٥٩)

ثم قال تعالى (إنّ هذا القرآنَ يهدى للتى هِىَ أقومُ ويبشِّر المؤمنينَ الذينَ يعملون الصالحاتِ أنّ لهم أجراً كبيراً) فذكر أن القرآن يهدى إلى شريعة أقوم من التوراة، وأنه يبشر المؤمنين بأن لهم أجراً كبيراً ، وينذر الكافرين بأن لهم عذاباً أليماً ، ثم ذكر أنهم يستعجلون هذا العذاب الذى ينذرهم به استعجالهم للخير وكان الإنسان عجولا ، واستدل على قدرته عليه بأنه جعل الليل والنهار آيتين فمحى آية الليل وجعل آية النهار مبصرة ليبتغوا أرزاقهم فيها وليعلموا عدد السنين والحساب (وكلّ شىءٍ فصّلناه تفصيلا) ثم ذكر أن كل إنسان تحصى عليه أعماله فى دنياه ليحاسب عليها يوم القيامة ، وأن من اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ، ومن ضل فإنما يضل عليها ، ولا تزرُوا زرة وِزْرَ أخرى (وما كنّا معذّبينَ حتى نبعثَ رسولاً) .

ثم ذكر أنه إذا أراد أن يهلك قرية بذلك العذاب الذى يستعجلونه أمر مُترفيها ففسقوا فيها فيحق عليها العذاب فيدمرها تدميراً ، وأنه كم أهلك من القرون بهذا

الشكل من بعد نوح ، وأنه أعلم بذنوب عباده فيقدر لهم وقت عذابهم كما يريد (وكفى بربكَ بذنوبِ عبادهِ خبيراً بصيراً).

ثم ذكر أن من يريد العاجلة عجل له فيها ما يشاء من خير أو شر لمن يريد وليس لأحد أن يتعجله فى شىء ، وأن من يريد الآخرة ويسعى لها شكر له سعيه ، وأنه يمد كلا منهما فى الدنيا بعطائه ولا يحظره عن أحد من عباده ، وأنه يفضل بعضهم على بعض فى هذا العطاء ، وستكون الآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا .

ثم أخذ فى بيان بعض من شريعة القرآن فى الأصول والفروع والأخلاق ، فنهى عن الشرك به ، وأمر بالإحسان إلى الوالدين ، وبإيتاء ذى القربى حقه والمسكين وابن السبيل ، ونهى عن التبذير فى المال ، وأمر بالاعتذار الحسن عند العجز عن الإحسان ، إلى غير هذا من الأحكام التى ختمها بقوله (ذلك مما أوحىَ إليك ربُّك من الحكمةِ ولا تجعلْ مَعَ اللهِ إلهاً آخرَ فتلقى فى جهنَّم ملوُماً مدحوراً) فختمها بالنهى عن الشرك كما ابتدأها به ، وأتبعه بتوبيخهم على نوع خاص من شركهم ، وهو زعمهم أن الملائكة بنات الله ، فذكر أنه لا يصح أن يؤثرهم بالبنين ويتخذ من الملائكة إناثا (إنكمْ لتقولونَ قولاً عظيما) .

ثم ذكر أنه صرّف فى القرآن هذا التصريف من الكلام فى الأصول والفروع والأخلاق ليكون فيه موعظة للناس ولكنه لا يزيدهم إلا نفوراً ، وأمر النبى صلى الله عليه وسلم أن يذكر لهم دليلا على بطلان الشرك لا يمكنهم أن يماروا فيه ، وهو أنه لو كان معه آلهة لابتغوا سبيلا إلى منازعته ، ثم نزه نفسه عما يزعمونه من أن له شركاء فى ملكه ، وذكر أنه هو الذى تسبح له السماوات السبع والأرض ومن فيهن ، وأنه ما من شىء إلا يسبح بحمده ولكنهم لا يفقهون تسبيحهم .

ثم ذكر أنه إذا قرأ القرآن جعل بينه وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابا مستوراً وجعل على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفى آذانهم وقراً ، وأنه إذا ذكره فى فى القرآن ولم يذكر آلهتهم فروا على أدبارهم نفورا ، وأنه أعلم بحالهم حين يستمعون

إليه وإذ هُمْ نجوى إذ يقولون إن تتبعون إلا رجلا مسحوراً . ثم ذكر مما يحملهم على زعم هـــذا فيه أنه يدعى أنهم يبعثون بعد أن يصيروا عظاماً ورُفاتاً خلقاً جديداً ، ورد عليهم بأن الذين فطرهم أول مرة قادر على بعثهم ، ثم ذكر أنهم سينغضون رؤوسهم ويقولون متى هو ؟ وأجابهم بأنه عسى أن يكون قريباً (يَوْمَ يدعوكم فتستجيبونَ بحمدهِ وتظنونَ إنْ لبثتم إلا قليلا) .

ثم أمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يأمرهم بأن يقولوا التى هى أحسن من قولهم إنه رجل مسحور ، وذكر لهم أن الشيطان ينزغ بينهم ويزين لهم هذه الشتائم ، وأنه هو أعلم بهم إن يشأ يرحمهم بالإيمان أو يعذبهم بالكفر ولم يرسله وكيلا عليهم حتى يضيقوا به ويشتموه ، وأنه أعلم بمن فى السماوات والأرض وقد فضل بعض النبيين على بعض بمقتضى علمه وآتى داود زبوراً ، فلا يصح لهم أن يقولوا فى النبي صلى الله عليه وسلم وفى قرآنه مالا علم لهم به .

ثم أمرهم أن يدعوا شركاءهم ليكشفوا عنهم ذلك الضر الذى يتعجلون به ، فإنهم لا يملكون كشفه عنهم ولا تحويله ، لأنهم عبيد مثلهم يبتغون إليه الوسيلة ويرجون رحمته ويخافون عذابه ، ثم ذكر أنه مامن قرية من قرى المكذبين إلا هو مهلكها قبل يوم القيامه أو معذبها عذابا شديدا كان ذلك فى الكتاب مسطورا ، ثم أشار إلى أنه اختار لهم أن يعذبهم بتسليط المؤمنين عليهم ولا يهلكهم بآيات عذابه فقال (وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أنْ كذّبَ بها الأولونَ وآتينا ثمودَ الناقة مُبصرَةً فظلموا بها وما نرسل بالآياتِ إلا تخويفاً) .

بيان حكمة الإسراء

الآيات (٦٠ — ٨١)

ثم قال تعالى (وإذ قلنا لك إن ربكَ أحاطَ بالناس وما جعلنا الرؤيا التى أريناكَ إلا فتنة للناسِ والشجرةَ الملعونة فى القرآنِ ونخوفهمْ فما يزيدهمْ إلا طغيانا كبيراً) فذكر أنه وعده بالنصر عليهم حين أخبرهم بالإسراء فكذبوه وارتد كثير منهم ،

وأنه لم يجعل رؤيا الإسراء إلا فتنة لهم ، فقد افتتنوا بها كما افتتنوا بشجرة الزَّقوم الملعونة فى القرآن ، فقالوا : زعم محمد أن نار جهنم تحرق الحجر ، ثم زعم أن فى النار شجرا وهى تأكل الشجر ، فكيف ينبت فيها الشجر ؟ ثم ذكر أنه يخوفهم بذلك فما يزيدهم إلا طغيانا كبيرا .

ثم ذكر لهم قصة آدم مع الملائكة وإبليس لأنها كانت للاختبار أيضا ، ليتعظوا فى اختبارهم بالإسراء بما حصل لإبليس حين عصى أمر ربه من الطرد واللعن ، ولا يقعوا فى مثل ما وقع فيه بتكذيبها ، وقد ختمها بقوله لإبليس (إنَّ عبادِى ليسَ لكَ عليهم سلطانٌ وكفى بربِّكَ وكيلا) .

ثم شرع فى أخذهم بالترغيب بعد الترهيب فذكر أنه هو الذى يسوق لهم السفن فى البحر ليبتغوا من فضله ، وأنهم إذا مسهم الضر فى البحر وخافوا الغرق لا يلجئون إلا إليه فى كشفه عنهم ، فإذا نجّاهم إلى البر يعْرِضُون عنه ويكفرون بنعمته ، ولا يأمنون أن يخسف بهم جانب البرّ أو يرسل عليهم ريحا حاصبا . أو يعيدهم فى البحر مرة أخرى فيغرقهم بسبب كفرهم ، ثم ذكر أنه كرّم بنى آدم بنعمة العقل وحملهم فى البر والبحر ورزقهم من الطيبات وفضلهم على كثير من خلقه ، وأنه سيبعثهم ويحاسبهم على ما أنعم به عليهم ، فمن أوتى كتابه بيمينه وهم الذين قاموا بحق هذه النعم فإنهم يكافؤن على ذلك ولا يُظْلَمُون فتيلا ، ومن لم يقم بحق هذه النعم ولم ينظر بعقله فى دنياه حتى صار فيها كالأعمى ، فهو فى الآخرة أعمى وأضَلُّ سبيلا .

ثم ذكر أن فتنة الإسراء بلغ من شدتها أنهم كادوا يَفْتِنُون النبى صلى الله عليه وسلم عما أوحى إليه من أمرها ليفترى لهم غيره ، ولولا أن ثَبَّتَه فيها لقد كاد يركن إليهم شيئا قليلا ، ثم ذكر أنهم كادوا يحملونه على الخروج من مكة لشدة استهزائهم به ، ولو أنهم أخرجوه منها لأهلكهم كما أهلك من قبلهم حين أخرجوا أنبياءهم من بينهم ، ثم أمره أن يعْرِضَ عنهم ويُقْبِلَ على عبادته وإقامة الصلاة له فى أوقاتها من فروض ونوافل ، لينصره عليهم ويبعثه مَقَاماً محمودا ظهروه

أمره عليهم ، وقد كان ذلك بالهجرة إلى المدينة ، وكان الإسراء قبلها بسنة واحدة ، ثم أمره أن يلجأ إليه فى تهيئة ذلك المقام المحمود حتى يخرجه من مكة مُخْرَجَ صدق ، ويدخله ذلك المقام المحمود مُدْخَلَ صدق ، وأن ينبئهم بقرب ذلك اليوم الذى يظهر فيه حقه على باطلهم (وقُلْ جاءَ الحقُ وزَهَقَ الباطلُ إن الباطلَ كانَ زهوقاً) .

عود إلى بيان فضل القرآن

الآيات (٨٢ — ١١١)

ثم قال تعالى (ونُنَزِّلُ من القرآن ما هو شفاءٌ ورحمةٌ المؤمنين ولا يزيدُ الظالمينَ إلا خساراً) فعاد إلى الكلام على فضل القرآن ، وذكر أنه ينزل منه ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين، ويزداد به الكافرون خساراً إلى خسارهم ، ثم بَيَّنَ سبب ذلك فيهم وهو استكبارهم واغترارهم بأموالهم التى أنعم بها عليهم ، فذكر أن شأن الكافر إذا أنعم عليه استكبر وإذا مسه الفقر بلغ به اليأس كلَّ مبْلغْ ، ثم ذكر أن كلا من المؤمنين والكافرين يعمل من ذلك على شاكلته ، وأنه أعلم بمن هو أهدى سبيلا منهم ، ثم ذكر أنهم يسألونه عن الروح وهو القرآن ما دليله على أنه من عند الله ؟ وأمره أن يجيبهم بأنه من أمره وأن ما جاءهم به من العلم قليل بالنسبة إلى واسع علمه ، وأنه لو شاء أن يأخذ منهم هذا القليل ويذهب بما أوحى إليهم من القرآن لفعل، لأنه لا يريد به شيئا لنفسه وإنما يريد مصلحتهم ، ثم بَيَّنَ لهم الدليل على أنه من عنده ، وهو عجز الإنس والجن أن يأتوا بمثله ، وذكر أنه تحداهم بذلك على وجوه كثيرة ، فمن عشر سُوَرٍ إلى سورة واحدة إلى التَّحَدِّى به كله ، ولكنهم يَأبونَ إلا كُفوراً ، ويطلبون مُعجِزَاتٍ أخرى ، كأن يفجر لهم ينبوعا من الأرض، أو يكون له فى واديهم جنة من نخيل وعنب تجرى فيها الأنهار ، إلى غير هذا مما اقترحوه على وجه التَّعَنُّتِ والتَّحَكُّم . وقد أمره أن يجيبهم بأنه ليس إلا بشراً رسولا لا يمكنه أن يَتَحَكَّمَ على الله مثلهم ، ثم ذكر أنهم لم يمنعهم من الإيمان بالقرآن إلا استبعادهم أن يكون رسوله من البشر ، وأمره أن يجيبهم بأنه لو كان فى الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزل عليهم من السماء مَلَكا

رسولا ، وبأنه قد شهد على صدقه بمعجزة القرآن وكفى به شهيدا بينه وبينهم ، ثم ذكر أن الهداية والضلال بإرادته لا بالمعجزات ، فإذا أراد هداية قوم هداهم ، وإذا لم يرد هداية قوم فلن يوجد لهم أولياء من دونه يهدونهم ، ويحشرهم يوم القيامة على وجوههم عُمْياً وبُكْماً وصُمّاً مأواهم جهنم كلما خبَتْ زادهم سعيرا ، ذلك لأنهم كفروا بمعجزة القرآن ، وأنكروا ما جاء به من بعثهم ، ثم ذكر أنهم لو نظروا فى خلق السماوات والأرض لعلموا أنه قادر على أن يبعثهم ، وأنه جعل لبعثهم أجلا لاريب فيه وإن كفروا به .

ثم ذكر أنهم لو ملكوا خزائن رحمته وهى أعظم مما اقترحوه من تفجير الأرض وغيره لبخلوا بها ، فلا فائدة من إجابتهم إلى ما اقترحوه عليه ، ثم ذكر أنه آتى موسى تسع آيات بينات مثل هذه الآيات فلم يؤمن فرعون بها ، وأراد أن يستفز بنى إسرائيل من أرضه فأغرقه ومن معه جميعا ، وأسكن بنى إسرائيل الأرض التى وعدها لهم .

ثم عاد إلى تعظيم شأن القرآن فذكر أنه لم ينزله إلا بالحق وبالحق نزل ، وأنه لم يرسله إلا مبشّراً ونذيرا ، فمن شاء آمن ومن لم يشأ لم يؤمن ، ثم ذكر أنه نزله مفرّقاً ليقرأه على الناس على مُكْث ، وأنه سواء إيمانهم به وعدمه ، لأن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرّون ساجدين لأذقانهم ، ثم ختم السورة بأمرهم أن يدعوه باسمه أو باسم الرحمان أو غيرهما من أسمائه الحسنى ، ونهيه أن يجهر بصلاته أو يُخافِتَ بها ، وأمره أن يبتغى بين ذلك سبيلا (وقُلِ الحمدُ لِلهِ الّذِى لمْ يَتّخِذْ ولداً ولم يكن له شريك فى الملك ولم يكن له ولىّ من الذُّلّ وكبِّرهُ تكبيرا)

سورة الكهف

تاريخ نزولها ووجه تسميتها :

نزلت سورة الكهف بعد سورة الغاشية ، وهى من السور التى نزلت بعد الإسراء

وقبيل الهجرة ، فيكون نزول سورة الكهف فى ذلك التاريخ أيضا .

وقد سمِّيت هذه السورة بهذا الاسم لذكر قصة أصحاب الكهف فيها ، وتبلغ آياتها عشرا ومائة آية .

الغرض منها وترتيبها :

قيل إن قريشا بعثت إلى أحبار اليهود بالمدينة يخبرونهم بأمر النبى صلى الله عليه وسلم ، ويسألونهم عنه ، فقالوا : سلوه عن ثلاثة فتية ذهبوا فى الدهر الأول ما كان من أمرهم ؟ وعن رجل طوّاف قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها ما كان نبؤه ؟ فسألوا النبى صلى الله عليه وسلم عن ذلك ، فقال : أخبركم بما سألتم عنه غدا . ولم يقل — إن شاء الله — فمكث خمس عشرة ليلة لا يأتيه الوحى ، حتى أرجف أهل مكة به ، وقالوا : وعدنا محمد غدا ، واليوم خمس عشرة ليلة . فشقّ هذا عليه ، ثم نزل عليه جبريل بسورة الكهف ، وفيها معاتبة له على حزنه لعدم إيمانهم بما أنزل إليه ، وخبر أولئك الفتية وذلك الرجل الطوّاف .

وقد افتتحت هذه السورة بمقدمة فى بيان الغرض من تنزيل القرآن ، وهو إنذار الكافرين وتبشير المؤمنين ، فليس على النبى صلى الله عليه وسلم إلا أن ينذرهم ويبشرهم ، ولا يصح له أن يحزن لعدم إيمان قومه ورؤسائهم به ، لأنه لا قيمة لما عندهم من أمر الدنيا ، وقد مهدَ بهذا لذكر قصة أصحاب الكهف ، لأنهم أثروا دينهم على دنيا قومهم ، واعتزلوهم فى الكهف حين خافوا منهم على دينهم ، ثم ذيَّل قصة أصحاب الكهف بما يناسب الغرض من ذكرها ، ثم ذكر قصة الرجل الطوافّ وهو ذو القرنين وذَيَّلها بما ذيلها به إلى آخر السورة .

وقد ذكرت هذه السورة بعد سورة الإسراء لأنها تنوه بشأن القرآن مثلها ، ولأن سورة الإسراء جاء فى ختامها تنزيه الله عن الولد ، وقد جاء فى أول سورة الكهف إنذار الذين قالوا اتخذ الله ولدا .

المقـــدمة

الآيات (١ — ٨)

قال الله تعالى (الحمدُ للهِ الذى أنزلَ على عبدِهِ الكتابَ ولمْ يجعلْ له عوَجاً) فذكر أنه أنزل عليه القرآن كاملا فى ذاته مكملا لغيره ، لينذر الكافرين عامّة بأساً شديدا من لدُنهُ ، ويبشر المؤمنين بأن لهم أجراً حسنا ، وينذر خاصّة الذين قالوا إن الله اتخذ ولدا ، ثم ذكر للنبي صلى الله عليه وسلم أنه لعله باخع نفسه أسفا لأن قومه لم يؤمنوا بما أنزل عليه ، وأنه جعل ما على الأرض زينة لها ليبلوهم أيُّهم أحسن عملا (وإنَّا لجاعلونَ ما عليها صعيداً جُرُزاً)

قصة أصحاب الكهف

الآيات (٩ — ٨٢)

ثم قال تعالى (أمْ حسبتَ أنَّ أصحابَ الكهفِ والرقيمِ كانوا منْ آياتنا عَجباً) فذكر للنبى صلى الله عليه وسلم أنه حسب أن أصحاب الكهف والرقيم (اسم كلبهم) كانوا عجباً من آياته ، وأمره أن يذكر إذ أوَوْا إلى الكهف طالبين منه أن يرحمهم ويرشدهم إلى رضاه ، فضرب على آذانهم فى الكهف سِنين عدداً ، ثم بعثهم ليظهر أىُّ الحزبين المختلفين فى مدة لبثهم بالكهف أحصى لها أمَداً ، ثم فصَّل هذا الإجمال فذكر أنهم فتية آمنوا به وزادهم هدى ، وأنه ربط على قلوبهم إذ قاموا بين يدى ملكهم فصرحوا له بإيمانهم ، وخالفوه وقومه فى عبادة آلهتهم ، ثم ذكر أنهم اتفقوا حين اعتزلوا قومهم أن يأووا إلى كهف بجبل قريب من مدينتهم ، فلما ذهبوا إليه وضرب على آذانهم فناموا كانت الشمس إذا طلعت تميل عن كهفهم ذات اليمين ، وإذا غربت تميل عنه ذات الشمال ، ليصون أجسامهم عن الفساد بضوء الشمس ، ثم ذكر أنه كان يقلبهم ذات اليمين وذات الشمال لئلا تبلى أجسامهم ، وأن كلبهم وقع فى النوم معهم وهو باسط ذراعيه بباب الكهف ليحرسهم ، ثم ذكر أنه بعثهم من نومهم ليتساءلوا بينهم عن مدة لبثهم ، وأنهم بعثوا أحدهم بورِقهم ليشترى

لهم طعاما من مدينتهم ، وأمروه أن يتلطف فى أمره حتى لا يشعر أحد بهم فيرجموهم أو يعيدوهم فى ملتهم ، ثم ذكر أنه أعثر قومهم عليهم ليعلموا أن وعده بالبعث حق، لأن قيام أصحاب الكهف بعد ذلك النوم الطويل يُشبه من يموت ثم يُبعث ، ثم ذكر أن قومهم تنازعوا فى أمرهم لأنه أماتهم بعد إعثارهم عليهم ، فقال بعضهم : الأولىَ أن نسد باب الكهف فلا يدخل عليهم أحد ، ولا يقف على أحوالهم إنسان . وقال آخرون : بل الأولى أن نبنى على باب الكهف مسجدا نعبد الله فيه ، ونستبقى آثار أصحاب الكهف به .

ثم ذكر ما كان من اختلافهم فى عددهم ، وأمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يذكر لهم أن الله أعلم به ، وأنه لا يعلمه إلا قليل ممن آثره بعلمه، ونهاه أن يجادلهم فى أمرهم إلا جدالا ظاهرا ، فلا يكذبهم فيما يُعينونهُ من عدد ، بل يذكر لهم أن هذا التعيين لا دليل عليه ، فيجب التوقف فى أمره وترك القطع به ، ثم نهاه أن يستفتى أحدا منهم فيهم لأنهم لا علم عندهم بهم ، وألاّ يُقدِمَ على شيء من ذلك وغيره إلا بإذنه ومشيئته ، فلا يرجم بالغيب كما يرجمون فى أمر أصحاب الكهف ، ثم ذكر اختلافهم أيضا فى مدة لبثهم ، وأن بعضهم يذهب إلى أنهم لبثوا فى كهفهم ثلثمائة سنين ، وبعضهم يزيد على ذلك تسع سنين ، وأمره أن يذكر لهم أن الله أعلم بمدة لبثهم (له غيبُ السماواتِ والأرضِ أبصِرْ بهِ وأسمعْ ما لهمْ منْ دونهِ منْ ولىٍّ ولا يشركُ فى حكمهِ أحداً) .

ولما انتهى من هذه القصة ذَيّلها بما يناسبها ، فأمره أن يتلو ما أوحى إليه فيها، لأنه هو الحق الذى لا تبديل فيه ، ولن يجد من دونه مُلتحداً يلجأ فى علم شيء إليه، ثم أمره أن يصبر نفسه مع الذين آمنوا به ، ونهاه أن تعدُوَ عيناه عنهم إلى أهل الدنيا من رؤساء قومه وأغنيائهم ، وأن يطيع هؤلاء الرؤساء والأغنياء فى طرد من آمن به ليؤمنوا هم به، فيكون له بهذا أسوة بأصحاب الكهف، ثم أمره أن يذكر لهم أن الحق منه وهو غنيٌّ عنهم ، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ، فمن كفر فله عذابه الذى أُعِدَّ له ، ومن آمن فلن يضيع عليه عمله (أولئكَ لهم جنات عدْنٍ . . .)

ثم أمره أن يضرب لهم أربعة أمثال تبين لهم خطأهم فى تعاليهم بغناهم على فقراء المؤمنين ، لأن الافتخار يجب أن يكون بالعمل الصالح لا بالمال :

الأول مثل رجلين جعل الله لأحدهما جنتين من أعناب محفوفتين بنخل وجعل بينهما زرعا ، وقد آتى كل منهما ثمره كاملا غير منقوص ، فافتخر بذلك على صاحبه وظن أنه باق له لا يفنى ، وأنه ليس هناك معاد يخاف حسابه ، ولئن كان هناك معاد ليكونن فيه أحسن حالا مما هو عليه فى الدنيا ، فأنكر عليه صاحبه أن يكفر بالله ولا يقابل نعمته بشكره عليها . وذكر له أنه إذا كان يفخر عليه بذلك فعسى أن يؤتيه الله خيرا منه ، ويرسل على جنته صواعق من السماء فتبيدها ، وكان أن الله أرسل عليها ذلك فأبادها ، وأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها ، ويتمنى أن لو كان آمن بربه ، ولم يجد من ينصره من دون الله وما كان منتصرا (هنالكَ الولايةُ للهِ الحقّ هوَ خيرٌ ثواباً وخيرٌ عقبى) .

والثانى مثل الحياة الدنيا فى حقارتها وقلة بقائها ، فهى كماء أنزله الله من السماء فاختلط به نبات الأرض ، ولم يلبث أن جفّ وتكسر وأصبح هشيما تذروه الرياح ، وما يفتخر به أولئك المشركون على فقراء المؤمنين من المال والبنين هو من زينة الحياة الدنيا ، فهو سريع الزوال مثلها ، والأعمال الصالحة الباقية خير منه ثوابا ، ثم ذكر لهم يوم يسيّر الجبال وتبرز الأرض ويحشرهم جميعاً ، وأنهم يعرضون عليه وليس معهم شيء من أموالهم وأولادهم ، ويوضع أمامهم كتاب أعمالهم فيشفقون مما فيه (ويقولون ياوَيْلتَنا مالهذا الكتابِ لا يغادرُ صغيرةً ولا كبيرةً إلا أحصاها ووجدُوا ما عملوا حاضرا ولا يظلمُ ربُّك أحداً) .

والثالث مثل آدم وإبليس ، لأنه إنما تكبر على آدم لأنه افتخر بأصله ونسبه ، وكان من الجن ففسق عن أمر ربه ، وقد نهاهم عن الاقتداء به فى ذلك واتخاذه وذريته أولياء من دونه وهم لهم عدو ، والعاقل لا يتخذ عدوه ولياً له ، ومثلهم لا يصح أن يكون شريكا لله وهو لم يُشْهِدْهم خلق السماوات والأرض ولا خلق أنفسهم ،

وهم مضلون لا يمكن أن يتخذ الله له عضداً منهم ، ثم ذكر أنه إذا جاء يوم القيامة أمرهم أن ينادوا أولئك الشركاء الذين اتخذوهم أولياء ، فيدعونهم فلا يستجيبون لهم ، ولا ينفعونهم بشيء مما كانوا يزعمونه فيهم ، ثم ذكر أنه ضرب تلك الأمثال لهم ليعتبروا بها ، ويرتدعوا عن افتخارهم بكثرة أتباعهم وأموالهم على فقراء المسلمين ، ولكن هذه الأمثال لا تؤثر فيهم ، بل يمضون فيما جبلوا عليه من الجدال والشغب ، ويطلبون أن تأتيهم سنة الأولين من عذاب الاستئصال ، أو تتوالى عليهم ضروب العذاب وهم أحياء ، وهو لم يرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين ليؤمن الناس طوعا لا كرها ، ولكنهم يجادلون بالباطل ليدحضوا به الحق ، ولا يريدون الإيمان إلا بما يقترحونه من تلك الآيات ، وإنما يتخذون ما جاءهم من الآيات وما أنذروا به منها لعباً وهزواً ، ولا يوجد أظلم ممن ذكر بآيات ربه فأعرض عنها ونسي ما قدمت يداه ، ثم ذكر أن سبب إعراضهم هو أنه جعل في قلوبهم أكنة تمنعهم من فهمها ، وأنه جعل في آذانهم وقرا يمنعهم من سماعها ، ثم ذكر أنه لو يؤاخذهم بذلك لعجل لهم ما طلبوه من العذاب ، ولكن عذابهم له موعد لن يجدوا من دونه موئلا (وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا) . والرابع مثل موسى وبعض علماء عصره ، فقد بلغ موسى من علو المنصب ما بلغ ، ولكنه تواضع لذلك العالم الذي آثره الله بعلم لم يعلمه ، وسافر إليه لطلب ذلك العلم ، وكان أن ذكر لفتاه أنه لا يبرح عن السير حتى يبلغ مجمع البحرين فيجد عنده هذا العالم ، فلما بلغ ذلك المكان نسي فتاه حوتاً كان معهما فانساب في البحر ، وكان هذا علامة مكان العالم الذي يطلبه ، ولكن فتاه لم يخبره بذلك حتى جاوزا ذلك المكان وطلب منه غداءهما ، فأخبره بأنه نسي حوتهما إذ أويا إلى الصخرة فانساب في البحر ، فذكر له أن هذا هو ما كان يطلبه ، فارتدا إلى ذلك المكان فوجدا عنده ذلك العالم ، فطلب منه موسى أن يتبعه على أن يعلمه مما آثره الله به ، فأخبر موسى بأنه لن يستطيع الصبر على تعلم ذلك العلم الذي لا يحيط به ، وتخفى عليه أسراره ، فأخبره موسى بأنه سيجده صابرا على ذلك إن شاء الله

تعالى ، فطلب منه ألا يسألهَ عن شيء حتى يحدثه عنه ويعرفه حقيقته ، فانطلقا حتى ركبا فى سفينة فعمد ذلك العالم إليها فخرقها ، فأنكر موسى عليه أن يخرقها ليغرق أهلها، فذكّره بما أخبره به من أنه لن يستطيع الصبر معه ، فاعتذر له موسى بأنه نسى وطلب منه ألاّ يؤاخذه على ذلك النسيان ، فانطلقا حتى وجدا غلاما فعمد ذلك العالم إليه فقتله ، فأنكر موسى عليه ذلك أيضا ، فعاد إلى تذكيره بما أخبره به من أنه لن يستطيع الصبر معه ، فذكر له موسى أنه إن سأله عن شيء بعد ذلك فلا يصاحبه لأنه قد بلغ منه العذرَ ، فانطلقا حتى أتيا أهل قرية فطلبا من أهلها طعاما فأبوا أن يطعموهما ، فوجد ذلك العالم فيها جدارا يوشك أن يسقط فأقامه ، فأنكر عليه موسى أن يقيمه من غير أجر لقوم أبوا أن يطعموهما ، فذكر له أنه لا يمكنه أن يصاحبه بعد هذا ، وأنه سيخبره بتأويل ما أنكره عليه من هذه الأمور الثلاثة، فذكر له أن السفينة كانت لمساكين يعملون فى البحر ، وكان هناك ملك يغصب كل سفينة صحيحة ، فخرقها ليعيبها فلا يغصبها ، وأن الغلام كان أبواه مؤمنين ولو بقى لشبَّ على الطغيان والكفر وفتن به أبواه فكفرا مثله ، وأن الجدار كان لغلامين يتيمين وكان تحته كنز لهما وكان أبوهما صالحا فأقامه لهما حتى يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما (رحمةً منْ ربكَ وما فعلتهُ عنْ أمرِى ذلك تأويلُ ما لمْ تسْطِعْ عليه صبراً) .

قصة ذى القرنين

الآيات (٨٣ — ١٠٨)

ثم قال تعالى (ويسألونكَ عن ذى القرنينِ قل سأتلو عليكم منه ذِكرا) فذكر أنهم سألوه عن ذى القرنين وأنه أجابهم بأنه سيتلو عليهم بعض أخباره ، وفصّلَ ذلك بأنه مكّنَ له فى الأرض وأعطاه من العلم والقدرة والعُدةِ ما يتوصل به إلى مقصوده ، فلما أراد أن يُوَسّعَ ملكه جهة الغرب سار حتى بلغ أوائل بلاد المغرب، فوجد هناك عينا حَمِئَة ووجد عندها قوما لا يكادون يفقهون قولا ، فدعاهم إلى الدخول فى طاعته ، فمن أبى عذبه عذابا شديدا فى الدنيا ، إلى ما سيناله من عذاب

الله فى الآخرة ، ومن دخل فى طاعته جازاه بالحسنى ، ويسَّرَ عليه زكاته وخَراجه وغيرهما ، ثم أراد أن يوسع ملكه جهة الشرق فسار حتى بلغ أوائل بلاد الشرق الأقصى ، فوجد هناك قوما كالأولين لا يسترون أجسامهم من الشمس ، فقضى فيهم ما قضاه سابقا من تعذيب من لم يدخل فى طاعته ، والإحسان إلى من دخل فيها ، ثم سار من هناك حتى بلغ بين السَّدَّين ، فوجد هناك قوما كالأولين أيضاً ، وهم قوم يأجوجَ ومأجوجَ من قبائل الترْكِ ، وكانوا مفسدين فى الأرض فشكاهم إليه من دخل فى طاعته من أهل تلك البلاد ، وطلبوا منه أن يقيم سَدًّا يمنع غاراتهم عليهم ، فأجابهم إلى ما طلبوه من ذلك السد ، وأمرهم أن يأتوه بقطع الحديد فوضع بعضها على بعض حتى سدَّتْ ما بين الجبلين إلى أعلاهما ، ثم وضع المنافخ عليها حتى إذا صارت كالنار صبَّ النحاس المذابَ عليها ، فالتصقَ بعضها ببعض حتى صارت جبلا صلداً ، فلم يقدروا أن يظهروه أو ينقبوه ولما تم له ذلك ذكر أنه رحمة من الله بعباده ، وأنه إذا جاء وعد الله بخروجهم سوَّاهُ بالأرض ، فيخرجون منه يموج بعضهم فى بعض ، ويعيثونَ فسادا فى الناس ، وذلك من أمارات يوم القيامة ، وبعد هذا يُنفخُ فى الصور فيجمعون وسائر الناس للحساب ، وتعرضُ جهنم للكافرين الذين عموا وصمُّوا عما يُذكرهم بذلك اليوم .

ثم أخذ يوبخهم على ظنهم أن ينتفعوا بمن اتخذوهم أولياء من دونه مع إعراضهم عن تدبر ما ذكروا به ، وذكر أنه أعدَّ لهم جهنم نزُلا فلا يصرفهم أحد عنها ، ثم ذكر من قبيح صفاتهم أنهم قد ضل سعيهم فى الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صُنعا ، إلى غير ذلك مما ذكره من وعيدهم ، ثم أتبع وعيدهم بوعد المؤمنين على عادته فى الجمع بين الترهيب والترغيب ، فقال (إنَّ الذينَ آمنوُا وعملوا الصالحاتِ كانت لهم جناتُ الفردَوس نزُلاً ، خالدينَ فيها لا يبغون عنها حِوَلاً)

الخاتمة

الآيات (١٠٩ — ١١٠)

ثم قال تعالى (قلْ لوْ كانَ البحرُ مِداداً لكلماتِ ربِّى لنفِدَ البحرُ قبلَ أنْ تنفَدَ كلماتُ ربِّى ولو جئنا بمثلهِ مدَداً) فختم السورة بالتنويه بشأن ما جاء فيها من ذلك القصص العجيب ، وذكر أن كلماته فى هذا الشأن العجيب لا تنفد ، وأنه لو كان البحر مدادا لها يمده من بعده سبعة أبحر لنفد قبل نفادها ، ثم أمره أن يذكر لهم أن مثله لا يقدر على مثل هذا فقال (قلْ إنمَّا أنا بشرٌ مثلكمْ يوحى إلىَّ أنمَّا إلهكمْ إلهٌ واحدٌ فمنْ كانَ يرْجو لقاءَ ربِّهِ فليعملْ عملا صالحاً ولا يشركْ بعبادةِ ربهِ أحداً)

سورة مريم

تاريخ نزولها ووجه تسميتها :

نزلت سورة مريم بعد سورة فاطر ، وقد نزلت سورة فاطر بعد تسع عشرة سورة من سورة النجم ، وسيأتى أن سورة النجم نزلت عقب الهجرة الأولى للحبشة ، وقد كانت الهجرة إلى الحبشة فى السنة السابعة من البعثة ، فتكون سورة مريم من السور التى نزلت بين هذه الهجرة وحادثة الإسراء .

وقد سُمِّيت هذه السورة بهذا الاسم لذكر قصة مريم فيها ، وتبلغ آياتها ثمانى وتسعين آية .

الغرض منها وترتيبها :

يقصد من هذه السورة ذكر نتفٍ من قصص بعض الرسل للعظة والقدوة ، تتميما لما ورد من ذلك القصص العجيب فى سورة الكهف ، وتقرير الماورد فى ختامها من أن كلمات الله فى ذلك لا نفاد لها ، ولهذا ذكرت سورة مريم بعد سورة الكهف .

وقد ذيلت قصص أولئك الرسل ببيان انحراف أتباعهم عن سَننهم ، وما يستحقون من الجزاء على انحرافهم .

نتف من قصص بعض الرسل

الآيات (١ — ٥٨)

قال الله تعالى (كهيعص ، ذِكرُ رحمةِ ربِّك عبدهُ زكريَّا) فذكرت قصص من قصص الرسل :

الأولى قصة زكريا وابنه يحي ، وقد سبقت فى سورة آل عِمْران ، وهى تخالف ما سبق منها فى أسلوبها وسياقها وما فيها من زيادة ونقص ، وقد ختمها بقوله فى يحي (وسلامٌ عليهِ يومَ وُلِدَ ويومَ يموتُ ويومَ يُبعثُ حيًّا)

والثانية قصة مريم وابنها عيسى ، وقد سبقت أيضا فى سورة آل عمران ، وهى تخالف ما سبق منها فى أسلوبها وسياقها وما فيها من زيادة ونقص ، ولما انتهى منها ذكر أن ما قصه فيها من أن عيسى عبده لا ابنه هو الحق ، وأمرهم أن يعبدوه وحده ولا يتخذوا له شريكا من ولد أو غيره ، ثم أوعدهم على ذلك بما أوعدهم به ، وأنذرهم يوم الحسرة إذ قُضِىَ الأمر وهم فى غفلة وهم لا يؤمنون (إنَّا نحنُ نرث الأرض ومن عليها وإلينا يُرجعُونَ)

والثالثة قصة إبراهيم مع أبيه ، وقد سبقت فى سورة الأنعام ، وهى تخالف ما سبق من جهة أسلوبها وسياقها وما فيها من زيادة ونقص ، وقد ذكر فى آخرها أنه حين اعتزل قومه وما يعبدون من دونه وهب له إسحاق ويعقوبَ وكلاًّ جعله نبيًّا (ووهبنا لهمْ من رحمتنا وجعلنا لهم لسانَ صِدقٍ عليًّا)

والرابعة قصة موسى ، وقد ذكر فيها أنه كان مخلصاً وكان رسولا نبياً ، وأنه ناداه من جانب الطور الأيمن وقرَّبَهُ نجيا (ووهبنا لهُ من رحمتنا أخاهُ هارونَ نبيا)

والخامسة قصة إسماعيل ، وقد ذكر فيها أنه كان صادق الوعد وكان رسولا نبيا (وكانَ يأمرُ أهلهُ بالصلاةِ والزكاةِ وكانَ عندَ ربِّه مرْضياً) .

والسادسة قصة إدريس ، وقد ذكر فيها أنه كان صِديقاً نبياً ، وأنه رفعه مكانا عليا .

ثم أثنى عليهم عموما بعد أن أثنى على كل واحد بخصوصه ، فقال (أولئك الذين أنعم اللهَ عليهمْ مِنَ النَّبِيِّينَ من ذُرية آدم ومِمنْ حملنا معَ نوح ومن ذرية إبراهيمَ وإسْرائيلَ ومِمَّن هَديْنَا واجْتبَيْنَا إذا تُتْلىَ عليهمْ آياتُ الرحمانِ خرُّوا سُجَّداً وبُكياً) .

انحراف خلفهم عن سننهم

الآيات (٥٩ — ٩٨)

ثم قال تعالى (فخلفَ منْ بعدهم خلفٌ أضاعوا الصلاةَ واتبعوا الشهوات فسوفَ يلقَوْنَ غيا) فذكر أنه خلف من بعد هؤلاء الرسل خلف انحرفوا عن سننهم فأضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات ، وأنهم سوف يلقون جزاء غيهم ، واستثنى من تاب منهم وآمن بالنبي صلى الله عليه وسلم ، ووعدهم بأنهم يدخلون الجنة الخ ، ثم ذكر أنهم لا يتنزلون فيها إلا بأمره ، لأنه مالك كل شيء مما بين أيديهم وما خلفهم وما بين ذلك ، وما كان لينسى إحسان المحسن وإساءة المسيء فلا يجازيهما عليهما ؛ ثم ذكر بمناسبة هذا إنكارهم للمعاد الذى يكون فيه الثواب والعقاب ، لاستبعادهم إحياء الانسان بعد موته ، ، وأجابهم بأنه خلق الإنسان من قبل موته ولم يك شيئا ، فهو قادر على إعادته بعد موته من باب أولى ، ثم أقسم ليحشرنهم والشياطين وليحضرنهم حول جهنم باركين على ركبهم ، ولينزعن من بينهم من كان منهم أشد تمرداً ليذيقه عذابا أعظم من غيره ، وهو أعلم بمن هو أولى بذلك من غيره ، ولا بد من ورودهم لها جميعاً على تفاوت عذابهم فيها (ثم ننجي الذين اتقوا ونَذَر الظالمين فيها جثيا) .

ثم ذكر السبب فى عدم إيمانهم بذلك وهو اغترارهم بدنياهم ، فذكر أنهم إذا تتلى عليهم آياته فى ذلك واضحات ذكروا أنهم أحسن حالا من المؤمنين ، ولو كانوا على الباطل لـكانوا أسوأ حالا منهم ، ورد عليهم بأنه كم أهلك من قبلهم من كان أحسن حالا منهم ، وبأنه إنما ينعم عليهم بذلك ليمدَّ لهم فى الضلالة ويقطع عنهم العذر ، حتى إذا رأوا ما يُوعَدُونَ فى الدنيا أو الآخرة علموا أنهم شر مكانا وأضعف جندا (ويزيدُ اللهُ الذينَ اهتدَوْا هُدًى والباقياتُ الصالحاتُ خيرٌ عندَ ربِّكَ ثَواباً وَخيرٌ مَردًّا) .

ثم خص شخصا منهم بلغ به الغرور مبلغه حتى قال استهزاء (لأوتينّ مالا وولداً) فى المعاد كما أوتيت ذلك فى الدنيا ، ورد عليه بأنه لم يطلع على الغيب ولم يتخذ عنده بذلك عهدا ، ثم أوعده بأنه سيـكتب ماقاله ويرث ماله وولده حتى يأتيه يوم القيامة فردا .

ثم ذكر أنهم يعتمدون فى ذلك على أن آلهتهم ستشفع لهم يوم القيامة ، ورد عليهم بأنهم سيكفرون فيه بعبادتهم ويـكونون عليهم ضدا ، ثم ذكر أن الشياطين استولت عليهم فلا فائدة فى نصحهم ، ونهى النبي صلى الله عليه وسلم أن يَعجل عليهم العذاب لأنه يعده لهم عدا ، ثم ذكر أنه إذا أتى وقته يحشر المتقين وفدا ، ويسوق المجرمين إلى جهنم كأنهم نعم عطاش تساق إلى الماء ، ولا يـكون هناك شفاعة إلا للمؤمنين الذين اتخذوا عند الرحمان بذلك عهدا .

ثم ذكر أن فريقا منهم يزعم أن الملائكة بنات الله ، فيعبدها ويزعم أنها تشفع له يوم القيامة ، ورد عليهم بأنهم قد جاءوا بهذا شيئا إدًّا ، وبأنه ما ينبغى له أن يتخذ ولدا ، ثم ذكر أن كل من فى السماوات والأرض يأتيه يوم القيامة عبدا ، وأن كل واحد منهم يأتيه فردا ، لا شفيع له من الملائكة وغيرهم .

ثم ختم السورة بإثبات الشفاعة للمؤمنين بعد أن نفاها عن غيرهم ، فذكر أنه سيجعل لهم يوم القيامة وُدًّا يشفع به بعضهم فى بعض ، ولا يقطع ما بينهم من

تواصل كما قطع بين الكفار ومن اتخذوه من شريك وولد، ثم ذكر أنه إنما يسر القرآن بلسانه لأجل هذا التبشير والإنذار، فقال (فإنما يسرناهُ بلسانكَ لتبشرَ به المتقين وتنذر به قوماً لُدا، وكم أهلكنا قبلهم مِن قرنٍ هل تحسُّ منهم مِن أحد أو تسمع لهم رِكزاً).

سورة طـــه

تاريخ نزولها ووجه تسميتها :

نزلت سورة طه بعد سورة مريم، وقد نزلت سورة مريم فيما بين الهجرة إلى الحبشة وحادثة الإسراء، فيكون نزول سورة طه فى ذلك التاريخ أيضاً .

وقد سميت هذه السورة بهذا الاسم لابتدائها به، وتبلغ آياتها خمسا وثلاثين ومائة آية .

الغرض منها وترتيبها .

يقصد من هذه السورة حثُّ النبى صلى الله عليه وسلم على الصبر على ما يلقاه من إعراض قومه عن دعوته، ولهذا افتتحت بأنه لم ينزل عليه القرآن ليشقى إذا لم يؤمنوا به، لأنه ليس عليه إلا أن يذكر به من يخشى، فإذا لم يؤمنوا به فلا شيء عليه من عدم إيمانهم، ثم قَصَّ عليه بعد هذا قصة موسى من أولها إلى آخرها، ليتأسى بما كان من ثباته أمام فرعون، ومن صبره على عناد بنى إسرائيل، ثم قَصَّ عليه بعدها قصة آدم، ليحذره مما وقع فيه بسبب التعجل وعدم الصبر على الابتلاء والاختبار، ثم ختم السورة بحثه على الصبر كما افتتحها به .

وقد ذكرت هذه السورة بعد سورة مريم لأنها تشبهها فى غلبة الأسلوب القصصى عليها، فهى تعد من هذه الناحية كأنها تكميل لها ولسورة الكهف، وتقرير لما ورد فى آخر سورة الكهف من أن كلمات الله فى ذلك لا نفاد لها .

الحث على الصبر

الآيات (١ — ٨)

قال الله تعالى (طه ، ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى) فذكر أنه لم ينزل عليه القرآن ليشقى إذا كفروا به أسفا على كفرهم ، لأنه لم ينزله عليه إلا ليذكر به من يخشى عقابه ، فهو الذى يرجى إيمانه به ، ثم أخذ ينوه بشأن هذا القرآن الذى يعرضون عنه ، فذكر أنه تنزيل ممن خلق السماوات والأرض ، إلى غير هذا من صفات العظمة التى ذكرها ، وختمها بقوله (الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى)

قصة موسى

الآيات (٩ — ١١٤)

ثم قال تعالى (وهل أتاك حديث موسى) فذكر قصة موسى حين رجع من مدين إلى مصر ، وأنه رأى نارا فذهب إليها ، وهناك ناداه ربه أنه اختاره لرسالته ، وأنه أعطاه آيتين : آية عصاه يلقيها فتكون حية تسعى ، وآية يده يضمها إلى جناحه فتخرج بيضاء من غير سوء ، ثم أمره أن يذهب إلى فرعون لأنه طغى وادعى الألوهية ، فقبل الرسالة ، ودعا الله أن يشرح له صدره حتى لا يضيق بما يلاقيه فى تلك الدعوة ، ثم طلب إليه أن يشرك معه أخاه هارون ، فأجابه إلى طلبه ، ثم أمرهما أن يذهبا إلى فرعون وأن يقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى ، فلما أتياه قالا له إنا رسولا ربك إليك ، وطلبا منه أن يرسل معهما بنى إسرائيل ويكف عن عذابهم ، وأخبراه بأنهما قد جاءاه بآية من ربه تدل على صدقهما ، ثم ذكر أن فرعون سأل موسى عن ربه ، فأجابه بأنه هو الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى ، وأنه سأله عن حال القرون الأولى كيف يحيط بها علمه مع تمادى كثرتها ، فأجابه بأن كل ماسلف مثبت عنده فى كتاب ، فلا يضل عنه ولا ينساه ، ثم ذكر أنه أراه الآيتين السابقتين فكذب وأبى ، وزعم أنهما سحر يريد أن يخرجهم به من أرضهم ، وأخبره بأنهم سيأتونه بسحر مثله ، وطلب منه

أن يجعل بينهم وبينه موعدا يجتمعون فيه ، فضرب لهم موسى يوم الزينة موعدا ، وهو يوم عيد لهم ، فجمع فرعون سحرته فى هذا اليوم ، وكانوا قد أتوا بحبال وعصى لطخوها بالزئبق ، فألقوها فى الشمس فاضطربت واهتزت ، وخيل إلى الناس أنها حيات تسعى ، فألقى موسى عصاه فإذا هى أعظم من حياتهم ، ثم أخذت تزداد عظما حتى ملأت الوادى ، وذهبت إلى حياتهم فأكلتها ، فعرف السحرة أن هذا ليس بسحر ، وآمنوا بموسى وربه، وقد هددهم فرعون بما هددهم به فلم يرجعوا عن إيمانهم

ثم ذكر أنه أوحى إلى موسى أن يسير ببنى إسرائيل ليلا ، وأن فرعون تبعهم بجنوده حين علم بهربهم ، وأنه شقّ البحر لبنى إسرائيل فاجتازوه ، وأن فرعون أدركهم وهم يجتازونه فتبعهم بجنوده (فَغَشِيَهُمْ من الْيَمِّ ما غشيهمْ ، وأضل فرعونُ قومه وما هَدى)

ثم انتقل إلى ما كان بعد ذلك من بنى إسرائيل ، فذكر أنه أنجاهم من فرعون عدوهم ، إلى غير هذا مما ذكره من نعمه عليهم ، ثم أمرهم أن يأكلوا من طيبات ما رزقهم ، ونهاهم أن يطغوا فيه لئلا يَحِلَّ غضبه عليهم ، ثم ذكر ما كان من فتنتهم بعبادة العجل بعد ذهاب موسى لميعاد ربه ، وأن موسى حين رجع إليهم لامهم على ما كان منهم ، فذكروا له أن السامرىّ هو الذى أغواهم بعبادة العجل ، إذ صنع لهم من حليهم عجلا جسدا له خُوَارٌ ، وزعم لهم أنه إلههم وإله موسى ، فافتتنوا بذلك وصدقوه فى زعمه ، ثم ذكر أن هارون نهاهم عن ذلك فذكروا له أنهم سيقيمون عليه إلى أن يرجع موسى إليهم . وأن موسى لام هارون على أنه لم يقاتلهم هو ومن لم يعبد العجل ، فأجابه بأنه خشى أن يُفَرِّقَ بينهم بالقتال ، فاكتفى بنصحهم ووعظهم ، ثم ذكر أن موسى سأل السامرى بعد ذلك عما دعاه إلى فتنة قومه ، فأخبره بأنه كان قد أخذ بعضا من سُنَّتِهِ ودينه ، ثم بَدا لَه فنبذها ودعا إلى تلك العبادة ، فأمر موسى بطرده من خلة بنى إسرائيل ، فخرج طريدا هو وأهله إلى البرارى . ثم أتى بالعجل فحرقه بالنار ، ونسف رماده فى الْيَمِّ ، ليبين لهم أن مثل هذا لا يصح أن يتخذ إلها (إِنَّمَا إلهكمُ اللهُ الَّذي لا إلهَ إلا هُو وسِعَ كُلَّ شيءٍ عِلْمًا) .

ثم ذكر أنه يقص عليه ذلك ليكون عظة له ولقومه ، وأنه أنزل القرآن بمثل ذلك ليذكرهم به ، وانتقل من ذلك إلى تهديد من يعرض عنه بما هدده به من العقاب الذى يثقل حمله عليهم ، ومن حشرهم زُرْقاً يوم ينفخ فى الصُّورِ ، فيقومون من قبورهم ، ويتساءلون بينهم عن مدة لبثهم قبل قيامهم ، فيذكر بعضهم أنهم لم يلبثوا إلا عشرة أيام ، ويذكر بعضهم أنهم لم يلبثوا إلا يوما ، لأن شدة الأهوال تنسيهم مدة لبثهم ، ثم ذكر أن الجبال تنسف بعد النفخ فى الصُّور ، وأن الأرض تكون ملساء مستوية لانبات فيها ، وأنهم يُدْعَوْنَ إلى الحشر فيسير الدَّاعِي بهم لا يُعَرِّجُ هنا أوهناك ، فإذا وقفوا للحساب خشعت الأصوات للرحمان ، فلا يشفع عنده إلا من أذن له ورضى قوله ، ثم ذكر أن وجوههم تعنو له وتخضع لحكمه ، فيحرم من الثواب من حمل ظلما فى الدنيا ، وينال من عمل صالحا ثوابه ولا يخاف ظلما ولا هضما ، ثم ذكر أنه أنزل القرآن وكرر فيه هذا الوعيد لعلهم يتقون أو يُحدِثُ لهم ذكرا (فتعالى اللهُ المَلِكُ الحقّ ولا تعجلْ بالقرآن مِنْ قبلِ أنْ يُقضَى إليكَ وَحْيُهُ وقلْ رَبِّ زدنى علما) .

قصة آدم

الآيات (١١٥ — ١٢٧)

ثم قال تعالى (ولقد عهدنا إلى آدمَ مِن قبلُ فنَسِيَ ولمَ نجدلهُ عزماً) فذكر أنه عهد إلى آدم فى الجنة ألاَّ يأكلَ من الشجرة فضاق صدره بذلك التكليف ، وضعف عن تحمله ، فعوقب على ذلك بالخروج من الجنة ، وقد أتى بذلك من أول الأمر ليدل على موضع العِبرَةِ من ذكر قصة آدم ، ثم ذكر تفصيل ذلك من أمر الملائكة بالسجود له ، وأنهم أطاعوه فسجدوا إلا ابليس أبى ، إلى أن ذكر ما كان من أمر آدم وحَوَّاءَ بالهبوط من الجنة ، وعهده إليها وإلى ذريتها أنه إذا أتاهم منه هدى فمن اتبعه فلا يضل ولا يشقى ، ومن أعرض عنه فإنه يقضى دنياه فى ضَنْكٍ

وشدة ، لأن الكفر لا اطمئنان معه ، ثم يكون حاله فى الآخرة أسوأ من الدنيا ويحشرفيها أعمى، فإذا سأل ربه لِمَ حشره أعمى وقدكان بصيرا ، أجابه بأنه كذلك أتته آياته فَنَسِيَهَا وكذلك اليوم يُنسى (وكذلِكَ نجزى من أسرفَ ولم يؤمن بآياتِ ربّهِ ولعذابُ الآخرةِ أشدُّ وأبقى).

الخاتمة

الآيات (١٢٨ — ١٣٥)

ثم قال تعالى (أفَلَمْ يَهْدِ لهمْ كَمْ أهلكنا قبلهمْ مِنْ القرونِ يمشونَ فى مساكنهمْ إنَّ فى ذلِكَ لآياتٍ لأولى النُّهى) فحَذَّرَ كفار قريش أن يصيبهم ماأصاب من قبلهم الأمم منالذين يمشون فىمساكنهم،وذكرأنه لولا قضاء الله بأنه لايهلكهم كما أهلك من كان قبلهم لكان عذابه لزاماً لهم ، ثم أمر النبى صلى الله عليه وسلم بأن يصبرعلى تعنُّتهم ، وأن يستعين على هذا بالمثابرة على الصلوات فى أوقاتها، ونهاه أن يمُدَّ عينيه إلى مامتَّع به بعضهم من زينة الدنيا ، لأن ما عنده من الثواب خير أبقى ، ثم ذكر من تعنتهم أنه اقترحوا عليه آية تدل على نبوته ، وأجابهم بأنهم قد وأتاهم أخبار الأمم السابقةفى الصحف الأولى ، إذ طلبوا من الآيات مثل طلبهم ولم يؤمنوا بها ، فأهلكهم وعجَّللهم عذابهم ، ولوأنه أهلكهم قبل أن يرسل إليهم رسلهم ويجيبهم إلى ما اقترحوا من الآيات (لقالُوا ربَّنا لَوْلاَ أرسلتَ إلينا رسولاً فنتَّبِعَ آياتكَ مِنْ قبلِ أنْ نَذِلَّ ونخزى،قُلْ كُلٌّ متربِّصٌ فتربَّصوُا فستعلمونَ مَنْ أصحابُ الصِّراطِ السَّوِىِّ ومَن اهتدى).

سورة الأنبياء

تاريخ نزولها ووجه تسميتها

نزلت سورة الأنبياء بعد سورة إبراهيم ، وقد نزلت سورة إبراهيم بعد الإسراء وقُبَيل الهجرة ، فيكون نزول سورة الأنبياء فى ذلك التاريخ أيضاً .

وقد سُمِّيت هذه السورة بهذا الاسم لأنه اجتمع فيها على قصرها كثير من قصص الأنبياء ، فسميت سورة الأنبياء باسمهم ، وتبلغ آياتها اثنتى عشرة ومائة آية .

الغرض منها وترتيبها :

يقصد من هذه السورة إثبات قرب ما أمروا بتربصه من العذاب فى آخر السورة السابقة ، وبيان ما جاء فيه من ذلك الصراط السَّوِىّ ، ولهذا ذكرت هذه السورة بعد السورة السابقة ، وابتدئت بإنذارهم باقتراب حسابهم ، فجاء أولها فى هذا الإنذار ، وجاء آخرها فى ذكر قصص أولئك الأنبياء ، وبيان اجتماعهم على دين التوحيد ، وهو ذلك الصراط السوى .

إنذارهم باقتراب حسابهم
الآيات (١ — ٤٧)

قال الله تعالى (اقتربَ للناسِ حسابهم وهمْ فى غفلة معرضونَ) فأنذرهم بأن حسابهم قد اقترب بتسليط المسلمين عليهم ، وذكر أنهم مع هذا فى غفلة معرضون ، وأنهم ما يأتيهم من عظة جديدة من عظات القرآن إلا استمعوها وهم يلعبون ، وتناجوا بالطعن فيمن ينذرهم ويعظهم (هلْ هذَا إلا بشرٌ مثلكم أفتأتون السحرَ وأنتم تبصرونَ) وهددهم بأنه يعلم القول فى السماء والأرض فلا يخفى عليه ما يتناجون به ، ثم ذكر أنهم عدلوا عن رمى القرآن بأنه سحر ، وقالوا إنه أضغاث أحلام بل افتراه بل هو شاعر ، وأنهم طلبوا أن يأتيهم بآية مثل آيات الأنبياء الأولين ، وأجاب عن هذا بأنه ما آمنت قبلهم من قرية أهلكها بتلك الآيات ، فلا يؤمنون

مثلهم إذا أجيبوا إلى طلبهم ، ثم أجاب عن اعتراضهم الأول بأنه لم يرسل قبله إلا رجالا من البشر ، وبأنه لم يجعلهم ذوى جسد لا يأكلون الطعام ولا يموتون ، بل كانوا كغيرهم من بنى الإنسان ، ثم ذكر أنه صدقهم ما أنذروا به فأنجاهم ومن شاء ممن آمن بهم وأهلك المسرفين ، وأنه أنزل إليهم كتابا فيه ذكر وموعظة لهم ، فهو خير مما يقترحونه من تلك الآيات ، ثم ذكر أنه كم أهلك من تلك القرى التى أسرفت فى تكذيب رسلها ، وأنهم كانوا إذا أحسوا بالعذاب يركضون منها ، فيقال لهم لا تركضوا وارجعوا إلى ما أترفتم فيه لتسألوا عن أعمالكم ، فيقولون ياويلنا ويعترفون بظلمهم ، ويأخذهم الله بعذابه وهم يشهدون على أنفسهم .

ثم ذكر أنه عاقبهم بذلك عدلا لا ظلماً ، لأنه لم يخلق السماء والأرض ومابينهما عبثاً ، بل خلقهم ليطيعوه ويدينوا بتوحيده ، فإذا اتبعوا الباطل قذف بالحق عليه فيدمغهُ ويبطله ، ثم ذكر أن كل من فى السماوات والأرض مملوك له ، وأن من عنده من الملائكة لا يستكبرون عن عبادته ، فإذا خرج هؤلاء الكفار عن طاعته أحلَّ عليهم نقمته .

ثم ذكر من باطلهم أنهم اتخذوا آلهة من الأرض ، وأبطله بأنه لو كان فى السماء والأرض آلهة إلا الله لفسدتا ، إلى غير هذا مما ذكره فى إبطال تعدُّدِ الآلهة ، ثم ذكر من باطلهم أنهم قالوا إن الملائكة بنات الله ، وأبطله بأنهم عباد خاضعون له كغيرهم ، ولو كانوا بنات له لكانوا آلهة مثله ، إلى غير هذا مما ذكره فى إبطال أنهم بنات له ، ثم أخذ يذكر لهم من الأدلة على وحدانيته أن السماوات والأرض كانتا رَتْقًا ففتقها ، إلى غير هذا مما ذكره من الأدلة على وحدانيته .

ثم رجع إلى ما ذكروه من أنه بشر مثلهم ، فذكر أنه لم يجعل لبشر من قبله الخُلْدَ حتى يجعله بشرا لا يأكل الطعام ولا يموت ، فهو يموت كما يموتون ، وكل نفس لابد أن تذوق الموت ، ثم ذكر مما يفعلونه فى غفلتهم عن يوم حسابهم أنهم كانوا حين يرون النبى صلى الله عليه وسلم يقولون مستهزئين (أهذا الذى يذكر آلهتكم)

ماضين فى غفلتهم عما ينزل عليهم من الذِّكرِ ، مُعْترِّينَ بإمهال الله لهم، مُستعجلينَ ما اقترب من يوم حسابهم ، ثم ذكر أن هذا الاستعجال شأن الإنسان لأنه خلق من عجل ، وأنه سيريهم آيات عذابه فى وقت لا تتقدم عليه ، ثم ذكر هذا الاستعجال المذموم ، وهو قولهم على سبيل الاستهزاء (متى هذا الوعدُ إنْ كنتم صادقينَ) ولو يعلمون أنهم فى ذلك اليوم تحيط بهم النار من كل ناحية لكفُّوا عن استعجالهم ، ثم ذكر أنه إنما ينذرهم بالوحى الذى لا يكذب ، وأنهم إذا مستهم نفحة من العذاب الذى ينذرون به ينادون بالويل ، ويعترفون بأنهم كانوا ظالمين ، ثم ذكر أن ماينزل بهم من ذلك يكون عدلا ، لأنه لا يكون إلا بعد حساب توزَنُ فيه الأعمال (فلا تُظلمُ نفس شيئاً وإنْ كان مثقالَ حَبَّةٍ من خَرْدلٍ أتينا بها وكفى بنا حاسبينَ) .

قصص الأنبياء

(الآيات ٤٨ — ٩١)

ثم قال تعالى (ولقد أتينا مُوسى وهارونَ الفرقانَ وضياءً وذكراً للمتقينَ) فذكر من أولئك الأنبياء موسى وهارون ، وأنه آتاهما الفرقان وهو التوراة ، لأنها تفرق بين الحق والباطل ، وأنه أنزل القرآن يزيد عليها فى ذلك فلا يصح أن ينكروه

ثم ذكر أنه آتى إبراهيم الرُّشد إلى الحق قبل موسى وهارون ، فأنكر على قومه عبادة الأصنام ، وبيَّن لهم أن ربهم ربُّ السماوات والأرض لأنه هو الذى خلقهن ، ثم بين بالعمل أن هذه الأصنام ليست بآلهة ، فذهب فى خفية إليها فكسَّرها ، وترك صنما كبيرا لهم فلم يكسره ، فلما ذهبوا إليها سأل بعضهم بعضاً عمن فعل هذا بها ، واتهموا إبراهيم فأحضروه وسألوه (أأنت فعلتَ هذا بآلهتنا) فقال لهم (بلْ فعلهُ كبيرهمْ هذا فاسألوهم إنْ كانوا ينطقونَ) فكادوا يصدقونه لأنه كان قد وضع فأساً بين يديه ، ولكنهم عادوا فذكروا له أنها لا تنطق حتى يسألونها عمن كسرها ، وهنالك قامت له الحجة عليهم بإقرارهم ، فوبخهم على أنهم يعبدون مالا

ينفعهم شيئا ولا يضرهم ، فعلموا أنه هو الذى كسرها ، وأوقدوا له نارا ليحرقوه فيها ، فلما ألقوه فيها جعلها الله بَرْداً وسلاما عليه ، ونجاه ولوطا ابن أخيه إلى أرض فلسطين ، ووهب له إسحاق ويعقوب نَافِلة وجعلهم صالحين ، فكانوا أئمة يهدون بأمره ويخلصون العبادة له .

ثم ذكر أنه آتى لوطا علما ونجاه من القرية التى كانت تعمل الخبائث ، وأدخله فى رحمته لصلاحه واستقامته .

ثم ذكر أنه استجاب لنوح حين نجاه وأهله من الغرق ، ونصره على كفار قومه فأغرقهم أجمعين .

ثم ذكر أنه آتى دَاوُدُ وسليمان العلم والفهم ، وأن غنما دخلت كرْماً فأتلفته ، فشكا صاحب الكرم صاحب الغنم إلى داود ، فقضى بالغنم لصاحب الكرم لأنه لم يكن هناك تُفَاوُتٌ بين ثمنهما ، وقضى سليمان بتسليم الغنم لصاحب الكرم لينتفع بها إلى أن يصلح صاحبها كرمه ، وكان هذا الحكم هو الأرفق بهما ، ثم ذكر أنه سخر لداود الجبال والطير وعلمه صَنْعَةَ الدروع ، وسخر لسليمان الريح والشياطين .

ثم ذكر أنه استجاب لأيوب حين ناداه أنه قد مسه الضر ، فكشف عنه ضره وآتاه أهله ومثلهم معهم .

ثم ذكر إسماعيل وإدريس وذا الكفلِ وأنهم كانوا من الصابرين ؛ وذكر ذا النُّونِ وأنه ناداه وهو فى بطن الحُوتِ فاستجاب له ، وَنجَّاهُ من الغم الذى كان فيه .

ثم ذكر زكريَّا حين شكا إليه أنه لا ولد له فوهب له يحْيي وأصلح له زوجه ، لأنهم كانوا يسارعون فى الخيرات ، ويدعونه رَغباً وَرَهباً .

ثم ذكر مريم التى أحصنت فرجها فنفخ فيها من روحه ، وجعلها وابنها آية للعالمين

الخـــاتمة

الآيات (٩٢ — ١١٢)

ثم قال تعالى (إن هذه أمَّتُكم أمَّةً واحدةً وأنا ربُّكم فاعبدونِ) فذكر لهم

أن ملتهم التي يدعوهم إليها ملة واحدة تتابع أولئك الأنبياء عليها ، وأن ربهم واحد يجب أن يعبدوه ، وأنهم انحرفوا عنها فتفرقوا فرقا كثيرة ، وأنه لا بُدَّ من يوم يرجعون فيه إليه ، فلا ينجو منهم إلا من آمن به وعمل صالحا ، وأما من أهلكهم من أهل القرى فلا يمكن أن يرجعوا إلى دنياهم ليستدركوا مافاتهم ، وإذا فتحت يأجُوج ومأجُوج يكونون أول الناس حضورا فى محفل القيامة ، وهنالك ينادون بالويل ، ويشهدون على أنفسهم أنهم كانوا فى غفلة عن هذا اليوم ، فيقال لهم (إنكم وما تعبدونَ من دونِ اللهِ حصَبُ جهنَّمَ أنتم لها واردونَ) ولو كانوا آلهة ماوردوها لأن الآلهة لا يصح تعذيبها ، ثم ذكر أن الذين سبقت لهم منه الحسنى لا يردون جهنم ، وأنهم يدخلون الجنة فيخلدون فيها ، إلى غير هذا مما ذكره فى أحوال هذا اليوم .

ثم ذكر أنه كتب فى الزبور من بعد التوراة أن الأرض يرثها عباده الصالحون ، لينذر المشركين بتسليط المؤمنين عليهم فى الدنيا ، بعد أن أنذرهم بسوء حالهم فى الآخرة ، فيكون ما اقترب من حسابهم فى الآخرة والدنيا معا ، ثم ذكر أن فى هذا الإنذار كفاية لقوم عابدين ، وأنه لم يرسل النبي صلى الله عليه وسلم إلا رحمة للعالمين ، فلا بد أن يظهر أمره ليكون فيه رحمتهم وصلاحهم ، ثم ختم السورة بإجمال ماذكره فيها . فأمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يذكر لهم أن إلههم واحد لا شريك له ، فيجب أن يؤمنوا به ، وأمره أن يؤذنهم بيوم عذابهم إن أعرضوا عنه ، وأن يخبرهم بأنه لا يدرى أقريب أم بعيد مايوعدون ، لأنه هو الذي يعلم كل شيء من جهر القول وما يكتمون ، ثم ذكر أن تأخير ما يوعدهم به إنما هو فتنة لهم ومتاع إلى حين (قالَ ربِّ احكمْ بالحقِّ وربُّنَا الرحمانُ المستعانُ على ما تصفونَ) .

سورة الحج

تاريخ نزولها ووجه تسميتها :

نزلت سورة الحج بعد سورة النور ، وقد نزلت سورة النور بعد سورة الحشر ، وكان نزول سورة الحشر فيما بين صلح الحديبية وغزوة تبوك [١] فيكون نزول سورة الحج في ذلك التاريخ أيضاً ، وعلى هذا تكون من السور المدنية ، وهو المشهور في تاريخ نزولها .

وقيل إن سورة الحج من السور المكية ، وقد استثنى من ذهب إليه هذه الآيات (١٩ و ٢٠ و ٢١ و ٢٢ و ٢٣ و ٢٤) فذهب إلى أنها نزلت بالمدينة .

وقد سميت هذه السورة بهذا الاسم لما ورد فيها من الكلام على الحج ، وتبلغ آياتها ثماني وسبعين آية .

الغرض منها وترتيبها :

يقصد من هذه السورة بيان أهوال يوم القيامة ، والإذن في قتال من يؤذي المسلمين من المشركين وغيرهم ، ولهذا ذكرت بعد سورة الأنبياء ، لأنها ختمت بتهديد المشركين بالفزع الأكبر في يوم القيامة ، وبتسليط المسلمين عليهم في الدنيا ، فجاءت هذه السورة بعدها وفي أولها بيان ذلك الفزع الأكبر ، وفي آخرها الإذن بقتال المشركين ، ليكون به تسليط المسلمين عليهم في الدنيا .

بيان أهوال يوم القيامة

الآيات (١ — ٢٤)

قال الله تعالى (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ) فأمر الناس بتقواه ، وحذرهم من أهوال الساعة التي يبلغ من شدتها أن تذهل بها كل مرضعة عما أرضعت ، وتضع كل ذات حمل حملها ، ويُرَى الناس سكارى

---

(١) قد سبق أن الحق أن سورة الحشر نزلت قبل صلح الحديبية .

وماهم بسكارى ولكن عذاب الله شديد .

ثم ذكر أن من الناس من يجادل فى دين الله تقليداً من غير علم ، فينكرون تلك الأهوال ، ويرتابون فى بعثهم بعد موتهم ، ورد عليهم بأنه خلقهم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلّقة وغير مخلقة ، إلى غير هذا مما ذكره فى سلسلة خلقهم ، ومن يقدر على هذا يقدر على أن يبعثهم كما خلقهم ، ولا يصح لهم معه أن يرتابوا فى الساعة وأهوالها .

ثم ذكر أن من الناس من يجادل فى ذلك عناداً وكبراً ، وهم رؤساء الذين أنكروه فيما سبق تقليداً ، وأن منهم منافقين لا يجادلون فى ذلك ، ولكنهم لا يعتقدون فى الثواب والعقاب ، فيعبدون الله على حرف أى قلق واضطراب ، فإن أصابوا خيراً دنيويا من الغنائم ونحوها اطمأنوا به ، وإن أصابهم شر أظهروا ما عندهم من النفاق ، فيخسرون دنياهم وآخرتهم ، ويدعون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم ، ثم ذكر أنه يدخل الذين آمنوا بذلك جنات تجرى من تحتها الأنهار ، وأنه ينصرهم فى الآخرة والدنيا ، وإذا كان أعداؤهم يظنون أنه لا ينصرهم فليفعلوا ما فى وسعهم لمنع ذلك النصر ، فإن كيدهم لا يُذهب منه مايغيظهم .

ثم انتقل إلى طريق آخر فى إثبات ماينكرونه من ذلك ، فذكر اختلاف الناس فى الدنيا إلى مؤمنين ويهود وصابئين ونصارى ومشركين ، وأنه لا بد أن يفصل بينهم فى ذلك الخلاف ، لأنه لا يخفى عليه شيء من أعمالهم ، فيفصل بواسع علمه فصلا عادلا بينهم ، ولأنه يسجد له من فى السماوات ومن فى الأرض وكثير من الناس وكثير حق عليه العذاب ، فلا بد من الفصل فى هذا بينهم ، ثم ذكر ما يحكم به على فريقى المؤمنين والكافرين من الذين اختلفوا ذلك الاختلاف فى دينهم ، فالذين كفروا تقطّعُ لهم ثياب من نار إلى غير هذا مما ذكره فى عقابهم ، والذين آمنوا يدخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ... (وَهُدُوا إلى الطيّبِ مِنَ القولِ وهدوا إلى صراطِ الحميد) .

الإذن في القتال

الآيات (٢٥ — ٧٨)

ثم قال تعالى (إنَّ الذينَ كفرُوا ويَصُدُّون عن سبيلِ اللهِ والمسجدِ الحرامِ الذي جعلناهُ للناسِ سواءً العاكفُ فيهِ والبادِ ومن يردْ فيهِ بإلحادٍ بظلمٍ نذقْهُ منْ عذابٍ أليمٍ) فمهّد للإذن في القتال بذكر ما يفعله المشركون من صدّ المسلمين عن المسجد الحرام ، وقد جعله للناس سواء ، فليس لهم أن يمنعوا أحداً منه ، وهذا إلى أنهم يلحدون فيه بشركهم ، وقد أمر إبراهيم ببنائه ليعبدالله فيه وحده ، وليكون بيتاً طاهراً للطائفين والقائمين والمصلين ، ويحج الناس إليه من كل فجّ ليشهدوا منافع لهم ، ويذكروا اسم الله ، ويطعموا البائس الفقير ، إلى غير هذا مما ذكره من أمور الحج .

ثم ذكر أنه لهذا يدافع عن المؤمنين ويأذن لهم أن يقاتلوا من ظلمهم وأخرجهم من ديارهم بغير حق ، وأنه لو لم يأذن لهم في القتال لتسلط المشركون عليهم ، وهدّموا بيوت عبادته من المساجد وغيرها ، ثم وعدهم بالنصر والتمكين في الأرض ، ليقوموا فيها بما أتى به الإسلام من صلاة وغيرها مما فيه صلاحها .

ثم ذكر أنهم إن يكذبوه فيما وعده من النصر عليهم فقد كذب قبلهم قوم نوح وغيرهم ، فأملىَ لهم ثم أخذهم فأهلك قراهم ، وإنهم ليسيرون في الأرض فيرونها ولا يتعظون بها ، ولكنهم عمي القلوب فلا تؤثر فيهم تلك العظة ، ثم ذكر أنهم يستعجلونه بذلك العذاب على سبيل الاستهزاء ، وأنه لن يخلف وعده وإن أملى لهم ، لأن اليوم عنده كألف سنة عندنا ، وكثير من القرى قبلهم أملى لهم ثم أخذهم فأهلكهم ، ثم أمره أن ينذرهم بذلك العذاب ليبين لهم أن استهزاءهم به لا أثر له عنده . ولا يمنعه من الإنذار الذي بعث به ، فيعد الذين يؤمنون بأن لهم مغفرة ورزقاً كريماً ، ويوعد الذين يسعون في إبطال آياته بأنهم أصحاب الجحيم .

ثم انتقل من ذلك إلى الكلام فيما لم يسلم منه نبي من الأنبياء من تمنّي التعجيل

بالنصر على الأعداء ، فذكر أن مثل هذا مما يلقيه الشيطان فى أُمْنِيَّتِهِ ، وأنه ينسخ ما يلقيه من هذا فلا يظهر أثره خارج القلب ، ثم يُحْكِمُ آياته وينزل نصره فى الوقت الذى قدَّره له ، ثم ذكر أنه لا يعجل العذاب ليجعل ما يلقى الشيطان من طلب تعجيله أو تَمَنِّيهِ فتنة لمرضى القلوب ، فيمشوا وراء ما يلقى الشيطان ، أما الذين أوتوا العلم فيعلمون أنه الحق من ربهم ، ولا يخرج بهم تَمَنِّيهِ إلى طلب تعجيله ، ثم ذكر أن هؤلاء الكافرين لا يزالون فى شك من ذلك حتى تأتيهم الساعة فجأة أو يأتيهم عذاب فى يوم حرب ، وهنالك يحكم الله بينهم ، فالذين آمنوا يدخلهم جناته ، والذين كفروا لهم عذاب مُهين ، والذين هاجروا فى سبيل الله ثم قُتِلوا أو ماتوا ليَرْزُقَنَّهُمُ الله رزقا حسنا ، وليُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلاً يرضونه ، ولينصرنهم على من بَغَوْا عليهم وأخرجوهم من ديارهم ، وهو العفُوُّ الغفور الذى يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل ، إلى غير هذا مما ذكره فى تأييد قدرته على تحقيق وعده لهم .

ثم انتقل من ذلك إلى تحريضه على الثبات فى دعوته ليمضى فى قتالهم ، ويقطع أطماعهم فى عدوله عنها ، فذكر أن لكل أمة شريعة من الشرائع . فللمسلمين شريعتهم التى بُعِثَ بها ، فليَثْبُتْ عليها ولا يمكِّن المشركين من أن يخدعوه عنها ، وليُثابِرْ على الدعوة اليها ، فإن جادلوه فيها بعد وضوح أدلتها فليُنْذِرْهُمْ بأن الله يعلم ما يعملون ، وسيحكم بينهم فيما كانوا فيه يختلفون ، وهو الذى يعلم ما فى السماء والأرض فلا يخفى عليه شىء من أعمالهم .

ثم انتقل من ذلك إلى بيان فساد طريقتهم بعد بيان استقامة دعوته ، فذكر أنهم يعبدون من دونه ما لا دليل لهم عليه من نقل أو عقل ، وينكرون ما يُتْلى عليهم من الأدلة الواضحة على أنه لا شريك له ، ثم ذكر من ذلك مثلا ضربه لهم ، وهو أن الذين يدعونهم من دونه لن يخلقوا ذُباباً ولو اجتمعوا له ، وإن يَسلُبهمْ الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ، ومن يكون أضعف من الذباب لا يمكن أن يكون إلها ، ثم رتَّب على ذلك أنهم لم يقدروه حق قدره حين سوَّوْا به أولئك الذين يدعونهم

آلهة ، وأنه يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس على أنهم عباد له ، فلا يمكن أن يصطفى أنْداداً له من تلك الآلهة العاجزة ، وهو يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ، وهذه الآلهة لاتعلم شيئا .

ثم ختم السورة بأمر المسلمين بما يضمن لهم الفلاح فى جهادهم ، وهو أن يحافظوا على ما كلَّفهُم به من الصلاة وغيرها ، وأن يخلصوا فى الجهاد الذى أذِنَ لهم فيه ، وأن يذكروا أنه اختارهم لتلك الشريعة السَّمْحَةِ التى هى ملة أبيهم إبراهيم ، وأنه سماهم المسلمين فى الكتب المنزلة قبل القرآن وفى القرآن (ليكونَ الرسولُ شهيداً عليكم وتكونُوا شهداءَ على الناسِ فأقيموا الصلاةَ وآتُوا الزكاةَ واعتصمُوا باللهِ هُو مولاكم فنِعْمَ المَولىَ ونعم النصيرُ)

سورة المؤمنون

تاريخ نزولها ووجه تسميتها :

نزلت سورة المؤمنون بعد سورة الأنبياء ، وقد نزلت سورة الأنبياء بعد الإسراء وقُبَيل الهجرة ، فيكون نزول سورة المؤمنون فى ذلك التاريخ أيضا .

وقد سُمِّيت هذه السورة بهذا الاسم لقوله تعالى فى أولها (قد أفلحَ المؤمنونَ الذينَ هُم فى صلاتهم خاشعونَ) وتبلغ آياتها ثمانى عشرة ومائة آية .

الغرض منها وترتيبها :

يقصد من هذه السورة بيان الشروط التى يفلح المؤمنون بها وينصرون على أعدائهم ، كما نصر الرسل وأتباعهم على أعدائهم من قبلهم ، وقد اقتضى هذا ذكر أخبار بعض الرسل السابقين ، وتذييلها بما يناسب الغرض من ذكرها ، وقد جاء فى سورة الحج الإذن فى القتال للمؤمنين ووعدهم بالنصر والفلاح فى دنياهم وأخراهم ، فجاءت هذه السورة بعدها لبيان الشروط التى يتوقف عليها نصرهم وفلاحهم .

بيان شروط فلاح المؤمنين

الآيات (١ – ٢٢)

قال الله تعالى (قَدْ أفلحَ المؤمنونَ الّذينَ هُمْ فى صلاتهمْ خاشعونَ) فوعد بفلاح المؤمنين على سبيل التحقيق والتأكيد ، وذكر من الصفات التى يتوقف عليها فلاحهم أنهم فى صلاتهم خاشعون ، إلى غير هذا مما ذكره من صفاتهم ، ثم ذكر أنهم بهذه الصفات يرثون جنة الفِرْدَوْس التى أُعِدَّت لهم ، فيفوزون بها فى الدنيا والآخرة ، ثم ذكر من أدلة أُلُوهِيَّتِهِ ما يدل على قدرته على تحقيق وعده بذلك فى الدنيا ، وعلى قدرته على بعثهم بعد موتهم ، ليحق لهم ما وعدهم به فى الآخرة ، فذكر أنه خلق الإنسان من سُلالَة من طين ، ثم جعله نُطْفة فعَلَقَة فمُضْغة إلى أن أنشأه خلقا آخر يتكلم ويعقل ، ثم ذكر أنه خلق فوقنا سبع سماوات وأنزل من السماء ماء بِقَدَر ، إلى أن ذكر خلق الأنعام وقال فيها (وعليها وعلى الفُلْكِ تُحْمَلُونَ) .

أخبار بعض الرسل

الآيات (٢٣ — ١١٨)

ثم قال تعالى (ولقد أرسلنا نُوحاً إلى قومهِ فقالَ ياقومِ اعبدُوا الله مالكم مِن إلهٍ غيرهُ أفَلاَ تتقونَ) فذكر من أخبار بعض الرسل مايثبت أيضا وعده بفلاح المؤمنين ، فذكر خبر نوح مع قومه ، وأنهم كذبوه وقالوا مَرَّة (ما هذا إلاَّ بشَرٌ مثلكم يريدُ أن يتفضَّلَ عليكم) ومرة (إن هُوَ إلاَّ رجلٌ بهِ جِنَّةٌ) فطلب منه أن ينصره عليهم ، فأمره أن يصنع فُلكاً ويحمل فيها أهله إلا من سبق عليه القول منهم ، ونهاه أن يخاطبه فيمن سيغرقه بالطوفان من أعدائه ، ثم ذكر أن فى ذلك لآيات على نصره للمؤمنين وأن من شأنه أن يعاقب المكذّبين .

ثم ذكر أنه أنشأ من بعد قوم نوح قرناً آخرين ، قيل هم عادٌ قوم هود ، وقيل هم ثَمُودُ قوم صالح ، وأنه أرسل فيهم رسولا ليأمرهم بعبادته وحده ، فكذبوه

لأنه بشر مثلهم ، وأنكروا ما أخبرهم به من بعثهم بعد موتهم ، ثم ذكر أنه طلب منه أن ينصره عليهم ، فأخذهم بالصيحة فأهلكهم

ثم ذكر أنه أنشأ من بعدهم قرونا آخرين ، وأنه أرسل رسله تترى رسولا بعد رسول ، فكذبت كل أمة رسولها فأهلكهم أمة بعد أمة .

ثم ذكر أنه أرسل موسى وهارون إلى فرعون وقومه ، وأنهم كذبوهما لأنهما بشران مثلهم ، ومن قوم عابدين لهم ، فأهلكهم كما أهلك من قبلهم من الأمم ، ثم آتى موسى التوراة ليهتدى قومه بها بعد أن نجاهم من استعباد فرعون ، ثم ذكر أنه جعل منهم عيسى ابن مريم وأمه آية فى ولادته منها بغير أب ، وأن آيته كانت خاتمة آياتهم .

ثم ذكر ما كان من أمر هؤلاء الرسل بعد أن نصرهم على أعدائهم ، وأنه أمرهم أن يتمتعوا بما رزقهم من الطيبات فى دنياهم ، وأن يعملوا صالحا ينفعهم فى أخراهم ، وأن يعبدوه وحده لأن شرائعهم واحدة قائمة على أساس التوحيد ، ثم ذكر أن أتباعهم لم يعملوا بهذا بعدهم ، بل اختلفوا فيه اختلافا شديدا ، واغتبط كل فريق منهم بما اتخذه ديناً له ، وأمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يتركهم فى غفلتهم عما بُعث به أولئك الرسل إلى أن يَحينَ عذابهم ، ثم ذكر أنهم إذا كانوا فى نِعَم عظيمة فإنها ليست ثوابا مُعجَّلاً لهم على أديانهم ، وإنما هى استدراج لهم فى المعاصى ليبلغوا ما يبلغون من زيادة الإثم ، ثم ذكر أن ماهم فيه من تلك النعم والخيرات ليس بخيرات على الحقيقة ، وإنما الخيرات ما يسارع فيه المؤمنون من خشية ربهم ، إلى غير هذا مما ذكره من أعمالهم ، ثم ذكر أنه لا يكلف أحداً إلا بما فى وسعه من تلك الأعمال ، وأن لديه كتابا يُسجلها وينطق بالحق فيها ، وأن المشركين فى غفلة عنها بما هم فيه من الكفر والضلال ، ثم ذكر أنه إذا أخذ أصحاب تلك النعم منهم بالعذاب جأرُوا من هو له ، وأنه ينهاهم عن الجؤار لأنه أنذرهم بذلك فيما يُتلىَ عليهم من آياته فكانوا يَنكُصُون على أعقابهم ، ويسمرون بالطعن فى القرآن الذى يتلو ذلك عليهم ، ثم قطع عذرهم بأنه قد مكن لهم من التدبر فى القرآن وما أنذرهم به فلم يتدبروا ، إلى غير هذا مما ذكره فى قطع عذرهم ، ثم ذكر أنه جاءهم بالحق ، وأنه

لا يحملهم على تكذيبه إلا كراهتهم له ، وأنه لم يأت على أهوائهم ، ولو اتَّبعَ الحق أهواءهم لفسدت السماوات والأرض ومن فيهن ، ثم ذكر أنه قد أتاهم من ذلك بما فيه ذكرهم وشرفهم ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم لا يسألهم عليه أجراً ، وأنه يدعوهم إلى صراط مستقيم ، وأنهم عن ذلك الصراط ناكبون ، وأنه لو سمع لجؤارهم وكشف ما بهم من ضر لاستمروا فى طغيانهم ، ولقد أخذهم بعذاب قبل هذا العذاب ثم كشفه عنهم فما استكانوا له ، فلما أخذهم بهذا العذاب يئسوا من كشفه عنهم ، ثم ذكر ما كان يكفى لصرفهم عن تلك المبالغة فى الإعراض ، فذكر أنه هو الذى أنشأ لهم السمع والأبصار والأفئدة ، وأنه هو الذى جعلهم يتناسلون فى الأرض ثم يحشرهم إليه وحده ، وأنه هو الذى يحى ويميت ويخالف بين الليل والنهار ، ثم ذكر أنهم مع هذا مضوا فى إعراضهم وتقليد آبائهم فى إنكار بعثهم بعد موتهم ، وزعمهم أنهم قد وُعِدُوا بذلك هم وآباؤهم فلم يحصل شيء منه ، ثم رَدَّ عليهم بأنهم لا يمكنهم أن ينكروا أن الله هو خالق الأرض ومن فيها ، وهو رب السماوات السبع والعرش ، وأنه بيده ملكوتُ كل شيء ، ومن يكون هذا شأنه يكون قادرا على بعثهم ، ثم ذكر أنه أتاهم بالحق حين أثبت لهم أنه هو الذى خلقهم وحده ، وأنهم إليه يحشرون لا إلى غيره من ولد أو شريك ، لأنه لم يتخذ له ولدا ولا شريكا ، ولو كان معه إله غيره لذهب كل إله بما خلق ، ولعلا بعضهم على بعض ، سبحانه عما يصفون ، وتعالى عما يشركون .

ثم أمر النبي صلى الله عليه وسلم إذا أراه ما يُوعدُون من العذاب أن يدعوه بأن ينجيه منه ، وذكر أنه قادر على أن يُرِيهُ ما يعدُهمْ من ذلك ، ثم أمره أن يحتمل ما يكون منهم قبل ذلك من ضروب الأذى ، وأن يستعيذ به مما يهمز به الشيطان من دفعهم إلى إيذائه ، ثم ذكر أنه إذا جاء أحدهم الموت ندم على ذلك ، وطلب من ربه أن يرجعه إلى الدنيا ليعمل صالحا ، وأنه يجاب بزجره عن هذا الطلب ، لأنه لا سبيل إلى رجوعه إلى أن يبعث من قبره ، ثم ذكر أحوال يوم البعث وأنه ينفخ فى الصُّور فيبعثون من قبورهم ، لا يعرف قريب قريبا ، ولا يسأل شخص

شخصا ، ثم يحاسبون فمن ثقلت موازينه فهم المفلحون ، ومن خفت موازينه فهم في جهنم خالدون ، ثم ذكر أنهم ينادونه فيها ويعتذرون بأن شقوتهم غلبت عليهم ، ويطلبون أن يخرجهم منها فإن عادوا إلى العصيان فهم ظالمون ، فيأمرهم بأن يخسئوا فيها ولا يكلموه في الخروج منها ، ويذكرهم ما كان من سخريتهم بعباده المؤمنين ، ويخبرهم بأنه جزاهم بصبرهم على سخريتهم وجعلهم من الفائزين ، ثم يسألهم على سبيل التوبيخ عن عدد السنين التي لبثوها في الأرض ، لأنهم كانوا يعتقدون أنه لا لبث إلا في الدنيا ، فيجيبون بأنهم لم يلبثوا فيها إلا يوما أو بعض يوم ، فيقرهم على استقصارهم لمدة لبثهم فيها ، لأنها قليلة بالنسبة لما يلبثونه في الآخرة ، ثم يوبخهم على ظنهم أنه خلقهم عبثا وأنهم لا يرجعون إليه ، لأنه الملك الحق الذي يتعالى عن العبث

ثم ختم السورة بنفي الفلاح عن الكافرين ، ليناسب ابتداءها بإثباته للمؤمنين ، وأمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يتوجه إليه بطلب المغفرة والرحمة بعد تفصيل ذلك العذاب للكافرين ، فقال (وقلْ ربِّ اغفرْ وارحم وأنتَ خيرُ الراحمينَ)

سورة النور

تاريخ نزولها ووجه تسميتها :

نزلت سورة النور بعد سورة الحشر ، وقد نزلت سورة الحشر فيما بين صلح الحُدَيبية وغزوة تبوك [1] فيكون نزول سورة النور في ذلك التاريخ أيضا .

وقد سُمِّيت هذه السورة بهذا الاسم لقوله تعالى في الآية — ٣٥ — منها (اللهُ نورُ السماواتِ والأرضِ) وتبلغ آياتها أربعا وستين آية .

الغرض منها وترتيبها :

يقصد من هذه السورة بيان بعض الأحكام العملية التي تتعلق بحفظ الفروج

(١) قد سبق أن الحق أن سورة الحشر نزلت قبل صلح الحديبية

والأعراض، كحكم الزنا والقذف والنظر وغيره من الأحكام الآتية فيها، وقد جاء فيها من الاستطراد ما قصد به تنويع أسلوبها، على عادة القرآن إذا أخذ فى بيان هذه الأحكام.

وقد ذكرت هذه السورة بعد السورة السابقة لأنها ابتدئت بذكر بعض أحكام الإيمان العملية على سبيل الإجمال، وكان من ضمنها حفظ الفروج إلا على الأزواج أو نحوهم، فجاءت هذه السورة بعدها لتفصيل الأحكام المتعلقة بحفظ الفروج والأعراض.

حكم الزنا

الآيات (١ — ٣)

قال الله تعالى (سُورةٌ أنزلناها وفرضناها وأنزلنا فيها آيات بَيِّنات لعلكم تذكَّرونَ) فذكر أنه أنزل هذه السورة وقدَّرَ فيها ما قدر من الحدود والأحكام، وهذه الآية فيها براعة مطلع للمقصود من هذه السورة، ثم ذكر حد الزنا من جلد كل من الزانى والزانية مائة جلدة، وحرَّم زواج الزانى على المؤمنة العفيفة، وزواج الزانية على المؤمن العفيف.

حكم القذف

الآيات (٤ — ٢٦)

ثم قال تعالى (والذينَ يرمونَ المحصناتِ ثمَّ لم يأتوا بأربعة شهداءَ فاجلدوهمْ ثمانينَ جلدةً ولا تقبلوا لهمْ شهادةً أبداً وأولئكَ همُ الفاسقونَ) فذكر حد القذف وهو ثمانون جلدة، ثم ذكر أن من يقذفون أزواجهم بالزنا وليس معهم أربعة أشهداء على زناهن يلاعن كل منهم الآخر، فيدرأ لعانه حد القذف عنه، ويدرأ لعانها حد الزنا عنها، وهذا من فضله ورحمته بها.

ثم استطرد من هذا إلى الكلام على حديث الإفكِ، فذكر أنه كان شرا كبيرا، وأوعد الذى تولى كبرهَ بعذاب عظيم يوم القيامة، ولام من استمعه من

المؤمنين ولم يزجر من قاله ، ثم وعظهم أن يعودوا إلى مثله إن كانوا مؤمنين ، وأنذر الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى المؤمنين بعذاب أليم فى الدنيا والآخرة ، ونهاهم عن اتباع خطوات الشيطان لأنه يأمر بالفحشاء والمنكر ، وذكر لهم أنه لولا فضله عليهم لأوقعهم الشيطان فى هتك أعراضهم ، فلا يزكو أحد منهم أبدا ، ثم أمرهم أن يعاملوا القاذفين بعد إقامة الحد عليهم بالعفو والصفح ، فمن كان منهم فقيرا أو كانت له قرابة بالمقذوف وأهله ، فليمضوا فى الإحسان إليه ولا يقطعوه عنه ، ثم عاد إلى إنذار من يقذف المحصنات الغافلات باللعن فى الدنيا والآخرة ، وبعذاب عظيم يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كان يعملون ، ثم ختم ذلك بدليل قاطع فى براءة عائشة وهو أن الخبيثات يكنّ أزواجا للخبيثين وبالعكس ، والطيبات يكن أزواجا للطيبين وبالعكس ، ولو كانت عائشة خبيثة ما اختيرَتْ زوجا للنبى صلى الله عليه وسلم .

حكم الدخول فى البيوت
الآيات (٢٧ — ٢٩)

ثم قال تعالى (يأيُّها الذينَ آمنوا لاتدخلوا بيوتاً غيرَ بيوتكم حتى تستأنِسوا وتُسلِّمُوا على أهلها ذلكم خيرٌ لكم لعلكم تَذكرونَ) فنهاهم عن دخول بيوت غير بيوتهم إلا بعد الاستعلام والسلام على أهلها ، وأباح لهم أن يدخلوا البيوت التى لا تُتخذُ للسكنى من غير استئذان ، كالفنادق ونحوها .

حكم النظر
الآيتين (٣٠ — ٣١)

ثم قال تعالى (قل للمؤمنينَ يغُضُّوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهمْ ذلك أزكى لهم إنَّ اللهَ خبير بما يصنعون) فأمر الرجال بغضّ البصر عن النساء وحفظ فروجهم ، وأمر النساء بغض البصر عن الرجال وحفظ فروجهن ، ونهاهن أن يظهرن زينتهن إلا ما ظهر منها ، وأمرهن أن يضربن بخمرهن على جيوبهن ، ونهاهن أن يظهرن زينتهن إلا لبعولتهن أو غيرهم ممن ذكرهم ، وأن يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن .

أحكام أخرى

الآيات (٣٢ — ٥٧)

ثم قال تعالى (وأنكحُوا الأيامى منكم والصالحينَ من عبادكم وإمائكم إنْ يكونُوا فقراءَ يغنهم اللهُ من فضله والله واسعٌ عليمٌ) فأمرهم بإنكاح من تأيّم منهم من الأحرار والحرائر ، ومن كان فيه صلاح للنكاح من الغلمان والجوارى ، وأمر من لا يجد مهرا أن يصون نفسه حتى يغنيه ، وأمر بمكاتبة الأرقاء إن علموا فيهم خيراً ، ونهاهم عما كانوا يفعلونه من إكراه فتياتهم على البغاء .

ثم استطرد من ذلك إلى التنويه بشأن القرآن الذى نزل بمثل تلك الأحكام ، فجعله نوراً منه أضاء به السماوات والأرض ، وذكر أن مثل نوره كمشكاة فيها مصباح موضوع فى زجاجة كأنها كوكب دُرِّىٌّ يوقد من زيتونةٍ يكاد زيتها يضىءُ ولو لم تمسسهُ نار ، وذكر أنه يهدى لهذا النور من يشاء من رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكره ، ثم ضرب مثلا لظلمة الكفر به ، فذكر أنه كسرابٍ بقيعةٍ يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ، أو كظلماتٍ فى بحرٍ لجىٍّ يغشاه موجٌ من فوقه موجٌ من فوقه سحابٌ الخ .

ثم أتبع ذلك بذكر بعض الآيات الكونية التى تدل على صدق مايدعو إليه من الإيمان به ، فذكر أنه يخضع له من فى السماوات والأرض وما بينهما ، إلى غير هذا مما ذكره من تلك الآيات .

ثم ذكر من ذلك الكفر أشده ظلمة ، وهو النفاق الذى يصير بأهله إلى إظهار الإيمان والطاعة ، فإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أعرضوا عنه إن لم يكن لهم الحق ، وإن كان لهم الحق أتوا إليه مذعنين ، ثم ذكر أنهم يقسمون به لئن أمرهم بالخروج إلى القتال ليخرجن إليه ، ونهاهم عن ذلك لأن المطلوب منهم طاعة معروفة لا أيمان كاذبة ، ثم أمره أن يأمرهم بتلك الطاعة ، فإن أعرضوا بعد ذلك فقد أدى رسالته ، وليس عليه إلا أن يؤديها لهم ، ثم وعد من يطيعه بأن يستخلفهم فى الأرض

كما استخلف الطائعين قبلهم ، وأمرهم أن يقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة ويطيعوا الرسول فى كل ما يأمرهم به ، ونهاه أن يظن أن أولئك الكفار يعجزونه عن إدراكهم ليحقق وعده لمن آمن به (لا تحسبنَّ الذينَ كفرُوا معجِزين فى الأرضِ ومأوَاهم النار وبئس المصيرُ).

حكم دخول البيوت للغلمان ونحوهم

الآيات (٥٨ — ٦١)

ثم قال تعالى (يا أيُّها الذينَ آمنوُا ليستأذنْكم الذينَ ملكتْ أيمانُكم والذين لم يبلغوُا الحلمُ منكم ثلاثَ مرَّاتٍ — الآية) فأباح لمن ملكت أيمانهم ومن لم يبلغ منهم أن يدخلوا عليهم بغير إذن إلا فى ثلاثة أوقات : الوقت الذى يكون قبل صلاة الفجر ، ووقت الظهيرة الذى يضعون فيه ثيابهم ، والوقت الذى يكون بعد صلاة العشاء ، فلا يدخلون عليهم فيها إلا بإذن ، ثم ذكر أنه لا حرج على من انقطع الرغبة فى نكاحهن لكبرهن أن يضعن خمرهن عن رؤوسهن ، ولكن التستر خير لهن ، وذكر أنه لا حرج على الأعمى والأعرج والمريض فى دخول البيوت والأكل منها لحاجتهم ، ولا حرج عليهم أن يأكلوا من بيوت أزواجهم أو بيوت آبائهم أو نحوهم ممن ذكرهم ، ثم أمرهم إذا دخلوا بيوتا أن يسلموا على أهلها (تحيةً من عندِ الله مباركةً طيبة كذلك يبين الله لكمُ الآياتِ لعلكم تعقلونَ)

حكم الاجتماع فى بيوت الندوة

الآيات (٦٢ — ٦٤)

ثم قال تعالى (إنَّما المؤمنونَ الذينَ آمنوُا باللهِ ورسولهِ وإذا كانوُا معهُ على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوهُ — الآية) فذكر أنه إذا اجتمع النبى والمؤمنون للتشاور فى أمر يهمهم لم يجز لهم أن يخرجوا حتى يستأذنوه ، وأمره إذا استأذنوه فى الخروج لبعض شأنهم أن يأذن لمن يرى له عذراً منهم ، ثم نهاهم أن يتخلفوا عن دعوته إذا دعاهم للتشاور فى أمر من الأمور ، وحذر الذين لا يجيبون دعوته

أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم (ألا إنَّ للهِ ما فى السماوات والأرضِ قد يعلم ما أنتم عليهِ ويومَ يُرجعون إليه فينبئهم بما عملوا والله بكلِّ شيء عليمٌ) .

سورة الفرقان

تاريخ نزولها ووجه تسميتها :

نزلت سورة الفرقان بعد سورة يس ، ونزلت سورة يس بعد سورة الجن ، وكان نزول سورة الجن فى رجوع النبي صلى الله عليه وسلم من الطائف ، وكان قد سافر إليها سنة عشر من بعثته ، فيكون نزول سورة الفرقان فى السنة العاشرة من البعثة ، وتكون من السور التى نزلت فيما بين الهجرة إلى الحبشة والإسراء .

وقد سميت هذه السورة بهذا الاسم لقوله تعالى فى أولها (تباركَ الذَّى نزَّل الفرقان على عبده ليكونَ للعالمين نذيراً) .

الغرض منها وترتيبها :

يقصد من هذه السورة بيان الغرض من نزول القرآن ، وهو أن يكون نذيرا للعالمين ، والكلام فيها على هذا الغرض ينقسم إلى قسمين : أولهما فى دفع ما أوردوه عليه من شُبهٍ وتأييده بما وقع قبله من النُّذُرِ الأولى ، وثانيهما فى بيان عدم تأثرهم بذلك لتكبرهم وجهلهم .

وقد ختمت السورة السابقة بتحذير المخالفين أن يصيبهم فتنة أو عذاب أليم ، وهذا يناسب ما ابتدئت به هذه السورة من الإنذار والتحذير .

تنزيل القرآن للإنذار

الآيات (١ — ٤٠)

قال الله تعالى (تباركَ الذى نزَّل الفُرقانَ على عبدهِ ليكونَ لِلعالمينَ نذيراً) فذكر أنه نزل القرآن ليكون نذيرا للناس كافةً ، ووصف نفسه بأربعة أنواع من

صفاتْ الـكِـبْرِياءِ ، ليدل على قدرته على تحقيق إنذاره ، فذكر ملـكه للسماوات والأرض وتنزُّههُ عن الولد والشريك وخلقه كل شيء وتقديره له ، ثم شرع فى ذكر ما أوردوه على ذلك من شُبهٍ ، فذكر شبهتهم الأولى وهى قولهم (إنْ هذا إلا إفكٌ افتراهُ وأعانهُ عليهِ قومٌ آخرُون) وردَّ عليه بأنه ظلم وزُورٌ ، لأنه تحدَّاهم به فلم يُمكنهم أن يأتوا بمثله ، ولو كان من عنده لأمكنهم أن يأتوا به .

ثم ذكر شبهتهم الثانية وهى زعمهم أنه أساطير الأولين اكْتتبها ، ورد عليها بأن الذى أنزله هو الذى يعلم السِّرَّ فى السماوات والأرض ، ومثله ينزل حقائق لا أساطير .

ثم ذكر شبهتهم الثالثة وهى زعمهم أن من يرسل للإنذار لا يكون بَشراً يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق ، وأنه كان يجب أن ينزل إليه ملَكٌ يُنْذِرُ معه ، أو يُلقى إليه كنز ، أو تـكون له جَنـَّةٌ يأكل منها ، ودعواه الرسالة من غير ذلك تدل على أنه رجل مسحور لا يصح اتباعه ، ورد على هذا بأنه إن شاء جعل له فى الآخرة جنات وقصورا خيرا مما ذكروه من نعم الدنيا ، ولـكنهم يـكذبون بالساعة فـلا يرجون ثوابا ولا عقاباً ، ثم ذكر ما أعد لهم فيها من العذاب ، وما وعد المتقين فيها من نعيم وثواب ، وما يـكون من تـبَرُّؤ آلهتهم منهم فيها ، وعاد بعد هذا إلى الرد على هذه الشبهة بأنه لم يرسل قبل هذا رسلا إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون فى الأسواق .

ثم ذكر شبهتهم الرابعة وهى زعمهم أنه كان يجب أن ينزل عليهم ملائكة تشهد بصدقه فيما ينذر به ، أو يروا ربهم فيخبرهم بأنه أرسله لإنذارهم ، ورد على هذا بأنه تعَنُّتٌ ظاهر وعُتُوٌّ كبير ، وبأن ماطلبوه من ذلك سيرونه يوم القيامة ولـكنهم يلقون منه ما يـكرهون ، ويلقى المؤمنون فيه مايحبون ، ثم ذكر مايـكون من ندمهم على كفرهم ، ومن تمنيهم أن لو كانوا اتخذوا مع الرسول سبيلا ، ولم يسمعوا لمن أضلهم من خلانهم ، وذكر ما يـكون من شكوى الرسول مما كان من طعنهم فى

القرآن بأنه سحر وشعر وكذب وهذيان ، ومن إجابته له بأن شأنهم فى ذلك كشأن المجرمين قبلهم مع رسلهم .

ثم ذكر شبهتهم الخامسة وهى قولهم (لولا نُزِّلَ عليه القرآنُ جملةً واحدةً) ورد على هذا بأنه نزله مفرقا ليُثَبِّتَ به فؤاده ، ويُرَتِّله على تؤدةٍ وتمهلٍ .

ثم عقَّبَ على ذلك كله بأنهم لا يأتونه بمثلٍ من جلس تلك الشبهاتِ إلا أتاهم بالحق الذى يدفعها ويبين وجه فسادها ، وذكر أنهم فى الآخرة يمشون مقلوبين وجوههم إلى تحت ، وأرجلهم إلى فوق ، فيضلون فى أخراهم كما ضلوا فى دنياهم .

ثم شرع فى تأييد ذلك بما حصل من النذر قبله ، فذكر أنه آتى موسى التوراة وجعل معه أخاه هارون وزيرا له ، وأنه أمرهما أن يذهبا إلى القوم الذين كذبوا بآياته فدمرهم تدميرا ، ثم ذكر أنه أغرق قوم نوح لما كذَّبوا رسله وأعدلهم عذابا أليما ، إلى أن ذكر ما حصل لقرية سدوم التى يمرون عليها فى متاجرهم إلى الشام ، وهى من قرى قوم لوط (ولقد أتوْا على القريةِ التى أمطرتْ مطرَ السَّوءِ أفلمْ يكونوا يرونها بل كانوا لا يرجونَ نشوراً) .

عماية الكفار عن الإنذار

الآيات (٤١ — ٧٧)

ثم قال تعالى (وإذا رأوكَ إنْ يتخذونكَ إلاَّ هُزُوًا أهذا الذى بعثَ اللهُ رسولاً) فذكر أنهم قابلوا ما أنذرهم به وما ذكره فى رد شبهاتهم بالسفاهة والاستهزاء بالنبى صلى الله عليه وسلم ، لأنهم عجزوا عن رد ماذكره فى دفع شبههم ، وقد بلغ من قوته أن اعترفوا بأنه كاد يضلهم عن آلهتهم لولا أن صبروا عليها ، ثم ذكر له أنهم اتخذوا هواهم إلههم ، وأنهم لا يسمعون ولا يعقلون ، ومن كان هذا شأنه لا يؤثر دليل فيه ، ثم ذكر له أن يرى كيف مَدَّ الظِّلَّ ولو شاء لجعله ساكنا ، إلى غير هذا مما لا تخفى دلالته على من يسمع ويعقل ، ليثبت له أنهم ليس لهم سمع ولا عقل ، ثم ذكر أنه صَرَّفَ هذه الدلائل بينهم لِيذَّكَّرُوا ولكنهم ينفرون من سماعها ،

وأنه لو شاء لبعث بها نذيراً فى كل قرية ، ولـكنه اختاره وحده لذلك ، فيجب أن يقابل هذا بالاجتهاد فى الدعوة ، ليقوم بأعبائها وحده ، ثم عاد إلى تلك الدلائل فذكر أنه هو الذى أجرى البحرين فى مجاريها بحيث يلتقيان ، وأنه فصل بينهما بقدرته فبقى هذا عَذْباً وذلك مِلْحاً ، إلى غير هذا مما ذكره من دلائل عظمته وقدرته

ثم أشار إلى أنهم لا يتأثرون أيضاً بهذه الأدلة الظاهرة على توحيده ، فيعبدون من دونه مالا ينفعهم ولا يضرهم ، ثم ذكر أنه لا شىء عليه من إعراضهم عنها ، لأنه لم يرسله إلا مبشِّرًا ونذيرا ، ولا يسألهم على ذلك من أجر إلا من شاء أن يتقرب بالإنفاق إلى ربه ، ثم أمره أن يتوكل عليه فى مجاهدتهم ودعوتهم ، وذكر ما ذكر من عظمته وقدرته ليدل على أن من توكل عليه يكفيه عن غيره .

ثم ذكر أنهم مع عبادتهم ما لا ينفعهم ولا يضرهم إذا قيل لهم اسجدوا للرحمان قالوا وما الرحمان عُتُوّاً وتَكَبُّراً ، واستعظموا أن يسجدوا لما يأمرهم مثله بالسجود له ، ثم ذكر من أدلة عظمته وقدرته أنه جعل فى السماء بروجا وهى منازل السيارات ، إلى غير هذا مما لا يصح معه أن يتَكَبَّرُوا عن السجود له ، ثم ذكر أن للرحمان عبادا غيرهم لا يتكبرون مثلهم ، بل يمشون على الأرض هَوْناً ، وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما ، إلى غير هذا من صفاتهم ، ثم عاد إلى أولئك المتكبرين نختم السورة بتحقيرهم وتهديدهم على تكذيبهم ، فقال (قُلْ ما يَعْبَأ بكم ربى لَوْلاَ دعاؤكم فقَد كَذَّبْتُم فسوفَ يكونُ لِزَاماً) .

سورة الشعراء

تاريخ نزولها ووجه تسميتها :

نزلت سورة الشعراء بعد سورة الواقعة ، وقد نزلت سورة الواقعه بعد سورة طه ، وكان نزول سورة طه فيما بين الهجرة إلى الحبشة والإسراء . فيكون نزول سورة الشعراء فى ذلك التاريخ أيضاً .

وقد سُمِّيت هذه السورة بهذا الاسم لذكر الشعراء فى قوله تعالى فى الآية - ٢٢٤ - منها (والشعراءُ يَتَّبِعُهُمُ الغاوُونَ) وتبلغ آياتها سبعا وعشرين ومائتى آية.

الغرض منها وترتيبها :

يقصد من هذه السورة التنويه بشأن القرآن ، وقد جاء أولها فى تهديدهم على التكذيب به ، وجاء آخرها فى إثبات تنزيله ، والتمييز بينه وبين ما تلقى الشياطين على الكُهَّانِ والشعراء .

وقد ختمت السورة السابقة بإنذارهم بأن عذابهم سيكون لزاما . فجاءت هذه السورة بعدها وفى أولها أنه إن يشأ ينزل عليهم آية عذاب تخضع لها أعناقهم.

التنويه بشأن القرآن

الآيات (١ — ١٩١)

قال الله تعالى (طسم ، تلك آيات الكتاب المبينِ) فنوَّه بشأن القرآن وحسن بيانه ، ونهاه أن يبالغ فى الحزن على تكذيبهم به ، وذكر أنه إن يشأ ينزل عليهم غيره آية عذاب تخضع لها أعناقهم ، وأنه سوف يأتيهم أنباء ما يستهزئون به من إنذارهم بوقوع العذاب عليهم ، ثم أثبت ذلك بأمرين : أولهما مايرونه من إنباته فى الأرض كل زوج كريم ، ففى ذلك آية على قدرته على تحقيق إنذاره لهم ، ثم ذكر أنه عزيز لا يعجز عن تعذيبهم ، وأنه رحيم يُمْلى برحمته لهم . وثانيهما ما حصل من ذلك للأمم قبلهم ، وقد ذكر فى هذا قصة موسى مع فرعون ، وقصة إبراهيم مع أبيه وقومه ، وقصة نوح مع قومه ، وقصة هودٍ مع عادٍ ، وقصة صالح مع ثمُودَ ، وقصة لوطٍ مع قومه ، وقصة شُعَيْبٍ مع أصحاب الأيكة ، وقد ذكرت هذه القصص قبل هذه السورة ، ولكنها هنا تخالف ما سبق منها فى سِياقِها وفى بعض زيادات فيها وتغييرات فى أسلوبها ، ومن هذا تذييل كل قصة منها بما يبين الغرض من ذكرها ، وهو قوله تعالى (إنَّ فى ذلكَ لآيةً وما كانَ أكثرهمْ مؤمنينَ ، وإنَّ ربَّكَ لهُوَ العزيزُ الرحيم) .

إثبات تنزيل القرآن

الآيات (١٩٣ — ٢٢٧)

ثم قال تعالى (وإنهُ لتَنْزِيلُ ربِّ العالمِينَ) . فذكر بعد تهديدهم على تكذيبه أنه تنزيله ، وأن جبريل روحه الأمين نزل به على رجل منهم لينذرهم بلسانهم ، ثم أثبت ذلك بما جاء من البشارة به فى كتب الأولين ، وبشهادة علماء بنى إسرائيل بصدقه ، وذكر أنه لو نزَّلهُ على بعض الأعجمين فقرأه عليهم لم يؤمن به أحد منهم ، لنزوله بغير لسانهم .

ثم ذكر تمكن التكذيب به فى قلوب المجرمين من المشركين ، وأنهم لا يؤمنون به حتى يأتيهم ما ينذرهم به من العذاب الأليم ، ثم وبخهم على استعجالهم ذلك العذاب الأليم ، وذكر أنه سيمتِّعُهُم سنين قليلة ثم يأخذهم به فما يغنى عنهم شيئا ما تمتَّعُوا به ، وأنه لا يهلك قرية إلا بعد إنذارها ، ليكون إهلاكها تذكرة وعبرة لغيرها .

ثم أبطل ما يذكرونه من أنه من إلقاء الشياطين كسائر ما يلقونه على الكهان والشعراء ، فذكر أنه لم تتنزل به الشياطين ، لأن مثله مما لا يستطيعه مثلهم ، ولأنهم معزولون عن السمع فلا يمكنهم أن يتلقوه كما تتلقاه الملائكة ، ثم ذيَّلَ ذلك بنهيه أن يدعو معه إلها آخر لئلا يقع فيما ينذرون به من العذاب ، وبأمره أن يكتفى بإنذار عشيرته الأقربين ، وأن يخفض جناحه لمن اتبعه من المؤمنين ، فإن عصوه فليَتَبرَّأ مما يعملون ، وليتوكل على العزيز الرحيم ، فإنه يرى قيامه وصلاته ، ويسمع دعاءه ويعلم حاله .

ثم عاد إلى إبطال زعمهم أنه من إلقاء الشياطين ، فذكر أن الشياطين لا تتنزل إلا على كل كذاب أثيم ، فيلقون على الكهان ما يزعمون أنهم سمعوه من السماء من أكاذيبهم ، وذكر أن أمر الشعراء كأمر الكهان ، فهم ضالون يهيمون فى كل واد ، ولا يتورعون عن الكذب فى المدح والهجاء وغيرهما من فنون الشعر ، ولا يستحونَ

أن يقولوا مالا يفعلون (إلاّ الذين آمنُوا وعملوا الصالحاتِ وانتصرُوا مِن بعدِ ماظُلمُوا وسيعلم الذينَ ظلمُو أىَّ مُنقلبٍ ينقلبونَ) .

سورة النمل

تاريخ نزولها ووجه تسميتها :

نزلت سورة النمل بعد سورة الشعراء ، وقد نزلت سورة الشعراء فيما بين الهجرة إلى الحبشة والإسراء ، فيكون نزول سورة النمل فى ذلك التاريخ أيضا .

وقد سميت هذه السورة بهذا الاسم لورود اسم النمل فى قوله تعالى فى الآية -٨١- منها (حتى إذا أتوْا على وادِى النمل قالت نملةٌ يأيُّها النمل ادخلوُا مساكنكمْ) وتبلغ آياتها ثلاثا وتسعين آية .

الغرض منها وترتيبها :

يقصد من هذه السورة التنويه بشأن القرآن أيضا ، ولهذا ذكرت بعد السورة السابقة ، لأنها تشبهها فى غرضها ، وقد جاء أولها فى بيان ما فيه من الهداية والبشارة للمؤمنين والترهيب للكافرين ، ثم انتقل منه إلى الترغيب والترهيب بذكر بعض قصص الأنبياء والصالحين ، ثم انتقل منها إلى التنويه بشأنها وشأن أصحابها ، والموازنة بين من ينزل مثلها وبين آلهتهم فى عجزها وضعفها ، إلى غير هذا مما ختمت به هذه السورة

التنويه بشأن القرآن

الآيات (١ — ٦)

قال الله تعالى (طس ، تلكَ آياتُ القرآنِ وكتابٍ مبينٍ) فنوّه بشان القرآن وذكر أنه هدى وبشرى لمن يؤمن به ويقيم الصلاة ويؤتى الزكاة ويؤمن بالآخرة وأنه زيّن للذين لا يؤمنون بالآخرة أعمالهم فضلوا عنه ، ثم ذكر أن لهم سوء العذاب وأنهم فى الآخرة هم الأخسرون (وإنَّكَ لتلقّى القرآنَ مِنْ لدُنْ حكيم عليم)

الترغيب والترهيب بقصص الأنبياء والصالحين
الآيات (٧ — ٥٨)

ثم قال تعالى (إذْ قال مُوسى لأهلهِ إنى آنستُ ناراً سآتيكم منها بخبر أو آتيكم بشهاب قَبَس لعلكم تصطلونَ) فذكر قصة موسى حين أعطاه آية عصاه يلقيها فتهتز كأنها جانّ (حيةٌ صغيرةٌ) وآية يده يدخلها فى جيبه فتخرج بيضاء من غير سوء، ثم أرسله بهما إلى فرعون وقومه لأنهم كانوا قوما فاسقين، فلما جاءهم بآياته زعموا أنها سحر مبين (وجحدُوا بها واستيقنتها أنفسهمْ ظلماً وعُلوّاً فانظر كيفَ كانَ عاقبةُ المفسدينَ).

ثم انتقل منها إلى قصة دَاوُدَ وسليمان، فذكر أنه آتاهما علما فعملا به وحمداه عليه، وأنه كان مما آتاه سليمان علم منطق الطير وتسخير كثير من الأشياء له، وأنه جمع جنوده من الجن والإنس والطير، فساروا حتى إذا أتوْا على وادى النمل أمرت نملة جماعتها من النمل أن يدخلوا مساكنهم، لئلا يحطمهم سليمان بجنوده، ففهم سليمان أمرها وتَبَسَّمَ سرورا من إدراكه له، وطلب من الله أن يعينه على شكره على تلك النعمة العظيمة، ثم ذكر أنه تفقّدَ الطير فلم ير الهُدْهُدَ فسأل عنه، وكان قد طار إلى سَبَأ باليمن فلم يمكث إلا قليلا حتى رجع منها، وأخبره بأنه وجد امرأة تملكها، وأنها وقومها يسجدون للشمس من دون الله، فكتب له رسالة لِيُلْقِيَهَا إليهم (إنَّهُ مِنْ سُليمانَ وإنَّهُ بسمِ اللهِ الرحمنِ الرحيمِ، ألاَّ تَعْلُوا عَلَىَّ وأتونى مُسْلِمِينَ) فلما ألقاها على الملكة جمعت قومها لتستشيرهم فيها، فذكروا لها أنهم أُولُو قوة وبأس شديد، وفوضوا أمر ذلك إليها، فذكرت لهم أن عاقبة الحرب إفساد الديار، وأنها ترى مسالمة سليمان بإرسال هدية إليه، فلما جاءته الهدية لم يقبلها، وهَدَّدَهُمْ بأن يرسل إليهم جنودا لا قِبَلَ لهم بها، فلم تجد الملكة مفرّاً من أن تذعن له، وتسافر إلى مقر ملكه، فجمع قومه وأخبرهم بأنه يريد أن يحصل على عرشها قبل حضورها، فأخبره عِفْرِيتٌ من الجن بأنه يمكنه أن يأتيه به قبل أن يقوم من مجلسه، وأخبره عالم من علماء قومه بأنه يمكنه أن يأتيه به قبل

أن يرتد إليه طرفه ، فشكر الله أن جعل فى ملكه من يمكنه إحضار ذلك العرش فى هذا الزمن ، وقد أمرهم أن يغيروا شيئا من شكله ليعرضه عليها ، وينظر أتعرف أنه عرشها أم لا تعرفه ، ليختبر بذلك عقلها ، فلما جاءت عُرِض عليها وقيل لها : أهكذا عرشك ؟ قالت : كأنه هو ، وذكرت أنها آمنت بالله وبقدرته من قبل هذه الآية ، ثم ذكر أن سليمان أمرها أن تدخل الصَّرحَ ، وكان قصرا من زُجاجٍ تحته ماء ، فلما رأته حسبته لُجّةً وكشفت عن ساقيها ، فأخبرها بأنه صرح مُمَرَّدٌ من قوارير ، فعجبت من ذلك وآمنت بقدرة الله الذى أعطاه هذا الملك (قالتْ ربِّ إنّى ظلمتُ نفسى وأسلمتُ مَعَ سليمانَ لِلهِ ربِّ الْعالَمِينَ) .

ثم انتقل منها إلى قصة صالح وقومه ثمود ، وقصة لوطٍ وقومه ، وهما هنا يخالفان ما سبق منهما فى سياقهما وأسلوبهما ، وفى ذكر بعض زيادات لم تسبق فيهما .

التنويه بهذه القصص وأصحابها
الآيات (٥٩ — ٩٣)

ثم قال تعالى (قل الحمدُ للهِ وسلامٌ على عباده الذين اصطفى آللهُ خيرٌ أمْ ما يشركون) فأمره أن يحمد الله على ما تلاه عليه من هذه القصص ، وأن يسلم على من اصطفاه من أصحابها ، وأن يسألِ أولئك الذين لا يؤمنون بتنزيلها : آلله الذى ينزلها خير أم آلهتهم التى لا تقدر على إنزال شيء منها ؟ وقد ذكر موازنات أخرى بعد هذه الموازنة ، إلى أن أمرهم أمر تعجيز بأن يأتوا ببرهان على أنها آلهة إن كانوا صادقين فى زعمهم ، وذكر أنه لا يعلم من فى السماوات والأرض الغيب إلا هو ، ومن عداه من آلهتهم وغيرهم لا يشعرون أيان يبعثونَ ، مع استحكام أسباب العلم والتمكن من المعرفة ، ولكنهم شاكُّون جاهلون ، ثم ذكر من أسباب ذلك فيهم أنهم يستبعدون أن يبعثوا بعد أن يصيروا تراباً ، وأنهم قد وعدوا هذا هم وآباؤهم من قبلهم فلم يحصل شيء منه ، وقد أجاب عن هذا بأن أمرهم أن يسيروا فى الأرض لينظروا كيف كان عاقبة المجرمين فى الدنيا ، فلا بد أن يعاقبهم أيضاً فى الآخرة ، ثم ذكر استعجالهم ذلك على سبيل الاستهزاء ، وأجاب عنه بأنه سيحصل لهم قريباً بعض منه فى الدنيا

بتسليط المؤمنين عليهم ، وأن رحمته هى التى اقتضت عدم تعجيله لهم ولكن أكثر الناس لا يشكرون ، ثم هددهم على ذلك بأنه يعلم ما يخفون وما يعلنون (وَمَا مِنْ غائبةٍ فى السماءِ والأرضِ إلا فى كتابٍ مبينٍ) .

ثم عاد إلى التنويه بشأن تلك القصص فذكر أن القرآن يَقُصُّ منها على بنى إسرائيل أكثر ما يختلفون فيه ، فيهديهم إلى ما غاب عنهم من الصواب فيها ، ثم أمره أن يتوكل عليه ولا يلتفت إلى أعدائه لأنه على الحق المُبِينِ ، وذكر أنه لا يمكنه أن يؤثر به فيهم لأنهم موتى لا يسمعون ، وعمىٌ لا يبصرون ، وإنما يُسمِعُ من يؤمن بآياته فهم مُسلِمُونَ ، ثم ذكر ما يكون قبل يوم القيامة من خروج دابّة تخبر الناس بما كان من جحودهم بتلك الآيات ، فتؤمن بما لم يؤمنوا به وهى من العجاوات ، ثم ذكر أنهم يحشرون إلى ربهم فيوبخهم على تكذيبهم بآياته ، وأنهم لا يجدون ما يعتذرون به فلا يمكنهم أن ينطقوا بعذر ، وذكر لهم آية واحدة تقطع عذرهم ، وهى ما يرونه من أنه جعل لهم الليل ليسكنوا فيه والنهار مُبْصِرًا ، وإنما آثر هذه الآية لأنهم يسكنون بالليل ويبعثون بالنهار كما يبعثون من الدنيا إلى الآخرة ، ثم ذكر ما يكون أيضاً قبل يوم القيامة من النفخ فى الصُّور ، وأنه يفزع به من فى السماوات ومن فى الأرض فيأتون صاغرين إليه ، وأنه يجازيهم على أعمالهم فيعطى على الحسنة خيرا منها ، ويعاقب على السيئة فيكبّ أصحابها فى النار على وجوههم .

ثم ختم السورة بأمره أن يخبرهم بأنه إنما أُمر أن يعبده وحده ، وأن يَتْلُو عليهم القرآن فمن اهتدى به فإنما يهتدى لنفسه ، ومن ضَلَّ فليقل له إنما أنا من المُنذِرِينَ (وقلِ الحمدُ لله سيريكم آياتهِ فتعرفونها وما ربُّك بغافلٍ عما تعملون)

سورة القصص

تاريخ نزولها ووجه تسميتها :

نزلت سورة القَصَص بعد سورة النمل ، وقد نزلت سورة النمل فيما بين الهجرة إلى الحبشة والإسراء ، فيكون نزول سورة القصص فى ذلك التاريخ أيضاً .

وقد سميت هذه السورة بهذا الاسم لأنه جاء فى قوله تعالى فى الآية — ٢٥ — منها (فلما جاءهُ وقصَّ عليه القصَص) وتبلغ آياتها ثمانين آية .

الغرض منها وترتيبها :

ويقصد من هذه السورة التنويه بشأن القرآن أيضا ، ولهذا ذكرت بعد السورة السابقة ، وقد فصِّل فى أولها ما أجمل فى السورة السابقة من قصة موسى ، وجاء آخرها فى الاحتجاج بها على أن القرآن من عند الله ، وفى دفع ما عندهم من شُبهٍ عليه

التنويه بشأن القرآن

الآيات (١ — ٤٢)

قال الله تعالى (طسم ، تلكَ آياتُ الكتابِ المبينِ) فنوَّهَ بشأن القرآن وشأن ما يتلى فيه من هذه القصة ، ثم ذكر أن فرعون علا فى الأرض واستضعف بنى إسرائيل يُذَبِّحُ أبناءهم ويستحيي نساءهم ، وأنه أراد أن يمنَّ عليهم ويجعل منهم أنبياء وملوكا ويرى فرعون وقومه ما كانوا يخافونه منهم ، فأظهر فيهم موسى وأوحى إلى أمه أن ترضعه ، وأمرها إذا خافت عليه من الذبح أن تضعه فى تابوتٍ وتلقيه فى اليمّ ، وطمأنها بأنه سيحفظه ويرده إليها لتقوم برضاعه ، فلما ألقته فى اليمّ سار به إلى أن التقطه آل فرعون ، ففرحت به امرأته ومنعتهم من قتله ، وأرادت أن تربيه عسى أن ينفعهم أو يتخذوه ولدا ، ثم ذكر أن أم موسى حزنت عليه وأرسلت أخته وراءه فرأت عن بُعدٍ ما فعلوه به ، وأنه لم يقبل الرضاع من المراضع ،

فتقدمت أخته لتدلهم على مرضع تكفله وتنصح له ، فدلتهم على أمه ، فرُدَّ إليها لتقرّ عينها به ، ولتعلم أن وعد الله حق ، ثم ذكر أنه لما بلغ أشُدَّه آتاه حكمة وعلما ، وأنه دخل المدينة يوما فوجد رجلا من قوم فرعون يعتدي على رجل من بني إسرائيل ، فاستغاثه الإسرائيلي على عدوه فوكزه فقضى عليه ، وكان لا يقصد قتله فوقع خطأ ، ولكنه ندم عليه وطلب من الله أن يغفر له ، ثم ذكر أنه أصبح في المدينة خائفا أن يظهر أنـــه القاتل ، فإذا الإسرائيلي الذي استغاثه بالأمس يستغيثه على رجل آخر من قوم فرعون يعتدي عليه ، فلما أراد أن يبطش به قال له (يا موسى أتريدَ أنْ تقتلني كما قتلتَ نفساً بالأمسِ إن تريدُ إلا أن تكونَ جبّاراً في الأرضِ وما تريد أن تكونَ مِنَ المصلحينَ) ثم ذكر أن رجلا جاء من أقصى المدينة يسعى فأخبر موسى بأن القوم يأتمرون به ليقتلوه ، وأمره أن يخرج من المدينة قبل أن يقبضوا عليه .

فخرج موسى من المدينة وتوجهَ تلقاءَ مدينَ إلى أن ورد ماءها فوجد عليه ناسا يسقون أغنامهم ، ووجد من دونهم امرأتين تذودان أغنامها فسألها عن أمرهما ، فأخبرتاه بأنهما لا يسقيان حتى يصدر الرِّعاء لضعفهما ، وأن أباهما شيخ كبير لا يقوى على رعي الغنم وسقيها ، فسقى لهما ثم ذهب إلى ظل شجرة ودعا الله أن يرزقه خيرا من عنده ، ثم ذكر أن إحداهما جاءته بعد أن رجعتا بأغنامهما إلى أبيها تمشي على استحياء ، فأخبرته بأن أباها يدعوه ليجزيه على ما فعله معها ، فذهب إليه وقصَّ عليه ما حصل منه في مدينة فرعون ، فقال له (لا تخفْ نجوتَ منَ القوم الظالمينَ) ثم ذكر أن إحدى ابنتيه طلبت منه أن يستأجره لقوَّته وأمانته ، فأخبره بأنه يريد أن ينكحه إحدى ابنتيه على أن يعمل له ثماني سنين ، فإن أتمها عشرا كان فضلا منه ، فرضي موسى على أنه إذا قضى أحد الأجلين لم يكن له أن يعتدي عليه بطلب الزيادة

ثم ذكر أن موسى لما قضى الأجل وسار بأهله إلى مصر آنس نارا بجانب الطورِ حين وصل إليه ، فأمر أهله أن يمكثوا ليذهب إليها ، ثم ذكر أنه حين أتاها ناداه ربه

وأعطاه آيتين ليذهب بهما إلى فرعون وقومه ، فذكر له موسى أنه قتل منهم نفساً ويخاف أن يقتلوه بها ، وطلب منه أن يرسل معه أخاه هارون لأنه أفصح منه لساناً ، فأرسل أخاه هارون معه ووعده بالغلبة عليهم ، فلما جاءهم بآياته زعموا أنها سحر مفترى ، وأنهم لم يسمعوا ما يدعو إليه فى آبائهم الأولين ، فذكر لهم أن ربه أعلم بمن جاء بالهدى من عنده ، ومن تكون له عاقبة الدنيا ، فناداهم فرعون انه لا يعلم لهم إلهاً غيره ، وأمر هامان أن يوقد له على الطين ويبنى له صرحا لعله يطلع إلى إله موسى ، وليبين لهم كذبه فى دعواه أن له إلهاً غيره ، واستكبر هو وجنوده فى الأرض بغير الحق ، وظنوا أنهم لا يرجعون إليه تعالى ، فأخذهم فأغرقهم فى اليمّ ، وجعلهمّ أئمّة يدعون إلى النار ويوم القيامة لا يُنصرون (وأتبعناهمْ فى هذهِ الدنيا لعنةً ويومَ القيامةِ هم مِنَ المقبوحينَ) .

إثبات تنزيل القرآن

الآيات (٤٣ — ٨٨)

ثم قال تعالى (ولقدْ آتينا موسى الكتابَ من بعدِ ما أهلكنا القرونَ الأولى بصائرَ للناسِ وهدًى ورحمةً لعلهمْ يتذكرُونَ) فذكر أنه آتى موسى التوراة من بعد أن أهلك القرون الأولى من قوم فرعون وغيرهم ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن حاضرا حين ألقى إلى موسى وحى التوراة بالجانب الغربى من الطور ، وأنه لم يكن ثاويا فى أهل مَدْيَنَ حين كان بها موسى ، وأنه لم يكن بجانب الطور إذ نودى موسى به ، ولكنه هو الذى أوحى إليه بما لم يشاهده من ذلك كله ، ليُنْذِرَ به قومه الذين لم يأتهم نذير من قبله ، حتى لا يكون لهم عذر إذا أصابتهم مصيبة بما قدمته أيديهم .

ثم ذكر أنهم لما جاءهم القرآن بذلك آية لهم طلبوا أن يُؤْتى النبي صلى الله عليه وسلم مثل آيات موسى ، وردَّ عليهم بأن أسلافهم كفروا بما أوتى موسى منها ، وزعموا أنه ساحر هو وأخوه هارون ، وأمرهم بأن يأتوا بكتاب أهدى من التوراة والقرآن

ليتبعه ويهدى به ، فإذا لم يستجيبوا له ولم يؤمنوا فهم قوم يتبعون أهواءهم، ومن يتبع هواه لا ترجى هدايته ، ثم ذكر أن الذين أوتوا الكتاب من قبله يؤمنون به ، لأنه يوافق ما كانوا عليه من الإيمان من قبله . ووعدهم بأن يؤتيهم أجرهم مرتين على إيمانهم السابق واللاحق ، وذكر أنه لا يمكنه أن يهدى من أحب من قومه ، لأن الهداية بيده وحده .

ثم ذكر لهم شبهة ثانية أنهم إن اتبعوا ما نُزِّل عليه من الهدى يتخطفهم الناس من أرضهم ، ورد عليهم بأنه لا خوف عليهم من ذلك لأنه مكّن لهم فى حرم يأمن فيه الخائف ، وتُجْبى إليه ثمرات كل شىء ، وبأن عدم إيمانهم هو الذى يُخاف عليهم منه ، لأنه يؤدى إلى إهلاكه لهم كما أهلك القرى التى بَطِرت معيشتها قبلهم ، وبأنهم إذا فاتهم بإيمانهم شىء من الدنيا فما عند الله خير وأبقى منه ، لأنه لا يمكن أن يكون من وعده وعدا حسنا فى الآخرة فهو لاقيه كمن يُمَتِّعُه متاع الدنيا ثم يحضره يوم القيامة فيناديهم (أَيْنَ شركائىَ الذين كنتمْ تزعمونَ) ويأمرهم أن يدعوهم فلا يستجيبون لهم ، ثم يناديهم (ماذا أجبتمُ المرسلينَ)فيعْيَوْنَ بالكلام ولا ينطقون ، فأما من تاب من الكفر وعمل صالحا فإنه يكون من المفلحين ، ثم ذكر أنه يفعل ذلك بقدرته واختياره ، فيثيب من يشاء ويعذب من يشاء ، وليس لهم اختيار مع اختياره ، وأنه يعلم ما تكنه صدورهم وما يعلنونه فيحاسبهم عليه حسابا عادلا ، إلى غير هذا مما ذكره من آثار قدرته وعظمته ورحمته، ثم عاد إلى ما ناداهم به أوّلا (أين شركائى الذين كنتم تزعمون) وذكر أنه يحضر من كل أمة شهيدا عليهم من الرسل الذين بلغوهم رسالاتهم ، وأنه يأمرهم أن يأتوا ببرهانهم على أنهم آلهة ، وأنهم يعلمون حينئذ أن الحق لله فلا يحاولون شيئا .

ثم أراد أن يُهوِّن عليهم ما يخافون عليه من دنياهم إذا آمنوا به ، فذكر لهم أن قارون كان من قوم موسى فبَغَى عليهم ، وأنه آتاه من الكنوز ما إنّ مفاتحه لَتَنُوء بالعصبة أولِى القوة ، وأن قومه نهوْهُ أن يفرح بذلك ويغْتر به ،

وأنه ذكر لهم أنه أوتيه على علم عنده ولا فضل لأحد عليه ، إلى غير هذا مما دار بينه وبينهم ، ثم ذكر أنه خسف به وبداره الأرض فلم يغن عنه أحد شيئا ، وذهب ما أوتيه فى الدنيا وكأن لم يكن ، ثم عظّم شأن الآخرة وذكر أنه يجعلها للذين لا يريدون علوا فى الأرض ولا فسادا ، وأنه يحاسبهم فيها على الحسنة بخير منها وعلى السيئة بمثلها .

ثم ختم السورة بتبشير النبي صلى الله عليه وسلم وأمره بالصبر على تكذيبهم بالقرآن ، فذكر له أنه هو الذى فرض عليه أحكامه ، وأنه سيرده إلى مَعَادٍ ينصره فيه عليهم ، وهو أعلم بمن جاء بالهدى ومن هو فى ضلال فيجازيهم على وفق علمه ، ثم ذكر له أنه ما كان يرجو أن يُنَزَّلَ عليه القرآن ، ولكن رحمته هى التى آثرته به ، فيجب أن يشكره عليه بعدم التأثر بما يقترحه عليه المشركون من الآيات الأخرى ، (ولا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آياتِ اللهِ بعدَ إذْ أنزلت إليكَ وادعُ إلى ربّكَ ولا تكونَنَّ مِنَ المشركينَ ، ولا تَدعُ مَعَ اللهِ إلهاً آخر لا إلهَ إلاّ هُوَ كلُّ شيءٍ هالكٌ إلاّ وجههُ لَهُ الحكم وإليهِ ترجعونَ) .

سورة العنكبوت

تاريخ نزولها ووجه تسميتها :

نزلت سورة العنكبوت بعد سورة الروم ، وقد نزلت سورة الروم فى السنة التى انتصر الفُرسُ فيها عليهم ، وكان ذلك قبل الهجرة بسنة ، فيكون نزول سورة العنكبوت فى هذه السنة مثلها ، وتكون من السُّوَر التى نزلت فيما بين الإسراء والهجرة إلى المدينة .

وقد سُمِّيَت هذه السورة بهذا الاسم لورود اسم العنكبوت فى قوله تعالى فى الآية - ٤١ - منها (مثلُ الّذينَ اتّخذُوا مِنْ دُونِ اللهِ أولياءَ كمثلِ العنكبُوتِ اتّخذتْ بيتًا) وتبلغ آياتها تسعا وستين آية .

الغرض منها وترتيبها :

يقصد من هذه السورة تهوين ما يلقاه المؤمنون من العذاب فى سبيل دينهم ، وهى فى ذلك تنقسم إلى قسمين : أولهما فى بيان الحكمة فى فتنة المؤمنين فى دينهم ، وثانيهما فى بيان ما يسلكونه مع من يفتنونهم فى دينهم ، من المضى فى دعوتهم وردّ شُبَهِهم ، ومن الهجرة عنهم إلى من لا يفتنهم فى دينهم ، وكانت المدينة تُوشِكُ أن تفتح أبوابها لهجرتهم .

وقد جاء فى السورة السابقة أنهم كانوا يخافون إذا آمنوا أن يتخطفهم الناس من أرضهم ، فجاءت هذه السورة بعدها وفى أولها تهوين ما يلقاه المؤمنون من الفتنة فى دينهم ، ووعدهم بالنصر على أعدائهم .

الحكمة فى فتنة المؤمنين فى دينهم
الآيات (١ — ٤٤)

قال الله تعالى (ألم ، أَحَسِبَ الناسُ أن يُترَكُوا أن يقولُوا آمنّا وهم لا يُفتَنُونَ) فنهى المؤمنين أن يظنوا أنهم يُتركونَ من غير أن يُفتَنوا فى دينهم ، وذكر أن تلك سُنَّتُهُ فى كل من آمن قبلهم ، وأنه يفعل ذلك ليتبين الصادق فى إيمانه من الكاذب فيه ، ثم هدَّدَ الذين يفتنونهم بأنهم لا يمكنهم أن يفلتوا من عقابه على فتنتهم ، وذكر أن لذلك أجلا يعلم من يرجو لقاءه أنه لا يتخلف عنه ، ثم ذكر أن من جاهد ما يلقاه فى دينه من الفتنة بالصبر عليه فإنما يجاهد لنفسه ، لأن الذين يعملون الصالحات يجازون عليها بأحسن منها ، ثم ذكر من الفتنة فى الدين ما كان يفعله الآباء من محاولة صرف أبنائهم عن دينهم ، ووصَّى الأبناء بطاعة الآباء إلا فى محاولة ردِّهِمْ إلى الشرك ، ثم ذكر أن من الناس من يؤمن بلسانه ولا يصل الإيمان إلى قلبه ، فإذا فُتِنَ فى دينه لم يصبر على ما يصيبه فيه ، واختار الاحتراز عما يوقعه فى الأذى ، فإذا جاء نصر الله ذكر للمؤمنين أنه كان معهم ، والله أعلم منه بما كان يخفيه من نفاقه ، ثم ذكر من الفتنة فى الدين أن الكفار كانوا يقولون لمن آمن

منهم (اتَّبِعُوا سبيلَنا ولْنَحْمِلْ خطاياكم) يريدون بذلك أنه لاخطيئة فى رجوعهم إلى الكفر ، وأنه لامعاد يحاسبون فيه على ذلك ، وقد أجابهم بإثبات أن هناك معادا يحملون فيه خطاياهم وخطايا من حملوهم على الكفر ، ويسألون فيه عما يفترون من إنكار المعاد والحساب .

ثم انتقل إلى ذكر من فُتِنُوا قبلهم من المؤمنين فصبروا فنصرهم على من فتنوهم ، فذكر أنه أرسل نوحاً إلى قومه فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما ، ثم أخذهم بالطوفان ونجاه ومن آمن به ، وأن إبراهيم أمر قومه أن يعبدوا الله ويتقوه ، وبين لهم فساد ما يعبدونه من الأوثان ، إلى غير هذا مما ذكره فى دعوتهم ، ثم ذكر أن جوابهم له كان أن أمروا بقتله أو تحريقه ، فنجّاه من النار التى ألقوه فيها ، وكان فى ذلك دلالة على قدرته تعالى ، وقد سجّل عليهم به أنهم يتخذون من دونه أوثانا يقلد فيها بعضهم بعضا ، ويوم القيامة يتبرأ بعضهم من بعض ، ويكون مأواهم النار فلا ينجونهم منها ، ثم ذكر إيمان لوطٍ به وهجرته معه من بلاد قومه ، وأنه وهب له إسحاق ويعقوب وجعل فى ذريته النبوة والكتاب ، ثم ذكر لُوطًا وتوبيخه قومه على ما يأتونه من الفاحشة التى لم يسبقهم أحد إليها ، إلى غير هذا مما سبق فى قصته ، ثم ذكر شُعَيْباً وما جرى له مع أهل مَدْيَنَ ، وذكر عَادًا وثمودَ وقارُونَ وفرعون وهامان وما فعله بهم ، وأنه لم يظلمهم بذلك ولكنهم هم الذين ظلموا أنفسهم ، ثم ضرب مثلاً لظلمهم لأنفسهم بشركهم ، فذكر أنهم فى اتخاذهم آلهة من دونه لاتنفعهم فى دنياهم وأخراهم كالعنكبوت التى تتخذ لها بيتا هو أوهن البيوت ، فما يدعونه من دونه ليس بشىء أصلا ، ثم ذكر أنه يضرب لهم هذا المَثَلَ وغيره من الأمثال وما يعقلها إلا العالِمُونَ (خلقَ السماواتِ والأرضَ بالحقّ إنَّ فى ذلِكَ لآيةً لمؤمنينَ) .

ما يفعلونه فى فتنتهم فى دينهم

الآيات (٤٥ — ٦٩)

ثم قال تعالى (أتلُ ما أوحىَ إليكَ من الكتاب وأقِم الصلاةَ إنَّ الصلاةَ تنهى عن الفحشاءِ والمنكرِ ولذكرُ اللهِ أكبرُ واللهُ يعلم ماتصنعونَ) فأمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يتلو ما أوحى إليه من أخبار من فتنوا قبله فى دينهم ليكون له سلوةٌ وأسوةٌ بهم ، وأن يثابر على إقامة الصلاة ومداومة ذكره ، لأن الصلاة تصلح من نفوسهم وتعطيهم قوة على احتمال مايفتنون به ، ثم ذكر لهم آداب المجادلة مع من يحاول أن يفتنهم بها فى دينهم ، فأمرهم أن يجادلوا أهل الكتاب بالتى هى أحسن ، وأن يذكروا لهم أنهم يؤمنون بالكتب المنزلة كلها ، ويؤمنون بالإله الذى يؤمنون به ، ثم ذكر أن من أهل الكتاب من يؤمن بالقرآن كما يؤمن بتلك الكتب ، ومن المشركين من يؤمن به أيضاً ، ومايجحد به إلا المعاندون منهم ، وذكر مايثبت تنزيله من أمية النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم أورد من شبهاتهم عليه اقتراحهم أن تنزل عليه آيات أخرى مثل الآيات التى أنزلت على الأنبياء السابقين ، وردّ عليهم بأنه هو الذى ينزل تلك الآيات كما يشاء ، وليس النبي إلا نذيراً لهم ، ولا يملك أن يقترح على الله شيئا ، وبأن فى إنزال القرآن عليه وهو أمّىٌّ مايكفيهم فى الإيمان به ، ولو تأملوا لعلموا أن آيته خير من آيات العذاب التى يقترحونها ، لمــا فيه من الرحمة والذكرى لهم ، ثم ذكر أنهم يستعجلونه بالعذاب بما يقترحونه من تلك الآيات ، ولولا أنه جعل له أجلا مسمى لجاءهم ، إلى غير هذا مما ذكره فى الرد على استعجالهم.

ثم أرشدهم إلى الهجرة بدينهم فراراً ممن يفتنهم ، فذكر لهم أن أرضه واسعة ، فإذا تعذرت عبادته فى أرض فليهاجروا إلى غيرها : ولا يتركوا عبادته بحال من الأحوال ، وهوّن عليهم ذلك بأنهم لا بد لهم من مفارقة أحبابهم بالموت ، فليكن ذلك فى سبيل الله ليجازيهم عليه عند رجوعهم إليه ، ويكافئهم على ماعملوا من صالحات وماصبروا عليه من فتنة وأذى ، ثم هوّن عليهم ذلك أيضاً بأنه هو المتكفل برزق

كل دابَّةٍ فى الأرض ويرزقهم ، فلا يفوتهم شىء من رزقهم بهجرتهم .

ثم ختم السورة بتهديد أولئك الذين يفتنونهم كما هددهم فى أولها ، فذكر لهم أنهم لايمكنهم أن ينكروا أنه هو خالق السماوات والأرض ومسخر الشمس والقمر ، فلا يمكنهم أن يفلتوا من عقابه ، وذكر لهم أنه هو الذى يَبْسطُ الرزق لمن يشاء ويَقدِرُ ليبتلى بذلك عباده ، فلا يصح أن يغترّوا بما بسط لهم من الرزق ، وذكر لهم أنه هو الذى ينزل الماء من السماء فيحيي به الأرض بعد موتها ، ليعلموا أنه هو الذى يرزقهم ، ثم ذكر لهم أن ما يغترون به من هذه الحياة وبسطة أرزاقهم فيها إنما هو لَهْوٌ وَلَعِبٌ ، وأن الآخرة هى الحياةِ التى يُعتَدُّ بها ، وأيد ذلك بما يحصل لهم حين يركبون الفُلك فى البحر ، فإنهم ينسون الدنيا وزخارفها ويتوجهون إليه بالدعاء وحده ، فإذا نجاهم إلى البر رجعوا إلى ماكانوا عليه من حب الدنيا فأشركوا به ، ثم أمرهم أمر تهديد أن يقابلوا ما بسط لهم من الرزق بالكفر ، فسوف يعلمون ما أُعِدّ لهم من العذاب على كفرهم ، وذكر أنهم لايمكنهم أن ينكروا أنه هو الذى أسكنهم فى ذلك الحَرَمِ الآمن ، فبسط لهم من الرزق مالم يبسطه لغيرهم ممن يُتَخَطَّفُ من حولهم ، وأنكر عليهم بعد ذلك أن يؤمنوا بما هم فيه من الباطل ، ويكفروا بنعمته عليهم بذلك الحرم ، ثم أوعدهم على ذلك بما أوعدهم به ووعد المؤمنين فقال (والَّذينَ جاهدوا فينا لنهدينَّهم سبلنا وإنَّ اللهَ لمعَ المحسنينَ)

سورة الروم

تاريخ نزولها ووجه تسميتها :

نزلت سورة الروم بعد سورة الانشقاق ، وكان نزول سورة الروم فى السنة التى هزمهم الفُرس فيها ، وكان ذلك قبل الهجرة بسنة ، فتكون من السور التى نزلت فيما بين الإسراء والهجرة إلى المدينة .

وقد سميت هذه السورة بهذا الاسم لقوله تعالى فى أولها (ألم ، غُلِبَتِ الرُّومُ) وتبلغ آياتها ستين آية .

الغرض منها وترتيبها :

يقصد من هذه السورة تسلية المؤمنين فيما يصيبهم من أذى المشركين ، كشماتتهم بهم حين انتصر الفرس على الرُّوم ، وذلك بوعدهم بنصر الروم على الفرس فى الدنيا وبيان ما يكون من حالهم وحال أعدائهم فى الآخرة ، وقد جاء هذا الغرض فيها على قسمين : أولهما فى تسلية المؤمنين بوعدهم بنصر الروم على الفرس ، وما إلى هذا مما ذكر فيه ، وثانيهما فى بيان بعض ما يثبّتهم ويهون عليهم ما يلقونه من أعدائهم

وقد جاءت هذه السورة بعد سورة العنكبوت لأن المسلمين وعدوا فيها بالنصر على المشركين ، فجاءت هذه السورة بعدها وفى أولها وعده بنصر الروم على الفرس ، ليكون مقدمة لتحقيق وعده للمسلمين ، لأن الروم كانوا أهل كتاب ، وكانوا أقرب إلى المسلمين من الفرس ، ولهذا حزن المسلمون لهزيمتهم وفرح مشركو قريش

تسلية المؤمنين

الآيات (١ — ١٦)

قال الله تعالى (ألم ، غُلِبَتِ الرومُ فى أدنى الأرضِ وهُمْ مِن بعدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ) فذكر أن الروم غُلِبُوا ووعد بنصرهم على من غلبهم ، ليفرح

المؤمنون بنصرهم لأنهم أهل كتاب مثلهم ، ثم ذكر أنه إذا وعد لايخلف وعده ولـكن أكثر الناس لا يعلمون ، لأن علمهم لا يتعدى ظاهر أمور الدنيا من ملاذّها وملاعبها ، ولا يصل إلى باطنها وأسرارها ، وهم إلى هذا غافلون عن الآخرة ولا يصلون إلى علمها ، فهم لهذا كله ينكرون وعده بالنصر ولا يصدقون به ، وينكرون الحشر وما أُعِدَّ لهم فيه ، ثم حثهم على مايوصلهم إلى العلم بذلك من الفكر والنظر ، لأنهم لو فكروا فى خلق السماوات والأرض وما بينهما لعلموا أن الله لم يخلقها إلا لحكمة وأجل معيَّن ، ثم يكون بعد ذلك ما ينكرونه من الحشر ، ولو ساروا فى الأرض لنظروا عاقبة من كذَّب قبلهم من الأمم ، وحملهم ذلك على التصديق بما وعد الله من النصر ، ثم ذكر أنه هو الذى بَدَأَ الخلق فهو قادر على إعادته وعلى حشرهم إليه بعد موتهم ، وأنهم يوم يحشرون إليه لا يجدون إلى الخلاص طريقا ، ولا يكون لهم شفيع من شركائهم ، ويكفرون بهم بعد مشاهدة عجزهم ، ويومئذ يتفرق كل من المؤمنين والكافرين إلى ما أعد لهم ، فأما المؤمنون فهم فى روضة يُحبَرُونَ (وأمّا الّذين كفرُوا وكذّبوا بآياتنا ولقاءِ الآخرةِ فأولئكَ فى العذاب محضَرُونَ) .

وسائل تثبيتهم

الآيات (١٧ — ٦٠)

ثم قال تعالى (فسُبحانَ الله حينَ تُمسُونَ وحينَ تُصبحون) فأمرهم بالمواظبة على الصلاة فى أوقاتها من الصباح والمساء والعشى والظهيرة ، كما أمرهم بذلك فى السورة السابقة ، ثم ذكر مما يوجب عليهم القيام بتسبيحه وحمده فيها أنه هو الذى يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ، إلى غير هذا مما ذكره من آياته ونعمه ، ثم ذكر أنه هو الذى يتفرد بما ذكره من ذلك كله ، ولا يصح أن يكون له فيه شركاء من خلقه يستحقون العبادة مثله ، كما لا يصح أن يكون لنا فيما يرزقنا شركاء مما ملكت أيماننا .

ثم أظهر لهم فضل ذلك الدين الذى يلقون الأذى فيه ، فذكر أنه دين الفطرة التى فطر الناس عليها ، فيجب أن يتمسكوا به ولا يكونوا من المشركين الذين تركوه فتفرقوا شيعاً يعادى بعضهم بعضا ، ثم ذكر أن هؤلاء المشركين منهم من إذا مسه ضر رجعوا إلى فطرتهم فدعوا ربهم ، فإذا كشف الضر عنهم رجع فريق منهم إلى شركهم ، وكفروا بما آتاهم من كشف الضر عنهم ، ومنهم من هو على عكس هذا ، فإذا أذاقه رحمة فرح بها ، وإن أصابته سيئة وقع فى القنوط واليأس .

ثم أمرهم أن يُوَاسِيَ بعضهم بعضاً ، بأن يعطى القريب حق النفقة لقريبه ، ويعطى الغنى حق الزكاة للمسكين وابن السبيل ، ونهاهم أن يتعاملوا بالرّبا لأنها لا تَرْبُو عنده كما تربو الزكاة .

ثم ذكر لهم أنه لا يترك أعداءهم من غير أن يعجل لهم بعض العذاب على ما أظهروا من الفساد فى البرّ والبحر ، وأمرهم أن يسيروا فى الأرض لينظروا كيف كان عاقبة الذين أشركوا من قبلهم ، وأن يتمسكوا بدينهم من قبل أن يأتيهم يوم ذلك العذاب فيتفرقوا فيه ، فالكافرون يعاقبون على كفرهم ، والمؤمنون يثابون على إيمانهم ، ليجزيهم من فضله بما صبروا على أذاهم ، فيرحمهم بذلك كما يرسل الرياح مُبشِّراتٍ برحمته ، وينتقم من أعدائهم كما انتقم من الذين أجرموا قبلهم ، ثم قرّب وعده لهم مع ضعف حالهم بأنه يرسل الرياح فتثيرُ سحابا فيبسطه فى السماء ثم يخرج المطر من خلاله ، فإذا أصاب به من يشاء من عباده فرحوا به وإن كانوا قبله فى يأس منه ، ثم قرّبه أيضا بما يُشاهدُ من آثار رحمته فى إحيائه الأرض بعد موتها ، فمن يفعل ذلك يقدر على تقويتهم بعد ضعفهم وهو على كل شىء قدير ، ثم ذكر أن أولئك المشركين لو أرسل عليهم ريحا مُصفَرًّا إنذارا لهم بما يوعدهم من ذلك العذاب لظلوا من بعده على كفرهم ، لأنهم بلغوا من الجهل مالا يتأثرون معه بإنذار أو دعاء ، فلا يصدقون وعده بنصر هؤلاء الضعفاء عليهم ، ثم ذكر بما يثبت قدرته على ذلك أنه خلقهم من ضعف فى حال طفولتهم ، ثم جعل لهم من

بعد ضعفهم قوة فى حال شبابهم ، ثم جعل لهم من بعد قوتهم ضعفا فى حال شيخوختهم ، فهو قادر على أن يضعفهم وينصر المؤمنين عليهم ، ثم ذكر عذابهم الأكبر بعد عذاب الدنيا ، وذلك حين تقوم القيامة فتنسيهم شدتها مقدار ما لبثوه فى دنياهم ، فيقسمون أنهم ما لبثوا فيها غير ساعة ، ويرد عليهم أهل العلم والإيمان بأنهم لبثوا الأجل الذى ضربه الله لهم إلى يوم البعث ، ولكنهم كانوا لا يؤمنون بذلك ففاتهم العلم به ، ويومئذ يلقون عذابهم ولا ينفعهم معذرة ولا يكون لهم استعتاب ، لأنه لم يجعل لهم ما يعتذرون به بعد أن ضرب لهم فى القرآن من كل مثل ، فكانوا لا يؤمنون بما يأتيهم به من الآيات ، ثم ختم السورة بأمره بالصبر الى أن يتحقق ذلك الوعد ، فقال (فاصبرْ إنَّ وعدَ اللهِ حقٌّ ولا يستخفَّنَّكَ الذين لا يوقنونَ)

سورة لقمان

تاريخ نزولها ووجه تسميتها :

نزلت سورة لقمانَ بعد سورة الصافات ، وهى من السور التى نزلت بمكة بعد الإسراء ، فيكون نزول سورة لقمان بعد الإسراء وقبيل الهجرة .

وقد سميت هذه السورة بهذا الاسم لورود قصة لقمانَ فيها ، وكان من الحكماء الأقدمين ؛ ولم يرد اسم حكيم غيره فى القرآن الكريم ، وتبلغ آياتها أربعاً وثلاثين آية

الغرض منها وترتيبها :

يقصد من هذه السورة بيان الموافقة بين ما جاء به القرآن من الحكمة المنزلة وما جاء به لقمان الحكيم من الحكمة المأثورة عنه ، إذ كان يدعو فيها كما يدعو القرآن إلى الإيمان بالله وحده ، ويأمر بمكارم الأخلاق ، وينهى عن الفواحش ، وقد جاء هذا الغرض فى هذه السورة على ثلاثة أقسام : أولها فى التنويه بحكمة القرآن .

وثانيها فى بيان شىء من حكمة لقمان ، وثالثها فى دعوة المشركين إلى الإيمان بما اتفقت عليه الحكمة المنزلة والحكمة المأثورة عن الحكماء .

والمقصود من هذا تسلية النبي صلى الله عليه وسلم ببيان فضل ما أنزل إليه من هذه الناحية ، ليعلم أن قومه لا يخالفون ما جاء به هو وغيره من الأنبياء فقط ، بل يخالفون ماجاء به لقمان وغيره من الحكماء أيضا ، فيهون عليه أمر كفرهم ، ولا يحزن لعنادهم وتعنتهم ، وهذا هو وجه المناسبة بين هذه السورة وسورة الروم .

التنويه بحكمة القرآن

الآيات (١ — ١١)

قال الله تعالى (ألم ، تلك آياتُ الكتابِ الحكيم) فذكر أن القرآن يشتمل على آيات حكيمة يقصد منها الهداية والرحمة ، وأنه قد أصلح بذلك من حسنت طباعهم وأفعالهم ، ممن يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويؤمنون بالآخرة ، ولم ينكر فضله فى ذلك إلا من قبح طبعه فآثر الاشتغال بلهوِ الحديث على الاشتغال بحكمته ، ثم أوعده على ذلك بما أوعده به من العذاب ، ووعد من آمن به بنعيم الجنات ، وذكر أن وعده حقٌّ لا يتخلف لأنه عزيز حكيم ، يعذب من يعرض عن حكمته ويثيب من يقبل عليها بكامل قدرته ، ثم بين عزته وقدرته بخلقه السماوات بغير عمدٍ مشاهدة إلى أن قال (هذا خلقُ اللهِ فأرُونى ماذا خلقَ الذينَ مِن دونه بلِ الظالمونَ فى ضلالٍ مبينٍ) .

بيان حكمة لقمان

الآيات (١٢ — ١٩)

ثم قال تعالى (ولقد آتينا لقمانَ الحكمةَ أنِ اشكرْ للهِ ومن يشكرْ فإنّما يشكرُ لنفسه ومَن كفر فإنّ الله غنىٌّ حميدٌ) فذكر أنه آتى لقمان الحكمة وأنه كان يدعو فيها إلى ما يدعو إليه القرآن من الإيمان بالله ، وطاعة الوالدين فيما يأمران به إلا إذا

أمرا بالشرك ونحوه ، إلى غير هذا مما جاء في وصاياه لابنه ، وقد ختمها بقوله (واقصدْ فى مشيكَ واغضضْ مِن صوتكَ إنّ أنكرَ الأصواتِ لصَوتُ الحميرِ) .

الدعوة إلى ما اتفقت عليه الحكمتان

الآيات (٢٠ — ٣٤)

ثم قال تعالى (ألمْ تروْا أنّ الله سخّر لكمْ ما فى السماوات وما فى الأرضِ — الآية) فدعاهم إلى ما اتفقت عليه الحكمتان من الإيمان به ؛ وعاب عليهم أن يجادلوا فيه بغير علم ولا هدى ولا كتاب منيرٍ ، والعلم إشارة إلى الحكمة المأثورة ، والكتاب إشارة إلى الحكمة المنزّلة ، وإنما هو تقليد لآبائهم من غير اعتماد على دليل .

ثم نهى النبي صلى الله عليه وسلم أن يحزن لهذا الكفر الصادر عن عناد وجهل ، وأخبره بأنه سيرجعهم إليه بعد أن يمتعهم قليلا ، ثم يضطرهم إلى عذاب غليظ ، ثم أثبت له عنادهم وجهلهم فى كفرهم بأنه إن سألهم من خلق السماوات والأرض فإنهم يعترفون بأن الذى خلقها هو الله ، ولكنهم جهلاء معاندون فلا يحملهم ذلك على الإقلاع عن شركهم ، ثم ذكر أن له ما فى السماوات والأرض فلا يقتصر أمره على خلقها ، وأن ملكه لا يقتصر على ذلك وحده لتناهيه ، بل إن فى قدرته وعلمه عجائب لا نهاية لها (ولو أن ما فى الأرض منْ شجرةٍ أقلامٌ والبحرُ يمدّه من بعده سبعةُ أبحرٍ ما نفدتْ كلمات الله) أى عجائبه . وما خلقنا وبعثنا إلا كخلق نفس واحدة وبعثها ، فالقليل والكثير سواء فى قدرته ، ثم ذكر من عجائب قدرته وعلمه أنه يولج الليل فى النهار و يولج النهار فى الليل ، وأنه سخر الشمس والقمر كل يجرى إلى أجل مسمى ، وأنه سخر الفُلك تجرى فى البحر بنعمته ليريهم ما فى البحر من عجائبه وأهواله ، فإذا غشيهم موجه كالظل دعوا الله ليخلصهم منه ، فإذا نجاهم إلى البر رجعوا إلى ما كانوا عليه من كفر ، فمنهم من يقتصد فيه بتأثير ما شاهده ، ومنهم من يجحد ما شاهده من العجائب لمبالغته فى الكفر .

ثم ختم السورة بأمرهم بتقواه كما جاءت به الحكمة المنزلة والحكمة المأثورة ، وبأن يخشوا يوم الآخرة الذى لا ينفع الإنسان فيه إلا عمله ، وأخبرهم بأن وعده حق، فلا يغرّنهم بالله الغَرور (إنّ اللهَ عنده علمُ الساعةِ وينزلُ الغيثَ ويعلمُ ما فى الأرحام وما تدرى نفسٌ ماذا تكسبُ غداً وما تدرى نفسٌ بأىِّ أرضٍ تموتُ إنّ اللهَ عليمٌ خبيرٌ) .

سورة السجدة

تاريخ نزولها ووجه تسميتها :

نزلت سورة السجدة بعد سورة غافر ، وقد نزلت سورة غافر بعد الإسراء وقبيل الهجرة ، فيكون نزول سورة السجدة فى ذلك التاريخ أيضا .

وسميت هذه السورة بهذا الاسم لقوله تعالى فى الآية - ١٥ - منها (إنما يؤمن بآياتنا الذين إذا ذكّروا بها خرّوا سجداً وسبّحوا بحمد ربهم وهم لا يستكبرون) وهى من الآيات التى تسنّ السجدة عند قراءتها ، وتبلغ آياتها ثلاثين آية .

الغرض منها وترتيبها :

يقصد من هذه السورة إثبات تنزيل القرآن ، وهو قريب من الغرض الذى يقصد من السورة السابقة ، ولهذا ذكرت هذه السورة بعدها ، وهذا إلى أنها تشبهها فيما جاء فيها من حث المؤمنين على الصبر على أذى المشركين ، ومن وعدهم بأن يجازوا على صبرهم كما جوزى الصابرون من بنى إسرائيل قبلهم ، وقد جاء ذلك الغرض فيها على قسمين : أولهما فى إثبات تنزيل القرآن وبيان عاقبة من آمن به ومن كذب به فى الآخرة والدنيا ، وثانيهما فى تأييد ذلك بما لا يمكن إنكاره من فطرة العقل ، وبما حصل لمن آمن بالتوراة من بنى إسرائيل من رفعة شأنهم ، وجعلهم أئمة فى الدنيا يهدون بأمر الله تعالى .

إثبات تنزيل القرآن

الآيات (١ — ١٧)

قال الله تعالى (ألم ، تنزيلُ الكتابِ لاريبَ فيه من ربِّ العالمينَ) فذكر أنه لاريب فى تنزيل الكتاب من عنده ، وأنهم يزعمون أن النبي صلى الله عليه وسلم افتراه ، وردّ ذلك بأنه جاء بالحق لينذر به قومه الذين لم يأتهم نذير قبله ، ويهديهم إلى الإيمان بالله بعد أن ضلوا عنه ، وهو الذى خلق السماوات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ، إلى غير هذا مما ذكره فى الهداية إلى الإيمان به .

ثم ذكر لهم شبهة أخرى وهى إنكارهم ماأتى به من بعثهم بعد أن يصيروا تراباً ويضلوا فى الأرض ، ومن لقاء ربهم ليعاقبهم على كفرهم ، ورد عليهم بأنه لابدَّ من الموت ومن لقاء جزائهم بالبعث بعده ، فإذا حاسبهم على كفرهم نكسوا رؤوسهم ودعوه أن يرجعهم إلى الدنيا ليؤمنوا فيها به ، فيجيبهم بأنه لو شاء لهداهم فى الدنيا ، ولكنه لم يشأ ذلك فلا سبيل إلى تغييره برجوعهم إليها ، ولا بدلهم من دخول جهنم ، ولابد لهم أن يذوقوا عذابها بما نسوا لقاء يومهم هذا ، ثم ذكر أن الإيمان لا يكون من قوم متكبرين مثلهم ، وإنما يكون من قوم إذا ذكروا بآيات ربهم خرُّوا سجداً وتواضعوا لمن يذكرهم ، إلى غير هذا من صفاتهم (فلا تعلمُ نفسٌ ما أخفيَ لهم من قُرةِ أعينٍ جزاءً بما كانوا يعملونَ) .

أخذهم بالترغيب والترهيب إلى الإيمان به

الآيات (١٨ — ٣٠)

ثم قال تعالى (أفمنْ كانَ مؤمناً كمن كان فاسقاً لايستوونَ) فذكر أنه لا يمكن أن يكون جزاء من يصدق به كجزاء من يكذب به لدليلين : أولهما أنه لا يمكن فى العقل أن يستوى المؤمن والفاسق فى الجزاء ، فالمؤمنون لهم جنات المأوى جزاء لهم ، والفاسقون مأواهم النار فى الآخرة ، ولهم فى الدنيا عذاب أدنى من ذلك بتسليط المؤمنين عليهم ، وثانيهما أنه آتى موسى الكتاب فأظفر من آمن به على من كذب

به ، فلا يصح للنبي صلى الله عليه وسلم أن يشك فى أنه سيلقى من ذلك مثل مالقى موسى ، ثم ذكر أنه جعل كتاب موسى هدًى لبنى إسرائيل ، وأنه هداهم به وجعل منهم أئمة يهدون بأمره ، وأنه كافأهم بذلك على صبرهم على أذى أعدائهم.

ثم ذكر لأولئك المشركين أن الأمر فى هذا لا يقتصر على موسى وقومه ، بل هناك قرون كثيرة أهلكهم على تكذيبهم رسلهم ، وأنهم يمشون فى مساكنهم فيشاهدون ما حصل لهم بأعينهم ، ثم ذكر لهم أن تلك النقم آية لهم على قدرته لو تأملوا فيها بعقولهم ، وحثهم على التأمل فى نعمه عليهم بسوق الماء إلى الأرض الجرُز ، ليخرج به زرعا تأكل منه أنعامهم وأنفسهم ، فجمع بهذا بين ترهيبهم وترغيبهم .

ثم ختم السورة بذكر سؤال المشركين على سبيل الاستهزاء : متى هذا الفتح الذى يكون للمؤمنين ؟ وأجابهم بأنه إذا أتى يؤمنون بصدقه فلا ينفعهم إيمانهم ، ولا يمهلون ليستدركوا ما فاتهم ، ثم أمر النبي صـــلى الله عليه وسلم أن يعرض عن استهزائهم وينتظر وعده بهلاكهم ، فقال (فَأَعْرِضْ عنهمْ وانتظرْ إنَّا منتظرونَ) .

سورة الاحزاب

تاريخ نزولها ووجه تسميتها :

نزلت سورة الأحزاب بعد سورة آل عمران ، وكان نزولها بعد غزوة الأحزاب ، فيكون نزولها فى أواخر السنة الخامسة من الهجرة ، وتكون من السور التى نزلت فيما بين غزوة بدر وصلح الحديبية .

وقد سميت هذه السورة بهذا الاسم لذكر غزوة الأحزاب فيها ، وتبلغ آياتها ثلاثا وسبعين آية .

الغرض منها وترتيبها :

يقصد من هذه السورة ذكر أحكام تتعلق بالنبى صلى الله عليه وسلم ، ولهذا ابتدئت بندائه وأمره بالتقوى، ليكون هذا تمهيد المقصد تكليفه به ، وقد شرعت الأحكام التى تضمنتها هذه السورة فى زمن غزوة الأحزاب ، ولهذا جمع بينهما فى هذه السورة ليسجَّل فيها ما حصل فى هذا الزمن من تشريع وغزو، وقد ابتدئت السورة السابقة بإثبات تنزيل القرآن ، وجاءت هذه السورة بعدها مبتدأة بالأمر باتباعه وحده ، والنهى عن خشية أحد فى الأخذ بأحكامه ، وهذا هو وجه المناسبة بينهما .

إبطال تبنى زيد بن حارثة

الآيات (١ — ٢٧)

قال الله تعالى (يأيُّها النبيُّ اتَّقِ اللهَ ولا تطع الكافرينَ والمنافقينَ إنَّ اللهَ كانَ عليما حكيماً) . فمهد بهذا لأمره بإبطال تبنيه لزيد بن حارثة ، ليتبعه المؤمنون فى إبطال تبنيهم ، وكان التبنى عادة مستحكمة فى العرب وفى سائر الشعوب ، فلما

أبطلها النبي صلى الله عليه وسلم شنع عليه أعداؤه من الكافرين والمنافقين ، فابتدأ هذه السورة بأمره بأن يتقيه وحده ولا يطيع أعداءه . وبأن يتبع ما يُوحى إليه ويتوكل عليه ، ثم أخبره بأنه لم يجعل لرجل قلبين فى جوفه يجمع بهما بين خوفه وخوف غيره ، وأنه لم يجعل لرجل أمَّين إذا قال لزوجته — أنت على كظهر أمى — ليتخلص بذلك إلى المقصود وهو إبطال التبنى ، فكأنه قال : كما لم أجعل لرجل قلبين ولا أمين لم أجعل لابن أبوين ، فلا يصح أن يكون أدعياؤهم أبناءهم بمجرد قولهم ذلك بأفواههم ، ثم أمرهم أن يدعوهم لآبائهم لأنه أعدل عنده من دعوتهم لمن يتبنونهم ، فإن لم يعلموا آباءهم فهم إخوانهم فى الدين لا أبناؤهم ، ولا جناح عليهم إن سبق لسانهم إلى ذلك من غير قصد ، ثم ذكر أن النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم ، فكلهم سواء فى أبوته وأمومتهن لهم ، ولا يصح أن يختص بذلك أحد منهم ، والأقرباء بعضهم أولى ببعض فى الإرث ، فلا يصح أن يدخل فى إرثهم بالتبنى أجنبي عنهم ، ثم أكد ذلك بتذكيره بأنه أخذ منه ومن النبيين قبله ميثاقهم أن يبلغوا رسالاتهم ولا يخشوا فيها أحداً ، ليسأل الذين يصدقون فى تبليغها عن صدقهم ، ويعد لمن يكفر بهم عذابا أليما .

ثم استطرد من ذلك إلى تذكيرهم بما حصل لهم فى غزوة الأحزاب ، ليؤكد به ما أمر من تقواه وحده فيما يأمر به ، فأمرهم أن يذكروا نعمته عليهم إذ اجتمعت عليهم جنود أعدائهم من الأحزاب ، ونقضت بنو قُرَيْظَةَ عهدها معهم وانضمت إلى أعدائهم ، وظهرت خيانة المنافقين ومحاولتهم صرفهم عن القتال ، فاشتد الأمر بهم وزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شديدا ، ولكنه ثَبَّتَهُمْ فصبروا على قتالهم ولم يتأثروا بتثبيط المنافقين لهم ، حتى ردَّ الأحزاب بغيظهم وكفاهم قتالهم ، وأنزل بنى قريظة من حصونهم بعد أن حاصروهم فيها ، فقتلوا منهم فريقاً وأسروا فريقاً (وأورثكم أرضهمْ وديارهم وأموالهم وأرضاً لَمْ تَطَؤُوهَا وكانَ اللهُ على كُلِّ شيء قديراً)

أمر النبي بتخيير نسائه

الآيات (٢٨ — ٣٦)

ثم قال تعالى (يأيُّها النبيُّ قُلْ لأزواجكَ إنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الحياةَ الدنيا وزينتها فتَعالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحاً جميلاً) وقد كان أزواج النبي صلى الله عليه وسلم سألنه من عَرَضِ الدنيا وطلبن منه زيادة النفقة وآذينه بغيرة بعضهن على بعض ، فأمره أن يخيرهنَّ بين الطلاق إذا أبينَ إلا ذلك ، وبين البقاء فى عصمته إذا أردن الله ورسوله والدار الآخرة ، ثم وعظهن بأن شأنهن ليس كشأن غيرهن ، فمن يأت منهن بفاحشة ظاهرة يضاعف لها العذاب ضعفين ، ومن تطع الله ورسوله يؤتها أجرها مرتين ، ثم أمرهنَّ أن يَقَرْنَ فى بيوتهنَّ ويتركن تَبَرُّجَ الجاهلية الأولى ، إلى غير هذا مما أمرهن به ونهاهن عنه ، ثم عاد إلى تخييرهن فذكر أنه ليس لهن ولا لغيرهن خِيرَةٌ مع ما اختاره من ذلك لهن ، فقال (وما كانَ لمؤمنٍ ولا مؤمنةٍ إذا قضى اللهُ ورسولهُ أمراً أن يكونَ لهمُ الخِيرَةُ مِن أمرهم ومَن يَعصِ اللهَ ورسولهُ فقد ضَلَّ ضلالاً مبينًا) .

تزويج النبي مطلقة زيد

الآيات (٣٧ — ٤٤)

ثم قال تعالى (وإذْ تقولُ لِلَّذى أنعم اللهُ عليه وأنعمتَ عليه أمْسِكْ عليكَ زوجَك — الآية) فذكر قول النبي صلى الله عليه وسلم لزيد بن حارثة وكان يتبنَّاهُ (أمسك عليك زوجك) وهى زينب بنت جحش ، وكان يريد طلاقها لأنها كانت تفخر عليه بنسبها ، ثم ذكر أنه يخفى فى نفسه إرادة تزوجها بعد طلاقها ليكون أقوى فى إبطال تَبَنِّيهِ له ، وأنه يحمله على إخفاء ذلك خشية طعن الناس عليه بأنه تزوج امرأة مُتَبَنَّاه ، والله أحق منهم بأن يخشاه ، فلما طلقها زيد زَوَّجها له لكيلا يكون على الناس حرج فى أزواج من يتبنَّونهم ، ثم ذكر أنه لا حرج عليه فى ذلك الزواج لأنه سنَّة الله فى الرسل قبله ، وأنه لم يكن أبا أحد منهم حتى تحرم عليه

زوجه ، ثم أمرهم أن يذكروه ويسبحوه بكرة وأصيلا ، لأنه يرحمهم بما يشرّع لهم من ذلك وغيره ، ويخرجهم به من الظلمات إلى النور ، وهو رحيم بهم على الدوام (تحيّتهم يوم يلقونه سلامٌ وأعدّ لهم أجراً كريما) .

إرشاد النبي إلى آداب عامة

الآيات (٤٥ — ٤٩)

ثم قال تعالى (ياأيها النبيُّ إنّا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً) فذكر أنه أرسله شاهدا على الناس ومبشّراً ونذيراً ، فإذا كانوا مؤمنين فعليه أن يبشرهم بما لهم من الفضل عنده ، وإذا كانوا كفارا أو منافقين فإنه لا يصح أن يطيعهم أو يخشاهم فى شىء ، وعليه أن يدع أذاهم ويتوكل عليه وحده ، ثم أمر المؤمنين إذا طلقوا أزواجهم من قبل أن يمسّوهنّ أن يتركوا أذاهم ، بمناسبة أمر النبي صلى الله عليه وسلم بترك أذى أعدائه ، فقال (فما لكم عليهنّ من عدّةٍ تعتدّونها فمتّعوهنّ وسرّحوهنّ سراحاً جميلاً) .

خصائص النبي فى أزواجه

الآيات (٥٠ — ٥٨)

ثم قال تعالى (ياأيها النبيّ إنّا أحللنا لك أزواجك اللاتى آتيت أجورهنّ — الآية) فذكر ما خصه به من إحلال أزواجه له وإن زاد عددهن على أربع ، ومن عدم وجوب القسم عليه بينهن لكى تقرّ أعينهن إذا سوّى بينهن من نفسه ، ومن تحريم طلاقهن أو زواج غيرهن ليقصرهن عليه ويقصره عليهن ، ثم ذكر ما يستتبعه ذلك التشريع من فرض الحجاب عليهن وتحريم نكاحهن بعده على غيره ، واستثنى من فرض الحجاب عليهن آباءهن ونحوهم من محارمهن ، ثم ذكر ما يوجب احترامه فى ذلك من صلاة الله عليه وملائكته ، فيجب على المؤمنين أن يذكروا حرمته فى كل وقت بالصلاة عليه ، ثم هدد من يؤذيه فى ذلك باللعن فى الدنيا والآخرة ، وهدد بمناسبة

ذلك من يؤذى الناس عامةً فقال (والذينَ يؤذونَ المؤمنينَ والمؤمناتِ بغير ما اكتسبُوا فقدِ احتملوا بهتاناً وإثماً مبيناً).

إرشاد النبي إلى ما يجب ستره من نسائه وغيرهن

الآيات (٥٩ — ٧٣)

ثم قال تعالى (يأيُّها النبيُّ قل لأزواجكَ وبناتكَ ونساءِ المؤمنينَ يُدنينَ عليهنَّ من جلابيبهنَّ — الآية) .

فأمره بأن يأمر أزواجه وبناته ونساء المؤمنين بأن يدنين عليهن من جلابيبهن ، ليعرفن بالعفة فلا يطمع الفساق من المنافقين فيهن ، ثم هدّد أولئك المنافقين إن لم ينتهوا عن تعرضهم للنساء فى الطرق وغير ذلك من شرورهم بتسليط النبي صلى الله عليه وسلم عليهم ، فلا يجاورونه فى المدينة إلا قليلا ، ويحق عليهم التقتيل فى كل مكان يصيرون إليه ، كما فعل ذلك بالذين خلوا من قبلهم ، ثم ذكر من شرورهم أنهم يسألونه متى يكون مايوعدون به على سبيل الاستهزاء ، وأجابهم بأنه سيكون قريباً ، وذكر مايكون لهم من اللعن والعذاب فيه .

ثم ختم السورة بنهى المؤمنين عامة عن إيذاء النبي بمثل ما يؤذيه المنافقون به من الطعن عليه بنحو ماسبق فيها ، حتى لا يكونوا كالذين آذوا موسى بالطعن عليه بما هو برىء منه ، ثم أمرهم بالتقوى والقول السديد بدل الطعن والفحش ، ونوّه بشأن الأمانة التى لا يراعيها أولئك الطاعنون بالزور ، فذكر أنه عرض حملها على السماوات والأرض والجبال فأبين ذلك لخطر أمرها ، وأن الإنسان لم يشفق على نفسه من حملها لأنه ظلومٌ جهولٌ فلا يبالى بالتهاون فى أمرها ، ولأنه بحيث يعاقب على تركها ويثاب على فعلها (ليعذبَ الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ويتوبَ الله على المؤمنين والمؤمنات وكان الله غفوراً رحيما) .

سورة سبأ

تاريخ نزولها ووجه تسميتها :

نزلت سورة سبأ بعد سورة لقمان ، وقد نزلت سورة لقمان بين الإسراء والهجرة ، فيكون نزول سورة سبأ فى ذلك التاريخ أيضا .

وقد سميت هذه السورة بهذا الاسم لورود قصة أهل سبأ فيها ، وكانت سبأ مدينة من المدن القديمة فى اليمن ، وكانت عاصمة دولة قديمة به ، وقد خربت عند انهيار سد مأرب بسبب سيل العَرِم ، وتبلغ آياتها أربعاً وخمسين آية .

الغرض منها وترتيبها :

يقصد من هذه السورة إثبات يوم الساعة ، وكانوا قد سألوا عنه فى آخر السورة السابقة سؤال استهزاء (يسألكَ الناسُ عنِ الساعةِ قلْ إنما علمها عندَ الله وما يدريكَ لعلَّ الساعةَ تكونُ قريباً) ولهذا ذكرت هذه السورة بعد السورة السابقة ، وقد افتتحت بحمد الله تمهيداً لذكر اعتراضاتهم على ذلك اليوم ، ثم دار الكلام فيها على ذكر الاعتراض والجواب عنه ، إلى أن ختمت بإثبات عنادهم ومكابرتهم .

الاعتراض الأول على يوم القيامة

الآيات (١ — ٦)

قال الله تعالى (الحمدُ للهِ الَّذى لَهُ ما فى السماواتِ وما فى الأرضِ ولَهُ الحمدُ فى الآخرةِ وهُوَ الحكيمُ الخبيرُ) فذكر أنه يجب له الحمد فى الدنيا على ما أنعم به علينا فى السماوات والأرض ، وأن حمدنا له فى الدنيا نجازى عليه فى الآخرة ، فيكون له الحمد علينا فيها أيضا ، وأخبر بأنه حكيم خبير عالم رحيم غفور ، فلا يصح

أن يكون خلقه لنا عبثا من غير حكمة ، ثم ذكر اعتراضهم الأول على يوم القيامة (وقالَ الذينَ كفروا لا تأتينا الساعةُ) ورد عليهم بتأكيد إتيانها ، ليثيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، ويعذب الذين سعوا فى آياته معاجزين (ويرى الذينَ أوتوُ العلمَ الذى أنزلَ إليكَ من ربك هو الحقَّ ويهدى إلى صراط العزيزِ الحميدِ) .

الاعتراض الثانى على يوم القيامة

الآيات (٧ — ٢٨)

ثم قال تعالى (وقالَ الذينَ كفروا هلْ ندلُّكم على رجل يُنبِّئكم إذا مُزِّقتم كل ممزَّق إنكم لفى خلقٍ جديدٍ) فذكر استبعادهم لإعادتهم بعد أن يموتوا ويمزقوا كل ممزق ، وأجاب عن ذلك بأنه لا وجه لاستبعادهم ذلك وهم يرون من كمال قدرته ما يرون فيما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض ، وهو الذى سخر الجبال والطير لداود ، وسخر الريح وأسال عين القِطر لسليمان ، وأرسل سيل العَرِمْ على أهل سبأ فأهلكهم وخرب ديارهم ، ثم ذكر عجز آلهتهم ليوازنوا بينه وبين كمال قدرته ، وأمر نبيه بعد هذا أن يتلطف فى جدالهم بعد ظهور الحق لهم ، فيذكر لهم أنه أو إياهم إما على الهدى وإما على الضلال ، وأنهم لا يسألون عن عمله كما لا يسأل عن عملهم ، وأنه لا بد من يوم يفصل فيه بينهم ، ثم ختم ذلك بإثبات صدقه فيما يدعوهم إليه من الإيمان بيوم القيامة وغيره (وما أرسلناك إلا كافَّةً للناسِ بشيراً ونذيراً ولكنَّ أكثرَ الناس لا يؤمنونَ) .

الاعتراض الثالث والرابع على يوم القيامة

الآيات (٢٩ — ٤٢)

ثم قال تعالى (ويقولونَ متى هذا الوعدُ إنْ كنتم صادقينَ) فذكر أنهم سألوا عن ميعاد يوم القيامة استبعادا له ، وأجاب بأن له ميعادا لا يتأخرون عنه ساعة ولا يتقدمون عنه ، ثم ذكر أنهم قالوا لن نؤمن بالقرآن ولا بما بين يديه من يوم

القيامة ، وأجاب بانه لابد من وقوفهم أمامه رؤساء ومرءوسين ، فيلقى بعضهم الذنب على بعض ، ويقول المرءوسون لرؤسائهم لولا أنتم لكنا مؤمنين ، ويقول الرؤساء لهم أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم ؟ إلى أن قال (وأسَرُّوا النَّدامةَ لمَّا رأوُا العذابَ وجعلنَا الأغلالَ في أعناقِ الذينَ كفرُوا هلْ يجْزونَ إلا ما كانوا يعملونَ) .

ثم ذكر أن هذا كان شأن أهل القرى قبلهم مع أنبيائهم ، فكان مترفُوها يكفرون بما جاءوا به من يوم القيامة وغيره ، ويفتخرون بكثرة أموالهم وأولادهم ، ويعتقدون أنه لا عذاب يصيبهم في آخرتهم ، ثم أمره أن يخبرهم بأن الرزق يجرى بيد الله ، فكم من موسر شقى ، وكم من معسر تقى ، ولا تنفع الأموال ولا الأولاد شيئا عند الله ، وإنما ينفع عنده العمل الصالح ، فيجازى أصحابه الضعف بما عملوا ، ويعاقب من يسعى في آياته معاجزا بعذاب مُحضر دائم ، ثم أمره أن يعيد إخبارهم بأن الرزق يجرى بيده ، وأنهم إذا أنفقوا منه في سبيله فهو يخلفه عليهم ، ثم ذكر أنه سيحشر هؤلاء الكفار جميعاً سابقين ولاحقين ، ثم يقول أمامهم للملائكة : (أهؤلاء إيَّاكمْ كانُوا يعبدونَ) فيتبرأ الملائكة من عبادتهم ، ويذكرون أنهم كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون (فاليومَ لايملكُ بعضُكمْ لبعضٍ نفعاً ولاضراً ونقولُ للَّذينَ كفرُوا ذوقُوا عذابَ النارِ الَّتي كنتمْ بها تكذبونَ)

الخاتمـــة

الآيات (٤٣ — ٥٤)

ثم قال تعالى (وإذا تُتْلى عليهمْ آياتُنَا بَيِّنَاتٍ قالوُا ما هذَا إلا رجلٌ يريدُ أنْ يصدَّكم عمَّا كانَ يعبدُ آباؤكم وقالوُا ما هذا إلاَّ إفْكٌ مُفْتَرًى وقالَ الذينَ كفرُوا للحقِّ لمَّا جاءهمْ إنْ هذا إلاَّ سحرٌ مُبينٌ) فذكر أن ما سبق لهم في هذه السورة آيات بينات لاينكرونها إلا عنادا من غير برهان ولا كتاب أنزل عليهم ، ولا رسول أرسل إليهم ، وقد عاند الذين من قبلهم ولم يبلغوا معشار ما كان

لهم من قوة ونعمة ، فأخذهم الله بعذابه ولم تنفعهم قوتهم ونعمتهم ، ثم وعظهم أن يتفكروا فى أمر النبي صلى الله عليه وسلم ، ليعلموا صدق ما ينذرهم به من عذاب يوم القيامة ، وذكر من أدلة صدقه أنه لا يسألهم على ذلك أجراً ، وأنه يقذف به حقا واضحا على باطلهم فيدمغه ، وأنه قد جاء به حقا قويا لا يبدىء الباطل معه ولا يعيد ، ثم تلطف فى وعظهم فذكر أنه إن ضل فضلاله إنما يعود عليه وحده ، وإن اهتدى فبهدى الله له ، ثم ختم السورة ببيان سوء حالهم إذا فزعوا يوم القيامة إلى ربهم ، فلا يكون لهم فوت منه ولا مهرب ، وذكر أنهم يؤمنون به فى ذلك الوقت فلا ينفعهم إيمانهم ، لأنهم كانوا يكفرون به من قبل ويقذفون بالغيب من مكان بعيد (وحِيلَ بينهم وبينَ ما يشتهون كما فُعِلَ بأشياعهم مِنْ قَبْلُ إنهمْ كانُوا فى شَكٍّ مُريبٍ) .

سورة فاطر

تاريخ نزولها ووجه تسميتها :

نزلت سورة فاطر بعد سورة الفرقان ، وقد نزلت سورة الفرقان فيما بين الهجرة إلى الحبشة والإسراء ، فيكون نزول سورة فاطر فى ذلك التاريخ أيضاً .

وقد سُمِّيت هذه السورة بهذا الاسم لقوله تعالى فى أولها (الحمدُ لِلهِ فاطِرِ السماواتِ والأرضِ) فسميت باسم فاطر الذى ابتدئت به بعد ذكر اسم الحمد ، ومثل هذا يكفى فى تسميتها به ، وتبلغ آياتها خمسا وأربعين آية .

الغرض منها وترتيبها :

يقصد من هذه السورة إثبات اختصاص الله تعالى بالحمد ، ولهذا يدور الكلام فيها على ذكر ما يوجب حمده على الناس ، ليفوزوا برضاه وينجوا من عقابه ، وقد افتتحت بإثبات اختصاصه تعالى بالحمد ، وتبشير المؤمنين الحامدين بفتح أبواب

الرحمة لهم ، فاتصل أولها بما جاء فى آخر السورة السابقة من قطع رجاء المشركين فى ربهم ، لأن الضد يدعو إلى ذكر الضد .

اختصاص الله بالحمد

الآيات (١ — ٨)

قال الله تعالى (الحمدُ للهِ فاطرِ السماواتِ والأرضِ جاعلِ الملائكةِ رُسُلاً أولى أجنحةٍ مَثْنَىَ وثُلاثَ ورُباعَ يزيد فى الخلقِ ما يشاءُ إنَّ اللهَ على كلِّ شىءٍ قديرٌ) فذكر اختصاصه بالحمد لأنه مبدع السماوات والأرض وجاعل الملائكة رسلا يوصلون آثار قدرته وصنعه ، فإذا أرسلهم إلى الناس برحمته فلا معارض له فى إرسالها ، وإذا أمسكها عنهم فلا مرسل لها من بعده ، ثم أمر الناس أن يذكروا ما رحمهم به من النعم ، ليعلموا أنه لاخالق لها غيره ، وأنه هو الرازق وحده ، فإذا لم يؤمنوا بذلك فسوف يكون إليه مرجعهم ، ليعاقبهم على كفرهم بما أنعم به عليهم ، ثم ذكر أن ما وعد به من رجوعهم إليه حق لا يصح أن تغرهم عنه أسباب دنياهم ، أو الشيطان الذى هو عدو لهم ، ويزين مايزينه لأتباعه ليوقعهم فى عذاب ربهم ، ثم ذكر استحقاقهم ذلك العذاب ، وذكر استحقاق المؤمنين للمغفرة والأجر ، وأيّد ذلك بقوله (أفمنْ زُيِّنَ له سوءُ عملهِ فرآهُ حسناً فإن اللهَ يُضلُّ من يشاءُ ويهدى مَن يشاءُ فلا تذهبْ نفسُكَ عليهم حسراتٍ إنَّ اللهَ عليمٌ بما يصنعون)

آيات تدل على اختصاصه بالحمد

الآيات (٩ — ٤٥)

ثم قال تعالى (واللهُ الذى أرسلَ الرياحَ فتثيرُ سحاباً فسقناهُ إلى بلدٍ ميِّتٍ فأحيَيْنا بهِ الأرضَ بعدَ موتِها كذلكَ النشورُ) فذكر مما يدل على اختصاصه بالحمد إرساله الرياح بالمطر لإحياء الأرض بعد موتها ، وأنه كما يحيى الأرض بذلك ينشر الموتى من قبورهم ، لأنه المتفرد وحده بالعزة والقدرة ، وإليه تصعد أعمال الناس فيحاسبهم عليها :

ثم ذكر من ذلك خلقه لنا من تراب وجعله لنا أزواجا وتفرده بعلم ما تحمل كل أنثى وما تضع ، وخلقه بحرين أحدهما عذب سائغ شرابه ، وثانيهما ملح أجاج ، ومن كل منهما نأكل لحما طريًّا ونستخرج حلية نلبسها .

ثم ذكر من ذلك أنه هو الذى يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل ، ويسخر الشمس والقمر كلٌّ يجرى إلى أجل مُسمًّى ، وأن من يكون هذا شأن يكون هو المتفرد بالملك والحمد ، وأما الذين يدعونهم آلهة فلا يملكون شيئا ، لأنهم جماد لا يسمعون شيئا ، فإذا جاء يوم القيامة ظهر ضعفهم وكفروا بشرك من يعبدونهم . ثم ذكر لهم أنهم فقراء إليه وهو غنى عنهم ، وإن يشأ يذهبهم ويأت بخلق غيرهم يعرفون فضله عليهم . وأن ما يزرُونه من شرك وغيره لا يحمل وِزْرَه غيرهم ، كما أن من تزكى فإنما يتزكى لنفسه ، ولا يمكن أن يستويا فى ذلك كما لا يستوى الأعمى والبصير ولا الظِّلّ ولا الحرور ولا الأحياء ولا الأموات ، ثم ذكر أنه لا شىء على النبى صلى الله عليه وسلم من تكذيبهم ، وأنهم إن يكذبوه فى ذلك فقد كذب الذين من قبلهم ، فأهلكهم بآيات العذاب التى أرسلها عليهم .

ثم ذكر من ذلك إنزاله ماء المطر الذى أخرج به ثمرات مختلفا ألوانها ، وتنويعه الجبال إلى جبال ذات طرائق بيض وحمر وغير ذلك من ألوانها ، وتنويعه الناس والدوابّ والأنعام إلى أنواع مختلفة الألوان ، وأن ذلك إنما يعرفه العلماء الذين يخشونه ، ويتلون كتابه فيتدبرونه ويعملون به ، ثم ذكر فضل هذا الكتاب وأنه جاء مصدقا لما قبله من الكتب ، وأنه أورثه هذه الأمة التى اصطفاها من عباده ، فانقسمت فيه إلى ظالم لنفسه ترجّحت سيئاته ، وإلى مقتصد تساوت حسناته وسيئاته ، وإلى سابق بالخيرات ترجّحت حسناته ، وبين ما أعدّ لهم من الثواب ، وما أعد للكافرين من العقاب ، ثم أمر النبى صلى الله عليه وسلم أن يقول لهم (أرأيتمْ شركاءكم الذين تدعونَ من دونِ الله أرونى ماذا خلقُوا من الأرض أمْ لهمْ شركٌ فى السماوات أمْ آتيناهم كتاباً فهمْ على بيِّنـةٍ منهُ) ليسجل عجزها عما يزعمونه من شفاعتها لهم ،

لأنه هو الذي يمسك السماوات والأرض أن تزولا ، ولا يمكن أن يمسكها غيره إن زالتا

ثم ختم السورة ببيان أنهم يكفرون بذلك عنادا ، لأنهم كانوا يقسمون مجتهدين إن جاءهم نذير ليكونن أهدى من اليهود أو النصارى الذين كذبوا رسلهم . فلما جاءهم نذير لم يزدهم إلا نفورا ، فاستكبروا فى الأرض ، ومكروا مكرا سيئا ، ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله ، وتلك سُنّته فيمن كذب قبلهم برسله لا تتبدل ولا تتحوّل ، فلينظروا كيف كانت عاقبتهم وقد كانوا أشد منهم قوة ، وما كان الله ليعجزه شيء فى السماوات والأرض إنه كان عليما قديرا (وَلَوْ يُؤاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا ما تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِن دابَّة وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُم إلى أَجَلٍ مُسَمًّى فإذا جاءَ أَجَلُهُم فإنَّ اللهَ كانَ بِعِبادِهِ بَصِيراً) .

سورة يس

تاريخ نزولها ووجه تسميتها :

نزلت سورة يس بعد سورة الجنّ ، وكان نزول سورة الجن فى رجوع النبي صلى الله عليه وسلم من الطائف ، وكان قد سافر إليها سنة عشر من بعثته ليعرض الإسلام على أهلها ، فيكون نزول سورة يس فيما بين الهجرة إلى الحبشة والإسراء.

وقد سُميت هذه السورة بهذا الاسم لابتدائها بالقسم بهذين الحرفين اللذين سميت بهما وتبلغ آياتها ثلاثا وثمانين آية .

الغرض منها وترتيبها :

يقصد من هذه السورة إثبات الرسالة وبيان الحاجة إليها ، وهى إنذار العرب الذين لم ينذروا من قبل النبي صلى الله عليه وسلم ، وقد حق عذاب الله عليهم بغفلتهم وفجورهم . ويدور السياق فى هذه السورة على ذكر ما يدل على قدرة الله على ذلك من الأمثلة والآيات ، وقد ختمت السورة السابقة بإنذارهم بذلك العذاب ، وأن

الله لا يعجزه عنه شيء فى السماوات ولا فى الأرض ، فجاءت هذه السورة لإثبات قدرة الله عليه بتلك الأمثلة والآيات .

حاجتهم إلى رسول لإنذارهم
الآيات (١ — ١٢)

قال الله تعالى (يس ، والقرآنِ الحكيم ، إنكَ لمنَ المرسلينَ) فأقسم بهذين الحرفين على أن محمدا صلى الله عليه وسلم من المرسلين ، ثم ذكر الحاجة الى رسالته وهى إنذار العرب الذين لم ينذر آباؤهم من قبله ، فوقعوا فيما وقعوا فيه من الغفلة ، وحق العذاب على أكثرهم بسببها ، وقد جرت سُنَّة الله ألا يعذبَ قوما إلا بعد أن يرسل إليهم من ينذرهم ، ثم ذكر أنه بلغ من استحكام غفلتهم أنهم كانوا كأنما كانت أغلال فى أعناقهم بلغت إلى أذقانهم ، فارتفعت بها رؤوسهم وصاروا لا يبصرون الطريق الذى يخلصهم منها ، ثم ذكر أن من وصلت به الغفلة إلى هذا الحد وهم الأكثر لا فائدة فى إنذارهم ، وإنما ينذر من كان عنده استعداد لاتباع الذكر وخشية من العذاب ، وهؤلاء لهم البشرى بمغفرة وأجر كريم (إنَّا نحنُ نُحيي الموتى ونكتبُ ما قدَّموا وآثارهمْ وكلَّ شيءٍ أحصيناهُ فى إمامٍ مُبينٍ)

إثبات قدرته على عذابهم
الآيات (١٣ — ٨٣)

ثم قال تعالى (واضربْ لهمْ مثلا أصحابَ القريةِ إذْ جاءها المرسلونَ) فذكر مما يدل على قدرته على عذابهم مثل أصحاب تلك القرية مع رسلهم ، وقد فصله بما فصله به ، إلى أن ذكر أنه لم يحتج فى عذابهم إلى إنزال جند من السماء عليهم ، وإنما كانت صيحة واحدة أخذتهم ، وجعلتهم يستحقون التحسر على ما أصابهم بسبب استهزائهم بمن كان يأتيهم من الرسل ، وعدم اتعاظهم بما يرونه من الأمم التى أهلكت قبلهم وأنهم إليهم لا يرجعون (وإنْ كلٌّ لما جميعٌ لدينا محضرُون) .

ثم ذكر من ذلك آية إحياء الأرض بعد موتها ، فأخرج منها حبا وجعل فيها جنات من نخيل وأعناب ، إلى غير هذا مما ذكره فى هذه الآية .

ثم ذكر من ذلك آية سلخ النهار من الليل وجرى الشمس لمستقرّ لها وتقدير القمر منازل ، الى غير هذا مما ذكره فى هذه الآية .

ثم ذكر من ذلك آية حمل ذُرّيتهم فى الفُلك التى تجرى بهم فى البحر ، وأنه إن يشأ يغرقهم فلا يقدر أحد على إنقاذهم ، ولكن رحمته هى التى اقتضت أن يمهلهم الى حين ، ثم ذكر أنهم مع هذا اذا قيل لهم احذروا مثل هذا العذاب لعل الله يرحمكم ويمنعه عنكم أعرضوا كما يعرضون عن كل آية تأتيهم ، وأنهم اذا قيل لهم أنفقوا مما رزقكم الله قالوا أنطعم من لو يشاء الله أطعمه ، ثم ذكر أنهم يقولون مستهزئين متى هذا الوعد بالعذاب ؟ وأجاب عنه بأنهم لا ينظرون الا صيحة واحدة وهم يجادلون فيه ، فلا يستطيعون توصية ولا رجوعا الى أهلهم ، ثم ذكر أنه بعد صيحة العذاب تكون صيحة النفخ فى الصور فيبعثون من القبور ، وفصل ما يكون بعد البعث من الثواب والعقاب ، الى أن ذكر أن الكافرين ينكرون فى ذلك اليوم كفرهم ، فيختم على أفواههم وتشهد عليهم أيديهم وأرجلهم ، وأنه لو يشاء لطمس على أعينهم ومسخ على مكانتهم فأعجزهم عن الحركة ، كما أعجزهم عن النطق بالختم على أفواههم ، وكما يُنكس من يعمّره فى الخلق فيرده من القوة إلى الضعف والإعياء ، ثم ذكر أن ما يوعدون به من ذلك ليس بقول شاعر يلقى القول على عواهنه ، وإنما هو ذِكرٌ وقرآن مبين (لينذرَ مَن كانَ حياً ويحقَّ القولُ على الكافرينَ) .

ثم ذكر من ذلك أنه خلق لهم أنعاما وذللها لركوبهم وأكلهم ، وجعل لهم فيها منافع ومشارب توجب شكره عليهم ، لكنهم يتخذون من دونه آلهة يزعمون أنها تنصرهم وتدفع عنهم ما يوعدون به من العذاب ، مع أنها لا تستطيع أن تدفع عنهم شيئا إذا جاء يوم عذابهم وتتبرأ منهم ، ثم نهى النبي صلى الله عليه وسلم أن يحزن

لكفرهم بقوله (فلا يحزنْكَ قولهم إنَّا نعلمُ ما يُسرُّونَ وما يعلنون) .

ثم ذكر من ذلك خلقه الإنسان من نطفة فإذا هو خصيم مبين ، وذكر من خصامه أنه يضرب مثلا لإنكار بعثه فيقول (مَن يحيي العظامَ وهيَ رميمٌ) وأمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يجيبه بأن الذى أنشأها أول مرة قادر على إحيائها ، وذكر من قدرته على ذلك أنه يجعل من الشجر الأخضر نارا ، وأنه هو الذى خلق السماوات والأرض ، وإذا أراد شيئا قال له كن فيكون (فسبحانَ الذى بيده ملكوت كلِّ شيءٍ وإليه تُرجعونَ)

سورة الصافات

تاريخ نزولها ووجه تسميتها :

نزلت سورة الصافات بعد سورة الأنعام ، وقد نزلت سورة الأنعام بعد الإسراء وقبيل الهجرة ، فيكون نزول سورة الصافات فى ذلك التاريخ أيضا .

وقد سميت هذه السورة بهذا الاسم لابتدائها بالقسم به ، والمراد به الملائكة التى تقف صفوفا للعبادة ، أو تَصُفُّ أجنحتها فى الهواء منتظرة وصول أمر الله إليها ، وتبلغ آيات هذه السورة ثنتين وثمانين ومائة آية .

الغرض منها وترتيبها :

يقصد من هذه السورة إبطال الشرك ، وقد كانوا يعبدون الملائكة ويزعمون أنها بنات الله ، ويتخذون من الشياطين قرناء يطيعونهم ويزعمون أن بينهم وبين الله نسبا ، وأنهم يصعدون إلى السماء فيطلعون على أسرارها ويخبرونهم بها ، فابتدأ السورة بإثبات وحدانيته تعالى ، وأشار إلى أن الملائكة عباد مُسخرون للعبادة وحراسة السماء من الشياطين ، وذكر أن الشياطين عباد مدحورون

لا يعرفون شيئاً من أخبار السماء ، ثم أمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يستفتيهم فيما يكون من أمرهم وهم أضعف منهم خلقا ، لينذرهم بقدرته على بعثهم وحسابهم مع شياطينهم وآلهتهم ، وبما قص عليهم من أخبار الماضين ليكون فيها عبرة لهم ، ثم أمره أن يستفتيهم ثانيا فى صحة مازعموه من أن الملائكة بنات الله ، ومن أن بينه وبين الجنّة نسبا ، وبهذا يدور السياق فى هذه السورة على هذا الترتيب ، وقد ختمت السورة السابقة بالاستدلال بخلق السماوات والأرض على قدرته على بعثهم ، وقد جاء فى أول هذه السورة أنهم أضعف من غيرهم خلقا ، فيكون بعثهم أهون عليه من غيرهم ، وهذا هو وجه ذكر هذه السورة بعد سابقتها ، إلى ما بينهما من الشبه فى الإنذار بعذاب الله تعالى .

إبطال الشرك

الآيات (١ — ١٠)

قال الله تعالى (والصافّاتِ صفّا ، فالزاجراتِ زجراً ، فالتالياتِ ذكراً ، إن إلهكم لواحدٌ) فأقسم بالملائكة التى تصطف لعبادته وتزجر الشياطين عن معرفة أسرار سمائه على وحدانيته ، وأشار بهذا إلى عبوديتها له ، ثم وصف نفسه بما يدل على تفرده بالألوهية ، فذكر أنه رب السماوات والأرض ؛ وأنه زَيَّن السماء الدنيا بالكواكب وحفظها من الشياطين التى يزعمون أنها تصعد إليها فتعرف أسرارها وتلقيها إليهم ، فهم يدحرون عنها كلما اقتربوا منها ، ولهم عذاب يترقبهم دائما كلما حاولوا ذلك (إلا من خطفَ الخطفة فأتبعهُ شهابٌ ثاقبٌ)

أخذ المشركين بالترهيب والترغيب

الآيات (١١ — ١٤٨)

ثم قال تعالى (فاستفتهمْ أهم أشدُّ خلقا أم مَن خلقنا إنّا خلقناهم مِن طينٍ لازِبٍ) فأمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يستفتيهم فى أمرهم وقد سخر لعبادته وطرد من رحمته من هو أشد منهم خلقا ، ومن اتخذوهم قرناء وآلهة ، فلا يعجزه

أن يبعثهم ويحشرهم مع قرنائهم وآلهتهم ، ثم ذكر أنهم عند بعثهم لا يتناصرون كما يزعمون ، بل يلقى بعضهم التبعة على بعض ، ويشتركون فى العذاب جميعا ، ثم ذكر ما أعده للمؤمنين بعد ذكر عذابهم ، وذكر ما كان من عصيانهم لقرنائهم حين كانوا يغوونهم بالكفر وإنكار البعث والجزاء ، ووازن بين ما أعده للفريقين ، إلى أن ذكر أن السبب فى ضلال المشركين أنهم ألفوا آباءهم ضالّين (فهمْ على آثارِهم يُهْرَعُون) .

ثم أخذ فى ذكر حال من يقلدونهم ليعتبروا بما حصل لهم ، ويوازنوا بين من كفر ومن آمن منهم ، فذكر أخبار نوح وقومه ، وأنه ناداه فأجابه هو ومن آمن معه ، فنجاهم وجعل ذريتهم هم الباقين ، وترك على نوح سلاما فى العالمين ، وأغرق من كفر به فبادوا وذهبت آثارهم ، ثم ذكر أخبار إبراهيم وقومه ، وأنه رفع شأنه على من كفر به منهم ، ورزقه ذرّية صالحة مباركة ، وترك عليه سلاما باقيا فى الآخرين ، ثم ذكر أخبار موسى وهارون وأنه نجاهما وقومهما من ظلم فرعون ، وترك عليهما سلاما باقيا فى الآخرين ، ثم ذكر أخبار إلياس وقومه ، وأنه دعاهم إلى عبادة ربهم وترك عبادة صنمهم بَعْل ، فكذبوه فاستحقوا العذاب إلا من آمن منهم ، فإنه نجاهم وترك عليهم سلاما فى الآخرين ، ثم ذكر أخبار لوط وقومه ، وأخبار يُونسَ وقومه ، وذكر فى يونس أنه أرسله إلى مائة ألف أو يزيدون (فآمنُوا فمتّعناهم إلى حينٍ) .

إبطال بنوة الملائكة والجن

الآيات (١٤٩ — ١٨٢)

ثم قال تعالى (فاستفتهمْ ألرِبّك البناتُ ولهمُ البنونَ) فأنكر عليهم أن يكون له بنات من الملائكة ، وهم إنما يرضون البنين لأنفسهم ويكرهون البنات ، وذكر أنهم لم يشهدوا خلق الملائكة إناثا حتى يصح لهم أن يذهبوا إليه ، وإنما هو إفكٌ لا دليل لهم عليه ، ثم ذكر أنهم جعلوا بينه وبين الجِنَّةِ نسبا وهم المجوس من

العرب والفُرْس ، وكانوا يقولون بإلهين للخير والشر ، وأن إلهَ الخير هو الله ، وإله الشر هو إبليس ، ثم رد عليهم بأن الجنة يعلمون أنهم عباد مُحضرون للعذاب ، ونزَّه نفسه عما يصفونه من جعلهم الجن آلهة الشر ، وذكر أنهم يعجزون عن إغواء المخلصين من عباده ، ولا يغوون إلا من سبق فى علم الله أن يكون من أهل الجحيم ، ومن يكون هذا شأنه لا يكون إلها ، ثم ذكر تفرده بعلو الشأن فقال (وما مِنَّا إلاَّ له مقامٌ معلومٌ ، وإنا لنحنُ الصافُّونَ ، وإنا لنحنُ المسبِّحونَ)

ثم ختم السورة بتوبيخهم على شركهم مع أنهم كانوا يقولون لو أن عندنا كتابا منزلا مثل الكتب المنزلة على الأولين لأخلصنا العبادة لله ، ثم هدَّدهم على كفرهم بعد أن أجيبوا إلى قولهم ، وذكر أنه كتب النصر لرسله وأتباعهم ، وأمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يعرض عنهم إلى أن يحين عذابهم ، فسوف يبصرون منه ما يبصرون (سبحانَ ربِّكَ ربِّ العزة عمَّا يصفونَ ، وسلامٌ على المرسلينَ ، والحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ)

سورة ص

تاريخ نزولها ووجه تسميتها :

نزلت سورة ص بعد سورة القمر وقبل سورة الأعراف ، وقد نزلت سورة الأعراف فيما بين الهجرة إلى الحبشة والإسراء ، فيكون نزول سورة ص فى هذا التاريخ أيضا .

وقد سُمِّيت هذه السورة بهذا الاسم لابتدائها بالقسم به ، وتبلغ آياتها ثمانى وثمانين آية .

الغرض منها وترتيبها :

يقصد من هذه السورة إنذار الكافرين بعذاب الدنيا والآخرة ، وقد ابتدئت

بإثباته بالقسم عليه وبالقياس على من أهلك قبلهم من الأمم ، ثم أمرَ النبي صلى الله عليه وسلم بالصبر على طلبهم تعجيله استهزاء به ، وقُصَّ عليه فى ذلك قصص من صبر قبله من الأنبياء ، ثم ذكر ما يكون إليه المآب بعد هلاكهم ، ثم ختمت السورة بالعود إلى تأكيد ذلك الإنذار . ليكون ختامها مناسبا لابتدائها ، ويرتبط آخرها بأولها ، وهى فى هذا تشبه السورة السابقة فيما أنذر به فيها ، وهذا هو وجه ذكرها بعدها .

إنذار الكفار بعقاب الدنيا والآخرة

الآيات (١ — ٧٠)

قال الله تعالى (ص والقرآن ذى الذِّكر ، بَلِ الذينَ كفروا فى عِزَّةٍ وشِقاقٍ) فأقسم بذلك أنهم سيعاقبون على كفرهم فى الدنيا والآخرة ، ولكنهم فى غفلة عن هذا وشقاق ، وكم أهلك من قبلهم من الكفار فنادَوا ولاتَ حين مناص ، ثم ذكر أنهم تعجبوا من أن ينذرهم بذلك واحد منهم ، ومن أن يدعو إلى التوحيد وإبطال الآلهة ، وهذا يخالف الملة الآخرة (النصرانية) التى تجعل الآلهة ثلاثة ، ثم ذكر إنكارهم أن يختص بذلك دونهم وهو لا يمتاز بشىء عليهم ، ورد عليهم بأن ذلك يرجع إلى اختياره بمقتضى رحمته ، ولا شريك له فيما يملكه من أمر سماواته وأرضه ، فإن ادَّعوا لهم ملكا فى ذلك فليَرْتقوا فى الأسباب (جُندٌ ما هنالك مهزومٌ مِن الأحزابِ)

ثم ذكر أنه قد كذب قبلهم من كان أقوى منهم من قوم نوح وعاد وفرعون فعاقبهم وأهلكهم ، وسيكون مصيرهم مثلهم ، ثم ذكر أنهم طلبوا تعجيل هذا العذاب استهزاء به ، وأمر النبى صلى الله عليه وسلم أن يصبر على استهزائهم ، ويذكر ما كان من أمر الرسل قبله ليعتبر بما كان منهم ، وقد ذكر له فى ذلك أخبار داود وسليمان وأيُّوب وإبراهيم وإسحاق ويعقوب وإسماعيل واليسعَ وذا الكفل ، وفصَّل فى بعضهم ما فصله من أخبارهم ، وأجمل فى بعضهم ما أجمله من أمرهم ولما

فرغ من ذلك أشار إلى أنه ذكره ليحمله على ما أمره به من الصبر على قومه، ثم انتقل إلى طريق آخر يحمله أيضا على الصبر عليهم، وهو ماأعده للمتقين والطاغين من حسن المآب للأولين وشره للآخرين، وقد فصّل فيهما ما فصل من أحوالهما، وذكر فى الثانى ما يكون من التخاصم بين أهل النار وخزنتها، ثم ختم ذلك كله بتأكيد ما بدأ به من الإنذار فقال (قلْ إنمـا أنا منذرٌ وما من إلهٍ إلاّ اللهُ الواحد القهارُ) فإذا أراد إهلاكهم لم يمنعه غيره من آلهتهم، ثم ذكر أن ما ينذرهم به نبأ عظيم لا كذب فيه، وأيّد ذلك بأن ما ذكره من ذلك التخاصم بين أهل النار وخزنتهم لم يكن له به علم إذ يختصمون (إنْ يوحى إلىَّ إلا أنَّما أنا نذيرٌ مبينٌ)

العهد القديم بعقاب الكافرين

الآيات (٧١ - ٨٨)

ثم قال تعالى (إذْ قالَ ربُّك للملائكة إنى خالقٌ بشراً منْ طينٍ) فذكر قصة خلق آدم وأمره الملائكة بالسجود له، وأنهم أطاعوه إلا إبليس لعنه الله، وأنه عاقبه على ذلك بإخراجه من الجنة، وأنه عهد وعهده الحق أن يملأ جهنم منه وممن تبعه من الكافرين، ثم ختم السورة بأنه لا يسألهم على هذا الإنذار من أجر، ولا يكلفهم منه مالا يطيقون (إنْ هوَ إلاّ ذكرٌ للعالمينَ، ولتعلمُنَّ نبأهُ بعدَ حينٍ).

سورة الزمر

تاريخ نزولها ووجه تسميتها:

نزلت سورة الزُّمر بعد سورة سبأ، وقد نزلت سورة سبأ بعد الإسراء وقبيل الهجرة، فيكون نزول سورة الزمر فى ذلك التاريخ أيضاً.

وقد سميت هذه السورة بهذا الاسم لقوله تعالى فى آخرها (وَسيقَ الذين

كفروا إلى جهنَّمَ زُمراً) الآيات إلى قوله (وسيق الذين اتَّقوا ربهم إلى الجنة زمراً) وتبلغ آياتها خمساً وسبعين آية .

الغرض منها وترتيبها :

يقصد من هذه السورة الحثُّ على إخلاص العبادة لله تعالى ، والنهى عن اتخاذ الوسائل من الأولياء والأولاد ونحوهم ، ولهذا يدور السياق فيها على إقامة الأدلة والآيات على بطلان هذا الاعتقاد ، ووجه ارتباطها بسورة ص أنه ذكر فيها أن مشركى مكة اعتمدوا على ماجاء فى النصرانية من التثليث واتخاذ الولد ، فجاءت هذه السورة بعدها لإبطال ما اعتمدوا عليه من ذلك ، والحث على إخلاص العبادة لله وحده .

إبطال الوسائل من الأولياء والأولاد

الآيات (١ — ٧٥)

قال الله تعالى (تنزيلُ الكتابِ من اللهِ العزيزِ الحكيم) فذكر من قدرته وحكمته ما يستغنى معه عن الأولياء والأولاد ، ثم أمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يخلص العبادة له ، وأوعد من يتخذون من دونه أولياء يعبدونهم ليقربوهم إليه بحكمه يوم القيامة بينهم ، ثم ذكر أن كل ماعداه مخلوق له فيستحيل أن يكون له ولد منهم ، لأن الولد يجب أن يجانس والده فى الألوهية ، فهو خالق السماوات والأرض ومكوِّر الليل على النهار والنهار على الليل ، إلى غير هـذا مما ذكره من خلقه، ثم ذكر أنهم إن يكفروا بعدذلك فهو غنى عنهم،ولا تزرُ وازرةٌ وزر أخرى ، فلا شفاعة لولى أو ولد أو غيرهما مما يعبدونهم .

ثم ذكر أنه إذا مسَّ الإنسان ضُرٌّ لجأ إليه وحده ، ونسى أولياءه وشفعاءه إليه ، فإذا كشف الضر عنه وصار فى نعمة نسيه واتخذ له أندادا من الأولياء والشفعاء ، ثم هدده بأنه سيتمتع بكفره ثم يكون من أصحاب النار ، لأنه لا يصح أن يستوى هو ومن يقنت إلى ربه ويعمل لآخرته ، ولا يصح أن يستوى من يعلم أن العبادة

لله وحده بمن لا يعلم ذلك ، فيجب على المؤمنين أن يتقوا ربهم وحده ، وأن يكونوا أول المسلمين له ، وليعبد غيرهم ما يشاءون من دونه ، فسيكون لهم من العقاب ما يكون ، وسيكون للذين يخلصون العبادة له من الثواب ما يكون .

ثم ذكر أنه هو الذى أنزل المطر فسلكه ينابيع فى الأرض ، ثم يخرج به زرعا مختلفا ألوانه ، ثم يهيج فتراه مصفرًّا ، ثم يجعله حطاما ، ففى ذلك دليل أيضا على تفرده بالألوهية . وأنه لا يشاركه فى ألوهيته ما يتخذونه من الشفعاء والأولاد ، ثم ذكر أنه لا يعرف هذا إلا من استنار قلبه بالإسلام ، وأخذ ينوّه بشأن القرآن الذى يأتى بمثل هذا البيان ، مما تقشعرّ منه الجلود ، وتلين منه القلوب ، وجمع فى هذا بين الوعد والوعيد على نحو ما سبق .

ثم ضرب مثلا لمن يتخذ معه آلهة من الأولاد والأولياء بعبد فيه شركاء متشاكسون ، فلا يمكنه أن يرضيهم كلهم ، وضرب مثلا لمن يعبده وحده بعبد خالص لرجل واحد ، فيسهل عليه أن يرضيه ، وذكر أن ما ضرب به مثلا فى الحالين يفهمه كل من عنده حظ من العلم ، ولكن أكثر هؤلاء المشركين لا يعلمون ، ثم أخذ بعد هذا فى الوعد والوعيد على نحو ما سبق .

ثم ذكر أنه فيه الكفاية لعبيده ، فلا يصح أن يُخاف من الشفعاء الذين يخوّف المشركون بهم ، وذكر أنهم لو سئلوا عن خالق السماوات والأرض لأجابوا بأنه هو الذى خلقها ، وإذا كان هذا شأنه فإنه إذا أراد أحدا بضر لا يكشفه شفعاؤهم ، وإذا أراد أحدا برحمة لا يمكنهم أن يمسكوها عنه ، ثم أخذ بعد هذا فى الوعد والوعيد على نحو ما سبق .

ثم ذكر أنهم يتخذون هؤلاء الشفعاء من الأصنام لأنها تماثيل لأشخاص كانوا من المقربين عنده ، لينتفعوا بشفاعتها وشفاعة أصحابها لهم ، ورد عليهم بأن أولئك المقربين عبيد لا يملكون من أمره شيئا ، وتلك الأصنام من الجماد الذى لا يعقل ، فلا شفاعة إلا وهى له وحده . ثم ذكر أنهم مع هذا إذا ذُكر وحده اشمأزت

قلوبهم ، وإذا ذكر الذين يتخذونهم شفعاء من دونه فرحوا واستبشروا ، وهذا تناقض عجيب منهم ، وأوعدهم على ذلك بما أوعدهم به ، وبين أنهم يفعلون ذلك فى حال النعمة والرخاء ، فإذا مسهم ضر توجهوا إليه وحده بالدعاء ، ولا يلبثون إذا كشفه عنهم أن يعودوا إلى ما كانوا عليه ، فينسبوا ما أوتوه من نعمة إلى علمهم بالأفلاك ، ولا يعلموا أنه هو الذى يبسط الرزق لمن يشاء ، ويقبضه عمن يشاء ، ثم تلطف فى دعوتهم فذكر أنهم أسرفوا بذلك على أنفسهم ، ونهاهم أن يقنطوا مع ذلك من رحمته ، لأنه يغفر الذنوب جميعا بالتوبة عنها ، إلى غير هذا مما ذكره فى ذلك الأسلوب من دعوتهم .

ثم ذكر أنه خالق كل شيء وله مقاليد السماوات والأرض ، وأمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يخبرهم بأنه لا يصح مع هذا أن يطيعهم فيما يأمرونه به من عبادة أوليائهم وشفعائهم ، ثم مضى فى الوعيد والوعد على نحو ما سبق ، إلى أن ذكر أن الذين كفروا يساقون إلى جهنم زمرا ، فيقابلهم خزنتها بما يقابلونهم به ، وأن الذين اتقوا ربهم يساقون إلى الجنة زمرا ، فيقابلهم خزنتها بما يقابلونهم به ، ويحمدون الله الذى صدقهم وعده ، وأورثهم الأرض يتبوّءون من الجنة حيث يشاءون فنعم أجر العاملين (وترَى الملائكةَ حافّينَ منْ حولِ العرش يسبِّحون بحمدِ ربهمْ وقُضى بينهمْ بالحقِّ وقيلَ الحمدُ لِلهِ ربِّ العالمينَ)

سورة غافر

تاريخ نزولها ووجه تسميتها :

نزلت سورة غافر بعد سورة الزمر ، وقد نزلت سورة الزمر بعد الإسراء وقُبيل الهجرة ، فيكون نزول سورة غافر فى ذلك التاريخ أيضا .

وقد سميت هذه السورة بهذا الاسم لقوله تعالى فى أولها (غافر الذنبِ وقابلِ

التَّوب شديدِ العقابِ) وتبلغ آياتها خمسا وثمانين آية .

الغرض منها وترتيبها :

يقصد من هذه السورة الحث على إخلاص العبادة لله كما قصد من السورة السابقة ، ولهذا ذكرت بعدها ، والفرق بينهما فى ذلك أن المشركين أخذوا فى السورة السابقة بطريق الدليل على فساد اعتقادهم فى شفعائهم ، وإن جاء فيه شيء من الترغيب والترهيب ، وأخذوا فى هذه السورة بطريق الترغيب والترهيب ، وإن جاء فيه شيء من الطريق الأول .

التمهيد بالترهيب والترغيب

الآيات (١ — ١٢)

قال الله تعالى (حم ، تنزيلُ الكتابِ منَ اللهِ العزيزِ العليم) فذكر من صفاته أنه عزيز عليم يغفر الذنب ويقبل التوب ويأخذ بالعقاب الشديد وإليه المصير ، وذكر أنه لا يجادل فى ذلك إلا الذين كفروا به ، ونهى النبى صلى الله عليه وسلم أن يغتر فى ذلك بما اغتروا به من تقلبهم فى البلاد ، فقد سبقهم إلى هذا الغرور من كان أشد منهم من قوم نوح والأحزاب من بعدهم ، فكذبوا رسلهم وهمُّوا بهم ليأخذوهم فأخذهم الله بعقابه وأهلكهم ، ثم شرع فى الترغيب بعد ذلك الترهيب فذكر أن ملائكته يستغفرون لمن آمن به ، ويطلبون منه أن يدخلهم ما وعدهم من جناته ، ثم عاد إلى ترهيب الكافرين بعذاب الآخرة بعد ترهيبهم بعذاب الدنيا ، إلى أن قال فى بيان سببه (ذلكمْ بأنَّهُ إذا دُعِى اللهُ وحدهُ كفرتمْ وإنْ يُشركْ بهِ تؤمنوا فالحكمُ للهِ العلىِّ الكبيرِ)

الأمر بإخلاص العبادة لله

الآيات (١٣ — ٥٤)

ثم قال تعالى (هوَ الذى يُريكمْ آياته وينزلُ لكم مِن السماءِ رزقاً وما يتذكرُ إلا منْ يُنيبُ) فذكر الدليل على تفرده بالألوهية وأمر بإخلاص العبادة له ، ثم وصفه

بأنه رفيع الدرجات يختار لرسالته من يشاء لينذر يوم التلاق ، ومضى فى ترهيبهم بهذا اليوم إلى أن ذكر أنه ليس للظالمين فيه حميم ولا شفيع مما يعبدونه من دونه ، وأنه هو الذى يقضى فيه بالحق ، والذين يعبدون من دونه لا يقضون بشىء ، ثم أخذ فى ترهيبهم بما حصل لمن كفر قبلهم ، وكانوا أشد منهم قوة وآثارا فى الأرض ، فلم تغن عنهم قوتهم شيئا ولا آلهتهم ، وذكر من أخبار هؤلاء الكفار خبر فرعون وهامان وقارون مع موسى ، وتمتاز قصتهم هنا بتفصيل ما كان فيها من مؤمن آل فرعون ، إلى أن ذكر ما حاق بهم من سوء العذاب فى دنياهم وأخراهم ، وختم ذلك بما كان من نصر موسى وقومه (ولقدْ آتينا موسى الهدَى وأورثنا بنى إسرائيلَ الكتابَ هدى وذِكرى لأولى الألبابِ)

ختم السورة بالترهيب والترغيب

الآيات (٥٥ — ٨٥)

ثم قال تعالى (فاصبرْ إنَّ وعدَ اللهِ حقٌّ واستغفرْ لذنبكَ وسبحْ بحمدِ ربِّك بالعشىِّ والإبكار) فأمر النبى صلى الله عليه وسلم بالصبر على هؤلاء المشركين المغترين بدنياهم ، ووعده بالنصر عليهم ، كما نصر موسى وقومه على فرعون وهامان وقارون ، وذكر أن الذى يحملهم على الجدال فى آياته بغير دليل تكبرهم أن يكونوا مرءوسين ، وماهم ببالغى ما يريدون من ذلك ، فلا بد من تحقق وعد الله عليهم ، ومهما بلغوا فإنهم لا يعجزون الذى خلق السماوات والأرض ، وخلقُ ذلك أكبر من خلق الناس ، ثم ذكر أنه لا يستوى أمر المؤمنين وأولئك المتكبرين ، وأن الساعة التى يفصل فيها بين الفريقين آتية لا ريب فيها ، وأمر المؤمنين أن يستمروا على الإخلاص فى عبادته ليستجيب لهم ، ويقيهم مما أعده لمن يستكبر عن عبادته ، ثم ذكر مما يوجب عبادته عليهم أنه هو الذى جعل لهم الليل ليسكنوا فيها والنهار مبصرا ، إلى غير هذا مما ذكره من الآيات الدالة على قدرته وعظمته وتفضله وإنعامه ، ثم عجَّب بعد هذا من أولئك المتكبرين الذين يجادلون فى آياته . ومضى فى تهديدهم على ذلك إلى

أن قال (ادخلوا أبوابَ جهنمَ خالدينَ فيها فبئس مثوى المتكبرينَ)

ثم عاد إلى أمر النبي صلى الله عليه وسلم بالصبر ووعده بالنصر عليهم ، وذكر أنه سيريه فى الدنيا بعض الذى يعدهم ، ثم يرجعهم إليه فينتقم منهم أشد انتقام ، ولكل من ذلك أجل يأتى فيه ، وشأنه فى ذلك شأن الرسل قبله ، وما كان لرسول أن يأتى بآية إلا بإذن الله ، فإذا جاء أمره حلَّ وعده عليهم ، ثم مضى فى ترغيبهم وترهيبهم فذكر أنه هو الذى جعل لهم الأنعام لركوبهم وأكلهم ، إلى غير هذا مما ذكره من نعمه عليهم ، ثم أمرهم أن يسيروا فى الأرض لينظروا عاقبة الذين كفروا من قبلهم ، وقد اغتروا بقوتهم فاستهزؤوا برسلهم وفرحوا بما عندهم من العلم ، فلما أخذهم الله بعذابه قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين (فلمْ يكُ ينفعهمْ إيمانهمْ لمَّا رأوا بأسنا سُنَّةَ اللهِ التى قد خلتْ فى عبادهِ وخسرَ هنا لكَ الكافرونَ)

سورة فصلت

تاريخ نزولها ووجه تسميتها .

نزلت سورة فُصلت بعد سورة غافر ، وقد نزلت سورة غافر بعد الإسراء وقُبيل الهجرة ، فيكون نزول سورة فصلت فى ذلك التاريخ أيضا .

وقد سُميت هذه السورة بهذا الاسم لقوله تعالى فى أولها (كتابٌ فُصلت آياتهُ قرآناً عربياً لقومٍ يعلمونَ) وتبلغ آياتها أربعا وخمسين آية .

الغرض منها وترتيبها :

يقصد من هذه السورة بيان الغرض من نزول القرآن ، وهو التبشير بالثواب والإنذار بالعقاب ، وهى بهذا تكاد تتفق فى الغرض هى والسورة السابقة ، وهذا هو وجه ذكرها بعدها ، وقد جمع فيها بين الأخذ بالترغيب والترهيب والأخذ بالدليل أيضا .

بيان الغرض من نزول القرآن

الآيات (١ — ٣٢)

قال الله تعالى (حم ، تنزيلٌ مِنَ الرحمانِ الرحيم) فذكر أن القرآن تنزيل منه ، وأنه كتاب فصلت آياته ليكون بشيرا ونذيرا للناس ، فأعرض أكثرهم عنه وقالوا استهزاء بوعيده (فاعملْ إنّنا عاملونَ) وقد أمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يجيبهم عن هذا بأنه بشر مثلهم ، فليس له شيء من أمر عقابهم ، وما عليه إلا أن يبلغهم ما يوحى إليه من دعوتهم إلى وحدانية الله ، وإنذارهم بالويل والهلاك إن لم يؤمنوا به ، وتبشير المؤمنين بأن لهم أجرا غير ممنون ، ثم أخذ يبين لهم قبح كفرهم به ، فذكر أنهم يكفرون بالذي خلق الأرض فى يومين ، ومضى فى ترتيب أيام خلق الأرض والسماوات ، ثم أنذرهم إن أعرضوا عن الإيمان به بعد ذلك بصاعقة مثل صاعقة عاد وثمود ، وأخذ فى تفصيل ما حصل لهم من ذلك فى دنياهم ، ثم ذكر ما يحصل لهم بعد حشرهم من شهادة سمعهم وأبصارهم وجلودهم عليهم ، إلى غير هذا مما ذكره من أمر آخرتهم ، ثم عاد إلى ذكر إعراضهم عن إنذار القرآن لهم ، فذكر أنهم قالوا (لا تسمعُوا لِهذا القرآن والغوْا فيهِ لعلكم تغلبونَ) ثم هددهم على ذلك بما أعده لهم من العذاب الشديد ، وذكر ما أعده للمؤمنين من حسن لقاء الملائكة لهم ، إلى قولهم فى لقائهم لهم (نُزُلا مِنْ غفورٍ رحيمٍ) .

شرف الغرض الذى يدعو اليه

الآيات (٣٣ — ٥٤)

ثم قال تعالى (ومَن أحسنُ قولا ممّن دعا إلى الله وعملَ صالحاً وقالَ إنّنى مِن المسلمينَ) فذكر شرف الغرض الذى نصب نفسه له من الدعوة إلى الله ، وأمره أن يقابل فى دعوته إساءتهم بالحسنة ، وأن يستعيذ بالله إذا نزغه من الشيطان نزغ من الغضب ، ثم ذكر أن من آياته الليل والنهار والشمس والقمر ، ونهاهم أن يسجدوا للشمس والقمر ، وأمرهم بالسجود له ، فإن استكبروا فلا يهمه ذلك ، لأن عبادتهم

له لا تذكر بجانب عبادة الملائكة له ، ثم ذكر أن من آياته إحياء الأرض بالمطر ، ليبين لهم أن الذى يحيي الأرض قادر على إحياء الموتى ، وانتقل من ذلك إلى تهديدهم على إلحادهم فى آياته بعد إحيائهم .

ثم عاد إلى تهوين أمر إساءتهم له ليؤكد ما أمره من مقابلتها بالحسنة ، فذكر أنه ما يقال له إلا ما قد قيل للرسل من قبله ، فلا يصح أن يضيق صدره بما قالوه فى أول السورة من أن فى قلوبهم أكنّة مما يدعوهم إليه ، إلى غير هذا مما حكى عنهم ، وعليه أن يشتغل بالتبليغ ويفوض أمره إليه ، وإنه لذو مغفرة وذو عقاب أليم ، ثم ذكر أنه لو جعله قرآنا أعجميا ولم يفصل آياته بالعربية كما فصله لقالوا لولا فصلت آياته ، لأنهم متعنتون لا يرضيهم شيء ، وذكر أنه هدى وشفاء للمؤمنين ، وأن غيرهم فى آذانهم وقرٌ وهو عليهم عمىً ، فلا عيب فيه وإنما العيب فيهم ، ثم ذكر أنه آتى موسى التوراة قبله فاختلف فيه كما اختلف هؤلاء المشركون فى القرآن بين مصدق ومكذب ، وأنه لولا سبق حكمه بإمهالهم لعجّل بقضائه بينهم ، ثم هوّنَ على نفسه إعراضهم فذكر أن من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها ، وذكر أن موعد ذلك مما اختص هو بعلمه ، فإذا أتى يومه ناداهم أين شركائى ؟ فيتبرّؤون من إثبات الشركاء له ، ثم بين أن إنكارهم لهم فى الآخرة بعد إقرارهم بهم فى الدنيا هو شأن الإنسان لا يثبت على حال ، فإن أقبلت عليه الدنيا لا ينتهى إلى درجة إلا ويطلب أزيد منها ، وإن أدبرت عنه بالغ فى اليأس والقنوط ، وإن عاودته النعمة اغتر بها وظن أنها حق له لا يزول عنه ، وأنه لا ساعة قائمة ، ولئن كان هناك ساعة ورجع إلى ربه ليحسننّ إليه كما أحسن إليه فى الدنيا ، ثم يمضى فى إعراضه وينأى بجانبه ، فإذا مسه الشر بعد ذلك عاد إلى الإكثار من دعائه .

ثم ختم السورة بذكر ما يوجب عليهم أن يحتاطوا فى أمرهم ، فأخبرهم بأنه على تقدير أن يكون القرآن من عنده يكون كفرهم به من أعظم موجبات العقاب ، ثم ذكر أنه سيريهم ما أوعدهم به فى الآفاق وفى أنفسهم ، ويريد بالآفاق فتح البلاد

المحيطة بهم ، وبأنفسهم فتح مكة ، وبهذا يتبين لهم أنه الحق (أَوَ لم يكفِ بربِّك أنه على كلِّ شيءٍ شهيدٌ ، أَلاَ إنهمْ في مِريةٍ مِن لقاءِ ربهمْ ألا إنَّهُ بكلِّ شيءٍ محيطٌ)

سورة الشورى

تاريخ نزولها ووجه تسميتها :

نزلت سورة الشُّورى بعد سورة فُصِّلتْ ، وقد نزلت سورة فصلت بعد الإسراء وقبيل الهجرة ، فيكون نزول سورة الشورى في هذا التاريخ أيضا .

وقد سميت هذه السورة بهذا الاسم لقوله تعالى في الآية — ٣٨ — منها (والذينَ استجابُوا لربهم وأقامُوا الصلاةَ وأمرهم شُورى بينهم ومِمّا رزقناهم ينفقونَ) وتبلغ آياتها ثلاثا وخمسين آية .

الغرض منها وترتيبها :

يقصد من هذه السورة بيان اتفاق الرسل على شرع الإسلام من أولهم إلى آخرهم ، وإنذار من يخالفه بعذاب الدنيا والآخرة ، وتبشير من يؤمن به بحسن الثواب فيهما ، وبهذا تتفق هي والسورة السابقة فيما جاء فيها من الترهيب والترغيب ، مع ما فيها من أخذهم بشيء من طريق الدليل ، وهذا هو وجه المناسبة بين السورتين

اتفاق الرسل على شرع الإسلام

الآيات (١ — ٥٣)

قال الله تعالى (حم ، عسق ، كذلك يُوحِي إليكَ وإلى الذينَ مِن قبلكَ اللهُ العزيزُ الحكيمُ) فمهّد لذلك بأن الذي يوحي إليه وإلى الرسل قبله إله واحد هو العزيز الحكيم ، وذكر ما ذكر من سعة ملكه وعلوه وعظمته ، وأن السماوات تكاد تتفطر من خشيته والملائكة يسبحون بحمده ، وهدّد من يتخذ من دونه أولياء بأنه رقيب عليهم ، وسيحاسبهم على شركهم ، ثم ذكر أنه أوحى إليه قرآنا

عربيا لينذر به أهل مكة ومن حولهم بعذاب يوم القيامة ، وهو اليوم الذي يجتمعون فيه فيكون فريق منهم في الجنة وفريق في السعير ، ولو شاء لجعلهم أمة واحدة ، ولكن مشيئته اقتضت أن يدخل من يشاء في رحمته ، وأن يحرم من يشاء منها ، ومن يحرمه منها لا يمكن أن يدخله فيها ما يتخذه من ولي أو نصير ، ثم أنكر عليهم أن يتخذوا من دونه أولياء لا يمكنهم نصرهم : لأنه هو الولي وحده ، وذكر أن ما اختلفوا فيه من ذلك فحكمه إليه في يوم القيامة ، وليس لأحد من خلقه الحكم فيه ، بل يجب تفويض كل شيء إليه ، لأنه فاطر السماوات والأرض ، إلى غير هذا مما استدل به على وجوب تفويض الأمر إليه

ثم انتقل من ذلك التمهيد إلى المقصود وهو أنه شرع لهم من الدين ما وصى به نوحا وإبراهيم وموسى وعيسى ، وذلك ما اتفقت عليه شرائعهم من الإيمان بالله واليوم الآخر ونحوهما مما لا اختلاف فيه بينهم ، ووبخ المشركين أن يستبعدوا ما يدعوهم إليه من هذا الدين الذي اتفق الرسل عليه ، ثم ذكر أن أتباع أولئك الرسل لم يتفرقوا في ذلك الدين إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم ، ولولا حكم الله بتأخير الفصل بينهم إلى يوم القيامة لفصل بينهم في الدنيا ، ثم أمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يستمر في دعوته إلى هذا الدين ، فلا يتبع أهواءهم المتفرقة ، ولا يؤمن ببعض الكتب دون بعض . وليعدلْ بينهم في الحكم ، لأن إلهه وإلههم واحد ، وكل واحد مسئول عن عمله ، والله هو الذي سيحكم بينهم ، ثم ذكر أن الذين يحاجّون في دين الله من بعد اتفاق أولئك الرسل عليه حجتهم داحضة ، وعليهم غضب منه ولهم عذاب شديد ، وأنه أنزل الكتاب بهذا الدين الحق ، وأنزل الميزان وهو العقل الذي يميز بين الحق والباطل ، فلا عذر لهم في تباطئهم عن الإيمان به ، ولعل الساعة تفاجئهم وهم على كفرهم ، فيندمون حين لا ينفع الندم ، ثم ذكر أن الذين لا يؤمنون بها يستعجلون بها على سبيل الاستهزاء ، وأن الذين يؤمنون بها مشفقون أن تفاجئهم ، وأنه لا يؤخرها إلا لأنه لطيف بعباده ،

يرزق من يشاء وهو القوىّ العزيز ، فمن كان يريد حَرْثَ الآخرة نزدله فى حرثه ، ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها ويمهله ولا يعجله ، وماله فى الآخرة من نصيب

ثم أخذ فى توبيخهم على ماشرعوا لأنفسهم من الشرك وإنكار البعث ونحو ذلك مما زينه لهم شركاؤهم من الشياطين ، وهددهم بأنه لولا حكمه بتأخير عذابهم إلى يوم القيامه لعجّل بالقضاء بينهم ، وأنذرهم بأن لهم عذابا أليما على ما شرعوه من ذلك لأنفسهم ، وبشر المؤمنين بروضات الجنات التى أعدها لهم ، وانتقل من هذا إلى توبيخهم على أن ينسبوا الى النبي صلى الله عليه وسلم افتراء هذا الدين عليه، وذكر أنه لو يشاء ختم على قلبه وتولى هو محو الباطل وإحقاق الحق بآياته ، ولكنه أراد أن يعذرهم بإرساله إليهم رحمة بهم ، ليتوب عن شركه من يتوب فيقبل توبته، ويستجيب دعاء المؤمنين ويزيدهم من فضله ، ومن يستمر على كفره بعد ذلك فلهم عذاب شديد فى دنياهم وأخراهم ، ثم ذكر أنه فى رحمته بهم يرزقهم بقدر ، لأنه لو بسط لهم الرزق لبغوا فى الأرض ، وبين أنهم إذا احتاجوا إلى الرزق فإنه لا يمنعهم منه ، فينزل الغيث عليهم من بعد يأسهم منه ، وينشر عليهم رحمته ، وقد مضى بعد هذا فى ذكر آياته ونعمه عليهم ، واستطرد فى ذلك إلى ذكر ما يصيبهم فى دنياهم أو فيما ينعم به عليهم ، ليبين أن ذلك قد يكون بما كسبت أيديهم ، ثم ذكر أن ما يعطونه من الرزق فى الدنيا لا قيمة له ، وأن ما عنده خير وأبقى للمؤمنين الذى يتوكلون عليه، والذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحشَ ويعفون عند غضبهم، إلى غير هذا مما ذكره من صفاتهم ، ثم انتقل من هذا إلى وعيد من يضل عن ذلك الدين القديم ، فذكر أنهم حين يرون العذاب يتمنون أن يردوا ليؤمنوا به ، إلى غير هذا مما ذكره من أحوالهم .

ثم ختم السورة بأمرهم أن يستجيبوا لربهم فيما شرع لهم من ذلك الدين ، من قبل أن يأتى يوم لا مردّ له منه ، ولا يكون لهم ملجأ من عذابه ، فإن أعرضوا عن ذلك فليس على النبي صلى الله عليه وسلم شيء من إعراضهم ، لأنه قام بما كلف

به من تبليغهم ، ثم ذكر أن السبب فى إعراضهم ما هم فيه من غرور وجهل ، فإذا أصابتهم رحمة فرحوا بها وأبطرتهم ، وإذا أصابتهم سيئة بلغ الكفر مبلغه منهم ، ثم خطأهم فى غرورهم بما يملكون فى دنياهم ، لأن كل شيء ملك له ، وكل ما فى أيدينا هبة منه ، يهب لمن يشاء إناثا ، ويهب لمن يشاء الذكور ، أو يزوجهم ذكرانا وإناثا ويجعل من يشاء عقيما ، ثم انتقل من ذلك إلى إثبات ما أنكروه من الوحى بأنه ما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب أو بوساطة ملك ، وأنه أوحى إليه روحا من أمره وما كان يدرى قبله ما الكتاب ولا الإيمان ، وأنه يهدى من ذلك إلى صراط مستقيم (صراطِ اللهِ الذى له ما فى السماواتِ وما فى الأرضِ ألا إلى اللهِ تصير الأمور) .

سورة الزخرف

تاريخ نزولها ووجه تسميتها :

نزلت سورة الزخرف بعد سورة الشورى ، وقد نزلت سورة الشورى بعد الإسراء وقبيل الهجرة ، فيكون نزول سورة الزخرف فى ذلك التاريخ أيضا .

وقد سميت هذه السورة بهذا الاسم لقوله تعالى فى الآية — ٣٥ — منها (وزخرفاً وإن كلُّ ذلكَ لمّا متاعُ الحياةِ الدُّنيا والآخرةُ عندَ ربكَ للمتقينَ) وتبلغ آياتها تسعا وثمانين آية .

الغرض منها وترتيبها :

يقصد من هذه السورة تنزيه الله تعالى عن الأولاد ، وقد ذكر فى السورة السابقة اتفاق الرسل على شريعة التوحيد ، ولكن بعض أتباعهم أدخل عقيدة الولد فى شرائعهم ، فذكرت هذه السورة بعدها لتنزيه الله عنها ، وتبرئة هذه الشرائع منها ، وهذا إلى ما فيها من أخذهم بالترهيب والترغيب وغيرهما مما تشبه به السورة السابقة أيضا .

التمهيد لتنزيه الله عن الأولاد

الآيات (١ — ١٤)

قال الله تعالى (حم ، والكتابِ المبينِ ، إنّا جعلناهُ قرآناً عربيًّا لعلكم تعقلون) فمهّد لذلك بالتنويه بشأن ما يتلى عليهم فيه ، وذكر أنه لا يصح أن يعرض عن إنذارهم لإسرافهم فى شركهم ، وأنه كم أرسل من نبي فى الأولين ، وأنهم كانوا أشد منهم بطشا ، فلما استهزؤوا برسلهم أهلكهم وجعلهم مثلا لمن بعدهم ، ثم انتقل من ذلك إلى إثبات ما ذكره من إسرافهم وعنادهم ، فذكر أنهم لو سئلوا من خلق السماوات والأرض لقالوا خلقهن العزيز العليم ، وأخذ بعد هذا فى ذكر بعض ما أنعم به عليهم ليعرفوا فضله ، وينزهوه عما لا يليق به ، ويعتقدوا أنهم لا بد من رجوعهم إليه (وإنّا إلى ربنا لمنقلبونَ)

إبطال بنوة الملائكة

الآية (١٥ - ٥٦)

ثم قال تعالى (وجعلوا له من عباده جزءاً إنّ الإنسان لكفورٌ مبينٌ) فذكر أنهم بدل شكره وتنزيهه عما لا يليق به قالوا عن الملائكة إنهم بناته ، مع أنهم لا يرضون البنات لأنفسهم ، وإذا بشر أحدهم بما ضربه له مثلا من البنات ظلّ وجهه مسودًّا من الحزن والغم ، ثم ذكر أنهم لا دليل لهم على عبادتها إلا قولهم لو شاء الرحمان ما عبدناهم ، وقولهم إنا وجدنا آباءنا يعبدونهم ونحن مقتدون بهم ، ورد عليهم بأن من قبلهم من المشركين ذكر مثل هذا لرسلهم ، فلم يفدهم شيئا وانتقم الله منهم فأهلكهم ، ثم أمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يذكر لهم براءة إبراهيم مما يشركون ، وهو الأب الأعلى لهم ، والإمام الذى يجب أن يكون قدوتهم ، وكان قومه يعبدون الكواكب وسكانها من الملائكة ، فتبرأ من عبادتهم ، وشرع دين التوحيد لذريته ليرجعوا إليه جيلا بعد جيل ، ثم ذكر أنه مَتَّعَ العرب من ذريته حين انصرفوا عن شرعه إلى تلك العبادة الباطلة ، فأمهلهم وأمدّ لهم إلى أن أرسل

إليهم رسولا منهم ، وأنزل عليه القرآن ليدعوهم إلى عبادته ، فاستخفوا به لأنه لم يكن من ذوى الرياسة فيهم ، وقالوا لولا نُزّل هذا القرآن على رجل عظيم من مكة أو الطائف ، ورد عليهم بأن ذلك فضله ورحمته يقسمه كما يريده ، وهو الذى قسم بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ، واقتضت حكمته أن يكون فيهم الأغنياء والفقراء لتنتظم بهذا أمور حياتهم ، ورحمته خير من تلك الأموال التى يجعلونها مقياس الفضل بينهم ، ولولا أن يكون الناس أمة واحدة على الكفر لجعل لمن يكفر به بيوتا سقفها من فضة ، إلى غير هذا من زخرف الدنيا وزينتها ، (وإنْ كلُّ ذلكَ لمَّا متاعُ الحياةِ الدُّنيا والآخرةُ عندَ ربكَ للمتقينَ) ثم ذكر أنَّ ذلك من إغواء الشيطان الذى اتخذوه قرينا لهم ، وأنهم سيندمون على استماعهم له حين يرجعون إلى ربهم ، ويتمنون أن لو كان بينهم وبينه بُعد المشرقين ، ثم ذكر للنبى صلى الله عليه وسلم استحكام الجهل فيهم ، وأنهم لا ترجى هدايتهم ، وأنه إن ذهب به قبلهم فإنه سينتقم منهم فى أخراهم ، وإن أراه ما يوعدون من العذاب فى دنياهم فهو مقتدر عليهم ، ثم أمره أن يستمسك بما أوحى إليه من الاسلام والتوحيد ، وذكر أنه هو الدين الذى أرسل به الرسل قبله ، ثم خص موسى بالذكر من بينهم لبقاء التوحيد ظاهرا فى شريعته أكثر من غيرها ، فذكر ما كان من إرساله إلى فرعون وقومه ، وذكر ما كان من اغترار فرعون بملكه ، واستهزائه بموسى لأنه لا يبلغ ما بلغه من المجد والسلطان فى الحياة الدنيا ، وأنه استخفَّ قومه فأطاعوه فأغرقهم أجمعين (فجعلناهمْ سلفا ومثلا للآخرينَ) .

إبطال بنوة عيسى لله

الآيات (٥٧ — ٨٩)

ثم قال تعالى (ولمَّا ضُربَ ابنُ مريمَ مثلاً إذا قومكَ منه يصدُّونَ) فذكر أنهم اعتمدوا على النصرانية فى عبادتهم الملائكة ، فقالوا إن النصارى عبدوا عيسى واتخذوه ولدا لله والملائكة خير منه ، ورد عليهم بأن عيسى ما هو إلا عبد

مثلهم ، وأنه لو يشاء لجعلهم خلفاً فى الأرض منهم ، ولم يسكنهم السماوات التى جعلتهم يبالغون فى أمرهم ؛ ثم ذكر أن عيسى إنما ولد من غير أب ليكون علامة على الساعة ، ونهاهم عن الشك فيها ، وأمرهم أن يتبعوه ولا يسمعوا للشيطان فيما يزين لهم من عبادة غيره ، ثم ذكر أن عيسى جاء بما جاء به غيره من الرسل ، فأمر بتقوى الله وعبادته ، ولـكن أتباعه اختلفوا بعده إلى أحزاب فى شريعته ، وزعموا أنه ابن له ، ثم هددهم على هذا بعذاب يوم القيامة ، وبين أنها توشك أن تأتيهم بغتة وهم لا يشعرون ، ويومئذ يعادى الأخلاء بعضهم بعضا إلا المتقين ، ثم ذكر ما يحصل للمتقين فى ذلك اليوم ، وذكر بعده ما يحصل للمجرمين فيه ، إلى أن ذكر فى بيان استحقاقهم لما يحصل لهم (أم يحسبونَ أنّا لا نسمعُ سرَّهم ونجواهم بَلَى ورسلُنا لديهم يكتبونَ)

ثم ختم السورة بالتلطف فى إبطال اتخاذ الأولاد له تعالى ، فأمر النبى صلى الله عليه وسلم أن يذكر أنه لو كان له ولد لكان أول العابدين ، ونزهه عما يصفون من اتخاذ الولد ، وأمره أن يتركهم فى لهوهم ولعبهم حتى يلاقوا يومهم الذى يوعدون ، ثم ذكر أنه هو الذى ثبتت ألوهيته فى السماء والأرض ، وله ملك السماوات والأرض وما بينهما ، ولا يملك الذين يدعون من الملائكة ونحوهم الشفاعة لأحد إلا من شهد بالحق ، فلا يصح أن يكونوا مع هذا العجز أولادا له ، ثم استبعد منهم أن يذهبوا إلى عبادتهم مع علمهم بأنه هو الذى خلقهم ، ثم ذكر أن مثل هؤلاء قوم لا يؤمنون (فاصفحْ عنهم وقلْ سلامٌ فسوفَ يعلمونَ)

سورة الدخان

تاريخ نزولها ووجه تسميتها :

نزلت سورة الدُّخان بعد سورة الزُّخرف ، وقد نزلت سورة الزخرف بعد الإسراء وقبيل الهجرة ، فيكون نزول سورة الدخان فى ذلك التاريخ أيضاً .

وقد سمِّيت هذه السورة بهذا الاسم لقوله تعالى فى الآية — ١٠ — منها (فارتقبْ يومَ تأتى السماءُ بدخانٍ مبينٍ) وتبلغ آياتها تسعا وخمسين آية .

الغرض منها وترتيبها :

يقصد من هذه السورة بيان أن ما أنذر به المشركون فى آخر السورة السابقة قد صار قريبا ، وأصبح وقوعه مُرتقَباً ، وأوشك دخانه يملأ آفاق السماء ، ولهذا ذكرت هذه السورة بعد سورة الزخرف ، لما بينهما من هذه المناسبة الظاهرة .

إنزال يوم العذاب

الآيات (١ — ٥٩)

قال الله تعالى (حم ، والكتابِ المبين ، إنَّا أنزلناه فى ليلةٍ مباركةٍ إنَّا كنَّا منذرينَ) فذكر أنه أنزل يوم عذابهم إلى سماء الدنيا فى الليلة التى اختارها من السنة لتقدير الحوادث فيها ، وإعلان ملائكته بها لتنفيذها ، ثم انتقل من هذا إلى أمر النبي صلى الله عليه وسلم بارتقاب يوم تأتى السماء بدخانه ، وهذا كناية عن ظهور شره ، لأن الإنسان إذا اشتد خوفه أظلمت عيناه فيرى الدنيا كأنها مملوءة من الدخان ، ثم ذكر ما يكون من دعائهم له أن يكشفه عنهم وإعلان استعدادهم للإيمان ، وما يكون من استبعاده إيمانهم اذا كشفه عنهم ، وقد جاءهم رسول مبينٌ فأعرضوا عنه وقالوا معلَّمٌ مجنون ، ثم ذكر أنه يكشفه قليلا ليظهر كذبهم فى دعوى استعدادهم للإيمان اذا كشفه عنهم ، وأنه يبطش بهم بعد هذا بطشته

الكبرى وينتقم منهم ، ثم أتبع ذلك بذكر ما حصل لفرعون وقومه لبيان قدرته على إهلاكهم ، وأن تلك سُنَّته فيمن يكذب رسله ولا يؤمن به ، ثم عاد إليهم فذكر أنهم ينكرون ذلك ويزعمون أنهم لا يبعثون ، ويطلبون ممن يعتقد ذلك أن يبعث لهم آباءهم إن كان صادقا فى دعواه ، ورد عليهم بأنهم ليسوا أقوى من قوم تبّع الذين أهلكهم لإجرامهم ، وبأنه لم يخلق السماوات والأرض وما بينهما عبثا ، وإنما خلق ذلك لحكمة لا تظهر إلا بأن يكون هناك بعث بعد الموت ، لأنه لا بُدَّ من يوم يفصل فيه بينهم أجمعين ، فلا يغنى فيه مَوْلىً عن مَوْلىً شيئا ، وتكون شجرة الزقّوم طعام الأثيم ، ويكون المتقون فى مقام أمين ، ثم ختم السورة بمثل ما بدأها به فقال (فإنما يسَّرناهُ بلسانكَ لعلهمْ يتذكَّرون ، فارتقبْ إنهم مرتقِبونَ)

سورة الجاثية

تاريخ نزولها ووجه تسميتها :

نزلت سورة الجاثية بعد سورة الدُّخان ، وقد نزلت سورة الدخان بعد الإسراء وقُبيل الهجرة ، فيكون نزول سورة الجاثية فى ذلك التاريخ أيضا .

وقد سُمّيت هذه السورة بهذا الاسم لقوله تعالى فى الآية — ٢٨ — منها (وترَى كلَّ أمةٍ جاثيةً كلُّ أمة تُدْعَى إلى كتابها اليومَ تُجْزَوْن ما كنتمْ تعملونَ) وتبلغ آياتها سبعا وثلاثين آية .

الغرض منها وترتيبها :

يقصد من هذه السورة الدعوة إلى الإيمان بالله تعالى ، والرد على الدهرية الذين لا يؤمنون به ، وينكرون البعث بعد الموت ، وقد دعا فيها إلى هذا تارة بالدليل ، وتارة بالترهيب والترغيب ، وشأنها فى ذلك شأن السورة السابقة ، وشأن السُّور

التى ذكرت قبلها ووافقتها فى هذا الغرض ، كما وافقتها فى الحروف التى ابتدئت بها ، ولهذا ذكرت هذه السورة معها .

إثبات وجود الله تعالى

الآيات (١ — ٢٣)

قال الله تعالى (حم ، تنزيلُ الكتابِ من اللهِ العزيزِ الحكيم ، إنّ فى السماواتِ والأرضِ لآياتٍ للمؤمنينَ) فاستدل على وجوده بآياته فى السماوات والأرض ، وفى خلق الإنسان والدوابّ إلى غير هذا مما ذكره من الآيات ، ثم أنذر بالهلاك من لا يؤمن بها ، ويصرُّ على الكفر مستكبرا بعد سماعها ، وأخذ فى هذا إلى أن قال (هذا هُدًى والذينَ كفرُوا بآيات ربهمْ لهمْ عذابٌ منْ رجزٍ أليمٌ)

ثم عاد إلى الاستدلال على وجوده بتسخيره لنا البحر لتجرى الفُلكُ فيه بأمره ، ولنبتغى من فضله ونشكره على تسخيره ذلك لنا . وترقى من تسخير ذلك لنا إلى تسخيره لنا كل ما فى السماوات ومافى الأرض جميعا ، ثم أمر الذين آمنوا بهذا أن يغفروا للذين يكفرون به ولا يرجون أيام الله ، فأخذهم فى هذا بالترغيب بعد ذلك الترهيب ، وهوّن عليهم أمر كفرهم بأن من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها ، ثم إلى ربهم مرجعهم فيحكم بينهم ، وأتبعه ببيان مشابهة طريقتهم فى ذلك لطريقة بنى إسرائيل قبلهم ، ليهوّن عليهم أيضا بذلك أمرهم ، فذكر أنه آتاهم الكتاب والحكم والنبوة ، إلى غير هذا مما أنعم به عليهم ، فاختلفوا فيما آتاهم من ذلك بغيا وظلما ، ثم ذكر للنبي صلى الله عليه وسلم أنه آتاه مثلهم شريعة من أمر الدين ، وحذّره أن يختلف فيها كما اختلفوا باتباع أهواء الجاهلين ، فلا يغنوا عنه من عذابه شيئا ، لأن الظالمين بعضهم أولياء بعض ، وهو ولىُّ المتقين وحدهم ، وهذا تبصرة لمن يتبصر ، وهدى ورحمة لقوم يوقنون ، ثم عاد إلى تفصيل ما أجمله من الحكم بينهم ، فذكر أنه لا يسوى فى الحكم بين الذين اجترحوا السيئات والذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وأنه خلق السماوات والأرض بالحق ولتجزى كلُّ نفس بما كسبت وهم لا يظلمون (أفرأيتَ

من اتخذَ إلهه هواه وأضله الله على علم وختمَ على سمعهِ وقلبهِ وجعل على بصرهِ عشاوةً فمن يهديهِ من بعدِ اللهِ أفلا تذكَّرونَ)

الرد على الدهرية

الآيات (٢٤ — ٣٧)

ثم قال تعالى (وقالوا ماهيَ إلا حياتنا الدنيا نموتُ ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر ومالهم بذلك من علم إنْ همْ إلا يظنونَ) فذكر أنهم لا يؤمنون إلا بالحياة الدنيا ، ويزعمون أن الدهر هو الذى يهلكهم ، وينكرون وجود إله يحييهم بعد موتهم ويحاسبهم ، ورد عليهم بأنهم لا يستندون فى ذلك إلى علم ودليل ، فإذا قرعتهم الآيات الدالة على ثبوت البعث لم يجدوا لهم حجة إلا أن يقولوا (ائتوا بآبائنا إن كنتم صادقين) وقد أمر النبى صلى الله عليه وسلم أن يجيبهم بأن الله يحييهم ثم يميتهم ثم يجمعهم إلى يوم القيامة لا ريب فيه ولكن أكثر الناس لا يعلمون ، ثم ذكر أنه يوم تقوم الساعة يخسر المبطلون ، وأن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يدخلهم فى رحمته ، وأن الذين كفروا يقال لهم (ألم تكنْ آياتى تتلىَ عليكم فاستكبرتمْ وكنتم قوماً مجرمينَ) إلى غير هذا مما يقال لهم ، وحينئذ يبدو لهم سيئات ما عملوا ويحيق بهم ما كانوا به يستهزئون ، ثم ذكر استحقاقه الحمد على ذلك وختم السورة به (فلله الحمد ربِّ السماواتِ وربِّ الأرضِ ربِّ العالمينَ ، وله الكبرياءُ فى السماواتِ والأرضِ وهوَ العزيزُ الحكيم)

سورة الأحقاف

تاريخ نزولها ووجه تسميتها :

نزلت سورة الأحقاف بعد سورة الجاثية ، وقد نزلت سورة الجاثية بعد الإسراء وقبيل الهجرة ، فيكون نزول سورة الأحقاف فى ذلك التاريخ أيضاً .

وقد سميت هذه السورة بهذا الاسم لقوله تعالى فى الآية — ٢١ — منها (واذكرْ أخا عادٍ إذْ أنذرَ قومَهُ بالأحقافِ) وتبلغ آياتها خمسا وثلاثين آية .

الغرض منها وترتيبها :

يقصد من هذه السورة إنذار المشركين بالعذاب ، وأخذهم مع هذا بالدليل إلى التصديق بالتوحيد والرسالة ، وبهذا جمع فيها بين الأخذ بالترهيب والترغيب والأخذ بالدليل ، كما جمع بين ذلك فى السور السابقة ، وهذا هو وجه المناسبة بينها وبين هذه السور .

إنذار الكفار بالعذاب

الآيات (١ — ٣٥)

قال الله تعالى (حم ، تنزيلُ الكتابِ مِن اللهِ العزيزِ الحكيم ، ما خلقنا السماواتِ والأرضَ وما بينهما إلا بالحقِّ وأجلٍ مسمىً والَّذينَ كفرُوا عما أنذرُوا معرضونَ) فذكر أنه خلق السماوات والأرض لحكمة وأجل ينتهى أمرهما بعده ، ولولا ذلك لكان خلقها عبثا ، فلا بدَّ بعد انتهائها من الحساب والعقاب ، ولا بد من رسول ينذرهم بهذا المآل ، ولكنهم لجهلهم وعنادهم يعرضون عن هذا الإنذار ، ويتمسكون بما هم فيه من الشرك والضلال ، ثم انتقل من هذا إلى تسجيل الجهل والعناد عليهم فى شركهم وإعراضهم عما أنذروا به ، فطلب منهم أن يخبروه عما خلق شركاؤهم من الأرض ، أو عما لهم من شرك فى السماوات ، أو يأتوه بكتاب منزل أو دليل من العقل ، وذكر أنه لا يوجد أضل ممن يدعو من دونه جمادا لا يستجيب له إلى يوم القيامة ، وإذا حشر الناس تبرأ من عبادتهم له ، ثم انتقل من هذا إلى إعراضهم عما أنذروا به وزعمهم أنه سحر أو كذب مفترًى ، وأمر النبى صلى الله عليه وسلم أن يجيبهم بأنه لو كان قد افتراه لعاجله الله بعقوبته ، ولم يملكوا أن يدفعوا عنه شيئا ، ثم ذكر شبهة أخرى لهم فيه وهى قولهم فى الذين آمنوا (لو كان خيرا ما سبقونا إليه) ، وأجاب عنها بأنه أنزل التوراة قبله إماماً ورحمة لبنى إسرائيل ، وهذا كتاب أنزله لهم بلسان عربى إنذارا للذين ظلموا وبشرى للمحسنين ، ثم بين وجه كونه بشرى لهم بأنهم إذا قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ، وسيكونون

من أصحاب الجنة خالدين فيها جزاء بما كانوا يعملون ، وذكر من أعظم ما يجزون عليه هذا الجزاء استجابتهم لوصيته بالإحسان إلى الوالدين ، وقيامهم بشكره على ما أنعم به عليهم ، ثم ذكر حديث الذى أساء إلى والديه وقد أنذراه بعذاب الآخرة إن لم يؤمن به ، لأن ذكر الضد يدعو إلى ذكر ضده ، وليأخذ فى الوعيد بعد الأخذ فى الوعد ، فذكر أن مثل هذا قد حق عليه القول بالعذاب فى أمم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس ، وسلكوا فى الضلال مسالكهم ، وأن من هؤلاء الأمم قوم عاد بالأحقاف ، فقد أنذرهم أخوهم هود فكذبوه فأخذوا بريح دمرت عليهم مساكنهم ، وكذلك ما حول مكة من القرى التى دمرت باليمن والشام ، فلم ينصرهم الذين اتخذوا من دون الله قرباناً آلهة (بل ضلوا عنهم وذلكَ إفكهم وما كانوا يفترون)

ثم ذكر من استجاب للإنذار من الجن بعد أن ذكر من أعرض عنه من الإنس ، ليحملهم على الاستجابة للإنذار مثلهم ، فذكر حديث استماع نفر من الجن للقرآن وإيمانهم به ، وأنهم انصرفوا إلى قومهم منذرين فأخبروهم بما سمعوا منه ، ورغبوهم فى الإيمان وحذروهم من الكفر (ومَنْ لا يجبْ داعيَ اللهِ فليسَ بمعجزٍ فى الأرض وليسَ لهُ مِنْ دونهِ أولياء أولئكَ فى ضلالٍ مبينٍ) .

ثم ختم السورة بمثل ما بدأها به من الإنذار ، فذكر قدرته على إحياء الموتى وحسابهم ، وأنذر الكفار بعرضهم على النار وأنه يطلب منهم أن يعترفوا بأنها الحق فيعترفون ، فيقال لهم ذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون (فاصبرْ كما صبر أولو العزم من الرسلِ ولا تستعجلْ لهمْ كأنهم يومَ يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعةً منْ نهارٍ بلاغٌ فهلْ يهلكُ إلا القومُ الفاسقونَ) .

سورة محمد

تاريخ نزولها ووجه تسميتها

نزلت سورة محمد بعد سورة الحديد ، وقد نزلت سورة الحديد بعد سورة الزَّلزلة ، ونزلت سورة الزلزلة بعد سورة النساء ، وكان نزول سورة النساء فيما بين صلح الحُدَيْبِيَة وغزوة تبوك، فيكون نزول سورة محمد فى هذا التاريخ أيضا .

وقد سُمِّيت هذه السورة بهذا الاسم لقوله تعالى فى الآية — ٢ — منها (والذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما نُزِّلَ على محمدٍ) الآية ، وتبلغ آياتها ثمانى وثلاثين آية .

الغرض منها وترتيبها :

يقصد من هذه السورة تحريض المؤمنين على قتال الكافرين ووعدهم بالنصر عليهم ، وهذا القتال هو عذاب الدنيا الذى أُوعِدَ الكفار به فى السور السابقة ، ولهذا جاء ترتيبها فى الذكر بعدها ، لتدل على صدق ما أوعدهم الله به .

التحريض على القتال

الآيات (١ — ٣٨)

قال الله تعالى (الذينَ كفرُوا وصدُّوا عن سبيلِ الله أضلَّ أعمالهمْ) فمهَّد للتحريض على القتال ببيان وجه استحقاق الكفار له ، وذكر أنهم كفروا وصدوا عن سبيله فأضل أعمالهم ، وأن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما نزل على محمد غفر ما كان من شركهم وأصلح بالهم ، لأن الكفار اتبعوا الباطل والمؤمنون اتبعوا الحق من ربهم ، ثم أمر المؤمنين بقتال الكفار حتى يثخنوهم بالقتل والجراح، فإذا أثخنوهم شدوا وثاقهم بالأسر ، وهم مخيرون بعد هذا فى إطلاقهم بفداء أو من غير فداء ، ثم وعد الذين يُقتلون منهم فى سبيله بحسن الأجر فى الآخرة ، والذين

يبقون منهم بالنصر على أعدائهم ، وأوعد الكفار بالهزيمة والهلاك وضياع الأعمال ، ثم مضى فى هذا الترغيب والترهيب إلى أن انتقل منه إلى الحديث عن المنافقين فألحقهم بأولئك الكفار ، وذكر أنه طبع على قلوبهم فاتبعوا أهواءهم ولم يجاوز إسلامهم حناجرهم ، وأن الذين أخلصوا فى إيمانهم زادهم هدى إلى هداهم ، وأن هؤلاء المنافقين لا يتوقع منهم الإيمان إلا أن تأتيهم الساعة بغتة ، وها هى ذى قد قربت وجاءت علاماتها ، ولكن التوبة عندها لا تنفع صاحبها ، ثم أمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يستمر هو والمؤمنون على الإخلاص فى توحيده ، لأنه يعلم متقلبهم ومثواهم ، حتى لا يكونوا كهؤلاء المنافقين فى مخالفة باطنهم لظاهرهم .

ثم أخذ فى ذم هؤلاء المنافقين على تقاعسهم عن القتال فى سبيله جبنا وخوفا ، وذكر أنهم إن تولوْا عن القتال فى سبيله يعودون إلى ما كانوا من الفساد فى الأرض ، فيغير بعضهم على بعض ، ويقاتل ذوو الأرحام بعضهم بعضا ، كما كان بين الأوس والخزرج ، ثم ذكر أنه أصمَّهم وأعماهم فلا يتدبرون ذلك ، بل يتبعون ما يسوِّله الشيطان لهم ، وما وعدوا به أهل مكة من الكف عن قتالهم ، ثم أخذ بعد هذا فى وعيدهم إلى أن قال (ولوْ نشاءُ لأريناكهمْ فلعرفتهمْ بسيماهمْ ولتعرفنهم فى لحنِ القولِ واللهُ يعلمُ أعمالكمْ)

ثم ختم السورة بمثل ما بدأها به من التحريض على القتال ، فذكر أنه سيبلوهم به ليعلم المجاهدين والصابرين منهم ، ووعدهم بأنه لن يمكن أعداءهم من أن يضروهم ، ثم نهاهم أن يهنوا فى القتال ويدعوا إلى السَّلم وهم الأعلوْنَ وقد وعدهم بالنصر وحسن الأجر ، وهوَّنَ عليهم أمر الدنيا التى يعوق حبها عن القتال والإنفاق فى سبيله ، إلى أن قال (هاأنتمْ هؤلاء تدْعونَ لتنفقوا فى سبيلِ اللهِ فمنكمْ منْ يبخلُ ومنْ يبخلْ فإنما يبخلُ عن نفسهِ واللهُ الغنىُّ وأنتمُ الفقراءُ وإنْ تتولوْا يستبدلْ قوماً غيركمْ ثمَّ لا يكونوا أمثالكم)

سورة الفتح

تاريخ نزولها ووجه تسميتها :

نزلت سورة الفتح بعد سورة الجمعة ، وكان نزولها فى الطريق عند الانصراف من الحُدَيْبِيَةِ فى السنة السادسة من الهجرة ، فتكون من السور التى نزلت فيما بين صلح الحديبية وغزوة تبوك .

وقد سُمِّيت هذه السورة بهذا الاسم لقوله تعالى فى أولها (إنّا فتحنا لكَ فتحاً مُبيناً) وتبلغ آياتها تسعا وعشرين آية .

الغرض منها وترتيبها :

يقصد من هذه السورة التنويه بشأن صلح الحُدَيْبية ، لأن قريشا سعت إليه بعد بيعة الرضوان ، فظهر ضعفها وخضوعها بعد إبائها ، وبدأ تخاذلها بعد بيعة المسلمين على الموت ، وهذا كان فتحاً مبيناً للمسلمين ، وتمهيدا لفتح مكة بعد ذلك فى السنة الثامنة من الهجرة ، وبهذا وفى الله بوعده بنصرهم فى السورة السابقة ، وكان ذكر هذ السورة بعدها البيان الوفاء بذلك فيها .

التنويه بصلح الحديبية

الآيات (١ — ٢٩)

قال الله تعالى (إنّا فتحنا لك فتحاً مُبيناً) فجعل صلح الحديبية فتحا مبينا للنبى صلى الله عليه وسلم ، وقيل أنه يقصد بذلك فتح مكة ، لأن هذا الصلح كان تمهيدا لفتحها ، ثم ذكر أنه هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين حين أبت قريش عليهم أن يدخلوا مكة ليؤدُّوا عمرتهم ، فلم يهنوا ولم يرتدوا على أعقابهم ، بل وقفوا ينتظرون ما يكون بعد تبادل الرسل بينهم وبين قريش ، وقد وعدهم على هذا بما وعدهم ، وأوعدَ المنافقين الذين تخلفوا عنهم وظنوا أنهم لن يرجعوا إليهم ، ثم مدح الذين

بايعوه على الموت تحت شجرة الرضوان حين أشيع أن قريشا قتلت عثمان بن عفان، وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد أرسله إليها ، وذكر أن الذين بايعوه على ذلك إنما بايعوه ويد الله فوق أيديهم ، فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ، ومن أوفى بعهده فسيؤتيه أجرا عظيما ، ثم ذكر أن أولئك المتخلفين من المنافقين سيعتذرون بأنهم اشتغلوا بأموالهم وأهليهم ، وذكر أنهم كاذبون فى اعتذارهم ، وأوعدهم على ذلك بما أوعدهم به ، ثم ذكر أنهم سيطلبون منه بعد أن رأوا ظهور أمره أن ينطلقوا معه إلى القتال طمعا فى الغنائم ، وأمره ألاّ يمكنهم من الانطلاق معه ، وأن يبين لهم أن القتال طمعا فى الغنائم ليس طريقا لقبول توبتهم ، وإنما طريق ذلك أنهم سيدعون إلى قتال قوم أولى بأس شديد — ولعلهم يهود خيبر — فإن يطيعوا أمره فى قتالهم يؤتهم أجرا حسنا، وإن يتولوا كما تولوا من قبل يعذبهم عذابا أليما ، واستثنى منهم صاحب العذر من الأعمى والأعرج والمريض ، ثم عاد إلى أولئك الذين بايعوا تحت الشجرة فذكر أنه رضى عنهم ، وأنه سيثيبهم فتحا قريباً هو فتح خيبر ، وهذا إلى مغانم كثيرة يأخذونها بعدها ، وقد عجل لهم فتح خيبر بعد أن كفّ أيدى قريش عنهم بذلك الصلح ، وهناك غنيمة أخرى لم يقدروا عليها هذه المدة وهى مكة ، وقد أحاط بها بفتح ماحولها ، ثم ذكر أنه لو لم يتم هذا الصلح وقاتلتهم قريش لانتصروا عليها ، كما هى سنّته فى نصر أوليائه على أعدائه ، ولكنه أراد ذلك الصلح وكفّ الفريقين عن القتال من بعد أن أظهر المؤمنين عليهم، لأن مكة كانت لايزال بها فريق من المسلمين لم يهاجروا إلى المدينة ، فلو دخلها المسلمون عنوة لأصابوهم مع المشركين ، ولهذا اقتضت إرادته ذلك لتتم هجرة من بقى بمكة من المسلمين ، ولو تميزوا فيها عن المشركين لما كفّ المسلمين عنهم ، ولعذبهم عذاباً أليماً .

ثم عاد إلى ذكر فضله عليهم فى ذلك الصلح ، فأمرهم أن يذكروا إحسانه إليهم إذ ثارت حمية الجاهلية فى قلوب قريش وصدوهم عن عمرتهم، فأنزل سكينته عليهم فلم يغضبوا ولم ينهزموا بل صبروا ، وكانوا أحق بهذا من أولئك الذين ثارت فيهم حمية الجاهلية ، ثم ذكر أنه حقق بذلك الصلح رؤيا النبي صلى الله عليه وسلم أنهم

دخلوا المسجد الحرام محلقين رؤوسهم ومقصّرين ، لأنهم اتفقوا فيه على أن يرجع المسلمون هذا العامَ ويعتمروا فى العامِ المقبل ، فعلم من ذلك الصلح ما لم يعلموا ، وجعل من دونه فتحاً قريباً — فتح خيبر — وإنما يفعل ذلك لأنه أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيداً (محمدٌ رسولُ الله والذينَ معهُ أشدّاء على الكفّار رحماء بينهمْ) إلى أن قال فيهم (وعدَ اللهُ الذينَ آمنوا وعملوا الصالحاتِ منهمْ مغفرةً وأجراً عظيماً) .

سورة الحجرات

تاريخ نزولها ووجه تسميتها :

نزلت سورة الحُجُراتِ بعد سورة المجادلة ، ونزلت سورة المجادلة بعد سورة المنافقون ، وقد نزلت سورة المنافقون فى غزوة بنى المصطلق فى السنة الخامسة من الهجرة ، فيكون نزول سورة الحجرات فيما بين صلح الحديبية وغزوة تبوك .

وقد سُميت هذه السورة بهذا الاسم لقوله تعالى فى الآية — ٤ — منها (إنّ الذينَ يُنادونكَ من وراءِ الحجراتِ أكثرهمْ لايعقلونُ) وتبلغ آياتها ثمانى عشرة آية

الغرض منها وترتيبها :

يقصد من هذه السورة إرشاد المؤمنين إلى بعض من الآداب فى حق الله والرسول ، إلى آداب أخرى ذكرت فيها مع هذه الآداب ، وقد حصل من المؤمنين فى صلح الحُدَيْبية أن اعترضوا على بعض ما جاء فيه ، وأنهم لم يبادروا إلى امتثال أمر النبي صلى الله عليه وسلم لهم أن يحلقوا وينحروا ليتحلّلُوا من عمرتهم ، فذكرت سورة الحجرات عقب سورة الفتح التى ذكر فيها ذلك الصلح ليرشد المؤمنين فيها إلى تلك الآداب ، حتى لا يعودوا إلى ما وقع منهم من الاعتراض على النبى صلى الله عليه وسلم ، ومن عدم المبادرة إلى امتثال أمره .

أدب المؤمنين مع الله والرسول

الآيات (١ — ٥)

قال الله تعالى (يأيُّها الذينَ آمنُوا لا تقدِّمُوا بينَ يدي اللهِ ورسولهِ واتقُوا اللهَ إنْ اللهَ سميعٌ عليمٌ) فذكر من أدب المؤمنين مع الله ورسوله ألاَّ يتقدموا عليهما بالرأى ، وألاَّ يرفعوا أصواتهم فوق صوت الرسول ، وألاَّ يجهروا له بالخطاب كجهر بعضهم لبعض ، وألاَّ ينادوه من وراء الحُجُرات كما ناداه بعض جفاة الأعراب (ولوْ أنَّهمْ صبرُوا حتَّى تخرجَ إليهمْ لكانَ خيراً لهمْ واللهُ غفورٌ رحيمٌ) .

أدب المؤمنين فى سماع الأخبار

الآيات (٦ — ٨)

ثم قال تعالى (يأيها الذينَ آمنُوا إنْ جاءكمْ فاسقٌ بنبأ فتبيَّنُوا أن تصيبُوا قوماً بجهالةٍ فتصبحُوا على ما فعلتم نادمينَ) فذكر من أدب المؤمنين فى سماع الأخبار أن يتثبتوا فى تصديق أخبار الفساق ، فلا يسمعوا لكل ما يلقى إليهم كما سمعوا لما ألقى إليهم فى ذلك الصلح ، ولو أن الرسول سمع إليهم فى هذا وفى غيره من أمورهم لوقعوا فى العَنَت ، ولكن الله حبَّب إليهم الإيمان وكرَّه إليهم الكفر والفسوق والعصيان ، فلم يجعلوا لهم رأيا مع رأيه (فضلا مِنَ اللهِ ونعمةً واللهُ عليمٌ حكيمٌ)

ترغيب المؤمنين فى الصلح

الآيات (٩ — ١٨)

ثم قال تعالى (وإنْ طائفتانِ مِنَ المؤمنينَ اقتتلُوا فأصلحُوا بينهما — الآية) فرغب المؤمنين فى الصلح لئلا يأبوه كما أبوه فى الحديبية ، وأمرهم أن يصلحوا بين كل طائفتين تقتتلان من المؤمنين ، وأن يقاتلوا من يأبى منهما الصلح حتى يرضى به ، فإذا رضى به وجب أن يُصلَحَ بينهما بالعدل ، ثم نهاهم عما يوجب الخصام بينهم من سخرية

بعضهم ببعض ، ومن عيب بعضهم الآخر فى غيبته وهو اللَّمز ، ومن تسمية بعضهم بعضاً بما يحطُّ منه وهو النَّبز ، ومن سوء ظن بعضهم ببعض ، إلى غير هذا مما يوجب الخصام بينهم ؛ ثم ذكر أنه خلقهم شعوبا وقبائل ليتعارفوا لا ليتناكروا ويتخاصموا ، وأن أكرمهم عنده هو الذى يمتثل أوامره ويجتنب نواهيه ، لا من يتعالى على غيره بنسب أو نحوه فيخاصمه ولا يصالحه .

ثم ختم السورة بالكلام على الأعراب الذين يكتفون من الإسلام بالاسم ، ولا يأخذون بشىء من آدابه ، بل يمضون على ما كانوا عليه فى جاهليتهم من الجفوة والتخاصم والتناكر ، فأنكر عليهم ما يدّعون من الإيمان ، وذكر أنهم لم يحصل لهم إلا إسلام لا يتجاوز النطق باللسان ، ثم أخذ فى هذ إلى أن ذكر أنهم يمنُّون على النبى صلى الله عليه وسلم بإسلامهم ، وأجاب عن هذا بأنه هو الذى يمن عليهم بهدايتهم للإيمان إن كانوا صادقين (إنَّ اللهَ يعلمُ غيبَ السماواتِ والأرضِ واللهُ بصير بما تعملونَ) .

سورة ق

تاريخ نزولها ووجه تسميتها :

نزلت سورة ق بعد سورة المُرسَلات ، وقد نزلت سورة المرسلات بعد تسع سُور من سورة النجم ، ونزلت سورة النجم بعد الهجرة الأولى للحبشة ، وكانت هذه الهجرة فى السنة السابعة من البعثة ، فيكون نزول سورة ق فى ذلك التاريخ أيضاً ، وتكون من السوَر التى نزلت فيما بين الهجرة إلى الحبشة والإسراء

وقد سُميت هذه السورة بهذا الاسم لابتدائها بالقسم به ، وتبلغ آياتها خمساً وأربعين آية .

الغرض منها وترتيبها :

يقصد من هذه السورة إنذار المشركين بعذاب الدنيا والآخرة ، وإثبات ذلك بالدليل مرة وبالترهيب أخرى ، وهو يعود بهذا إلى سياق السور السابقة لسورة محمد وسورة الفتح وسورة الحجرات ، وقد ذكرت هذه السور الثلاث فى مواضعها للمناسبات السابقة ، فلما انتهى منها عاد إلى ما كان عليه قبلها ، وللفصل بينها بذلك فائدته فى تنويع الأسلوب ، وتجديد نشاط السامع .

إثبات الإنذار بالعذاب

الآيات (١ — ٣٨)

قال الله تعالى (ق والقرآنِ المجيدِ ، بَلْ عجبُوا أنْ جاءهم منذرٌ منهمْ فقالَ الكافرونَ هذا شيءٌ عجيبٌ) فأقسم على أن النبي صلى الله عليه وسلم بعث لينذرهم بعذابه ، وذكر أنهم عجبوا أن يجيئهم منذر منهم ، وأن يبعثوا لذلك بعد أن يصيروا ترابا وتتفرق أجزاؤهم ، وأجاب عن هذا بأنه يعلم ما تفرق من أجزائهم فى الأرض فيقدر على جمعها ، وكذلك يعلم أعمالهم ويحفظها فى كتاب عنده ليحاسبهم عليها ، ثم أخذ بعد هذا فى ذكر آياته فى السماء والأرض ليعلموا أن من يقدر عليها يقدر على بعثهم وعذابهم ، وانتقل منه إلى ترهيبهم بذكر ما حصل لمن كذب قبلهم من قوم نوح وأصحاب الرَّسِّ وغيرهم ، ثم عاد إلى أخذهم بالدليل فذكر أنه لم يَعْيَ بالخلق الأول حتى يَعْيَا عن إعادته ، وبَيَّن الخلق الأول بأنه هو الذى خلق الإنسان ويعلم ما تُوَسْوِس به نفسه ، فلم يتركه سُدى بل وَكل به مَلَكين يحفظان كل ما يلفظ به ، فإذا مات وبعث وجد أقواله وأفعاله محفوظة فى كتابهما ، وألقى فى جهنم على ما كان منه من كفر ومنع للخير وغيرهما ، ثم ذكر بعد هذا ما أعده لمن خشى الرحمان وآمن به جمعا بين الترهيب والترغيب ، ثم عاد إلى ترهيبهم بمن أهلكه قبلهم ممن كان أشدَّ منهم بطشا ليعلموا أنه قادر على إهلاكهم وبعثهم بعد موتهم ، وإلى ذكر خلقه السماوات والأرض وما بينهما فى ستة أيام من غير أن يمسَّه لغوب ،

ليستدلوا به على قدرته على ذلك أيضا ،ثم ختم السورة بأمر النبي صلى الله عليه وسلم بالصبر على تكذيبهم له فى ذلك ، وأن يستعين على هذا بتسبيحه قبل طلوع الشمس وقبل الغروب ومن الليل وأدبار السجود ، ثم أمره أن يستمع يوم ينادى المنادى بما يكذبونه فيه من بعثهم ، إيذانا بأنه قريب منهم ، ومضى فى هذا إلى أن قال (نحنُ أعلمُ بمَا يقولونَ وما أنتَ عليهمْ بجبَّارٍ فذكِّرْ بالقرآنِ مَنْ يخافُ وعيدِ)

سورة الذاريات

تاريخ نزولها ووجه تسميتها :

نزلت سورة الذاريات بعد سورة الأحقاف ، وقد نزلت سورة الأحقاف بعد الإسراء وقبيل الهجرة ، فيكون نزول سورة الذاريات فى ذلك التاريخ أيضا

وقد سُمِّيت هذه السورة بهذا الاسم لقوله تعالى فى أولها (والذَّارياتِ ذَرْوا) وتبلغ آياتها ستين آية .

الغرض منها وترتيبها :

يقصد من هذه السورة إنذار المشركين بعذاب الدنيا والآخرة ، وقد أخذوا فيها مرة بالدليل ، ومرة بالترهيب ، كما أخذوا بذلك فى السورة السابقة ، ولهذا جمع بينهما فى الذكر ، وجاء ترتيب هذه السورة بعد سابقتها .

إثبات الإنذار بالعذاب

الآيات (١ — ٦٠)

قال الله تعالى (والذارياتِ ذَرْوا ، فالحاملاتِ وِقْراً ، فالجارياتِ يُسْراً ، فالمقسِّماتِ أمراً ، إنَّما توعدونَ لصادقٌ) فأقسم بهذا على أن ما يوعدون به من

العذاب إن لم يؤمنوا به لصادق ، ثم أقسم بالسماء ذات الحُبُك على أن قولهم فى إنكاره مختلف تناقضه أفعالهم ، لأنهم كانوا يربطون الركائب عند قبور الأكابر ليركبوها عند حشرهم ، ثم أوعدهم على هذا بما أوعدهم به ، ثم ذكر أنهم يسألون عن يومه استعجالا له واستهزاء به ، وأجاب بأنه يكون يوم يُفْتَنُون على النار ويقال لهم (ذوقُوا فتنتكمْ هذا الذى كنتم بهِ تستعجلونَ) ثم ذكر ما يكون للمتقين فيه من جنات وعيون ، ليجمع بهذا بين طريق الترهيب وطريق الترغيب ، ثم انتقل من هذا إلى الاستدلال بآياته فى الأرض وفى أنفسهم وفى السماء على قدرته على بعثهم وعذابهم ، وختمه بالقسم كما بدأ به فقال (فوربِّ السماءِ والأرضِ إنَّهُ لحقٌ مثلَ ما أنكمْ تنطقونَ)

ثم أخذ بعد هذا فى ذكر ما فعله بالمكذبين قبلهم ترهيبا لهم بهم ، فذكر من ذلك خبر قوم لوط بعد أن مهَّد له بذكر أخبار الملائكة الذين أرسلوا بهلاكهم مع إبراهيم ، ثم ذكر بعد ذلك خبر موسى وفرعون ، وخبر عاد وما أهلكوا به من الريح العقيم ، وخبر ثمود وما أخذوا به من الصاعقة ، وخبر قوم نوح من قبلهم وهو معلوم .

ثم عاد إلى الاستدلال على قدرته على ذلك بالسماء التى بناها وأوسعها ، والأرض التى فرشها ومهَّدها ، إلى غير هذا من آثار قدرته . ثم أمرهم أن يفرُّوا إليه من عذابه ، وألاَّ يجعلوا معه آلهة أخرى لا تدفع عنهم منه شيئا ، ثم ذكر أنهم يسلكون فى تكذيب ذلك طريق المكذبين قبلهم ، فيزعمون أن من ينذرهم به ساحرٌ أو مجنون ، وأمر النبى صلى الله عليه وسلم أن يعرض عنهم لأنه لا لوم عليه بعد أن بلغهم إنذارهم ، وأن يكتفى بالتذكير لأن فيه الكفاية للمؤمنين ، ثم ذكر أنه لم يخلق الجن والإنس عبثا ، وإنما خلقهم لعبادته وتوحيده ، وهو غنىٌّ عنهم لا يحتاج شيئا منهم ، فإذا أشركوا به فإن لهم ذَنُوبا من العذاب مثل ذنوب من سبقهم من أولئك المكذِّبين (فوَيلٌ لِلذينَ كفرَوا مِنْ يومهمُ الَّذى يوعدونَ)

سورة الطور

تاريخ نزولها ووجه تسميتها :

نزلت سورة الطور بعد سورة السجدة ، وقد نزلت سورة السجدة بعد الإسراء وقُبَيل الهجرة ، فيكون نزول سورة الطور فى ذلك التاريخ أيضا .

وقد سميت هذه السورة بهذا الاسم لقوله تعالى فى أولها (والطُّور ، وكتابٍ مسطور) وتبلغ آياتها تسعا وأربعين آية .

الغرض منها وترتيبها :

يقصد من هذه السورة الإنذار بعذاب الدنيا والآخرة ، وبهذا تشارك السورتين السابقتين فى الغرض المقصود منهما ، وهذا هو وجه ذكرها بعدهما .

إثبات الإنذار بالعذاب

الآيات (١ — ٤٩)

قال الله تعالى (والطُّورِ ، وكتابٍ مسطورٍ ، فى رَقٍّ منشورٍ ، والبيتِ المعمورِ ، والسقفِ المرفوع ، والبحرِ المسجورِ ، إنَّ عذابَ ربِّك لواقعٌ) فأقسم بهذا على وقوع ذلك العذاب ، وذكر أنه يوم تمور السماء وتسير الجبال ، وحينئذ يكون الهلاك للمكذبين به ، ويصلَوْن النار بما كانوا يعملون ، ثم ذكر ما أعد فيه للمتقين من جنات ونعيم ، ليجمع بهذا بين طريق الترهيب وطريق الترغيب ، وقد أطال فى هذا الطريق ، إلى أن ذكر ما يقوله المتقون فى سبب نعيمهم (إنّا كنا مِنْ قبلُ ندعوهُ إنّهُ هو البَرُّ الرحيمُ)

ثم انتقل من هذا إلى أمر النبى صلى الله عليه وسلم بأن يستمر على تذكيره بما أنزل عليه من ذلك الإنذار ، لأنه حق ليس بقول كاهن ولا مجنون ولا شاعر كما

يزعمون ، ولأنهم لا ينكرون عن عقل ، وإنما هم قوم طاغون ، ثم أمرهم على سبيل الإلزام أن يأتوا بمثله إن كانوا صادقين فيما يفترونه عليه ، ليظهر عجزهم ويبطل ما زعموه من أنه كاهن أو مجنون أو شاعر ، ثم سلك طريقاً آخر فى إلزامهم فذكر أنهم لم يخلقوا من غير شيء بل لا بد لهم من خالق ، وأنهم لا يملكون شيئا من أمر هذا الخلق حتى يقطعوا بنفى الحساب والعقاب ، وأنهم لم ينزل عليهم بذلك نبأ من السماء ، فألزمهم بأن لهم خالقا هو الذى يتصرف فى أمورهم ، ولا يملكون أن يمنعوا ما يريده من حسابهم على أعمالهم ، وذكر أنه لا شريك له فى ذلك من الملائكة الذين يزعمون أنهم بناته ، ثم انتقل إلى إلزامهم بطريق آخر فذكر أن النبى صلى الله عليه وسلم لا يسألهم على إنذاره أجرا حتى يتهموه فيه أو يثقلهم به ، وأنهم لا علم عندهم بالغيب حتى يقطعوا بأنه لا حساب عليهم ، وأنه لم يبق بعد هذا إلا أن يريدوا الكيد والعذاب لأنفسهم لقيام هذه الإلزامات عليهم ، أو يكون لهم إله غير الله يدفع العذاب عنهم (سبحانَ اللهِ عمَّا يشركونَ) .

ثم ختم السورة ببيان فرط طغيانهم وعنادهم فى تكذيب ما أنذروا به ، فذكر أنهم لو نزل عليهم كِسفٌ من السماء لعذابهم لقالوا هذا سحاب تراكم بعضه على بعض ليمطرنا ، وأمر النبى صلى الله عليه وسلم أن يتركهم فى هذا الطغيان والعناد حتى يلاقوا ما ينكرون ، ثم ذكر أن لهم عذابا دون عذاب الآخرة بتسليط المسلمين عليهم ، وأمر النبى صلى الله عليه وسلم بالصبر إلى أن يفى بهذا الوعد فقال (واصبرْ لحكمِ ربِّكَ فإنَّكَ بأعْيُنِنَا وسبِّحْ بحمدِ ربِّكَ حينَ تقومُ ، ومِنَ الليلِ فسبِّحهُ وأدبارَ النجومِ) .

سورة النجم

تاريخ نزولها ووجه تسميتها :

نزلت سورة النجم بعد سورة الإخلاص ، وكان نزولها بعد الهجرة الأولى للحبشة ، وكانت هذه الهجرة فى السنة السابعة من البعثة ، فلما نزلت هذه السورة أشيع أنه نزل فيها بعد قوله (أفرأيتُم اللاتَ والعُزَّى ، ومَنَاةَ الثالثةَ الأخرى) تلك الغرانيقُ العلى ، وإنَّ شفاعتهن لترتجى ، وأن قريشا أسلمت حين آمن النبى صلى الله عليه وسلم بشفاعة آلهتها فى تلك الشائعة ، فرجع مهاجرو الحبشة حين أشيع ذلك بينهم ، فرأوا أن قريشا لا تزال على كفرها ، وبهذا تكون سورة النجم من السوَر التى نزلت فيما بين الهجرة إلى الحبشة والإسراء .

وقد سُميت هذه السورة بهذا الاسم لقوله تعالى فى أولها (والنجمِ إذا هوَى) وتبلغ آياتها ثنتين وستين آية .

الغرض منها وترتيبها :

يقصد من هذه السورة إثبات أن ما جاء به النبى صلى الله عليه وسلم من وحى الملائكة ، وهذا يقتضى أن الملائكة عباد لله من وظيفتهم الوحى وغيره ، فلهذا انتقل الكلام فى هذه السورة من هذا الغرض إلى إبطال بنوتهم لله تعالى ، ولا شك أن هذا الغرض يتصل بما جاء فى السورة السابقة من زعمهم أنه كاهن أو مجنون أو شاعر .

نزول جبريل بالدعوة

الآيات (١ — ٦٢)

قال الله تعالى (والنجم إذا هوَى ، ما ضلَّ صاحبكُمْ وما غوَى ، وما ينطقُ عن الهوَى ، إن هوَ إلا وحىٌ يوحى) .

فأقسم بهذا على أن النبى صلى الله عليه وسلم ما ضل وما نطق عن الهوى كما هو

شأن الكاهن والمجنون والشاعر ، وإنما ينطق عن الوحى الذى يعلمه له الملك جبريل ، ثم ذكر أن جبريل تارة ينزل إليه من السماء بالوحى ، وتارة يصعد هو إليه بالسماء فيتلقاه منه ، ويرى فى ذلك ما يرى من آيات ربه الكبرى .

ثم انتقل من هذا إلى إبطال مايزعمونه من أن هذه الملائكة بنات الله ، وكانوا يتخذون لها أصناما يعبدونها من اللات والعُزّى ومَناة ، فذكر ما يتخذونه من هذه الأصنام الثلاثة ، وأبطل أن يكون له منها بنات وهم لا يرضون لأنفسهم إلا البنين ، وذكر أن هذه مزاعم يقلدون فيها آباءهم ولا دليل لهم عليها ، ثم أبطل ما يتمنونه من شفاعتها لهم ، وذكر أنه كم من ملك فى السماوات لا تغنى شفاعتهم شيئا إلا بعد إذنه ورضاه .

ثم عاد إلى تسميتهم الملائكة تسمية الأنثى من غير علم ، وأمر النبى صلى الله عليه وسلم أن يعرض عمن يتولى بعد هذا عنه ، لأنهم لا يريدون الحق وإنما يريدون الحياة الدنيا ، ثم ذكر أن له ما فى السماوات ومافى الأرض ليجزى المحسن والمسىء بعمله ، فلا تنفع هناك شفاعة شفيع له ، وذكر أن المحسنين هم الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللَّمَم ، وأنه سيكون معهم واسع المغفرة ، ثم ذكر الذى تولى من المشركين واعتمد على ما يزعمه من شفاعة الملائكة له ، فرد عليه بأنه لا علم عنده بذلك من الغيب ، وبما ورد فى صحف موسى وإبراهيم أنه لا تَزِرُ وازرة وِزْرَ أخرى ، وأنْ ليس للإنسان إلا ما سعى ، إلى غير هذا مما نقله عن هذه الصحف ، ثم ذكر أن ما يوحى إلى النبى صلى الله عليه وسلم نذير من تلك النُّذر التى أنزلت قبله ، وأن ما ينذر به قد قربت ساعته ، وأنكر عليهم أن يعجبوا ويضحكوا مما ينذرهم به ولا يبكوا وهم سامدون (فاسجدُوا لِلهِ واعبدُوا)

سورة القمر

تاريخ نزولها ووجه تسميتها :

نزلت سورة القمر بعد سورة الطارق ، وقد نزلت سورة الطارق بعد سورة البلد ، ونزلت سورة البلد بعد سورة ق ، وكان نزول سورة ق فيما بين الهجرة إلى الحبشة والإسراء ، فيكون نزول سورة القمر فى ذلك التاريخ أيضا .

وقد سُمِّيت هذه السورة بهذا الاسم لقوله تعالى فى أولها (اقتربتِ الساعةُ وانشقَّ القمرُ) وتبلغ آياتها خمسا وخمسين آية .

الغرض منها وترتيبها :

يقصد من هذه السورة بيان اقتراب الساعة التى أنذر المشركون بها ، وقد جاء فى آخر سورة النجم أن ساعتهم قد أزفت ، فجاءت هذه السورة بعدها فى هذا الغرض تأكيدا له ، ورجوعا إلى سِيَاق سورة الذاريات وسورة ق من الإنذار بالعذاب ، وقد جاءت سورة النجم بعد سورة الذاريات للمناسبة المذكورة فيها ، فلما انتهت مناسبتها عاد السياق إلى أصله قبلها .

اقتراب ساعة العذاب

الآيات (١ — ٥٥)

قال الله تعالى (اقتربتِ الساعةُ وانشق القمرُ) فذكر أن ساعة عذابهم قد اقتربت ، وأنهم مع هذا مستمرون فى إعراضهم وزعمهم أن ما ينذرون به سحر لا حقيقة له، وأنهم يتبعون فى تكذيبهم بذلك أهواءهم وسيعلمون أنه أمر مستقر ، ولقد جاءهم فى القرآن من أنباء من قبلهم ما فيه مُزْدَجر وحكمة لهم ، ثم أمر النبى صلى الله عليه وسلم أن يتولى عنهم لأنهم لا يتبعون إلا أهواءهم ، وأخذ فى تهديدهم بذلك اليوم الذى اقترب أجله ، وانتقل من تهديدهم بهذا إلى تهديدهم بما حصل لمن

كذَّب قبلهم ، ففصَّل فى هذا ما أجمله فى قوله (ولقدْ جاءهمْ مِنَ الأنباءِ ما فيه مُزْدَجر) وذكر ما حصل لقوم نوح ، وما حصل لعاد ، وما حصل لثمود ، وما حصل لقوم لوط ، وما حصل لآل فرعون ، ثم ذكر أنهم ليسوا خيرا من أولئك المكذبين قبلهم حتى يبقى عليهم ، وأنه سيهزم جمعهم ويهلكهم ، ثم يذيقهم عند قيام الساعة ما هو أدهى وأمرُّ ، وقد فصَّل ما يحصل لهم فيها ، وانتقل منه إلى ما يحصل فيها المتقين ، ليجمع بهذا بين الترهيب والترغيب ، فقال (إنَّ المتقينَ فى جناتٍ ونهرٍ ، فى مقعدِ صدق عندَ مليك مقتدرٍ)

سورة الرحمان

تاريخ نزولها ووجه تسميتها :

نزلت سورة الرحمان بعد سورة الرعد ، وقد نزلت سورة الرعد فيما بين صلح الحديْبيةِ وغزوة تبوك ، فيكون نزول سورة الرحمان فى ذلك التاريخ أيضا

وقد سُمِّيت هذه السورة بهذا الاسم لافتتاحها به فى قوله تعالى (الرحمانُ ، علَّمَ القرآنَ) وتبلغ آياتها ثمانى وسبعين آية

الغرض منها وترتيبها :

يقصد من هذه السورة الدعوة إلى الله تعالى بطريق الترغيب وذلك بتعداد نعمه على عباده ، وقد أخذ المشركون فى السورة السابقة بطريق الإنذار والترهيب ، فأخذوا فى هذه السورة بطريق الترغيب ، تفننا فى السياق ، وتجديدا لنشاط السامع ، على أنها لم تخل مع هذا من الأخذ بالترهيب أيضا .

تعداد نعم الله على عباده

الآيات (١ — ٧٨)

قال الله تعالى (الرحمانُ ، علّمَ القرآنَ ، خلقَ الإنسانَ) فذكر نعمته على عباده بإنزال القرآن لهدايتهم ، وبخلقهم وتعليمهم البيان ، وبخلق الشمس والقمر بحُسبان ، وبخلق النجم والشجر ، وبرفع السماء ووضع الميزان ، وبوضع الأرض ومافيها من فاكهة ونخل وحب وريحان ، ثم ذكر أنه خلق الإنسان من صلصال والجانّ من نار ، وأنه ربُّ المشرقين والمغربين ، وأنه مرج البحرين يلتقيان ، بينهما برزخ لا يبغيان ، ويخرج منهما اللؤلؤ والمرجان ، وتجرى فيهما السفن كالأعلام ، ثم ختم ذلك بقوله (كلُّ منْ عليها فانٍ ، ويبقى وجه ربّك ذو الجلالِ والإكرامِ) ليبين أن الإنسان يتمتع بذلك إلى أجل ، فلا يصح أن يغتر به وينسى ربه ، ثم عاد إلى تعداد نعمه فذكر أنه يسأله من فى السماوات والأرض ما يحتاج إليه فى دينه ودنياه كل يوم ، وأنه سيفرغ لهم ويحاسبهم على جحد هذه النعم ، فلا يمكنهم أن يفلتوا من حسابه ، وأنه سيرسل عليهم شواظا من نار ونحاس فلا يمنعهم منهما أحد ، وأن ذلك سيكون إذا انشقّت السماء فكانت وردةً كالدّهان ، ثم ذكر ما يكون من حسابهم وعقابهم فى ذلك اليوم ، وأعقبه بذكر ما أعده لمن خاف مقامه فلم يجحد ما أنعم به عليه ، ومضى فى تفصيل هذا إلى أن ختمه بقوله (تباركَ اسمُ ربّكَ ذى الجلالِ والإكرامِ)

سورة الواقعة

تاريخ نزولها ووجه تسميتها :

نزلت سورة الواقعة بعد سورة طه ، وقد نزلت سورة طه فيما بين الهجرة إلى الحبشة والإسراء ، فيكون نزول سورة الواقعة فى ذلك التاريخ أيضاً

وقد سُمّيت هذه السورة بهذا الاسم لقوله تعالى فى أولها (إذا وقعت الواقعة) وتبلغ آياتها ستا وتسعين آية

الغرض منها وترتيبها :

يقصد من هذه السورة تفصيل جزاء المؤمنين والكافرين فى يوم القيامة ، فهى من باب الدعوة بطريق الترغيب والترهيب ، وبهذا تكون مناسبة للسُّور التى ذكرت قبلها فى هذا الغرض ، وهذا إلى أن سورة الرحمن قد اشتملت على تعداد النعم ومطالبة الإنسان بالشكر عليها ، ومنعه عن جحدها ، فجاءت سورة الواقعة بعدها لبيان جزاء الشاكرين للنعم والجاحدين لها .

تفصيل الجزاء الأخروى
الآيات (١ — ٩٦)

قال الله تعالى (إذا وقعتِ الواقعةُ ، ليسَ لوقعتِها كاذبةٌ) فذكر أنه إذا قامت القيامة لا يكذبها أحد ، وأنها تخفض قوماً وترفع آخرين ، ثم ذكر أنها إذا وقعت ترجّ الأرض رَجّا ، وتُبسّ الجبال بَسّا ، ويكون الناس ثلاثة أصناف : أصحاب الميمنة وأصحاب المشأمة والسابقون من أصحاب الميمنة ، لأن أصحاب الميمنة على درجات والسابقون أعلاهم ، وهم جماعة كثيرة من المهاجرين والأنصار ، وجماعة قليلة من التابعين ومن بعدهم ، ثم ذكر ما أعد لهم من الجزاء ، وذكر بعده جزاء أصحاب

اليمين ممن لم يصل إلى درجة السابقين ، وذكر بعد جزائهم جزاء أصحاب الشمال، وأن سببه أنه أترفهم بنعمه فكفروا به، وأنكروا أن يبعثهم بعد أن يصيروا ترابا وعظاماً ، وأجاب عن هذا بأنه لابد من جمعهم بعد موتهم ، ولابد من عقابهم على كفرهم بالأكل من شجر الزَّقُّوم ، إلى غير هذا مما أعده لهم ، ثم ذكر من آياته ما يدل على قدرته على بعثهم ، فذكر أنه خلقهم من تلك النُّطفِ التي لا يمكنهم أن يزعموا أنهم الخالقون لها ، وأنه قدَّر بينهم الموت وليس بمسبوق عاجز عن إعادتهم فيما لا يعلمون من الأوصاف والأخلاق ، ثم ذكر أنه هو الذي يخرج نبات ما يحرثون ، وأنه هو الذي ينزل من المُزْن الماء الذي يشربون ، وأنه هو الذي أنشأ الشجرة التي يقدحون النار منها ، وقد جعلها تذكرة لنار يوم القيامة متاعا لمن يوقدها (نحنُ جعلناها تذكرةً ومتاعاً للمُقْوِينَ) .

ثم أمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يقوم بتسبيحه ليخالف طريق أولئك الكافرين ، وأقسم لهم بمواقع النجوم أن ما ينزله عليهم في ذلك قرآن كريم يراد به خيرهم ، ثم وبخهم على تكذيبهم له فيما حدثهم به من تفصيل الجزاء الأخروى ، وذكر أنه لو صح ما يزعمون من أنه لا جزاء بعد الموت لأمكنهم أن يرجعوا أرواحهم إلى أبدانهم وقت خروجها ، ليعوّقوا الجزاء الذي ينتظرهم ، وإذا كان هذا ليس في إمكانهم فلا بد من ذلك الجزاء ، ليلقى كل شخص ما يستحقه على عمله ، فإن كان من المقربين (السابقين) فرَوْحٌ ورَيحان وجنة نعيم . وإن كان من أصحاب اليمين (غير السابقين) فسلامٌ لك من أصحاب اليمين ، وإن كان من المكذّبين الضّالين (أصحاب المشأمة) فنزُلٌ من حَميم ، وتصلية جحيم (إنَّ هذا لهُو حقُّ اليقينِ ، فسبِّحْ باسم ربِّك العظيمِ) .

سورة الحديد

تاريخ نزولها ووجه تسميتها :

نزلت سورة الحديد بعد سورة الزَّلزَلة ، وقد نزلت سورة الزلزلة بعد سورة النساء ، وكان نزول سورة النساء فيما بين صلح الحُديبية وغزوة تَبُوك ، فيكون نزول سورة الحديد فى ذلك التاريخ أيضاً .

وقد سميت هذه السورة بهذا الاسم لقوله تعالى فى الآية — ٢٥ — منها (وأنزلنَا الحديدَ فيه بأسٌ شديدٌ ومنافعُ للناسِ) وتبلغ آياتها تسعاً وعشرين آية

الغرض منها وترتيبها :

يقصد من هذه السورة الدعوة إلى الإيمان بالله ورسوله والإنفاق فى سبيله ، وقد ذكرت هذه السورة بعد السورة السابقة لأنها ختمت بأمر النبى صلى الله عليه وسلم بتسبيح ربه العظيم ، فجاءت هذه السورة بعدها وأولها فى بيان أن كل ما فى السماوات والأرض يسبح بحمده .

الدعوة إلى الإيمان والإنفاق فى سبيله

الآيات (١ — ٢٩)

قال الله تعالى (سبَّحَ لله ما فى السماواتِ والأرضِ وهو العزيزُ الحكيمُ)فذكر أن كل ذلك يسبح بحمده ، وأن له ملكه ،وأنه يحي ويميت، إلى غير هذا مما يوجب الإيمان به وبرسوله، وذكر أن رسوله إنما يدعوهم ليؤمنوا به وقد أخذ ميثاقهم بهذا منذ خلقهم،وأنه جاءهم بكتاب ليخرجهم من الظلمات إلى النور ،ثم دعاهم إلى الإنفاق فى سبيله وفضَّل من أنفق وقاتل قبل الفتح على من أنفق وقاتل بعده ، ووعد من ينفق فى سبيله بأن يضاعفه له يوم القيامة ، ويكون لهم فيها نور يسعى بين أيديهم وبأيمانهم ، ويقول المنافقون والمنافقات ممن لم ينفقوا فى سبيله للذين آمنوا وأنفقوا انظرونا نقتبس من نوركم ، فيقال

لهم ارجعوا وراءكم ويحال بينهم وبينهم . إلى غير هذا من التحاور الذى يحصل بينهم فى ذلك اليوم ، ثم ذكر أنه حان لهؤلاء المنافقين أن تخشع قلوبهم لذكره ، ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم ، ثم ذكر من آياته أنه يحيى الأرض بعد موتها لتخشع قلوبهم له ، ورغبهم فى الإيمان به وبرسله بأن الذين آمنوا به وبرسله هم الصِّديقون والشهداء ، ولهم أجرهم ونورهم ، والذين كفروا وكذبوا بآياته هم أصحاب الجحيم ، ثم هوَّن لهم أمر الحياة الدنيا فذكر أنها لعب ولهو إلى غير هذا مما هون به أمرها ، وأمرهم أن يسابقوا إلى ما هو أعظم منها من نيل مغفرته وجنته ، ثم ذكر أن ما يصيبهم فى الأرض من قحط ونحوه وفى أنفسهم من شر أو خير بقضائه وقدره . فلا يصح أن يحزنوا على ما فاتهم أو يفرحوا بما أتاهم ، ليهوِّن عليهم الإنفاق والجهاد فى سبيله . ويحذرهم من البخل والأمر به ، ثم أشار إلى أن ما يأمرهم به من ذلك هو الذى أرسل به رسله ، فذكر أنه أرسلهم بالبينات وأنزل معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط ، وأنزل الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس، وليعلم من ينصره ورسله بالجهاد به فى سبيله ، ثم ذكر من أولئك الرسل نوحا وإبراهيم ، وأنه جعل فى ذرِّيتهما النبوة والكتاب ، ثم قفىَّ على آثرهم برسله ، وقفى بعدهم بعيسى ابن مريم ، فأخذ بهدايتهم قليل من أتباعهم وفسق كثير منهم ، ثم أمر هذه الأمة أن تؤمن بالله ورسوله الذى جاء مصدقا لأولئك الرسل ، وذكر أنه يعطيهم نصيبين من رحمته بإيمانهم برسالتهم ورسالة أهل الكتاب قبلهم ، ثم رغبهم فى ذلك بأنهم ينالون به فضلا يرى أهل الكتاب أنه خاص بهم ، فقال (لِئلاَّ يعلمَ أهلُ الكتابِ أنْ لا يَقدِرُونَ على شيءٍ من فضلِ اللهِ وأنَّ الفضلَ بيدِ اللهِ يؤتيهِ منْ يشاءُ واللهُ ذو الفضلِ العظيمِ) .

سورة المجادلة

تاريخ نزولها ووجه تسميتها :

نزلت سورة المجادلة بعد سورة المنافقون ، وقد نزلت سورة المنافقون بعد غزوة بنى المصطلق فى السنة الخامسة من الهجرة ، فيكون نزول سورة المجادلة فيما بين صلح الحديبية وغزوة تَبُوكَ .

وقد سمِّيت هذه السورة بهذا الاسم لقوله تعالى فى أولها (قدْ سمعَ اللهُ قولَ التى تجادلكَ فى زوجها) وتبلغ آياتها ثنتين وعشرين آية .

الغرض منها وترتيبها :

نزلت هذه السورة فى خولة بنت ثعلبة امرأة أوْسِ بن الصامت ، وكان قد ظاهر منها بقوله — أنت علىَّ كظهر أمى — وكان الظهار من أشدِّ طلاق الجاهلية لأنه فى التحريم أوكد ، فأتت النبى صلى الله عليه وسلم فقالت له : إن أوسا تزوجنى وأنا شابَّة مرغوب فىَّ ، فلما خلاسنى وكثر ولدى جعلنى كأمه ، وإنَّ لى صِبْية صغارا إن ضممتهم إليه ضاعوا ، وإن ضممتهم إلىَّ جاعوا . فروى بعضهم أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لها : ما عندى فى أمرك شىء . وروى بعضهم أنه قال لها : حرمتِ عليه . فقالت له يارسول الله ، فاقتى ووجدى . فأنزل الله هذه السورة فى تحريم الظهار وبيان حكمه ، وأوعد من يخالف ذلك أشد وعيد ، وقد جر هذا إلى الكلام على المنافقين الذين يحادُّون الله ورسوله لتحذيرهم من مخالفة ما جاء فى الظهار وغيره من الأحكام ، ولتوبيخهم على مايتناجون به فيما بينهم من الإثم والعدوان ومعصية النبى صلى الله عليه وسلم ، وبهذا تشارك هذه السورة سورة الحديد فى معالجتها أحوال أولئك المنافقين ، ويكون ذكرها بعدها لهذه المناسبة .

بيان حكم الظهار

الآيات (١ —٢٢)

قال الله تعالى (قدْ سمعَ اللهُ قولَ التى تجادِلكَ فى زوجها وتشتكى إلى اللهِ واللهُ يسمعُ تحاوُركما إنَّ اللهَ سميعٌ بصيرٌ) فذكر أحكام الظهار وختمها بقوله (ذلكَ لتؤمنُوا باللهِ ورسولِهِ وتلكَ حدودُ اللهِ وللكافرينَ عذابٌ أليمٌ) ثم أوعد الذين يحادُّون فى هذا ونحوه من المنافقين بأنه سيخذلهم كما خذل أمثالهم من قبلهم ، ولهم بعد هذا عذاب مهين يوم يبعثهم فينبئهم بما يكيدون به للإسلام فى سرهم ، لأنه يعلم ما فى السماوات والأرض ، ولا يخفى عليه شىء مما يتناجى به الناس فيما بينهم ، ثم ذكر أنه نهاهم عما يفعلونه فى نجواهم فعادوا إليها ، وتناجوا بالإثم والعدوان ومعصية النبى صلى الله عليه وسلم ، وعاد فنهاهم عن هذه النجوى الآثمة ، وأمرهم أن يتناجَوْا بالبرِّ والتقوى ، وأن يتأدبوا فى مجالسهم مع النبى صلى الله عليه وسلم ، فإذا قيل لهم تفسَّحوا فيها فسحوا ، وإذا قيل لهم انشزوا منها نشزوا ، ثم أمرهم إذا أرادوا مناجاة النبى صلى الله عليه وسلم بشىء أن يقدِّموا بين يدَىْ نجواه صدقة تطهر قلوبهم ، فلا يناجونه إلا بما فيه خير ومصلحة لهم ، فإذا لم يجدوا ما يتصدقون به لفقرهم فإنه يعفو عنهم ، وإذا أشفقوا أن يتصدقوا حرصا على مالهم وتاب عليهم فلم يكلفهم بذلك فليحافظوا على ما وجب عليهم من الصلاة والزكاة ونحوهما ، ولا يفرطوا فيها كما فرطوا فى تلك الصدقة ، ثم وبخ أولئك المنافقين على موالاتهم لليهود الذين يؤلبونهم على إخوانهم ، وهم أجانب لا يريدون بهم خيراً ، وذكر أنهم يوالونهم فى السر ويحلفون كذبا أنهم لا يوالونهم ، وأوعدهم على ذلك بما أوعدهم به ، إلى أن ختم السورة بتحذير المؤمنين منهم فقال (لا تجدُ قوماً يؤمنونَ باللهِ واليوم الآخر يوادُّونَ مَنْ حادَّ اللهَ ورسولهُ ولوْ كانُوا آباءهمْ أوْ أبناءهمْ أو إخوانهم أو عشيرتهمْ أولئكَ كتبَ فى قلوبهمُ الإيمانَ وأيَّدهمْ برُوحٍ منه ويدخلهمْ جنات تجرى منْ تحتها الأنهارُ خالدينَ فيها رضىَ اللهُ عنهمْ ورضُوا عنهُ أولئك حزبُ الله ألا إنَّ حزبَ الله همُ المفلحونَ) .

سورة الحشر

تاريخ نزولها ووجه تسميتها :

نزلت سورة الحشر بعد سورة الْبَيِّنَةِ ، وقد نزلت سورة البينة فيما بين صلح الحدَيْبية وغزوة تبوك ، فيكون نزول سورة الحشر فى ذلك التاريخ أيضا ، والحق أنها من السُّوَر التى نزلت فيما بين غزوة بدر وصلح الحديْبية ، لأنها نزلت فى غزوة بنى النضير ، وكانت هذه الغزوة فى السنة الرابعة من الهجرة .

وقد سميت هذه السورة بهذا الاسم لقوله تعالى فى الآية - ٢ - منها (هوَ الذى أخرجَ الذينَ كفرُوا مِنْ أهل الكتابِ مِنْ ديارهمْ لأوَّلِ الحشرِ) وتبلغ آياتها أربعا وعشرين آية

الغرض منها وترتيبها :

نزلت هذه السورة فى غزوة بنى النضير من يهود المدينة ، وكانوا قد نقضوا عهدهم مع النبى صلى الله عليه وسلم ، فأمرهم أن يخرجوا من المدينة فأبوا ، وبعث إليهم عبد الله بن أبىّ رئيس المنافقين ألاّ يخرجوا ، فإن قاتلهم المسلمون كانوا معهم عليهم ، وإن أخرجوهم خرجوا معهم . فحاصرهم المسلمون حتى رضوا أن يخرجوا من المدينة ، على أن لهم ما حملت الإبل من أموالهم إلا آلة الحرب ، ولم يفعل المنافقون شيئا مما وعدوهم به ، وبهذا يظهر وجه ذكر هذه السورة بعد سورة المجادلة ، لأن الكلام فيهما يتناول ما كان من موالاة المنافقين لليهود .

الكلام على غزوة بنى النضير

الآيات (١ — ٢٤)

قال الله تعالى (سبَّحَ للهِ ما فى السماواتِ ومافى الأرضِ وهوَ العزيزُ الحكيمُ) فذكر تسبيح ما فى السماوات ومافى الأرض له ، وأنه عزيز حكيم ، ومهَّد بهذا

لما أراده من بيان فضله على المسلمين فى هذه الغزوة ، فذكر أنه هو الذى أخرج بنى النضير من ديارهم لأول الحشر الذى سيكون بإخراج جميع اليهود من جزيرة العرب ، وكان المسلمون لا يظنون أن يخرجوا ، وكانوا هم يظنون أن حصونهم تمنعهم من الله ، فقذف فى قلوبهم الرعب حتى رضوا بالخروج ، ولولا هذا لعذبوا فى الدنيا بالقتل ، ولهم فى الآخرة عذاب النار ، ثم ذكر أن ما قطعه المسلمون من أشجارهم قبل الصلح وما تركوه منها كان بإذنه ، وكان فى أنفسهم شىء مما قطعوه منها ، ولعلهم ندموا على قطعها بعد أن صار ما بقى منها لهم ، ثم ذكر أن ما أفاءه عليهم من أموالهم لم يكن بقتال ، وأن حكم ما أفاءه عليهم بغير قتال أن يكون سهم منه لله والرسول يصرف فى عمارة المساجد ونحوها ، وسهم لذوى القربى وهم بنو هاشم وبنو المطّلب ، وسهم لليتامى ، وسهم للمساكين ، وسهم لابن السبيل ، فلا يأخذ الأغنياء منه شيئا ، وإنما يأخذه فقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم تعويضا لهم ، وقد أثنى عليهم فى هجرتهم وتضحيتهم بأموالهم ، وأثنى بعدهم على الأنصار الذين آووهم فى دار هجرتهم ، وطابت نفوسهم بتوزيع أموال بنى النضير عليهم ، وأثنى بعد الفريقين على من يجىء بعدهم ويسلك سبيلهم فيما كان منهم تضحية وإيثار وتحابّ ، ثم انتقل إلى ما كان من قول المنافقين لبنى النضير (لئن أخرجتمْ لنخرجنَّ معكمْ ولا نطيعُ فيكم أحداً أبداً وإن قوتلتمْ لننصرنكمْ) وذكر أنهم كاذبون فى وعدهم لهم ، فلئن أخرجوا لا يخرجون معهم ، ولئن قوتلوا لا ينصرونهم ، ولئن نصروهم ليولُّنَّ الأدبار جميعا ، لأنهم يرهبون المسلمين أشد من رهبتهم من الله ، فلا يقاتلونهم إلا فى قُرًى محصنة أو من وراء جُدُر ، لأنهم ضعاف بسبب عداوة بعضهم لبعض ، فيحسبهم من ينظر إليهم أنهم على وفاق ، ولكن قلوبهم مختلفة متفرقة ، فمثلهم فى ذلك كمثل أهل بدر من قبلهم حين ذاقوا وبال أمرهم ، ولم يغن بعضهم عن بعض شيئا ، وكمثل الشيطان حين يغوى الإنسان على الكفر ثم يتبرأ منه (فكانَ عاقبتهما أنهما فى النارِ خالدينَ فيها وذلك جزاءُ الظالمينَ)

ثم أمر المؤمنين بتقواه وأن ينظر كل واحد منهم ما قدمه لغده ، ونهاهم أن يكونوا كأولئك المنافقين واليهود الذين نسوه فأنساهم أنفسهم ، ثم أخذ فى تعظيم شأن القرآن الذى ينزل بمثل هذه الآيات والمواعظ . فذكر أنه لو أنزله على جبل انصدع من خشية مُنزِله ، وأتبع ذلك بشرح عظمته فذكر من صفاته ما ذكر إلى أن ختمها بقوله (هوَ اللهُ الخالقُ البارئُ المصوِّرُ لهُ الأسماء الحسنى يسبِّحُ لهُ ما فى السماواتِ والأرض وهو العزيزُ الحكيمُ)

سورة الممتحنة

تاريخ نزولها ووجه تسميتها :

نزلت سورة الممتحنة بعد سورة الأحزاب ، وكان نزولها بعد صلح الحديْبية فى السنة السادسة من الهجرة ، فتكون من السُّور التى نزلت فيما بين هذا الصلح وغزوة تبوك

وقد سميت هذه السورة بهذا الاسم لقوله تعالى فى الآية - ١٠ - منها (يأيها الذين آمنوا إذا جاءكُمُ المؤمناتُ مهاجراتٍ فامتحنوهنَّ) وتبلغ آياتها ثلاث عشرة آية

الغرض منها وترتيبها :

يقصد من هذه السورة نهى المؤمنين عن موالاة المشركين بعد نهيهم عن موالاة اليهود ، وكان المسلمون قد عقدوا مع قريش هدنة فى صلح الحديبية لمدة أربع سنين ، فنزلت هذه السورة بعد هذا الصلح ليفهمه المسلمون على حقيقته ، لأنه لم يقض على ما بين الفريقين من عداء ، وإنما كان اتفاقا على وضع الحرب بينهم هذه المدة ، ولا شك أن هذه السورة تشبه سورة الحشر فى نهى المؤمنين عن موالاة غيرهم ، وهذا هو وجه المناسبة بينهما

النهى عن موالاة المشركين

الآيات (١ — ١٣)

قال الله تعالى (يأيُّها الذينَ آمنوا لا تتخذوا عدوِّى وعدوَّكم أولياءَ تلقونَ إليهم بالمودَّةِ — الآية) فنهاهم عن موالاة المشركين الذين أخرجوهم من ديارهم ووبخ من يسر إليهم بالمودة من المنافقين ، وذكر أنهم إن يلتقوا بهم يكونوا لهم أعداء ويؤذوهم بالفعل والقول ، وهددهم إذا راعوا فى ذلك ما بينهم من قرابة بأنها لن تنفعهم يوم القيامة ، بل يفصل فيها بينهم ، ولا ينتفع بعضهم بقرابة بعض ، ثم أخبرهم بما كان من إبراهيم والذين معه إذا تبرَّؤوا من قومهم وعادوهم ، ليكون لهم قدوة حسنة فيهم ، ثم ذكر أنهم إذا عادوهم ترجى مودتهم بإسلامهم ، لأن العداوة قد تكون سببا فى المودة ، ثم ذكر أنه لا ينهاهم عن موالاة الذين لم يقاتلوهم فى الدين ولم يخرجوهم من ديارهم ، وإنما ينهاهم عن موالاة الذين فعلوا ذلك معهم

وكان فى صلح الحديبية أن يرُدَّ النبى صلى الله عليه وسلم على قريش من يهاجر إليه منهم ، فجاءته سُبيعة بنت الحارث مسلمة وهو لا يزال بالحديبية ، فأقبل زوجها يطلب ردها إليه على ما جاء فى الصلح بينهم ، وكذلك فعل غيرها من النساء ، فجاء أهلهن يطلبون ردهن ، فأجابهم النبى صلى الله عليه وسلم بأن هذا الشرط فى الرجال دون النساء ، وذكر الله تعالى فى ذلك أنه إذا جاءهم المؤمنات مهاجرات فليمتحنوهن ، فإذا علموهن مؤمنات لا يرجعوهن إلى الكفار ، لأنهن محرَّمات عليهم ، وهم محرَّمون عليهن ، وأحلَّ للمسلمين أن ينكحوهن إذا دفعوا لهن مهورهن ، إلى غير هذا مما ذكره فى أمرهن ، ثم أمر النبى صلى الله عليه وسلم إذا جاءه المؤمنات مهاجرات يبايعنه ألاَّ يشركن ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن ولا يأتين ببهتان من نميمة أو نحوها ولا يعصينه فى معروف أن يبايعهنّ ويستغفر لهنَّ الله إن الله غفور رحيم (يأيها الذينَ آمنوا لا تتولَّوْا قوماً غضبَ اللهُ عليهم قدْ يئسوا مِنَ الآخرة كما يئسَ الكفارُ مِنْ أصحاب القبورِ)

سورة الصف

تاريخ نزولها ووجه تسميتها :

نزلت سورة الصفّ بعد سورة التَّغابُن ، وقد نزلت سورة التغابن بعد سورة التحريم ، ونزلت سورة التحريم بعد سورة الحجرات ، ونزلت سورة الحجرات فيما بين صلح الحُدَيْبِية وغزوة تَبُوك ، فيكون نزول سورة الصف فى ذلك التاريخ أيضاً .

وقد سُمِّيت هذه السورة بهذا الاسم لقوله تعالى فى الآية — ٤ — منها (إن الله يحبُّ الذينَ يقاتلونَ فى سبيلهِ صفًّا كأنهمْ بنيانٌ مرصوصٌ) وتبلغ آياتها أربع عشرة آية .

الغرض منها وترتيبها :

يقصد من هذه السورة الحث على الجهاد فى سبيل الله ، وتوبيخ المنافقين على تقاعسهم عنه ، وقد كان هذا ناشئاً من موالاتهم للمشركين ، فكانوا يكرهون قتالهم لأنهم يبطنون الشرك مثلهم ، فالسياق فيها مع المنافقين كالسياق فى السورة التى قبلها ، ولهذا ذكرت بعدها .

الحث على الجهاد

الآيات (١ — ١٤)

قال الله تعالى (سبّحَ لِلهِ ما فى السموات والأرضِ وهوَ العزيزُ الحكيمُ) فذكر تسبيح كل شىء له ليسبحه أولئك المنافقون ويؤمنوا به ، ثم وبخهم على أنهم يظهرون خلاف ما يبطنون ، فيقولون مالا يفعلون ، ويتقاعسون عن الجهاد مع المسلمين ، وذكر أنه يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفاً فيثبتون فى قتالهم ولا يتقهقرون ، ثم حذرهم عاقبة زيغهم أن يزيغ قلوبهم فيصيروا إلى الكفر الصريح ، كما أزاغ

قلوب قوم موسى حين زاغوا وآذوه ، ثم رغبهم فى الإيمان بتبشير عيسى بالنبى الذى يدعوهم إليهم (وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنْ بَعْدِى اسْمُهُ أَحْمَدُ) ثم ذكر أنهم يريدون إطفاء نوره الذى بشّر به ، وأنه سيتم نوره ويظهر دينه على الدين كله ، ثم دلهم على ماينجيهم فى أخراهم وهو أن يصدقوا فى إيمانهم ويجاهدوا فى سبيله بأموالهم وأنفسهم ، ليغفر لهم ذنوبهم فى أخراهم وينيلهم نصراً قريباً فى دنياهم ، وهو فتح مكة لهم ، ثم أمرهم أن يكونوا أنصارا لله مخلصين كحواريّى عيسى حين قال لهم من أنصارى إلى الله ؟ فقالوا (نَحْنُ أَنْصَارُ اللهِ فَآمَنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِى إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ)

سورة الجمعة

تاريخ نزولها ووجه تسميتها :

نزلت سورة الجمعة بعد سورة الصفّ ، وقد نزلت سورة الصف فيما بين صلح الحديبية وغزوة تبوك ، فيكون نزول سورة الجمعة فى ذلك التاريخ أيضاً ، وقد سميت هذه السورة بهذا الاسم لقوله تعالى فى الآية — ٩ — منها (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللهِ) . وتبلغ آياتها إحدى عشرة آية .

الغرض منها وترتيبها :

يقصد من هذه السورة الحث على العمل بالعلم ، وتوبيخ من لا يعمل بعلمه من المنافقين واليهود ، ولهذا ذكرت هذه السورة بعد سورة الصفّ ، لأنها توافقها وتوافق السور التى قبلها فى هذا السياق .

الحث على العمل بالعلم

الآيات (١ — ١١)

قال الله تعالى (يسبحُ للهِ مافى السماواتِ وما فى الأرض الملكِ القدُّوس العزيز الحكيمِ) فذكر تسبيح ذلك له وأنه بعث فى الأميين رسولا يعلمهم ويزكيهم ، ليجمعوا بهذا بين العلم والعمل به ، ثم ذم اليهود الذين يعلمون التوراة ولا يعملون بها ، فجعل مثلهم فى حملها وعدم الانتفاع بها كمثل الحمار يحمل أسفارا ، ثم ذكر ما يتكلون عليه فى ترك العمل وهو زعمهم أنهم أولياؤه من دون الناس ، فلا يؤاخذهم كما يؤاخذ غيرهم ، فأمرهم إن كانوا صادقين فى هذا أن يتمنَّوا الموت ليثبتوا مايزعمونه من حسن عاقبتهم ، وذكر أنهم لا يتمنَّوْنه أبدا لخوفهم من أعمالهم ، وأنه لا بدّ من هذا الموت الذى يفرون منه لينبئهم بما كانوا يعملون ، ثم أمر المنافقين ومن يتباطأ مثلهم عن العمل أن يسعوا إلى صلاة الجمعة عند النداء لها ، وأن يتركوا عند سماعهم نداءها ما يتعاطونه من البيع ، فإذا أدَّوْها خرجوا إلى ما كانوا عليه من أعمال الدنيا ، ثم ذم ما كان يحصل منهم من الخروج قبل أدائها عند حضور تجارة أو نحوها، فقال (وإذا رأوْا تجارةً أو لهواً انفضُّوا إليها وتركوكَ قائماً قلْ ماعندَ الله خيرٌ من اللَّهوِ ومنَ التجارةِ واللهُ خيرُ الرازقينَ) .

سورة المنافقون

تاريخ نزولها ووجه تسميتها.

نزلت سورة المنافقون بعد سورة الحجّ ، وكان نزولها بعد غزوة بنى المصطلق فى السنة الخامسة من الهجرة ، فتكون من السُّور التى نزلت فيما بين صلح الحديبية وغزوة تبُوك .

وقد سمِّيت هذه السورة بهذا الاسم لقوله تعالى فى أولها (إذا جاءكَ المنافقونَ قالوُا نشهد إنَّكَ لرسولُ اللهِ) وتبلغ آياتها إحدى عشرة آية .

الغرض منها وترتيبها :

نزلت هذه السورة فيما كان من مؤامرة المنافقين على المهاجرين فى رجوعهم من غزوة بنى المصطلق ، وذلك أنهم تآمروا على إخراجهم من المدينة بعد رجوعهم إليها ، وكان زيد بن أرقم قد حضر مؤامرتهم فأخبر النبى صلى الله عليه وسلم بها ، فلما بلغهم ذلك ذهبوا إليه فأنكروها على عادتهم ، فنزلت هذه السورة لفضح مؤامرتهم وتصديق زيد بن أرقم ، ولا شك أن سياقها فى هذا سياق سورة الجمعة والسور المذكورة قبلها ، وهذا هو وجه المناسبة فى ذكرها بعد سورة الجمعة .

مؤامرة المنافقين على المهاجرين

الآيات (١ — ١١)

قال الله تعالى (إذا جاءكَ المنافقونَ قالوا نشهدُ إنكَ لرسولُ اللهِ واللهُ يعلمُ إنّكَ لرسولهُ واللهُ يشهدُ إنّ المنافقينَ لكاذبونَ) فكذبهم فى ذلك ثم ذكر أنهم يتخذون هذه الأيمان الكاذبة وقاية لهم ، ثم ذكر أن من يراهم يعجبه أجسامهم ، فإذا خبرهم وجدهم كالخشُب المسنَّدَة فى عدم العقل ، وهم جبناء يحسبون كل صيحة عليهم ، ثم ذكر ما كان من مؤامرتهم حين نهوا من حضرهم من الأنصار أن ينفقوا على المهاجرين حتى ينفضّوا من المدينة ، واتفقوا على أنهم إذا رجعوا إليها يخرجونهم منها ، ثم نهى المؤمنين أن تلهيهم أموالهم وأولادهم كما ألهت أولئك المنافقين ، وأن ينفقوا مما رزقهم ولا يسمعوا لهم ، حتى لا يأتى أحدهم الموت فيتمنى لو يتأخر أجله ليتدارك ما فاته من الصدقة (ولنْ يؤخّرَ اللهُ نفساً إذا جاءَ أجلُها والله خبيرٌ بما تعملونَ) .

سورة التغابن

تاريخ نزولها ووجه تسميتها :

نزلت سورة التغابُن بعد سورة التحريم ، وقد نزلت سورة التحريم بعد سورة الحجُرات ، ونزلت سورة الحجرات فيما بين صلح الحُديبية وغزوة بدر ، فيكون نزول سورة التغابن فى ذلك التاريخ أيضاً .

وقد سمِّيت هذه السورة بهذا الاسم لقوله تعالى فى الآية — ٩ — منها (يومَ يجمعكمْ ليوم ِ الجمع ذلكَ يومُ التغابُنِ) وتبلغ آياتها ثمانى عشرة آية .

الغرض منها وترتيبها :

يقصد من هذه السورة إنذار الكافرين من المنافقين وغيرهم بعذاب الدنيا والآخرة ، ليدعوهم إلى الإيمان بالله ورسوله والإنفاق فى سبيله ، ولا شك أن هذا الغرض قريب من الأغراض المقصودة من سورة المنافقون والسور السابقة عليها ، وهذا هو وجه المناسبة فى ذكر هذه السورة بعدها .

الإنذار بعذاب الدنيا والآخرة

الآيات (١ — ١٨)

قال الله تعالى (يسبِّحُ للهِ ما فى السماواتِ وما فى الأرض لهُ الملكُ ولهُ الحمدُ وهوَ على كلّ شيءٍ قديرٌ) فذكر تسبيح كل شيء له واختصاصه بالملك والحمد ، وأنه خلقنا فمنا كافر ومنا مؤمن وهو بصير بما نعمله ، وأنه خلق السماوات والأرض بالحق ولم يخلقهما عبثاً ، وأنه صوّرنا فأحسن صورنا وإليه مصيرنا ، وأنه يعلم ما نسِرُّ وما نعلنُ فيحاسبنا عليهما ، ثم ذكر ما أنزله من عذاب الدنيا بالكافرين السابقين وما أعده لهم من عذاب الآخرة ، ليكون فى هذا نذير لهم ، وذكر أنهم يزعمون

أنهم لن يبعثوا ورد عليهم بأنهم سيبعثون وينبؤون بعملهم ، ثم أمرهم أن يؤمنوا به وبرسوله ؛ وحذرهم اليوم الذى يجمعهم فيه وهو يوم التغابن ، لأن أهل الحق يغبنون فيه أهل الباطل ، وذكر أن من يؤمن به ويعمل صالحا يكفر عنه سيئاته ويدخله جناته ، ومن يكفر به يعذبه بناره ، وكل هذا بإذنه وتقديره ، ثم أمرهم بعدهذا أن يطيعوه ويطيعوا رسوله فإن أعرضوا عن طاعتهما فقد بلغوا ما أمروا به ، وليس على النبى صلى الله عليه وسلم إلا أن يبلغهم ، ثم يتوكل بعد هذا عليه هو ومن آمن به لينصرهم عليهم ، ثم ذكر لهم أن من أزواجهم وأولادهم عدوًّا لهم ، وحذرهم أن يؤثروهم على دينهم ، ثم أمرهم أن يتقوه ما استطاعوا وينفقوا فى سبيله من أموالهم . ووعدهم بأن يضاعف لهم ما ينفقونه ويغفر لهم ، لأنه شكور حليم (عالمُ الغيبِ والشهادةِ العزيزُ الحكيمُ)

سورة الطلاق

تاريخ نزولها ووجه تسميتها :

نزلت سورة الطلاق بعد سورة الإنسان . وقد نزلت سورة الإنسان بعد سورة الرحمان ، ونزلت سورة الرحمان فيما بين صلح الحديبية وغزوة تبوك ، فيكون نزول سورة الطلاق فى ذلك التاريخ أيضاً .

وقد سميت هذه السورة بهذا الاسم لقوله تعالى فى أولها (يأيها النبيُّ إذا طلَّقتمُ النساءَ فطلِّقوهنَّ لِعدَّتهنَّ) وتبلغ آياتها ثنتى عشرة آية

الغرض منها وترتيبها :

يقصد من هذه السورة بيان أحكام الطلاق والعدّة ، وكان المشركون يأخذون فى ذلك بشرائع جائرة فى حق النساء ، فنزلت هذه السورة بإنصافهن فى طلاقهن

وعدتهن ، وتحذير المشركين من الإصرار على شرائعهم الجائرة في هذا وغيره ، وبهذا يكون سياق هذه السورة قريبا من سياق السور السابقة ؛ وتظهر المناسبة في ذكرها بعد سورة التغابن

حكم الطلاق والعدة

الآيات (١ — ١٢)

قال الله تعالى (يأيها النبيُّ إذا طلَّقتمُ النساءَ فطلِّقوهنَّ لعدتهنَّ وأحصُوا العدَّة واتقوا الله ربكمْ لا تخرجوهنَّ من بيوتهنَّ ولا يخرجنَ إلاَّ أنْ يأتينَ بفاحشةٍ مُبيِّنة وتلكَ حدودُ اللهِ ومنْ يتعدَّ حدودَ اللهِ فقدْ ظلمَ نفسهُ لاتدرى لعلَّ الله يحدثُ بعدَ ذلكَ أمراً) فذكر أحكام الطلاق والعدة فى سبع آيات من هذه السورة، وذكر فى خلالها من الوعيد على مخالفتها ما ذكر ، ثم ختم ذلك بذكر ما حصل للقرى السابقة حين عتتْ عن أمر ربها من شدة الحساب ونُكرِ العذاب وخسر العاقبة ، ليحذرهم مخالفة ماذكره من الأوامر والأحكام ، وليتقى هذا أولوُ الألباب من المؤمنين ، ثم ذكر أنه قد أنزل إليهم بهذا ما فيه شرف لهم لأنه يخرجهم من ظلمات الجهل إلى نور العلم ، وأن من يؤمن به ويعمل صالحا يدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا قد أحسن الله له رزقا (اللهُ الذى خلقَ سبع سماواتٍ ومن الأرض مثلهنَّ يتنزَّلُ الأمرُ بينهنَّ لتعلمُوا أنَّ اللهَ على كلِّ شيءٍ قديرٌ وأنَّ اللهَ قدْ أحاطَ بكلِّ شيءٍ علماً)

سورة التحريم

تاريخ نزولها ووجه تسميتها :

نزلت سورة التحريم بعد سورة الحجرات ، وقد نزلت سورة الحجرات فيما بين صلح الحديبية وغزوة تبوك ، فيكون نزول سورة التحريم في ذلك التاريخ أيضا

وقد سميت هذه السورة بهذا الاسم لقوله تعالى في أولها (يأيها النبيُّ لِمَ تحرِّمُ ما أحلَّ اللهُ لكَ) وتبلغ آياتها ثنتي عشرة آية

الغرض منها وترتيبها :

نزلت هذه السورة فيما كان من عائشة وحفصة حين شرب النبي صلى الله عليه وسلم عسلا عند زينب بنت جحش ، فتواطأتا وقالتا له : إنا نشم منك ريح المغافير . وهو جمع مِغفر أو مُغفر أو مُغفور أو مِغفار أو مِغفير ، وهو شيء ينضحه الثُّمام والعُشَر والرِّمث يشبه العسل ، وريحه كريهة منكرة ، فلما سمع منهما ذلك حرم العسل على نفسه ، فنزلت هذه السورة لعتابه على تحريم ما أحل الله له ، وتهديد نسائه بطلاقهن إن لم يتبن عن هذه الغيرة فيما بينهن ، والمناسبة بين هذه السورة وسورة الطلاق أنها في شأن النساء أيضا

قصة التحريم

الآيات (١ — ١٢)

قال الله تعالى (يأيُّها النبيُّ لِمَ تحرِّمُ ما أحلَّ اللهُ لكَ تبتغي مرضاةَ أزواجك واللهُ غفورٌ رحيمٌ) فعاتب النبي صلى الله عليه وسلم على تحريم العسل الذي أحله له ابتغاء مرضاة أزواجه ، وذكر أنه شرع لهم أن يتحلَّلوا من أيمانهم بالكفارة ليتحلل من يمينه ويعود إلى شرب العسل ، وكان قد أسرَّ إلى حفصة

بتحريمه لئلا يحرمه أصحابه على أنفسهم اقتداء به ، فأخبرت به عائشة وأطلعه الله على إفشائها سره ، ثم ذكر لهما أنهما إن يتوبا مما فعلا كان خيرا لهما لأن قلوبهما مالت عن الحق بما فعلا ، وأنهما إن يستمرا على تظاهرهما على النبي صلى الله عليه وسلم فإنه هو مولاه وجبريل والمؤمنون والملائكة ، وعسى إن طلقهن أن يبدله أزواجا خيرا منهن ، ثم انتقل منهن إلى المؤمنين عامة فأمرهم أن يقوا أنفسهم وأهليهم من مثل هذا نارا وقودها الناس والحجارة ، وذكر أنه يقال لوقودها من الكفار لا تعتذروا اليوم إنما تجزون ما كنتم تعملون ، ثم أمرهم أن يتوبوا إليه توبة نصوحا ليكفر عنهم سيئاتهم ويدخلهم جناته ، ويجعل لهم نورا يسعى بين أيديهم وأيمانهم ، فيقولوا ربنا أتمم لنا نورنا واغفر لنا إنك على كل شيء قدير

ثم أمر النبي صلى الله عليه وسلم بمجاهدة الكفار والمنافقين لئلا تشغله تلك الأمور من نسائه عنها ، وضرب مثلا لنسائه امرأة نوح وامرأة لوط حين خانتاهما فلم يغنيا عنهما منه شيئا ، ليحذرن هذا المصير إذا اخترن أن يتظاهرن على النبي صلى الله عليه وسلم ، وضرب لهن مثلا آخر في الترغيب بعد الترهيب ، فذكر لهن اثنتين من المؤمنات السابقات إحداهما : امرأة فرعون حين طلبت منه أن يبنى لها بيتاً في الجنة وينجيها من فرعون وقومه ، والثانية مريم ابنة عمران ، وقد ختم السورة بها فقال (ومريمَ ابنتَ عِمرانَ التي أحصنتْ فرجَها فنفخنا فيه منْ رُوحنا وصدَّقتْ بكلماتِ ربِّها وكتبهِ وكانتْ مِنَ القانتينَ)

سورة الملك

تاريخ نزولها ووجه تسميتها :

نزلت سورة الملك بعد سورة الطور ، وقد نزلت سورة الطور بعد الإسراء وقبيل الهجرة ، فيكون نزول سورة الملك فى ذلك التاريخ أيضا

وقد سميت هذه السورة بهذا الاسم لقوله تعالى فى أولها (تبارَكَ الذى بيدهِ الملك وهُوَ على كلِّ شيءٍ قديرٌ) وتبلغ آياتها ثلاثين آية

الغرض منها وترتيبها :

يقصد من هذه السورة الدعوة إلى الإيمان بالله تعالى ، وقد جمع فيها بين دعوتهم بالدليل ودعوتهم بالترهيب والترغيب ، فاتصل سياقها بما ختمت به سورة التحريم من ترهيب المخالفين وترغيبهم ، وهذا هو وجه المناسبة بين السورتين

الدعوة إلى الإيمان بالله تعالى

الآيات (١ — ٣٠)

قال الله تعالى (تبارَكَ الذِى بيدِهِ المُلكُ وهُوعلى كلِّ شيءٍ قديرٌ) فذكر أن الملك بيده وحده ، وأنه على كل شيء قدير ، وأنه خلق الموت والحياة ليبلونا أيُّنا أحسن عملا ، وأنه خلق سبع سماوات طِباقا لاتفاوت فى خلقها ولا فُطور ، وأنه زيَّن السماء الدنيا بمصابيح من الكواكب وجعلها رجوما بالغيب لشياطين الإنس ، وأعدَّ لهم خاصة عذاب السعير ، وأعدَّ للكافرين عامة عذاب جهنم وبئس المصير ، وقد فصَّل من هولها ما فصل ثم ذكر أن الذين يخشونه لهم مغفرة وأجر كبير ، ليجمع بهذا بين الترهيب والترغيب ، ثم هددهم بأنه يعلم سرهم وجهرهم فيحاسبهم على كل أعمالهم ، واستدل على علمه بهذا بخلقه لهم وأنه لطيف خبير ، وذكر على سبيل التهديد أيضاً أنه مهَّد

لهم الأرض وهيأ لهم فيها أسباب الرزق ، فإذا أصرّوا على كفرهم فإنهم لا يأمنون أن يخسفها بهم ، أو يرسل حاصباً من الريح فيهلكهم ، ثم أكد ذلك التخويف بالمثال والدليل ، وذكر المثال فيما فعله بمن أصر على الكفر قبلهم ، وذكر الدليل في إمساكه الطير فوقهم ، ثم ذكر أنه إن أراد عذابهم فإنه لا ينجيهم منه ما يملكون من قوة وجند ، وإن أمسك رزقه فإنه لا يرزقهم ما يتخذون من آلهة ، ثم ذكر أنهم يعلمون ذلك ولكنهم يلجّون في عُتوّ ونفور ، وأيد ما ذكره من وضوح أمرهم بتمثيل حالهم بمن يمشي مكبًّا على وجهه ، وتمثيل حال المؤمنين بمن يمشي سويًّا على صراط مستقيم ، ثم عاد إلى ذكر الدليل فذكر أنه هو الذي أنشأهم وجعل لهم السمع والأبصار والأفئدة ، وأنه هو الذي ذرأهم في الأرض وإليه يحشرون .

ثم ذكر أنهم يقولون على سبيل الاستهزاء متى هذا الوعد بالعذاب ؟ وأمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يجيبهم بأن علمه عنده ، وليس عليه إلا أن ينذرهم به ، وبأنهم حين يرونه قريبا منهم تساء وجوههم ، ويقال لهم توبيخا (هذا الَّذي كنتمْ تدّعون) أي تطلبون ، ثم أمره أن يخبرهم بأنه إن مات هو ومن معه أو تأخر أجلهم فإنه لابد من عذابهم ، ولا أحد يجيرهم منه ، ثم ختم السورة بأمره أن يذكر لهم أنه آمن به هو ومن معه وتوكلوا عليه ، وأنهم سيعلمون من هو في ضلال مبين (قُلْ أرأيتُمْ إنْ أصبحَ ماؤكُمْ غَوْرًا فمَنْ يأتيكُمْ بماءٍ مَعِين) .

سورة القلم

تاريخ نزولها ووجه تسميتها :

نزلت سورة الْقَلَم بعد سورة الْعَلَق ، وقد كانت سورة العلق أول ما نزل من القرآن ، فيكون نزول سورة القلم فيما بين إبتداء الوحي والهجرة إلى الحبشة .

وقد سُمِّيت هذه السورة بهذا الاسم لقوله تعالى في أولها (ن ، والقَلَم وما يسطرونَ) وتبلغ آياتها اثنتين وخمسين آية .

الغرض منها وترتيبها :

لما نزل جبريل على النبي صلى الله عليه وسلم بغار حراء رجع إلى خديجة متغير الوجه ، فقالت له : مالك ؟ فذكر لها نزول جبريل عليه ، فذهبت به إلى ابن عمها ورقة بن نوفل وكان نصرانيا، فسأل النبي صلى الله عليه وسلم عما حصل له فأخبره به ، فقال له : والله لئن بقيت إلى دعوتك لأنصرنَّك نصرا عزيزا . ووقعت تلك الواقعة فى ألسنة قريش فقالوا إنه لمجنون ، فنزلت هذه السورة لتثبيته وإنذارهم بالعذاب على كفرهم ، وبهذا تشارك السورة السابقة فى غرض الإنذار ، ويظهر وجه المناسبة فى ذكرها بعدها .

تثبيت النبي صلى الله عليه وسلم

الآيات (١ — ٥٢)

قال الله تعالى (ن ، والقَلَم وما يسطرونَ ، ما أنت بنعمةِ ربِّك بمجنونٍ) فأقسم بهذا على أنه غير مجنون كما يزعمون ، وأن له أجراً غير ممنون ، وأنه على خُلُق عظيم ، ثم ذكر له أنه سيبصر ويبصرون من هو المجنون ، وأنه هو الذى يعلم الضالَّ والمهتدى ، ونهاه أن يطيع منهم كل همّاز مشّاء بالنَّميمة ومنّاع للخير ، إلى غير هذا مما ذكره من صفاتهم ، ومنها أن أحدهم يعطيه الله المال والبنين فيقابل هذا بتكذيب آياته أنفةً وحَميَّةً ، ثم ذكر أنه سيصيبه بما يذهب بأنفته وحميته (سَنَسِمُهُ على الخُرْطوم) وأنه يختبرهم بأموالهم وبنيهم كما اختبر أصحاب الجنة حين أقسموا ليجنونها فى الصباح ولم يقولوا إن شاء الله ، فأصابها بآفة أتت على أثمارها ، وقد ذهبوا إليها فى الصباح وهم يتنادَوْنَ ألاَّ يدخلَنَّها مسكين عليهم ، فلما رأوها اعترفوا بضلالهم ، وأقبل بعضهم على بعض يتلاومون ، ثم ذكر أن عذاب أولئك المشركين فى الدنيا سيكون كعذاب أصحاب هذه الجنة ، ولهم عذاب فى الآخرة أكبر من عذاب الدنيا ، وأن للمتقين عنده جنات النعيم ، وأنكر أن يسوى فى هذا بين المسلمين والمجرمين ، وأنكر عليهم أن يحكموا بأنهم فى هذا مثلهم ،

وذكر أنه لا علم عندهم ولا أيمان تثبت هذا الحكم ، وأنه إذا أمكن شركاءهم أن يضمنوا لهم هذا فليأتوا بهم يوم يُكْشَف عن ساق ويُدْعَوْن إلى السجود فلا يستطيعون ، وقد كانوا يدعون إليه وهم سالمون فيأبَوْن .

ثم ختم السورة بأمر النبى صلى الله عليه وسلم أن يتركه هو ومن يكذب بما أنزل عليه ، وذكر له أنه سيملى لهم ليأخذهم بعذابه ، ثم أمره أن يصبر لحكمه ولا يضيق به كما ضاق يونس حين التقمه الحوت ، لأنه لولا أنه تداركه بنعمته لأخرجه من بطنه وهو مذموم ، ولكنه اجتباه وجعله من الصالحين ، ثم ذكر أن أولئك المشركين إنما يحملهم أشد العداوة عند سماع القرآن على قولهم إنه لمجنون (وما هُوَ إلاَّ ذكرٌ للعالمِينَ)

سورة الحاقة

تاريخ نزولها ووجه تسميتها :

نزلت سورة الحاقة بعد سورة المُلك ، وقد نزلت سورة الملك بعد الإسراء وقُبَيل الهجرة ، فيكون نزول سورة الحاقة فى ذلك التاريخ أيضاً .

وقد سُمِّيت هذه السورة بهذا الاسم لقوله تعالى فى أولها (الحاقَّةُ ، ما الحاقَّةُ ، وما أدراكَ ما الحاقَّةُ) وتبلغ آياتها ثنتين وخمسين آية .

الغرض منها وترتيبها :

يقصد من هذه السورة إثبات يوم القيامة وبيان ما فيه من ثواب وعقاب ، وبهذا يكون سياقها فى سياق الإنذار الذى جاء فى السورة السابقة ، وهذا هو وجه المناسبة بين السورتين .

إثبات يوم القيامة
الآيات (١ — ٥٢)

قال الله تعالى (الحاقَّةُ ، ما الحاقَّةُ ، وما أدراكَ ما الحاقَّةُ) والحاقة الساعة الثابتة التى لا ريب فيها ، وقد ذكر أن ثمود وعادا كذبا بها فأهلكا بما أهلكا به ، وأن فرعون ومن قبله والمؤتفكات (قوم لوط) كذبوا بها فأخذوا أخذة رابية ، وأنه نجَّى من آمن بها من قوم نوح حين طغى الماء ، فحملهم فى الجارية وأغرق من كذب بها ، ليجعلها تذكرة لنا وتعيها آذاننا ، فإذا جاء يومها بأهواله من النفخ فى الصُّور وغيره يعرض الناس على ربهم ، فأما من أوتى كتابه بيمينه فينال ما ذكره من الثواب ، وأما من أوتى كتابه بشماله فينال ما ذكره من العقاب ، ثم أقسم بما يبصرون وما لا يبصرون من خلقه أن ذلك قول رسول كريم لا يشك فى صدقه ، وليس بقول شاعر ولا كاهن يغلب الكذب فيه ، ثم ذكر أنه لو تقوَّله عليه لأخذ بيمينه وقطع رقبته ، ولم يمكن أحدا أن يحجزه عنه ، ثم ذكر أنه تذكرة للمتقين ، وأنه يعلم تكذيبهم له فيعاقبهم به ويجعله حسرة عليهم ، وأنه لحقُّ اليقين (فسبِّحْ باسمِ ربِّكَ العظيمِ) .

سورة المعارج

تاريخ نزولها ووجه تسميتها :

نزلت سورة المَعَارِج بعد سورة الحاقَّة ، وقد نزلت سورة الحاقة بعد الإسراء وقُبَيل الهجرة ، فيكون نزول سورة المعارج فى ذلك التاريخ أيضاً .

وقد سُمِّيت هذه السورة بهذا الاسم لقوله تعالى فى الآية — ٣ — منها (مِنَ اللهِ ذى المَعَارِج) وتبلغ آياتها أربعا وأربعين آية .

الغرض منها وترتيبها :

يقصد من هذه السورة بيان قرب العذاب الذى أنذر به الكافرون ، وبهذا

يكون سياقها في سياق الإنذار المذكور في السُّوَر السابقة ، وهذا هو وجه ذكر هذه السورة بعدها .

بيان قرب العذاب

الآية (١ — ٤٤)

قال الله تعالى (سألَ سائلٌ بعذابٍ واقعٍ) فذكر أنهم يسألون تعجيل عذاب واقع بهم ، توبيخا على سؤالهم ، ثم أمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يصبر على استهزائهم بذلك السؤال ، وذكر أنهم يرون هذا العذاب بعيدا وأنه يراه قريبا ، وأنه يوم تكون السماء كالْمُهْلِ ، إلى غير هذا مما ذكره من أحواله ، ثم ذكر أن الإنسان خلق هَلُوعا ، فلا يقوى على ما أمره به من الصبر إلا قليل منهم ، وهم المصلُّون الذين هم على صلاتهم دائمون ، إلى غير هذا مما ذكره من صفاتهم ، وقد ختمها بقوله (أولئكَ في جناتٍ مكرَمُونَ) ثم وبخ الكافرين على إقبالهم مسرعين نحو النبي صلى الله عليه وسلم يسألونه ذلك السؤال على سبيل الاستهزاء ، كأن كل واحد منهم يطمع أن يدخل جنة نعيم ، ولا يكون جزاؤه ذلك العذاب ، ثم ردعهم عن ذلك الطمع الكاذب ، وذكر أنه خلقهم من نطفة لا حياة فيها ، فهو قادر على بعثهم وعذابهم ، وعلى أن يبدّل خيرا منهم ، ثم أمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يتركهم في لهوهم حتى يأتي ما يوعدون به ، فيخرجوا من أجداثهم سِراعا كأنهم إلى نُصُبٍ يوفضون (خاشعةً أبصارُهمْ ترهقهمْ ذلةٌ ذلكَ اليومُ الّذِى كانُوا يوعَدُونَ) .

سورة نوح

تاريخ نزولها ووجه تسميتها :

نزلت سورة نوح بعد سورة النحل ، وقد نزلت سورة النحل بعد الإسراء وقُبَيل الهجرة ، فيكون نزول سورة نوح فى ذلك التاريخ أيضاً .

وقد سُمِّيت هذه السورة بهذا الاسم لقوله تعالى فى أولها (إنَّا أرسلْنا نوحاً إلى قومهِ أنْ أنذرْ قومَكَ مِنْ قبلِ أنْ يأتيهمْ عذابٌ أليمٌ) وتبلغ آياتها ثمانى وعشرين آية .

الغرض منها وترتيبها :

يقصد من هذه السورة إنذار المشركين بما حصل لقوم نوح حين عصوه ، وبهذا تكون موافقة للسُّوَر المذكورة قبلها فى سياق الإنذار ، وهذا هو وجه المناسبة فى ذكرها بعدها .

قصة نوح

الآيات (١ — ٢٨)

قال الله تعالى (إنَّا أرسلْنا نوحاً إلى قومهِ أنْ أنذرْ قومَكَ مِنْ قبلِ أنْ يأتيهمْ عذابٌ أليمٌ) فذكر أنه أرسل نوحاً إلى قومه لينذرهم قبل أن يعذبهم على كفرهم ، وأنه دعاهم إلى عبادته ليغفر لهم ذنوبهم ، وأنه كان كُلَّما دعاهم أصرُّوا واستكبروا ، وأنه كان يكرر الدعوة ويقيم لهم الأدلة على ألوهيته ، إلى أن يئس منهم ودعا ربه أن يهلكهم ، لأنه إن تركهم يضلوا عباده ولا يلدوا إلا فاجرا كفَّارا (ربِّ اغفرْ لى ولوالدَىَّ ولمنْ دخلَ بيتِىَ مؤمناً وللمؤمنينَ والمؤمناتِ ولا تزد الظالمينَ إلاَّ تباراً).

سورة الجن

تاريخ نزولها ووجه تسميتها :

نزلت سورة الجنّ بعد سورة الأعراف ، وكان نزولها فى رجوع النبى صلى الله عليه وسلم من الطائف ، وكان قد سافر إليها ليدعو أهلها فى السنة العاشرة من البعثة ، فيكون نزول سورة الجن فيما بين الهجرة إلى الحبشة والإسراء

وقد سُمِّيت هذه السورة بهذا الاسم لقوله تعالى فى أولها (قُلْ أُوحِىَ إلىَّ أنَّهُ استمعَ نفرٌ منَ الجنِّ فقالوا إنَّا سمعْنا قرآناً عجباً) وتبلغ آياتها ثمانى وعشرين آية

الغرض منها وترتيبها :

يقصد من هذه السورة ذكر قصة إيمان الجن ، لما فيها من العظة والإنذار للمشركين ، وكذلك كان المقصود من ذكر قصة نوح فى السورة السابقة ، وهذا هو وجه المناسبة فى ذكر هذه السورة بعدها

قصة إيمان بعض الجن

الآيات (١ — ٢٨)

قال الله تعالى (قُلْ أُوحِىَ إلىَّ أنهُ استمعَ نفرٌ من الجنِّ فقالوا إنَّا سمعْنا قرآناً عجباً) فذكر قصة إيمان بعض الجن فى خمس عشرة آية منها ، ثم ذكر أنه لو استقام المشركون على طريقة الإيمان كما استقام من آمن من الجن لأسقاهم ماء غدَقا ، وأن من يكفر به يسلكه عذابا صَعَدًا ، وأن المساجد له فلا يدعوا معه أحدا ، وأن النبى صلى الله عليه وسلم لما قام يدعوه تظاهروا عليه ، وقد أمره أن يخبرهم بأنه إنما يدعو إلى ربه ويقوم بما يجب له عليه ، وهو لا يملك شيئا من كفرهم أو إيمانهم ، وبأنه لن يجيره منه إلا أن يبلغهم ما أرسله به إليهم ، ثم ذكر أن من يعصيه ورسوله

يخلده فى نار جهنم ، فإذا رأوا ما يوعدون منها يعلمون أنهم أضعف ناصرا وأقل عددا ، لا من يتظاهرون عليه من النبى صلى الله عليه وسلم وأتباعه ، ثم أمره أن يخبرهم بأنه لا يدرى متى يكون ما يوعدون به من ذلك ، لأنه من علم الغيب الذى اختص الله بعلمه ، ولا يطلع عليه إلا من يرتضيه من رسله ، فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصَداً (ليعلمَ أنْ قدْ أبلغوا رسالاتِ ربهمْ وأحاطَ بما لديهمْ وأحصى كلّ شيءٍ عدَداً)

سورة المزمل

تاريخ نزولها ووجه تسميتها :

نزلت سورة المزّمل بعد سورة القلم ، وقد كان نزول سورة القلم فيما بين ابتداء الوحى والهجرة إلى الحبشة ، فيكون نزول سورة المزمل فى ذلك التاريخ أيضا

وقد سمّيت هذه السورة بهذا الاسم لقوله تعالى فى أولها (يا أيّها المزّمّل . قُم الليلَ إلاّ قليلاً) وتبلغ آياتها عشرين آية

الغرض منها وترتيبها :

يقصد من هذه السورة تهيئة النبي صلى الله عليه وسلم للدعوة ، وقد اقتضى هذا أمره بالصبر عليهم وإنذاره لهم ، وقد ناسبت بهذا الإنذار سياق السورة السابقة فى إنذارها ، ولهذا ذكرت بعدها

تهيئة النبي للدعوة

الآيات (١ — ٢٠)

قال الله تعالى (يأيّها المزّمّلُ ، قُم الليلَ إلاّ قليلاً) فأمره بقيام الليل وترتيل القرآن ليستعين بهذا على ما سيلقى إليه من القول الثقيل والتكليف الشاقّ ، وينشيء

له نفسا أشد موافقة لدعوته وأقوم قيلا ، ثم أمره أن يداوم على ذكره ويصبر على ما يقولون فى حقه ، وأن يتركه ومن أبطرتهم النعمة منهم ، فإنه سيمهلهم ثم يذيقهم من عذابه أنكالا وجحيما ، وسيهلكهم كما أهلك فرعون حين عصى رسوله فأخذه أخذا وبيلا ، وهذه عظة لهم ليدركوا أنفسهم قبل أن يحيق العذاب بهم ، ثم خفف عليه وعلى أتباعه ما فرضه من قيام معظم الليل ومداومة ترتيل القرآن ، فكلفهم من هذا بما يطيقون ووعدهم عليه عظيم الأجر فقال (وما تقدّموا لأنفسكمْ منْ خيرٍ تجدوهُ عندَ اللهِ هوَ خيراً وأعظمَ أجراً واستغفرُوا اللهَ إنَّ اللهَ غفورٌ رحيمٌ)

سورة المدثر

تاريخ نزولها ووجه تسميتها :

نزلت سورة المُدَّثِّر بعد سورة المُزمِّل ، وكان الوحى قد انقطع بعد بدء نزوله مدة لم يتفق المؤرخين عليها ، وأرجح أقوالهم أنها كانت أربعين يوماً ، وقد نزلت سورة المدثر بعد انقضاء هذه المدة ، فيكون نزولها فيما بين ابتداء الوحى والهجرة إلى الحبشة .

وقد سُمِّيت هذه السورة بهذا الاسم لقوله تعالى فى أولها (يأيُّها المدَّثرُ ، قمْ فأنذر) وتبلغ آياتها ستاً وخمسين آية .

الغرض منها وترتيبها :

يقصد من هذه السورة استنهاض النبى صلى الله عليه وسلم للدعوة ، وقد اقتضى هذا أيضاً إنذار المشركين بما ينتظرهم من العذاب إذا لم يجيبوا ما يدعون إليه ، فكانت فى هذا مثل السورة السابقة ، وهذا هو وجه المناسبة فى ذكرها بعدها .

استنهاض النبي للدعوة

الآيات (١ — ٥٦)

قال الله تعالى (يأيُّها المدَّثرُ ، قمْ فأنذرْ) فأمره أن ينهض للقيام بإنذارهم ويكبره ويطهر ثيابه ويهجر الرجز والمنّ على من يحسن إليه ويصبر لما أمره بتبليغه، ثم أخذ فى إنذارهم فذكر أنه إذا نُقر فى الناقور كان يوم عسير عليهم ، وأمره أن يتركه ومن خلقه وحيداً وجعل له ما لا ممدوداً ، وذكر أنه سيرهقه صعوداً ، لأنه زعم أن ما ينذر به سحر يؤثَر ، وقد فصَّل ما فصل فى وعيده إلى أن قال فيما أوعده به من سَقر (وما هِيَ إلاَّ ذِكرى للبشر) ثم أنكر أن تكون لهم ذكرى فأقسم بالقمر وما ذكر معه أنها لهم إحدى الكبر من دركات جهنم السبع ، وأنها نذير للبشر ، فمن شاء أن يتقدم إلى الخير فليتقدم ، ومن شاء أن يتأخر عنه فليتأخر، فكل نفس مأخوذة بما كسبت إلا أصحاب اليمين ، فهم فى جنات يتساءلون عما سلك المجرمين فى سقر ، فيجيبونهم بأنهم لم يكونوا من المصلين ، إلى غير هذا مما يذكرونه من أفعالهم ، ثم أنكر عليهم أن يعرضوا بعد هذا عن التذكرة كأنهم حُمُرٌ مستنفرة فرَّت من قَسْورة ، وذكر أن كل واحد منهم يريد أن تنزل عليه صحيفة من السماء تأمره باتباع مايدعى إليه ، ثم رد عهم عن هذه الإرادة وذكر أن عدم خوفهم من الآخرة هو السبب فى إعراضهم عن الإيمان به ، وردعهم أيضاً عن هذا الإعراض وذكر أنه تذكرة بليغة كافية ، فمن شاء ذكره بها (وما يذكرونَ إلاَّ أن يشاء الله هو أهلُ التَّقوى وأهلُ المغفرة) .

سورة القيامة

تاريخ نزولها ووجه تسميتها :

نزلت سورة القيامة بعد سبع سُوَر من سورة النجم، وكان نزول سورة النجم فيما بين الهجرة إلى الحبشة والإسراء، فيكون نزول سورة القيامة فى ذلك التاريخ أيضاً .

وقد سمّيت هذه السورة بهذا الاسم لقوله تعالى فى أولها (لا أقسمُ بيوم القيامة) وتبلغ آياتها أربعين آية .

الغرض منها وترتيبها :

يقصد من هذه السورة إثبات البعث وما يكون فيه من حساب وثواب وعقاب، وبهذا يكون سياقها فى الإنذار والترهيب والترغيب أيضاً، ويكون ذكرها مناسبا للسورة المذكورة قبلها .

إثبات البعث

الآيات (١ — ٤٠)

قال الله تعالى (لا أقسمُ بيوم القيامة، ولا أقسمُ بالنفس اللوّامة، أيحسبُ الإنسانُ أنْ لنْ نجمع عظامهُ) فذكر أنه لا يقسم بهذا على بعثهم لأنه أظهر من أن يحتاج إلى قسم، وأنكر ما يستبعدون من جمع العظام بعد تفريقها، ثم ذكر أنه قادر على جمع العظام وتسوية البنان كما كان قبل الموت، وأبطل ما يريدونه من هذا من مضيهم فى فجورهم، ثم ذكر أنهم يسألون مستبعدين أيان يوم القيامة ؟ وأجاب عن هذا بأنه إذا جاءت علامات هذا اليوم يتمنون أن يفرّوا منه ولا مفرّ، وبأنه لا بد من مصيرهم إليه لينبىء كل واحد بما قدّم وأخّر، وتبصر كل نفس عملها فى كتابها فلا تقبل معذرة عنه، ثم ذكر ما يكون من نهي الإنسان عن التعجل فى

قراءة كتابه قبل أن تجمع فيه أعماله ، وأمره أن ينتظر حتى يقرأ عليه ثم يتبعه بالإقرار به ، وذكر أن هذا التعجل ناشيء من حبهم العاجلة ونسيانهم الآخرة ، وأنه بعد عرض الأعمال تكون وجوه أصحاب الحسنات ناضرة ، وتكون وجوه أصحاب السيئات باسرة ، ثم ختم السورة بأنه لابد بعد موتهم من أن يساقوا اليه وليس معهم صدقة ولا صلاة ، ولكن تكذيب وإعراض وكبر ، وذكر أن من هذا شأنه أولى له فأولى، ثم أولى له فأولى، وأنه يحسب أن يترك من غير بعث وحساب وقد كان نطفة ثم علقة فخلقه فسوّاه ، فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى (أليسَ ذلكَ بقادرٍ على أنْ يُحيَ الموتى) .

سورة الانسان

تاريخ نزولها ووجه تسميتها :

نزلت سورة الإنسان بعد سورة الرحمان ، وكان نزول سورة الرحمان فيما بين صلح الحديبية وغزوة تبوك ، فيكون نزول سورة الإنسان فى ذلك التاريخ أيضا

وقد سميت هذه السورة بهذا الاسم لقوله تعالى فى أولها (هلْ أتى على الإنسان حينٌ منَ الدهر لمْ يكنْ شيئاً مذكورا) وتبلغ آياتها إحدى وثلاثين آية

الغرض منها وترتيبها :

يقصد من هذه السورة بيان أثر الشرائع فى رفعة الإنسان ، وقد اقتضى هذا أن يأخذ سياقها فى شيء من الترغيب والترهيب ، فأشبه بهذا سياقها سياق السورة المذكورة قبلها ، ولهذا ذكرت بعدها

أثر الشرائع فى رفعة الإنسان

الآيات (١ — ٣١)

قال الله تعالى (هلْ أتى على الإنسانِ حينٌ منَ الدهر لمْ يكنْ شيئاً مذكوراً) فذكر أن الإنسان لم يكن شيئا مذكورا قبل أن يرفع شأنه بما أنزله من شرائعه ، وأنه خلقه من نطفة مختلطة بالدم وغيره ، ولم يزل ينقله من حال إلى حال حتى جعله سميعا بصيرا ، وأنه هداه السبيل فمنهم من اهتدى به ومنهم من كفر به ، فمن كفر به أعدّ له سَلاسِل وأغلالا وسعيرا ، ومن آمن به يشربون من كأس كان مِزاجها كافورا الخ الخ ، ثم ذكر أنه نزّل القرآن بهذا على النبي صلى الله عليه وسلم ، وأمره أن يصبر لحكمه ، ونهاه أن يطيع منهم آثما أو كفورا ، ثم أمره أن يذكره بكرة وأصيلا ، وأن يسجد له جزءا من أول الليل ويسبح بعد هذا ليلا طويلا ، ثم ذكر له أن من نهاه عن طاعتهم يحبون العاجلة وينسون يوما ثقيلا ، وأنه هو الذى خلقهم وشدّ أسْرهم وإذا شاء بدّل أمثالهم تبديلا ، ثم ذكر أن هذه السورة تذكرة فمن شاء اهتدى بها ، وأنهم لا يشاءون شيئا إلا أن يشاءه إنه كان عليما حكيما (يُدخلُ منْ يشاءُ فى رحمتهِ والظالمينَ أعدَّ لهمْ عذاباً أليماً)

سورة المرسلات

تاريخ نزولها ووجه تسميتها :

نزلت سورة المرسلات بعد سورة الهُمَزَة ، وقد نزلت سورة الهمزة بعد سورة القيامة ، وكان نزول سورة القيامة فيما بين الهجرة إلى الحبشة والإسراء ، فيكون نزول سورة المرسلات فى ذلك التاريخ أيضا .

وقد سُمِّيت هذه السورة بهذا الاسم لقوله تعالى فى أولها (والمرسَلات عرْفاً) وتبلغ آياتها خمسين آية .

الغرض منها وترتيبها :

يقصد من هذه السورة إثبات وقوع ما يوعدون به من العذاب ، وبهذا جاء سياقها فى الانذار والترهيب والترغيب كما جاء سياق السورة السابقة ، ولهذا جاء ذكرها بعدها مناسبا لها .

إثبات وقوع العذاب

الآيات (١ — ٥٠)

قال الله تعالى (والمرسَلات عُرْفاً ، فالعاصفاتِ عصفاً ، والنَّاشرات نشراً ، فالفارقاتِ فرقاً ، فالملقياتِ ذكراً ، عُذْراً أو نُذْراً ، إنَّما توعدونَ لواقعٌ) فأقسم بهذا على وقوع ما يوعدون به من العذاب ، ثم ذكر أنه إذا طمست النجوم وحصل غير هذا مما ذكره فإنه يكون يوم الفصل فى عذابهم ، وويلٌ يومئذ لهم ، ثم ذكر أنه كما أهلك الأولين والآخرين يهلكهم ، وويل يومئذ لهم ، ثم ذكر أنه قد خلقهم من ماء مَهِين ، وجعل الأرض كِفَاتا ، إلى غير هذا مما يدل على قدرته على عذابهم ، ثم انتقل إلى الترغيب بعد الترهيب فذكر أن المتقين فى ظلال وعيون ، إلى غير هذا مما ذكره فى ترغيبهم ، ثم عاد إلى ترهيب المكذبين فأمرهم على سبيل التهديد أن يأكلوا ويتمتعوا إنهم مجرمون ، وذكر أنهم إذا قيل لهم اركعوا لا يركعون (ويلٌ يومئذٍ للمكذّبينَ ، فبأيِّ حديثٍ بعدهُ يؤمنونَ)

سورة النبأ

تاريخ نزولها ووجه تسميتها :

نزلت سورة النَّبأ بعد سورة المعَارِج ، وقد نزلت سورة المعارج بعد الإسراء وقُبَيل الهجرة ، فيكون نزول سورة النبأ فى ذلك التاريخ أيضاً .

وقد سُمِّيت هذه السورة بهذا الاسم لقوله تعالى فى أولها (عَمَّ يتساءلونَ عنِ النَّبأ العظيم) وتبلغ آياتها أربعين آية .

الغرض منها وترتيبها :

يقصد من هذه السورة إثبات البعث ، وقد اقتضى هذا تهديدهم على إنكارهم له ، وترغيبهم فى الإيمان به ، فكان سياقها فى هذا مشابها لسياق سورة المرسلات ، وهذا هو وجه ذكرها بعدها .

إثبات البعث

الآيات (١ — ٤٠)

قال الله تعالى (عَمَّ يتساءلونَ عَنِ النَّبأ العظيم) فذكر أنهم يتساءلون عما أخبرهم به من البعث ، ويختلفون فيه بين منكر ومستبعد وشاكٍّ ، وهددهم بأنهم سيعلمون صدق هذا النبأ ، واستدل على قدرته عليه بأنه هو الذى جعل الأرض مهادا ، إلى غير هذا مما يدل على كمال قدرته ، ثم ذكر أن له وقتا معلوما ، وأن له علامات كالنفخ فى الصُّور ونحوه ، وأن جهنم تكون فيه مرصادا للطاغين فيلاقون فيها ما فصَّله من العذاب ، وأن للمتقين مَفَازا من حدائق وأعناب وغيرها ، ثم ذكر أنه لا يملك أحد أن يخاطبه فى ذلك اليوم ، وأنه يقوم فيه الروح والملائكة صفاً لا يتكلمون إلا بإذنه ، ولا يشهدون إلا بالحق على عباده ، فمن شاء أن يتخذ إليه مآبا حسنا كان خيرا له ، ثم ختم السورة ببيان قرب ما أنذرهم به فقال (إنَّا أنذرناكُمْ عذاباً قريباً يومَ ينظرُ المرءُ ما قدَّمتْ يداهُ ويقولُ الكافرُ ياليتنى كنتُ تراباً)

سورة النازعات

تاريخ نزولها ووجه تسميتها :

نزلت سورة النازعات بعد سورة النبأ ، وقد نزلت سورة النبأ بعد الإسراء وقبيل الهجرة ، فيكون نزول سورة النازعات فى ذلك التاريخ أيضا .

وقد سمِّيت هذه السورة بهذا الاسم لقوله تعالى فى أولها (والنازعاتِ غرْقاً) وتبلغ آياتها ستاً وأربعين آية .

الغرض منها وترتيبها :

يقصد من هذه السورة إثبات البعث أيضاً ، فهى توافق سورة النبأ فى الغرض المقصود منها ، وهذا هو وجه المناسبة فى ذكرها بعدها .

إثبات البعث

الآيات (١ — ٤٦)

قال الله تعالى (والنازعاتِ غرْقاً ، والناشطاتِ نشطاً ، والسابحات سبْحاً ، فالسابقاتِ سبقاً ، فالمدبِّرات أمراً ، يوم ترجفُ الراجفةُ ، تتبعها الرادفةُ ، قلوبٌ يومئذٍ واجفةٌ) فأقسم بما ذكره على أنهم سيبعثون ، وذكر أنه يوم ترجف الراجفة بعد بعثهم تجفُ قلوبهم وتخشع أبصارهم ، ثم ذكر استبعادهم لبعثهم وقولهم على سبيل الاستهزاء إنه لو صح لكانت كرَّتهم خاسرة ، وأجاب بأن أمره لا يقتضى إلا زجرة واحدة فإذا هم بالساهرة (القيامة) ثم ذكر أن فرعون كذب بهذا قبلهم وكان أشدَّ منهم، فأخذه بنكال الآخرة والأولى ثم ذكر أنهم ليسوا أشدَّ خلقا من السماء وغيرها من خلقه حتى يعجز عن إعادتهم ، وأنه إذا جاء يوم القيامة يتذكر كل إنسان ما عمله ، وتكون الجحيم مأوى الطاغين ، وتكون الجنة مأوى المتقين ، ثم ذكر أنهم يسألون عن الساعة أيان مُرساها استهزاء بها ، وأجاب بأنه لا يعلمها إلا هو ، وإنما ينذر النبي صلى الله عليه وسلم بها من يخشاها (كأنهمْ يومَ يروْنها لم يلبثوا إلا عشيَّة أو ضُحاها) .

سورة عبس

تاريخ نزولها ووجه تسميتها :

نزلت سورة عبَسَ بعد سورة النجم ، وقد نزلت سورة النجم فيما بين الهجرة إلى الحبشة والإسراء ، فيكون نزول سورة عبس فى ذلك التاريخ أيضاً .

وقد سمِّيت هذه السورة بهذا الاسم لقوله تعالى فى أولها (عَبَسَ وتولَّى ، أنْ جاءهُ الأعمى) وتبلغ آياتها ثنتين وأربعين آية .

الغرض منها وترتيبها :

يقصد من هذه السورة التسوية بين الناس فى الدعوة ، وكان عبد الله بن أم مكتوم أتى النبي صلى الله عليه وسلم وعنده صناديد قريش يدعوهم إلى الإسلام ، فطلب منه أن يقرئه ويعلمه مما علمه الله ، فعبس وأعرض عنه لقطعه كلامه ، فنزلت هذه السورة عتاباً له ، وقد انتقل فيها من عتابه إلى سياق الترهيب والترغيب ، فوافقت فى هذا سياق سورة النازعات ، وهذا هو وجه المناسبة فى ذكرها بعدها .

التسوية بين الناس فى الدعوة

الآيات (١ — ٤٢)

قال الله تعالى (عبَسَ وتولىّ ، أنْ جاءهُ الأعمى) فذكر أنه عبس له ولعله ينتفع بما يعظه به ، وأنه تصدّى لمن استغنى فأبطره غناه وأطغاه ، وليس عليه شيء من أمره ، وأعرض عمن سعى إليه وهو يخشى ربه ، ثم زجره عن العود إليه لأنه ليس عليه إلا أن يبلِّغ ويُذكِّر ، فمن شاء أن يتذكر ذكرهُ فى صحف مكرَّمة ، ومن لم يشأ ذلك فلا قيمة له وإن بلغ فى الغنى ما بلغ ، ثم عجَّب ممن كفر من أولئك الصناديد واغتر بغناه ، وهو لا يدرى أنه خلقه من نطفة قذرة فقدَّره ويسَّر له

الخروج من الرحم ، ثم أماته فأقبره وصيره إلى جيفة مذرة ، ثم إذا شاء أنشره وحاسبه على طغيانه وتكبره ، فما أحقه أن يرتدع عن ذلك وهو لمَّا يقض شيئاً مما أمره ، ثم أمر الواحد منهم أن ينظر إلى طعامه الذى أبطره ، فإنه لم يحصل إلا بعد أن صبَّ الله المطر وشق الأرض فأنبت فيها حبا وعنبا وغيرهما مما هو متاع لهم ولأنعامهم، فإذا جاءت الصَّاخة (القيامة) يوم يفر المرء عن أهله الذين كان يعتز بهم فى دنياه حوسبوا على ما مُتِّعوا به ، فوجوه يومئذ مسفرة ضاحكة مستبشرة ، ووجوه يومئذ عليها غبرة ترهقها قترة (أولئكَ همُ الكفرةُ الفجرةُ) .

سورة التكوير

تاريخ نزولها ووجه تسميتها :

نزلت سورة التَّكوير بعد سورة المسد ، وقد نزلت سورة المسد بعد سورة الفاتحة ، ونزلت سورة الفاتحة فيما بين ابتداء الوحى والهجرة إلى الحبشة ، فيكون نزول التكوير فى ذلك التاريخ أيضاً .

وقد سمِّيت هذه السورة بهذا الاسم لقوله تعالى فى أولها (إذا الشمسُ كوِّرتْ) وتبلغ آياتها تسعا وعشرين آية .

الغرض منها وترتيبها :

يقصد من هذه السورة إثبات الحساب على الأعمال ، وما يتبع هذا من ثواب وعقاب ، وبهذا يكون سياقها أيضا فى الترهيب والترغيب ، ويكون ذكرها بعد السورة السابقة لموافقتها لها فى هذا السياق .

إثبات الحساب على الأعمال

الآيات (١ — ٢٩)

قال الله تعالى (إذا الشمسُ كُوِّرتْ) الآيات إلى قوله (علمتْ نفسٌ ما أحضرتْ) فذكر أنه إذا حصل تكوير الشمس وما ذكره بعده مما يكون يوم القيامة تعلم كل نفس ما أحضرت من خير أو شر، فتحاسب عليه وهو حاضر أمامها، ثم أقسم بالنجوم الخنَّس وما ذكر معها على أن أمر هذا الحساب قول رسول كريم (جبريل) وذكر أن صاحبهم محمدا صلى الله عليه وسلم ليس بمجنون، وأنه رأى جبريل بالأفق المبين، وأنه غير متهم فيما أخبرهم به من ذلك الحساب، وأن ما أخبرهم به منه ليس بقول شيطان رجيم، فأين يذهبون مع هذا كله عنه؟ ثم ذكر أن هذا ليس إلا تذكرة وهداية لمن شاء منهم أن يستقيم (وما تشاءونَ إلاَّ أنْ يشاءَ اللهُ ربُّ العالمينَ)

سورة الانفطار

تاريخ نزولها ووجه تسميتها :

نزلت سورة الانفطار بعد سورة النازعات، وقد نزلت سورة النازعات بعد الإسراء وقُبَيل الهجرة، فيكون نزول سورة الانفطار فى ذلك التاريخ أيضا

وقد سُمِّيت هذه السورة بهذا الاسم لقوله تعالى فى أولها (إذا السماءُ انفطرتْ) وتبلغ آياتها تسع عشرة آية.

الغرض منها وترتيبها :

يقصد من هذه السورة إثبات الحساب على الأعمال، وما يتبع هذا من ثواب وعقاب، فيكون الغرض المقصود منها هو الغرض المقصود من سورة التكوير، وهذا هو وجه المناسبة بين السورتين.

إثبات الحساب على الأعمال

الآيات (١ — ١٩)

قال الله تعالى (إذا السماءُ انفطرتْ) الآيات إلى قوله (علمتْ نفسٌ ماقدَّمتْ وأخَّرتْ) فذكر أنه إذا حصل انفطار السماء وما ذكر بعده تعلم كل نفس ماقدمت وأخرت من أعمالها ، فتثاب أو تعاقب عليه ، ثم نادى الإنسان ما غرَّه بكرمه وجرَّأه على معصيته ، وهو الذى خلقه فسوَّاه فعدله فركَّبه فى أحسن صورة ، ثم زجره عن غروره وذكر أنه يكذب بالحساب مع أن عليه حافظين يكتبون ما يعمله ، وأنه سيجازى الأبرار بالنعيم ، والفُجَّار بالجحيم ، ثم سأل عن يوم الحساب سؤال تهويل ما أدراه ما هو ؟ وأجاب عنه فقال (يومَ لا تملكُ نفسٌ لنفسٍ شيئاً والأمرُ يومئذٍ لِلهِ)

سورة المطففين

تاريخ نزولها ووجه تسميتها :

نزلت سورة المطفّفين بعد سورة العنكبوت ، وهى آخر سورة نزلت بمكة ، فيكون نزولها بعد الإسراء وقُبَيل الهجرة .

وقد سميت هذه السورة بهذا الاسم لقوله تعالى فى أولها (وَيْلٌ للمطفّفين) وتبلغ آياتها ستا وثلاثين آية

الغرض منها وترتيبها :

يقصد من هذه السورة تحريم التطفيف فى المكيال والميزان ، وإنذار من يفعل ذلك بأنه مبعوث لحساب لا تساهل فيه بتطفيف أو نحوه ، وبهذا سار سياقها فى الترهيب كما سارت السورة قبلها ، وهذا هو وجه ذكرها بعدها .

تحريم التطفيف

الآيات (١ — ٣٦)

قال الله تعالى (ويلٌ للمطفِّفين) فأنذر المطففين بالويل ، وذكر أنهم الذين يستوفون إذا اكتالوا على الناس ، وإذا كالوهم أو وزنوهم ينقصون ، والتطفيف البخس فى المكيال والميزان بالشىء القليل على سبيل الخفية ، ثم أنذرهم بأنهم مبعوثون ليوم عظيم ، وبأن كتاب أعمالهم فى سجّين وهى الأرض السفلى ، فإذا أتى هذا اليوم فويل لهم على تكذيبهم به الخ الخ ، ثم انتقل من هذا الترهيب إلى الترغيب فذكر أن كتاب الأبرار فى عِلّيين وهى السماء السابعة ، وذكر ما ذكر مما أعده لهم ، ثم ذكر أن أولئك المجرمين كانوا يضحكون من هؤلاء الأبرار فى الدنيا ، وأن هؤلاء الأبرار يضحكون منهم فى الآخرة وهم على الأرائك ينظرون (هَلْ ثُوِّبَ الكفارُ ما كانُوا يفعلونَ)

سورة الانشقاق

تاريخ نزولها ووجه تسميتها :

نزلت سورة الانشقاق بعد سورة الانفطار ، وقد نزلت سورة الانفطار بعد الإسراء وقبيل الهجرة ، فيكون نزول سورة الانشقاق فى ذلك التاريخ أيضا

وقد سُمّيت هذه السورة بهذا الاسم لقوله تعالى فى أولها (إذا السماءُ انشقّتْ) وتبلغ آياتها خمسا وعشرين آية .

الغرض منها وترتيبها :

يقصد من هذه السورة إثبات المعاد وما يكون فيه من حساب وثواب وعقاب ، فهى أيضا فى سياق الإنذار والترهيب والترغيب كسورة المطفّفين ، وهذا هو وجه المناسبة فى ذكرها بعدها .

إثبات المعاد

الآيات (١ — ٢٥)

قال الله تعالى (إذا السماء انشقَّتْ) الآيات إلى قوله (يأيُّها الإنسانُ إنكَ كادحٌ إلى ربِّك كَدْحاً فملاقيهِ) فذكر أنه إذا حصل انشقاق السماء وما ذكر بعده يرى كل إنسان ما عمل ، وأنه كادح لذلك اليوم حتى يلاقيه ، ثم فَصَّل ما يكون فيه من أخذ بعضهم كتابه بيمينه ومحاسبته حسابا يسيرا ، ومن أخذ بعضهم كتابه وراء ظهره الخ الخ ، ثم أقسم بالشفق وما ذكر معه على أنهم سيركبون فى الشدة طبقا بعد طبق ، ووبخهم على عدم إيمانهم مع هذه النُّذر ، وذكر أنهم يكذبون مع قيام هذه الدلائل ، وهو أعلم بما يوعون فى صدورهم ، ثم أمر بتبشيرهم بعذاب أليم (إلاَّ الذين آمنُوا وعملُوا الصالحاتِ لهمْ أجرٌ غيرُ ممنونٍ) .

سورة البروج

تاريخ نزولها ووجه تسميتها :

نزلت سورة البروج بعد سورة الشمس ، وقد نزلت سورة الشمس بعد سورة القَدْر ، ونزلت سورة القدر بعد سورة عَبَسَ ، وكان نزول سورة عبس فيما بين الهجرة إلى الحبشة والإسراء ، فيكون نزول سورة البروج فى ذلك التاريخ أيضاً .

وقد سميت هذه السورة بهذا الاسم لقوله تعالى فى أولها (والسماءِ ذاتِ البروج) وتبلغ آياتها ثنتين وعشرين آية

الغرض منها وترتيبها :

يقصد من هذه السورة تثبيت المؤمنين وتصبيرهم على تعذيب أهل مكة لهم ،

وتذكيرهم بما جرى من التعذيب لمن آمن قبلهم ، وقد اقتضى هذا إنذار من يعذبهم ، فسارت به هذه السورة فى سياق الإنذار كالسورة التى قبلها ، وهذا هو وجه المناسبة فى ذكرها بعدها

تثبيت المؤمنين على إيذاء المشركين

الآيات (١ — ٢٢)

قال الله تعالى (والسماءِ ذاتِ البروج ، واليومِ الموعودِ وشاهدٍ ومشهودٍ ، قُتِلَ أصحابُ الأخدُودِ) فأقسم بهذا على قتل أصحاب الأخدود من الأولين ، وهم الذين حفروا أخاديد ووضعوا فيها نارا وألقوا فيها من آمن منهم ، ثم ذكر أن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات من كفار قريش كما فتن هؤلاء من آمن منهم لهم عذاب جهنم ، وأن المؤمنين لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ، ثم ذكر أن بطشه شديد ، إلى غير هذا مما ذكره من صفات نقمته ورحمته بعد ما ذكر من عقابه وثوابه ، ثم ذكَّر النبى صلى الله عليه وسلم بما فعله بفرعون وثمود ، وذكر أن هؤلاء المشركين مع هذا مستمرون فى تكذيبهم ، وهددهم بأنه محيط بهم ، وذكر أن ما أنذرهم به من ذلك إنما هو قرآن مجيد (فى لوح محفوظٍ)

سورة الطارق

تاريخ نزولها ووجه تسميتها :

نزلت سورة الطارق بعد سورة البَلد ، وقد نزلت سورة البلد بعد سورة ق ، وكان نزول سورة ق فيما بين الهجرة إلى الحبشة والإسراء ، فيكون نزول سورة الطارق فى ذلك التاريخ أيضا

وقد سُمّيت هذه السورة بهذا الاسم لقوله تعالى فى أولها (والسماءِ والطارقِ) وتبلغ آياتها سبع عشرة آية

الغرض منها وترتيبها :

يقصد من هذه السورة إثبات حفظ الأعمال على كل نفس ، وما يتبع هذا من حساب وعقاب ، وبهذا توافق السورة السابقة فى أنها فى سياق الإنذار أيضا ، وقد ذكرت بعدها لهذه المناسبة

إثبات حفظ الأعمال

الآيات (١ — ١٧)

قال الله تعالى (والسماءِ والطارقِ ، وما أدراكَ ما الطارقُ ، النجمُ الثاقب ، إنْ كلُّ نفسٍ لمَّا عليها حافظٌ) فأقسم بهذا على أن كل نفس عليها حافظ من الملائكة يحفظ أعمالها ، ثم أمر الإنسان أن ينظر فى بدء خلقه ليعرف أنه خلق من ماء دافق يخرج من بين الصُّلب والترَّائب ، يعنى صلب الرجل وترائب المرأة ، وهى عظام الصدر والنحر ، وليعرف أيضاً أنه قادر على رجعه ليحاسبه على أعماله ، ثم أقسم بالسماء ذات الرَّجْع أى المطر ، والأرض ذات الصَّدْع أى الانشقاق عن النبات ، أن ما أنذر به من هذا لقول فصل لا هزل فيه ، ثم ذكر أنهم يكيدون لدينه وأنه يكيد لهم كيدا (فمَهِّل الكافرينَ أمهلهمْ رُوَيْداً) .

سورة الأعلى

تاريخ نزولها ووجه تسميتها :

نزلت سورة الأعلى بعد سورة التكوير ، وكان نزول سورة التكوير فيما بين ابتداء الوحي والهجرة إلى الحبشة ، فيكون نزول سورة الأعلى فى ذلك التاريخ أيضا .

وقد سُمّيت هذه السورة بهذا الاسم لقوله تعالى فى أولها (سَبِّح اسمَ ربك الأعلى) وتبلغ آياتها تسع عشرة آية

الغرض منها وترتيبها :

نزلت هذه السورة فى أوائل ما نزل من السُّوَر بمكة ، ويقصد منها بيان منهاج الدعوة ، ليرغّب الناس فى الإيمان بها ويحذرهم من مخالفتها ، فسلكت بهذا مسلك الإنذار والترغيب والترهيب كما سلكته السورة السابقة ، وهذا هو وجه المناسبة فى ذكرها بعدها .

منهاج الدعوة

الآيات (١ — ١٩)

قال الله تعالى (سَبِّح اسمَ ربِّك الأعلى) فأجمل منهاج الدعوة فى ثلاثة أمور : تنزيهه عما لا يليق به من الشرك ونحوه ، وإنزال القرآن ليكون أصلا لتلك الدعوة ، والهداية للشريعة اليُسْرَى الصالحة لجميع الناس . ثم أمر النبى صلى الله عليه وسلم أن يعظ بهذا من تنفعه العظة ، وذكر أنه سيتعظ بها من يخشاه ، ويتجنبها الأشقى الذى يصلى النار الكبرى ، ثم ذكر أن من يعرض عنها يؤثر الحياة الدنيا عليها مع أن الآخرة خير وأبقى ، وأن ما ذكره من هذا موجود فى الصحف الأولى (صحفِ إبراهيمَ وموسى)

سورة الغاشية

تاريخ نزولها ووجه تسميتها :

نزلت سورة الغاشية بعد سورة الذاريات ، وقد نزلت سورة الذاريات بعد الإسراء وقبيل الهجرة ، فيكون نزول سورة الغاشية فى ذلك التاريخ أيضا .

وقد سميت هذه السورة بهذا الاسم لقوله تعالى فى أولها (هل أتاكَ حديث الغاشية) وتبلغ آياتها ستا وعشرين آية .

الغرض منها وترتيبها :

يقصد من هذه السورة تفصيل الثواب والعقاب فى يوم القيامة ، وهذا هو سياق الإنذار والترهيب والترغيب ، وبهذا تشبه هذه السورة سورة الأعلى فى سياقها ، وتكون هناك مناسبة فى ذكرها بعدها .

تفصيل الثواب والعقاب

الآيات (١ — ٢٦)

قال الله تعالى (هَلْ أتاكَ حديثُ الغاشيةِ ، وجوهٌ يومئذٍ خاشعةٌ) فسأل سؤال تهويل عما يكون فى يوم القيامة ، وأجاب عنه بأنه يكون فيها وجوه خاشعة عاملة ناصبة تصلى ناراً حامية الخ الخ ، ووجوه ناعمة ، لسعيها راضية ، فى جنة عالية الخ الخ ، ثم أمرهم أن ينظروا كيف خلق الإبل ورفع السماء إلى غير هذا مما ذكره ليستدل به على قدرته على بعثهم ، ليلقوا ما ذكره من عقابهم وثوابهم ، ثم أمر النبى صلى الله عليه وسلم أن يقتصر على تذكيرهم بهذا ، ولا يهمه أن يؤمنوا أو يكفروا لأنه ليس بمُسيطر عليهم ، ولكن من كفر منهم فيعذبه العذاب الأكبر (إنَّ إلينا إيابَهم ، ثمَّ إنَّ علينا حسابَهم) .

سورة الفجر

تاريخ نزولها ووجه تسميتها :

نزلت سورة الفجر بعد سورة الليل ، وقد نزلت سورة الليل بعد سورة الأعلى ، ونزلت سورة الأعلى فيما بين ابتداء الوحى والهجرة إلى الحبشة ، فيكون نزول سورة الفجر فى ذلك التاريخ أيضا .

وقد سُمِّيت هذه السورة بهذا الاسم لقوله تعالى فى أولها (والفجرِ وليالٍ عشرٍ) وتبلغ آياتها ثلاثين آية

الغرض منها وترتيبها :

يقصد من هذه السورة إثبات عذاب الكافرين ، وقد جاء أكثرها فى إنذارهم وتهديدهم ، إلى أن ختمت بشىء من الترغيب لتجمعهما معا ، وبهذا يشبه سياقها سياق سورة الغاشية ، ويكون ذكرها بعدها مناسبا لها

إثبات العذاب
الآيات (١ — ٣٠)

قال الله تعالى (والفجرِ وليالٍ عشرٍ) الآيات إلى قوله (ألمْ ترَ كيفَ فعلَ ربُّكَ بعادٍ) فأقسم بالفجر وما ذكر بعده على أنهم سيعذبون ، وانتقل من إثباته بالقسم إلى إثباته بما حصل لأسلافهم من عاد وثمود وفرعون ، ثم ذكر أنه لهم بالمرصاد ، فلا يريد منهم إلا السعى للمصلحة العامة فى الدنيا والآخرى ، وأماهم فلا يريد الواحد منهم إلا مصلحته الخاصة ، فإذا أكرمه ونعَّمه رضى وإذا قتّر عليه سخط ، ثم يبالغ فى الحرص إلى حد أنه لا يكرم اليتيم ، ولا يحضّ على طعام المسكين ، ويجمع المال من حيث يتهيأ له من حلال أو حرام ، وسيعرف عاقبة ذلك إذا جاء يوم القيامة ، فيومئذ يندم على ما فعل ، ويرى عذابا لا يعذّبه أحد ، ووثاقا لا يوثَقه أحد ، أما النفس المطمئنة فيقال لها (ارجعى إلى ربّكِ راضيةً مرضيّة ، فادخلى فى عبادِى ، وادخلى جنّتى)

سورة البلد

تاريخ نزولها ووجه تسميتها :

نزلت سورة البَلد بعد سورة ق ، وقد نزلت سورة ق فيما بين الهجرة إلى الحبشة والإسراء ، فيكون نزول سورة البلد فى ذلك التاريخ أيضاً .

وقد سُميت هذه السورة بهذا الاسم لقوله تعالى فى أولها (لا أقسمُ بهذا البلد) وتبلغ آياتها عشرين آية .

الغرض منها وترتيبها :

يقصد من هذه السورة ذم الحرص على الدنيا ، وإنذار من يحرص عليها بأنه من أصحاب المشأمة ، وتبشير من لا يحرص عليها بأنه من أصحاب الميمنة ، وهذا هو وجه ذكرها بعد السورة السابقة ، لأنها تأخذ فى سياقها ، وتلك فى الترغيب والترهيب مسلكها .

ذم الحرص على الدنيا

الآيات (١ — ٢٠)

قال الله تعالى (لا أقسمُ بهذا البلدِ ، وأنتَ حِلٌّ بهذا البلدِ ، ووالدٍ وما ولدَ ، لقد خلقنَا الإنسانَ فى كبَدٍ) فأقسم بمكة وما ذكر بعدها على أن الإنسان خلق فى تعب وشدة ، وأنكر عليه أن يغتر بقوته وهذه حاله فى الدنيا ، وأن يستكثر ما ينفقه من القليل فيها ، كأنه يحسب أنه لا يرى ما ينفقه ، ثم ذكر أنه أنعم عليه بنعمة البصر والكلام والعقل ليتبصر بها ، ويقتحم عقبة الحرص على الدنيا ببذل المال فى فكّ رقبة ، أو إطعام فى مجاعة ، ويجمع إلى هذا أن يكون من الذين آمنوا وتواصَوْا بالصبر والمرحمة ، وأولئك أصحاب الميمنة ، والذين كفروا هم أصحاب المشأمة (عليهم نارٌ مؤصدَةٌ) .

سورة الشمس

تاريخ نزولها ووجه تسميتها :

نزلت سورة الشمس بعد سورة القَدْر ، وقد نزلت سورة القدر بعد سورة عبَس ، ونزلت سورة عبس فيما بين الهجرة إلى الحبشة والإسراء ، فيكون نزول سورة الشمس فى ذلك التاريخ أيضاً .

وقد سُمِّيت هذه السورة بهذا الاسم لقوله تعالى فى أولها (والشمسِ وضحاها) وتبلغ آياتها خمس عشرة آية .

الغرض منها وترتيبها :

يقصد من هذه السورة الترغيب فى الطاعات والتحذير من المعاصى ، فهى فى سياق الترغيب والترهيب كسورة البلد ، وهذا هو وجه المناسبة فى ذكرها بعدها

الترغيب فى الطاعات والتحذير من المعاصى

الآيات (١ — ١٥)

قال الله تعالى (والشمسِ وضحاها) الآيات إلى قوله (قد أفلحَ مَنْ زكّاها ، وقدْ خابَ مَنْ دسّاها) فأقسم بالشمس وما ذكر بعدها على فلاح من زكّى نفسه بالطاعات ، وخيبة من دسّاها بالمعاصى ، ثم أثبت هذا بعد القسم بما حصل لثمود بمعصيتها حين أمرهم صالح أن يتركوا ناقة الله وشربها ، فكذبوه فى رسالته وذبحوا هذه الناقة ، فدمدم عليهم ربهم أى أطبق عليهم عذابه فسوّاها (ولا يخافُ عُقباها) .

سورة الليل

تاريخ نزولها ووجه تسميتها :

نزلت سورة الليل بعد سورة الأعلى ، وقد نزلت سورة الأعلى فيما بين ابتداء الوحى والهجرة إلى الحبشة ، فيكون نزول سورة الليل فى ذلك التاريخ أيضاً .

وقد سُميت هذه السورة بهذا الاسم لقوله تعالى فى أولها (والليلِ إذا يغشى) وتبلغ آياتها إحدى وعشرين آية .

الغرض منها وترتيبها :

يقصد من هذه السورة الترغيب فى بذل المال فى سبيل الله ، والتحذير من البخل ، فهى فى سياق السورة السابقة أيضا ، وهذا هو وجه المناسبة فى ذكرها بعدها .

الترغيب فى البذل والتحذير من البخل

الآيات (١ — ٢١)

قال الله تعالى (والليلِ إذا يغشى ، والنهارِ إذا تجلىَّ ، وماخلقَ الذكرَ والأنثى ، إنَّ سعيكم لشتَّى) فأقسم بالليل وما ذكر بعد على أن سعيهم مختلف فى الجزاء ، فأما من بذل من ماله فى سبيل الله مع التقوى والتصديق بما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم ، فسيكون جزاؤه الجنة . وأما من بخل ولم يتق ولم يصدق بذلك فجزاؤه النار ، ولا يغنى عنه ماله شيئاً ، ثم ذكر أنه قد قضى بذلك حقهم فى الإرشاد ، وأن له ملك الدارين فلا يضره تركهم الاهتداء ، ثم أنذرهم النار التى لا يصلاها إلا غير المهتدى ، وسيجنبها من اهتدى فبذل ماله ليطهر نفسه ، ولا يبتغى بذلك إلا وجه ربه الأعلى (ولسوفَ يرضىَ)

سورة الضحى

تاريخ نزولها ووجه تسميتها :

نزلت سورة الضُّحى بعد سورة الفجر ، وقد نزلت سورة الفجر فيما بين ابتداء الوحي والهجرة إلى الحبشة ، فيكون نزول سورة الضحى في ذلك التاريخ أيضاً .

وقد سُميت هذه السورة بهذا الاسم لقوله تعالى في أولها (والضُّحى ، والليل إذا سَجى) وتبلغ آياتها إحدى عشرة آية .

الغرض منها وترتيبها :

يقصد من هذه السورة تثبيت النبي صلى الله عليه وسلم وإيناسه ، وكان الوحي قد أبطأ عنه بعد نزوله فقلق لإبطائه وحزن ، وقد ذكر في تثبيته أنه كان يتيماً فآواه ، وفقيراً فأغناه ، ثم أمره بمواساة اليتيم والفقير ، وبهذا أشبهت سورة الضحى سورة الليل في بعض سياقها ، وهذا القدر يكفي في مناسبة ذكرها بعدها .

تثبيت النبي صلى الله عليه وسلم

قال الله تعالى (والضُّحى ، والليلِ إذا سجَى ، ما ودَّعك ربُّك وما قَلى) فأقسم بالضحى وما بعده أنه لم يودعه ، لم يَقله بإبطاء الوحي عنه ، وضمن له حسن العاقبة ، وأنه سيعطيه حتى يرضى ، ثم أمره أن يذكر ماضيه في يتمه وأُمِّيَّته وفقره ، ويذكر حاله الآن في زوج صالحة بعد يتم ، ورسالة كريمة بعد أُمِّيَّة ، وغنى بعد فقر ، ليرضى ويقابل ذلك بالشكر ، ثم بين له شكره بقوله (فأمَّا اليتيمَ فلا تقهر ، وأمَّا السائلَ فلا تنهرْ ، وأمَّا بنعمة ربِّك فحدِّث) .

سورة الشرح

تاريخ نزولها ووجه تسميتها :

نزلت سورة الشَّرْح بعد سورة الضُّحى ، وقد نزلت سورة الضحى فيما بين ابتداء الوحى والهجرة إلى الحبشة ، فيكون نزول سورة الشرح فى ذلك التاريخ أيضا

وقد سُمِّيت هذه السورة بهذا الاسم لقوله تعالى فى أولها (أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صدركَ) وتبلغ آياتها ثمانى آيات .

الغرض منها وترتيبها :

يقصد من هذه السورة تثبيت النبي صلى الله عليه وسلم وإيناسه أيضا ، فهى توافق سورة الضحى فى الغرض المقصود منها ، ولهذا ذكرت بعدها ، ويروى عن طاوس وعمر بن عبد العزيز أنهما كانا يريان أن السورتين سورة واحدة

تثبيت النبي صلى الله عليه وسلم
الآيات (١ — ٨)

قال الله تعالى (أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدرَكَ) فذكر أنه شرح له صدره بالرسالة، وأنه وضع عنه بها ما كان يثقله قبل البعثة من الحيرة فى أمر الناس وضلالهم ، وأنه رفع بها ذكره على من سبقه من الرسل ، ثم ذكر له أن مع العسر الذى يجده من إعراض قومه يُسْراً ، ثم أمره بما يجعله يصبر على أذاهم فقال (فإذا فرغتَ فانصبْ ، وإلى ربِّكَ فارغبْ)

سورة التين

تاريخ نزولها ووجه تسميتها :

نزلت سورة التين بعد سورة البروج ، وقد نزلت سورة البروج فيما بين الهجرة إلى الحبشة والإسراء ، فيكون نزول سورة التين فى ذلك التاريخ أيضا

وقد سُمِّيت هذه السورة بهذا الاسم لقوله تعالى فى أولها (والتِّينِ والزيتون) وتبلغ آياتها ثمانى آيات

الغرض منها وترتيبها :

يقصد من هذه السورة إثبات أن الإسلام دين الفطرة ، وتوبيخ من يكذب به وينحرف عنه ، وبهذا ناسبت هذه السورة سورة الشرح ، لأنها كانت فى تثبيت النبى صلى الله عليه وسلم على تكذيب قومه له وانحرافهم عن دينه

الإسلام دين الفطرة

الآيات (١ — ٨)

قال الله تعالى (والتِّينِ والزَّيتون ، وطورِ سِينِينَ ، وهذا البلدِ الأمينِ ، لقدْ خلقْنا الإنسان فى أحسنِ تقويمٍ) فأقسم بهذا على أنه خلق الإنسان فى أول أمره فى أكمل عقل ودين وعلم ، وذكر أنه انحرف عن هذا فرده أسفل سافلين ، إلا من استقام فى دينه فلهم أجر غير ممنون ، ثم وبخه على انحرافه وهدده بقوله (فما يكذِّبكَ بعدُ بالدِّينِ ، أليس اللهُ بأحكمِ الحاكمينَ)

سورة العلق

تاريخ نزولها ووجه تسميتها :

سورة العلق أول ما نزل من القرآن عند جمهور المفسرين ، وذهب آخرون إلى أن الفاتحة هى أول ما نزل منه ، ثم سورة العلق

وقد سُمِّيت هذه السورة بهذا الاسم لقوله تعالى فى أولها (إقرأ باسم ربِّك الذِى خلقَ ، خلقَ الإنسانَ من علقٍ) وتبلغ آياتها تسع عشرة آية

الغرض منها وترتيبها :

يقصد من هذه السورة إعلان النبي صلى الله عليه وسلم بالدعوة ، ليقوم بتبليغها لمن أرسل إليهم ، وهى دعوة الدين الذى ذكر فى السورة السابقة أنه الفطرة التى فطر الناس عليها ، وهذا هو وجه المناسبة فى ذكر هذه السورة بعدها

إعلان النبي بالدعوة
الآيات (١ — ١٩)

قال الله تعالى (إقرأ باسم ربِّكَ الذِى خلقَ) فأمره أولا أن يقرأ ما أوحى إليه من دعوة التوحيد ليتعلمها ، ثم أمره ثانيا أن يقرأها ليبلغها الناس ، وذكر من صفاته فى الأول أنه خالق الإنسان من علق ، وفى الثانى أنه هو الأكرم الذى كان من أهم نعمته عليه تعليمه القراءة والكتابة ، ليهذب نفسه ويعلمه ما لم يعلم ، ثم سجَّل عليه أنه لم يقابل نعمه بالشكر ، بل أطغاه الغنى وأبطره ، وهدده بأن إليه الرُّجعى ليعاقبه على طغيانه ، ثم ذكر من طغيانه أنه ينهى عن الصلاة إليه ، وأنه يكذب ويعرض عن دعوته ، ثم هدده بأنه سيأخذ بناصيته إلى النار ، وأمره أن يدعو حينئذ أعوانه لنصرته ، وأين هم من الزَّبانية التى سيدعوها لعذابه ، ثم ختم السورة بنهى النبي صلى الله عليه وسلم عن طاعة هذا الإنسان ، وأمره بالمضى فى دعوته فقال (كلاَّ لا تطعْهُ واسجدْ واقتربْ)

سورة القدر

تاريخ نزولها ووجه تسميتها :

نزلت سورة القدْر بعد سورة عبس ، وقد نزلت سورة عبس فيما بين الهجرة إلى الحبشة والإسراء ، فيكون نزول سورة القدر فى ذلك التاريخ أيضاً .

وقد سُميت هذه السورة بهذا الاسم لقوله تعالى فى أولها (إنا أنزلناهُ فى ليلة القدْرِ) وتبلغ آياتها خمس آيات .

الغرض منها وترتيبها :

يقصد من هذه السورة بيان فضل الليلة التى أنزل فيها القرآن ، وهذا للتنويه بشأنه فى اختيار تلك الليلة لنزوله ، ولا تخفى مناسبة هذا لذكر إبتداء نزوله فى سورة العلق ، ولهذا ذكرت بعدها هذه السورة .

فضل ليلة نزول القرآن

الآيات (١ — ٥)

قال الله تعالى (إنَّا أنزلناهُ فى ليلةِ القَدْر) فذكر أنه أنزله فى هذه الليلة ، وذكر أنها خير من ألف شهر ، وأن الملائكة وجبريل تتنزل فيها بما قدِّر من خير أو شر فى سنتها ، ثم ختمها بقوله (سلامٌ هىَ حتى مطلعِ الفجرِ) .

سورة البينة

تاريخ نزولها ووجه تسميتها :

نزلت سورة البَيِّنة بعد سورة الطلاق ، وقد نزلت سورة الطلاق فيما بين صلح الحديبية وغزوة تَبوك ، فيكون نزول سورة البينة فى ذلك التاريخ أيضا

وقد سُمِّيت هذه السورة بهذا الاسم لقوله تعالى فى أولها (لمْ يكنِ الذينَ كفروا منْ أهلِ الكتابِ والمشركين منفكّينَ حتى تأتيهُم البيِّنةُ) وتبلغ آياتها ثمانى آيات

الغرض منها وترتيبها :

يقصد من هذه السورة بيان فضل القرآن ، وقد كانت السورة السابقة فى بيان فضل الليلة التى أنزل فيها ، فجاءت هذه السورة بعدها لبيان فضله فى نفسه

بيان فضل القرآن

الآيات (١ — ٨)

قال الله تعالى (لمْ يكنِ الَّذينَ كفرُوا من أهلِ الكتابِ والمشركينَ منفكّينَ حتَّى تأتيهمُ البيِّنةُ) فذكر أن أهل الكتاب والمشركين لم يكونوا منفكين عما هم عليه حتى تأتيهم البينة على فساده ، وأن هذه البينة قد جاءهم بها رسول يتلوها عليهم ، وهى صحف مطهَّرة فيها سُوَرقيِّمةٌ ، وأن أهل الكتاب لم يختلفوا فى أمرها إلا بعد أن قامت الحُجَّة بها عليهم ، لأنهم لم يؤمروا فيها إلا بإخلاص العبادة له وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، وذلك هو الدين القيِّم الذى بعث الأنبياء به ، ثم أخذ فى الترهيب والترغيب فذكر أن أولئك الكافرين فى نار جهنم وأنهم شر البريَّة ، وأن المؤمنين خير البرية (جزاؤهمْ عندَ ربهمْ جنات عَدْنٍ تجرى مِنْ تحتها الأنهارُ خالدينَ فيها أبدًا رضىَ اللهُ عنهمْ ورضُوا عنهُ ذلكَ لِمَنْ خشىَ ربَّهُ)

سورة الزلزلة

تاريخ نزولها ووجه تسميتها :

نزلت سورة الزَّلْزَلة بعد سورة النساء ، وقد نزلت سورة النساء فيما بين صلح الحُدَيْبِية وغزوة تَبُوكَ ، فيكون نزول سورة الزلزلة فى ذلك التاريخ أيضا .
وقد سُمِّيت هذه السورة بهذا الاسم لقوله تعالى فى أولها (إذا زُلْزِلَتِ الأرضُ زِلْزالَهَا) وتبلغ آياتها ثمانى آيات .

الغرض منها وترتيبها :

يقصد من هذه السورة الترغيب فى الخير والتحذير من الشر ، وهذا يناسب ماختمت به السورة السابقة من أن الكافرين هم شر البرِيَّة ، والمؤمنون هم خير البرية ، فجاءت هذه السورة بعدها للترغيب فى طريق المؤمنين من الخير ، والتحذير من طريق الكافرين من الشر .

الترغيب فى الخير والتحذير من الشر
الآيات (١ — ٨)

قال الله تعالى (إذا زُلْزِلَتِ الأرضُ زِلْزالَهَا — الآيات) فذكر أنه إذا حصل زلزال الأرض وإخراجها دفائنها وسأل الإنسان عن حالها أجابته بأنه أوحى لها بهذا لتؤذن بقيام الآخرة ، فيصدر الناس أشتاتا لِيُرَوا أعمالهم (فَمَنْ يعملْ مثقالَ ذَرَّةٍ خيرًا يَرَه ، ومَنْ يعملْ مثقالَ ذرةٍ شرًّا يرهُ)

سورة العاديات

تاريخ نزولها ووجه تسميتها :

نزلت سورة العاديات بعد سورة العصر ، وقد نزلت سورة العصر بعد سورة الشَّرْح ، ونزلت سورة الشرح فيما بين ابتداء الوحى والهجرة لى الحبشة ، فيكون نزول سورة العاديات فى ذلك التاريخ أيضا .

وقد سميت هذه السورة بهذا الاسم لقوله تعالى فى أولها (والعادياتِ ضَبْحاً) وتبلغ آياتها إحدى عشرة آية .

الغرض منها وترتيبها :

يقصد من هذه السورة بيان ميل الإنسان إلى الشر ، وتحذيره من عقابه يوم الحشر ، وهذا فيه مناسبة للغرض المقصود من سورة الزَّلْزَلة ، ولهذا ذكرت هذه السورة بعدها .

ميل الإنسان إلى الشر

الآيات (١ — ١١)

قال الله تعالى (والعادياتِ ضَبْحاً) الآيات إلى قوله (إنَّ الإنسانَ لِرَبِّه لَكَنُودٌ) فأقسم بالعاديات وما ذكر بعدها على أن الإنسان من طبعه الامتناع عن الخير ، وأنه يشهد بذلك على نفسه ، وأنه أيضاً شديد الحب للمال ، فلا ينفق منه فى الخير ، ثم هدده بأنه يعلم ذلك إذا بعثه من قبره فيعاقبه عليه ، وختمها بقوله (إن ربهم بهم يومئذٍ لخبيرٌ)

سورة القارعة

تاريخ نزولها ووجه تسميتها.

نزلت سورة القارعة بعد سورة قُرَيش ، وقد نزلت سورة قريش بعد سورة التين ، ونزلت سورة التين فيما بين الهجرة إلى الحبشة والإسراء ، فيكون نزول سورة القارعة فى ذلك التاريخ أيضاً .

وقد سُمِّيت هذه السورة بهذا الاسم لقوله تعالى فى أولها (القارعةُ ، ما القارعةُ) وتبلغ آياتها إحدى عشرة آية .

الغرض منها وترتيبها :

يقصد من هذه السورة إثبات وزن الأعمال يوم القيامة، فهى فى سياق الترغيب والترهيب كسورة العاديات، ولهذا ذكرت بعدها .

وزن الأعمال يوم القيامة

الآيات (١ — ١١)

قال الله تعالى (القارعةُ ، ما القارعةُ — الآيات) فذكر أن القارعة هى القارعة، لأنها تفوق كل القوارع فى الهول والشدة ، وأنها تكون يوم ينتشر الناس بعد البعث من القبور ، فيجمعون لوزن أعمالهم ، فمن ثقلت موازينه فهو فى عيشة راضية، ومن خفت موازينه فأمه هاوية (وما أدراك ما هيهْ ، نارٌ حامية)

سورة التكاثر

تاريخ نزولها ووجه تسميتها :

نزلت سورة التَّكاثُرُ بعد سورة الكوثر ، وقد نزلت سورة الكوثر بعد سورة العاديات ، ونزلت سورة العاديات فيما بين إبتداء الوحى والهجرة إلى الحبشة ، نزول سورة التكاثر فى ذلك التاريخ أيضاً .

وقد سُميت هذه السورة بهذا الاسم لقوله تعالى فى أولها (ألهاكُمُ التَّكاثُرُ) وتبلغ آياتها ثمانى آيات .

الغرض منها وترتيبها :

يقصد من هذه السورة تحريم التفاخر بالأموال والأولاد ، وبيان أنه هو الذى ألهى قريشاً عن قبول الدعوة ، وبهذا تكون هذه السورة فى سياق الترهيب ، وهو من سياق السورة السابقة ، وهذا هو وجه المناسبة فى ذكر هذه السورة بعدها .

تحريم التفاخر

الآيات (١ — ٨)

قال الله تعالى (ألهاكُمُ التَّكاثُرُ ، حتّىٰ زرتمُ المقابرَ) فوبخهم على إلهاء التفاخر بالأموال والأولاد لهم عن قبول الدعوة ، ثم هددهم بأنهم سوف يعلمون ما يعاقبون به ، وذكر أنهم لو يعلمون ذلك يقينا لرأوه الجحيم ، ثم هددهم بأنهم سيرونها عين اليقين (ثمَّ لتسألنَّ يومئذٍ عنِ النعيمِ) .

سورة العصر

تاريخ نزولها ووجه تسميتها :

نزلت سورة العصر بعد سورة الشرح ، وقد نزلت سورة الشرح فيما بين إبتداء الوحي والهجرة إلى الحبشة ، فيكون نزول سورة العصر فى ذلك التاريخ أيضاً .

وقد سميت هذه السورة بهذا الاسم لقوله تعالى فى أولها (والعصر ، إنّ الإنسان لفى خسر) وتبلغ آياتها ثلاث آيات .

الغرض منها وترتيبها :

يقصد من هذه السورة الترغيب فى العمل الصالح ، وقد أتى هذا فى مقابلة ما كان منهم من التفاخر بالأموال والأولاد ، ولهذا ذكرت سورة العصر بعد سورة التكاثر .

الترغيب فى العمل الصالح

الآيات (١ — ٣)

قال الله تعالى (والعصرِ إنّ الإنسانَ لَفى خُسرٍ) فأقسم بالعصر على أن الإنسان لفى خسر ، والمراد بالعصر الدهر أو الليل والنهار أو وقت العصر أو صلاته ، ثم استثنى من ذلك الحكم على الإنسان (الذينَ آمنوا وعملُوا الصالحاتِ وتواصوْا بالحقّ وتواصوْا بالصبر) .

سورة الهمزة

تاريخ نزولها ووجه تسميتها :

نزلت سورة الهُمَزَة بعد سورة القيامة ، وقد نزلت سورة القيامة فيما بين الهجرة إلى الحبشة والإسراء ، فيكون نزول سورة الهمزة فى ذلك التاريخ أيضا .

وقد سُميت هذه السورة بهذا الاسم لقوله تعالى فى أولها (وَيلٌ لكلِّ هُمزَة لمزَةٍ) وتبلغ آياتها تسع آيات .

الغرض منها وترتيبها :

يقصد من هذه السورة تحريم الاغترار بالمال وما يجره من تنقيص الناس ، وهى فى هذا تشبه سياق السورتين المذكورتين قبلها ، ولهذا ذكرت بعد السورة السابقة ، لمناسبتها لها فى سياقها .

تحريم الاغترار بالمال

الآيات (١ — ٩)

قال الله تعالى (وَيلٌ لكلِّ هُمزة لمزةٍ) فذكر أن الويل لكل عياب فى الناس بأفعاله أو أقواله ، لأنه جمع من المال مالم يجمعه غيره فتعالى به عليه ، ثم هدده بالنَّبذ أى الطرح فى الحطمة ، وذكر أنها ناره الموقدة ، وأنها تطلع على الأفئدة أى يبلغ ألمها إليها ، وأنها عليهم مؤصدة أى مطبقة مغلقة (فى عمَدٍ ممددَّة) .

سورة الفيل

تاريخ نزولها ووجه تسميتها :

نزلت سورة الفيل بعد سورة الكافرون ، ونزلت سورة الكافرون بعد سورة الماعون ، ونزلت سورة الماعون بعد سورة التّكاثر ، وكان نزول سورة التكاثر فيما بين إبتداء الوحى والهجرة إلى الحبشة ، فيكون نزول سورة الفيل فى ذلك التاريخ أيضا .

وقد سُميت هذه السورة بهذا الاسم لورودها فى قصة أصحاب الفيل ، وتبلغ آياتها خمس آيات .

الغرض منها وترتيبها :

يقصد من هذه السورة بيان قصة أصحاب الفيل من الحبشة مع قريش فى مكة ، لتكون عظة لمن يغتر بماله وقوته من قريش ، وبهذا تظهر المناسبة بين هذه السورة والسورة السابقة .

قصة أصحاب الفيل

(١ — ٥)

قال الله تعالى (ألم ترَ كيفَ فعلَ ربُّكَ بأصحاب الفيلِ) فذكر مافعله بأصحاب الفيل حين أقبلوا لتخريب الكعبة مغترين بقوتهم وضعف أهلها ، وأنه أرسل عليهم طيرا أبابيل أى كثيرة متفرقة يتبع بعضها بعضا ، وأنها كانت ترميهم بحجارة من سِجِّيل أي طين مطبوخ كما يطبخ الآجُرّ (فجعلهم كعصفٍ مأكولٍ)

سورة قريش

تاريخ نزولها ووجه تسميتها :

نزلت سورة قريش بعد سورة التين ، وقد نزلت سورة التين فيما بين الهجرة إلى الحبشة والإسراء ، فيكون نزول سورة قريش فى ذلك التاريخ أيضا

وقد سميت هذه السورة بهذا الاسم لقوله تعالى فى أولها (لإيلافِ قريشٍ) وتبلغ آياتها اربع آيات

الغرض منها وترتيبها :

يقصد من هذه السورة الامتنان على قريش برحلة الشتاء والصيف للتجارة، وقد جعلوا ما جمعوا بها من المال سبب بطر، فلم يقوموا لله بحقه عليهم فيها ، وبهذا يتصل سياق هذه السورة بسياق ما قبلها من السور ، وتظهر المناسبة فى ذكرها بعد سورة الفيل، وهذا إلى أنها تتعلق بقريش أيضا

الامتنان على قريش برحلة الشتاء والصيف

الآيات (١ — ٤)

قال الله تعالى (لِإيلافِ قريشٍ) فامتنَّ عليهم بإيلافهم رحلة الشتاء والصيف، وكانت رحلة الشتاء إلى اليمن ، ورحلة الصيف إلى الشام ، ثم أمرهم أن يعبدوا ربَّ هذا البيت أى الكعبة (الذى أطعمهم مِنْ جوع وآمنهمْ من خوفٍ)

سورة الماعون

تاريخ نزولها ووجه تسميتها :

نزلت سورة الماعون بعد سورة التكاثر ، وقد نزلت سورة التكاثر فيما بين ابتداء الوحى والهجرة إلى الحبشة ، فيكون نزول سورة الماعون فى ذلك التاريخ أيضاً .

وقد سميت هذه السورة بهذا الاسم لقوله تعالى فى آخرها (ويمنعونَ الماعونَ) والماعون هو الزكاة ، وقيل العارية ، وقيل ما لا يحل منعه مثل الماء والملح والنار وأشباه ذلك ، وتبلغ آياتها سبع آيات

الغرض منها وترتيبها :

يقصد من هذه السورة ذم البخل بالمال ، وبيان أنه لا فائدة معه فى الصلاة ، وبهذا تشبه هذه السورة ما قبلها من السور فى سياقها ، وهذا هو وجه ذكرها بعد سورة قريش

ذم البخل بالمال

الآيات (١ — ٧)

قال الله تعالى (أرأيتَ الذى يكذِّبُ بالدِّينِ) فسأل بهذا عن الذى يكذب بالدين ، وأجاب بأنه الذى يَدُعُّ اليتيم أى يدفعه بعنف وجفوة عن حقه ، أو يترك مواساته ، ولا يحضُّ على طعام المسكين ، ثم هدد من يصلى مع هذا الإثم ، وذكر أنهم بصلاتهم يُرَاءُون (ويمنعونَ الماعونَ)

سورة الكوثر

تاريخ نزولها ووجه تسميتها :

نزلت سورة الكوثر بعد سورة العاديات ، وقد نزلت سورة العاديات فيما بين ابتداء الوحى والهجرة إلى الحبشة ، فيكون نزول سورة الكوثر فى ذلك التاريخ أيضاً

وقد سميت هذه السورة بهذا الاسم لقو تعالى فى أولها (إنَّا أعطيناكَ الكوثرَ) وتبلغ آياتها ثلاث آيات

الغرض منها وترتيبها :

يقصد من هذه السورة تفضيل أمر الدين على المال والولد ، وقد فضل فى هذه السورة ما أعطيه النبي صلى الله عليه وسلم من ذلك على المال والولد الذى كانت تتفاخر قريش به وتحرص عليه ، ولهذا أمره بعد الامتنان عليه بذلك بالصلاة شكرا عليه ، وببذل المال الذى أعطى أفضل منه ، فالمناسبة بين هذه السورة وسورة قريش ما بينهما من هذه المقابلة ، وقد ذكرت بينهما سورة الماعون للمناسبة السابقة .

تفضيل الدين على المال والولد

الآيات (١ — ٣)

قال الله تعالى (إنّا أعطيناكَ الكوثرَ) فامتنّ على النبي صلى الله عليه وسلم بأنه أعطاه الكوثر ، وهو الدين الكثير النفع ، ثم أمره أن يصلى له شكرا عليه وينحر للفقراء ، حتى لا يكون مثل من يصلى ويمنع الماعون فى السورة السابقة ، ثم ختم السورة ببيان أن ما أعطيه من ذلك يخلد له من الذكر ما لا يخلده المال ، الولد الذي كانت قريش تقول عن النبي إنه أبتر بسببه فقال (إنَّ شانئكَ هُوَ الأبترُ)

سورة الكافرون

تاريخ نزولها ووجه تسميتها :

نزلت سورة الكافرون بعد سورة الماعون، وقد نزلت سورة الماعون فيما بين ابتداء الوحي والهجرة إلى الحبشة ، فيكون نزول سورة الكافرون فى ذلك التاريخ أيضاً . وكان رهط من قريش ذهبوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا له : يا محمد ، هَلُمَّ اتبع ديننا ونتبع دينك . فنزلت هذه السورة فى شأنهم .

وقد سُميت هذه السورة بهذا الاسم لقوله تعالى فى أولها (قل يأيُّها الكافرونَ ، لا أعبدُ ما تعبدونَ) وتبلغ آياتها ست آيات .

الغرض منها وترتيبها :

يقصد من هذه السورة متاركة الكفار بعد أن ذهبت السور السابقة فى دعوتهم كل مذهب ، فهى كالختام للسور التى ذكرت قبلها ، وهذا هو وجه المناسبة فى ذكرها بعدها

متاركة الكفار

الآيات (١ — ٦)

قال الله تعالى (قل يأيُّها الكافرونَ ، لا أعبدُ ما تعبدونَ) فأمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يخبرهم بأنه لا يعبد ما يعبدون ، وأنهم لا يعبدون ما يعبد ، وكرر هذا مرة ثانية توكيداً له ، ثم ختمه بقوله (لكم دينكم ولىَ دينِ) .

سورة النصر

تاريخ نزولها ووجه تسميتها :

نزلت سورة النصر بعد سورة التوبة ، وهى آخر ما نزل من القرآن بالمدينة ، وكان نزولها فى حجة الوداع بمنىً ، فيكون نزولها فى السنة العاشرة من الهجرة . وكان هذا بعد أن أتم النبي صلى الله عليه وسلم دعوته ، وأخذ النـاس يدخلون أفواجا فى دينه .

وقد سُمِّيت هذه السورة بهذا الاسم لقوله تعالى فى أولها (إذا جاءَ نصر الله والفتحُ) وتبلغ آياتها ثلاث آيات .

الغرض منها وترتيبها :

يقصد من هذه السورة الوعد بالنصر ونشر الدين فى الناس بعد متاركة أولئك الـكفار فى السورة السابقة ، وهذا هو وجه المناسبة فى ذكر هذه السورة بعدها

الوعد بالنصر ونشر الدين

الآيات (١ — ٣)

قال الله تعالى (إذا جاءَ نصرُ اللهِ والفتح ــ الآيات) فوعد النبي صلى الله عليه وسلم بالنصر والفتح ونشر الدين فى الناس ، وأمره بتسبيحه واستغفاره شكرا له على ذلك ، واستجلابا لعفوه عما يكون قد حصل منه ، وختم ذلك بقوله (إنَّه كانَ توَّاباً)

سورة المسد

تاريخ نزولها ووجه تسميتها :

نزلت سورة المسد بعد سورة الفاتحة، وقد نزلت سورة الفاتحة فيما بين إبتداء الوحي والهجرة إلى الحبشة ، فيكون نزول سورة المسد فى ذلك التاريخ أيضا .

وقد سمّيت هذه السورة بهذا الاسم لقوله تعالى فى آخرها (فى جِيدها حبلٌ مِن مَسدٍ) وتبلغ آياتها خمس آيات .

الغرض منها وترتيبها :

يقصد من هذه السورة إنذار الكافر بالهلاك بعد وعد المؤمنين بالنصر فى السورة السابقة ، وهذا هو وجه المناسبة فى ذكر هذه السورة بعدها .

إنذار الكافر بالهلاك

الآيات (١ — ٥)

قال الله تعالى (تبّتْ يدا أبي لهَب) فأنذر أبا لهب بهلاك ماله ونفسه ، والمراد منه كل كافر ألهاه ماله عن الاستجابة للنبي صلى الله عليه وسلم ، ثم ذكر أن ماله لايدفع عنه شيئا مما أوعِد به ، وأنه سيصلى ناراً فى الآخرة بعد هلاكه ، وأن امرأته ستكون حمّالة حطب جهنم (فى جِيدها حبلٌ مِن مسدٍ)

سورة الاخلاص

تاريخ نزولها ووجه تسميتها :

نزلت سورة الإخلاص بعد سورة الناس ، وقد نزلت سورة الناس بعد سورة الفلق ، ونزلت سورة الفلق بعد سورة الفيل ، وكان نزول سورة الفيل فيما بين ابتداء الوحي والهجرة إلى الحبشة ، فيكون نزول سورة الإخلاص في ذلك التاريخ أيضا

وقد سُمِّيت هذه السورة بهذا الاسم لما فيها من طلب إخلاص الدين لله تعالى ، وتبلغ آياتها أربع آيات

الغرض منها وترتيبها :

يقصد من هذه السورة إخلاص الدين لله بعد ما وعد من نصر المؤمنين وهلاك الكافرين ، وهذا هو وجه المناسبة في ذكر سورة الإخلاص بعد سورتي النصر والمسد

طلب إخلاص الدين لله

الآيات (١ — ٤)

قال الله تعالى (قُلْ هُوَ اللهُ أحدٌ) فأمر نبيه صلى الله عليه وسلم بأن يخلص الدين له ، فيعلن في الناس أنه واحد في ذاته ، صمد لا يشبهه أحد من خلقه (لمْ يلدْ ولم يولَدْ ، ولم يكنْ له كفواً أحدٌ)

سورة الفلق

تاريخ نزولها ووجه تسميتها :

نزلت سورة الفَلق بعد سورة الفيل ، وقد نزلت سورت الفيل فيما بين ابتداء الوحي والهجرة إلى الحبشة ، فيكون نزول سورة الفلق فى ذلك التاريخ أيضا

وقد سميت هذه السورة بهذا الاسم لقوله تعالى فى أولها (قلْ أعوذُ بربِّ الفَلق) والفلق الصبح لأن الليل ينفلق عنه ، وتبلغ آياتها خمس آيات .

الغرض منها وترتيبها :

يقصد من هذه السورة تخصيص الله بالاستعاذة من شر الخلق ، وهذا يدخل فيما سيقت له سورة الإخلاص من إخلاص الدين لله تعالى ، وبهذا يدخل سياق هذه السورة فى سياقها ، ويكون ذكرها بعدها لهذه المناسبة

تخصيص الله بالاستعاذة من شر الخلق

الآيات (١ — ٥)

قال الله تعالى (قلْ أعوذُ بربِّ الفلق) فأمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يخصه بالاستعاذة من شر ما خلق ، وخص من هذا ثلاثة أشياء : الليل إذا أقبل، والسواحر اللاتى ينفثن فى عقد الخيط عند الرُّقية ، والحاسد الذى يتمنى زوال نعمة غيره، فقال (ومِنْ شرِّ غاسقٍ إذا وقَبَ ، ومن شر النفَّاثاتِ فى العُقدِ ، ومن شر حاسدٍ إذا حسَدَ) .

سورة الناس

تاريخ نزولها ووجه تسميتها :

نزلت سورة الناس بعد سورة الفلق ، وقد نزلت سورة الفلق فيما بين ابتداء الوحى والهجرة إلى الحبشة ، فيكون نزول سورة الناس فى ذلك التاريخ أيضا

وقد سميت هذه السورة بهذا الاسم لقوله تعالى فى أولها (قُلْ أعوذُ بربِّ النَّاسِ) وتبلغ آياتها ست آيات

الغرض منها وترتيبها :

يقصد من هذه السورة تخصيص الله بالاستعاذة أيضا ، وقد كانت السورة السابقة فى تخصيصه بالاستعاذة من الشر البدنى كالمرض ونحوه ، وهو يكون من الناس بعضهم لبعض ، وهذه السورة فى تخصيصه بالاستعاذة من شر الإغواء على المعاصى ، وهو يكون من شياطين الجن والإنس ، وهذا هو وجه المناسبة فى ذكرها بعد السورة السابقة ، وقد افتتح القرآن بحمده تعالى فى سورة الفاتحة ، وختم بالاستعاذة به فى هاتين السورتين ، والحمد يناسب الابتداء ، والاستعاذة تناسب الختام

تخصيص الله بالاستعاذة من شر الإغواء

الآيات (١ — ٦)

قال الله تعالى (قُلْ أعوذُ بربِّ النَّاسِ) فأمر النبى صلى الله عليه وسلم أن يخصه بالاستعاذة من شر الوسْواس الخنَّاس أى الذى يتأخر عن الوسوسة ثم يرجع إليها مرة بعد مرة ، وهو الذى يُوَسْوِس فى صدور النـاس (مِنَ الجِنَّةِ والناسِ)

المصحف المبوب

سيكون من ثمرة كتابي (النظم الفنى فى القرآن) ظهور المصحف المبوّب ، وسيكون ظهوره تجديداً عظيماً فى ترتيب هذا المصحف ، وقد آن لمثل هذا العمل أن يظهر فى المصحف بعد أن مضت عليه مئات من السنين لا يظهر فيه ترتيب جديد ، بل يقف عند حد الشكل الذى انتهى إليه فى أواسط القرن الأول الهجرى ، وقد مرت عليه فى ذلك الزمن القصير تجديدات تغير بها شكله من حال إلى حال ، وإن كان متنه من القرآن الكريم لم يطرأ عليه شىء من التغيير والتبديل ، لأن متن القرآن لا يتبدل ولا يتغير ، وحاشا له أن يصيبه من ذلك ما أصاب الكتب المنزلة قبله ، لأن الله قد وعد بحفظه فى قوله فى الآية — ٩ — من سورة الحِجْر (إنّا نحنُ نزّلنا الذكرَ وإنا لهَ لحافظون) ووعده حق لا خلف فيه ، لأن كل شىء فى الكون لا يحصل إلا بمشيئته وقدرته ، وإنما كانت تلك التجديدات فى ترتيب شكل المصحف ، وقد استجاب بها سلفنا الصالح للدواعى التى اقتضتها ، ولم يقفوا جامدين أمام تلك الدواعى ، كما وقف الجامدون من خَلَفهم أمام دواعى زمنهم ، فوقف ترتيب المصحف عند ذلك الحد فى ذلك الزمن الطويل ، ولم يحدث فيه من التجديدات مثل ما حدث فى ذلك الزمن القصير .

لقد مات النبي صلى الله عليه وسلم والقرآن غير مجموع فى موضع واحد ، ولم يكن مرتب السور على الشكل الذى نراه الآن ، بل كان مفرقا فى صدور الرجال وفيما كتب منه على العُسُبِ واللخاف ونحوها ، ولم يكن لذلك اسم المصحف الذى سمى به بعد جمعه ، وقد قال الخطابى فى سبب ذلك : إنما لم يجمع صلى الله عليه وسلم القرآن فى المصحف لما كان يترقبه من ورودنا سخ لبعض أحكامه أو تلاوته فلما كانت وقعة اليمامة فى خلافة أبى بكر أتاه عمر فقال له : إن القتل قد استحرَّ

يوم اليمامة بقراء القرآن ، وإنى أخشى أن يستحر القتل بالقراء فى المواطن فيذهب كثير من القرآن ، وإنى أرى أن تأمر بجمع القرآن . فقال له أبو بكر : كيف نفعل شيئا لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال عمر : هو والله خير . ولم يزل يراجعه حتى شرح الله صدره لذلك ، وأحضر زيد بن ثابت فقال له : إنك شاب عاقل لا نتهمك ، وقد كنت تكتب الوحى لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتتبع القرآن اجمعه . فتتبعه زيد يجمعه من العسب واللخاف وصدور الرجال فى صحف ، وأخذ الصحف التى جمعها فأعطاها أبا بكر ، فكانت عنده حتى توفاه الله ، ثم عند عمر حياته ، ثم عند حفصة بنت عمر ، وقد ائتمروا ما يسمون ذلك ؟ فقال بعضهم : سموه السفر ، فرد عليه بأن هذا تسميه اليهود ، فكرهوه ، وقال بعضهم : رأيت مثله بالحبشة يسمى المصحف . فاجتمع رأيهم على أن يسموه المصحف ، وكان هذا أول تجديد فى ترتيب المصحف وتسميته .

ثم اختلف الناس فى قراءة القرآن على عهد عثمان ، حتى اقتتل الغلمان والمعلمون بالمدينة ، وكانوا قد قرؤوه بلغاتهم على اتساعها ، فبلغ ذلك عثمان فجمعهم وقال لهم : عندى تكذبون به وتلحنون فيه ! فمن نأى عنى كان أشد تكذيبا وأكثر لحنا ، يا أصحاب محمد ، اجتمعوا فاكتبوا للناس إماما . فجمعوا اثنى عشر رجلا من قريش والأنصار ، فبعثوا إلى الصحف التى كانت فى بيت عمر فجىء بها ، وأعادوا كتابتها على لغة قريش وحدها ، لأن القرآن نزل بلغتهم ، ثم وسع فى قراءته بلغة غيرهم رفعاً للحرج والمشقة فى إبتداء الأمر ، فلما حصل ذلك الخلاف رؤى أن الحاجة إلى تلك التوسعة قد زالت ، فاقتصر فى كتابته على لغة واحدة ، وكان هذا ثانى تجديد فى كتابة المصحف .

ثم فسد اللسان العربى باختلاط العرب بغيرهم بعد الإسلام ، وظهر اللحن والتحريف فى الألسنة وفى قراءة القرآن ، لأنهم كانوا يكتبون بلا إعجام ولا شكل إلا قليلا ، اعتمادا منهم على معرفة المكتوب إليهم باللغة ، واكتفائهم بالرمز القليل

فى قراءة اللفظ ، فلما ظهر ذلك الفساد أشفق المسلمون على تحريف ألفاظ القرآن ، فوضع أبو الأسود الدُّؤَلىُّ من التابعين علامات فى المصحف بصبغ مخالف لما يكتب به ، فجعل علامة الفتحة نقطة فوق الحرف ، وجعل علامة الكسرة نقطة أسفله ، وجعل علامة الضمة نقطة من الجهة اليسرى ، وجعل التنوين نقطتين ، وكان ذلك فى عهد معاوية ، فكان ثالث تجديد فى كتابة المصحف

ثم وضع نصر بن عاصم ويحيى بن يَعْمَر نَقْط الإعجام بنفس المداد الذى كان المصحف يكتب به ، لتتميز الحروف المتشابهة بعضها عن بعض ، وكانا تلميذين لأبى الأسود الدؤلى ، وقد فعلا هذا بأمر الحجاج بن يوسف الثقفى ، وفى عهد عبد الملك بن مروان ، فكان رابع تجديد فى كتابة المصحف

ثم اخترع الخليل بن أحمد الشكل المستعمل الآن ، لأن نقط الإعجام كانت تشتبه بنقط الشكل ، وكان من الصعب وضياع الزمن كتابتها بمدادين ، فجعل الضمة واوا صغيرة تكتب فوق الحرف ، وجعل الفتحة ألفا ، وجعل الكسرة ياء ، وجعل الشدة رأس شين ، وجعل السكون رأس خاء ، وجعل همزة القطع رأس عين ، ثم اختزل ذلك وزيد عليه حتى صار إلى الشكل المعروف الآن ، فكان هذا خامس تجديد فى كتابة المصحف

ثم وقفت كتابة المصحف عند هذا الحد ، إلا ما حصل من كتابتهم بهامشه بيان أجزائه الثلاثين وأحزابه الستين وأرباعها ، وهو عمل قليل النفع ، ضعيف الفائدة ، يجب أن يعدل عنه إلى شغل الهامش ببيان الأقسام التى تنقسم إليها السور من حيث أغراضها ، ليعرف قارىء القرآن الغرض المقصود من كل سورة من سور القرآن ، ويعرف حدود أقسامها فى ذلك الغرض ، فتنقسم السور بهذا إلى أقسام مرتبة متميزة ، وتبوَّب به كما تبوَّب الكتب الوضعية ، وتظهر للناس مُتسقة المعانى ، منتظمة المبانى ، فلا يظن ظانٌّ أنه ينقصها شىء من اتساق معانيها وانتظام مبانيها ، وهذا إلى مافى ذلك من لفت القارىء إلى فهم ما يقرأ ، فيقضى به على

ما اعتاده الناس من قراءة القرآن بغير فهم ، وهى قراءة لا تفيد الناس شيئا ، ولا توافق ما أنزل القرآن من أجله وهو الهداية ، وقد آن لنا أن نقضى على هذه العادة السيئة ليحدث القرآن أثره فينا ، ونستفيد بقراءته كما كان يستفيد بها سلفنا

وهذا هو المصحف المبوَّب الذى سيكون تجديدا عظيما فى تاريخ المصاحف ، ويبرزها فى نظم فنى يدعو إليه ماقام قديما من المحاولات المتواصلة فى ربط الآيات، حتى يظهر بها تناسق معانيها وانتظام مبانيها ، كما يدعو إليه ما يقوم الآن به بعض علماء أوروبَّا من الطعن فى نظم القرآن ، وادعاء أنه غير متسق المعانى ، ولا منتظم المبانى ، فيجب أن نستجيب إلى هذا الداعى بتبويب السور القرآنية على نحو ماجاء فى كتابى (النظم الفنى فى القرآن) كما استجاب سلفنا الصالح إلى كل ما جدّ من الدواعى فى عصرهم ، فلم يتركوا القرآن مفرقا على ما كان عليه فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم ، ولم يتركوه على ما كان عليه من غير شكل وإعجام ، بل قاموا بجمعه فى مصحف واحد ، وقاموا بشكله وإعجامه ، وسنُّوا لنا سُنَّة صالحة فى تجديد المصاحف كلما دعا داع إلى تجديدها

فلنترك ذلك الجمود الذى وقف بنا عن مسايرة الزمن ، وتأخر بنا أجيالا طويلة من أجياله ، حتى صرنا لا نعد من جيله الحاضر ، ولا نحسب بين أهله إلا على سبيل التجوز والتساهل

ولنسر فى التجديد بخطى واسعة ، حتى نتدارك من ذلك مافاتنا ، ونساير الزمن الذى نعيش فيه ، ونحيا بين أهله ، ولنا فى سلفنا الأول تلك الأسوة الحسنة ، وتلك السُّنة الصالحة ؟

فهرس الكتاب

ص

ص

تصحيح

ص	س	صواب
٣	٨	دوزي
٥	٤	متسقة
١٢	٢٠	الأحقاف
٥٢	٧	تهتد
٥٨	٢٢	فإذا
٦٩	١٨	تعملون
٧٧	١١	يؤتوا
٩٠	١٩	أحلوا
٩١	١٤	عليكم ـ نعمته
٩٩	١٦	والنورَ
١٠١	٨	إلا
١٠٣	٢٠	يدعو
١١٢	١٦	دسما
١٢٣	٩	ويضربوا

ص	س	صواب
١٣٠	٢	عزير
١٣٠	٥	ليسوغ
١٤٩	٦	أن ينتظروه
١٦٠	٢	جاءه
١٩٨	٩	من الأمم
١٩٨	١٤	قد أتاهم
٢٨٨	١٤	المرة
٣٠٤	٩	ومتاعا
٣١٠	١٤	من تضحية
٣١٢	٨	إذ
٣١٢	١٧	فإن
٣٣٧	٢٢	عذابا
٣٦٨	٢٠،١٠	المال والولد